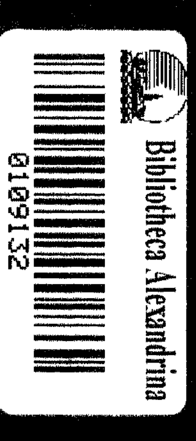

Bibliotheca Alexandrina
0109132










فيصل عيسى البابي الحلبي
مطبعة
دار إحياء الكتب العربية

إهداء الكتاب

بكل خضوع وخشوع ، أقدم كتابى هـذا إلى سيدنا محمـد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إلى من أنزل عليه القُرْقان ونشر لواء الإسلام وقضى على الشرك وعبادة الأصنام ، وعلّم الخلق كيف يعملون لدنياهم الفانية وآخرتهم الباقية .

إلى نور الهدى الذى بلغ من حُسن الخُلُق ورُجحان العقل وثبات العقيدة ، غايةً ليس وراءها مُطَّلَعٌ لناظر ، ولا نهاية لمستزيد ، ولا فوقها مُرْتَقًى لهمَّة . من أثنى عليه ربُّ العالمين فقال : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

هـذه يارسول الله سيرتك الطاهرة العاطرة ، أرجو أن تنال عَطفك وتحظى برضاك . فإنى لم أرِدْ غيرَ وجه الله الكريم والتبركَ برسوله الأمين . وخدمةَ المسلمين أجمعين .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة
كتاب «محمد رسول الله»

بسم الله الرحمن الرحيم

من الكتب الإسلامية التي كتب لها التوفيق، وقوبلت بالغبطة والرضا، وانتشرت في جميع العالم الإسلامي، وانتفع بها طلاب التاريخ العربي، ومحبو السيرة المحمدية، كتاب «محمد رسول الله» للأستاذ محمد رضا.

جمع هذا الكتاب ما تفرق في الكتب من سيرة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وما اشتملت عليه من معان رفيعة، وأعمال جليلة، تدل على رفعة قدر، وعلو همة، وقوة عزيمة لم تتح لغيره.

ولم يكن جمع مثل هذا الكتاب بالهين، ولكن الأستاذ محمد رضا عكف سنين طويلة على دراسة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، لا في كتب السيرة فحسب، ولكن أيضا في كتب التاريخ، والتفسير، وشروح الأحاديث، ومعاجم اللغة، وتراجم الرجال، وأيضا فيما كتبه المستشرقون: المنصفون منهم والمغرضون، ولم يفته أن يفند أقوال المغرضين من هؤلاء، ويهدم ما ينشره المضللون من مفتريات وأكاذيب.

وعلى الرغم من أن الإحاطة بالسيرة المحمدية مهمة شاقة، فإن الأستاذ محمد رضا قد بذل الجهد، وأفرغ الوسع في جمع شتاتها. وقد قال مقدمته:

«وحققت مختلف الروايات، فلم أثبت إلا ما صح منها، وما أجمع عليه أكابر الصحابة والعلماء، وذكرت الآيات عند المناسبات حتى تعلم أسبابُ النزول. وشرحت مواقع البلدان والغزوات، والألفاظَ اللغويةَ، وقيدت الوقائع بالتواريخ الهجرية مع ما يقابلها من السنين الميلادية.

ولم أترك صحابيًا ذكر في كتابي هذا إلا كتبت نبذة عن ترجمته؛ لتعرَف سيرتُه وعلاقته بالحوادث، فجاء الكتاب بعون الله مرجعا تاريخيا، وبحثا علميا، مدعما بالأدلة القاطعة، معززا بالحجج الدامغة مؤيدا بكتاب الله عز وجل، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم».

فهو كتاب، لا غرو أن جاء جامعا لسيرة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأيضا فإنه كتاب إسلامي لم يقتصر على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، بل تعرض لدفع ما يوجهه أعداء الإسلام إلى الإسلام من شبه ومغامز خفية، لا يستطيع غيرُ العلماء ردَّها.

وقد اضطر المؤلف فى بعض المناسبات أن يترجم العبارات التى يقصد بها الطعن فى تعاليم الإسلام ونبى الإسلام ليُطلع الناسَ على مقاصد المستشرقين المغرضين و نواياهم الخبيثة .

وقد شارك المؤلف بقسط وافر فى الرد على المستشرقين المغرضين ، والمبشرين المضللين ، لأنه يرى أن ترك هذه الشبهات تنتشر بين المسلمين مما يزيد ضررها ، ويفسح المجال لأعداء الإسلام فيزداد شرهم ، وتستشرى مصائبهم . وقد أحسن صنعا بما فعل .

ومن هنا كتب لهذا الكتاب القيم النجاح ، وانتشر فى البلاد الإسلامية انتشاراً استنفد طبعاته الثلاث فى مدة وجيزة .

الطبعة الأولى : كانت فى مايو سنة ١٩٣٤ .

الطبعة الثانية : كانت فى أكتوبر سنة ١٩٣٧ وقد اشتملت على زيادات وتحقيقات لم تكن فى الأولى .

الطبعة الثالثة : كانت فى نوفمبر سنة ١٩٤٨ وقد اشتملت على زيادات مهمة وتحقيقات لم تكن فى الطبعة الأولى ، ولا فى الثانية . ولولا قيام الحرب العالمية الثانية الذى عطل الطبعة الثالثة — رغم نفاد الطبعة الثانية – بسبب عدم الورق ، لتقدمت الطبعة الثالثة عن موعدها بسنين كثيرة .

وكانت وفاة المؤلف من أقوى الأسباب التى أخرت طبع الكتاب الطبعة الرابعة رغم نفاد الطبعة الثالثة منذ سنين كثيرة .

الطبعة الرابعه سنة ١٩٦١ وهى هذه التى نقدم بها هذا الكتاب لقراء العربية ومحبى السيرة المحمدية ليجدوا فيه أوثق المصادر ، وأصوب الآراء لسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ولو قدر لهذه الطبعة وما يستجد بعدها من الطبعات أن تخرج والمؤلف على قيد الحياة لأضاف إليها من بحوثه وتحقيقاته الشىء الكثير ، رحمه الله وشكر له .

ولقد كان « لدار إحياء الكتب العربية » الفضل فى إخراج هذا الكتاب الجليل ، والعناية بطبعه وتصحيحه علميا وفنيا ونشره فى البلاد الإسلامية وتقديمه إلى القراء فى نظام عصرى جميل ، كعادتها فى كل ما تخرجه من كتب مما يزيد رغبة القراء فى الإقبال على اقتناء مطبوعاتها . وهاهى تقدمه إلى قراء السيرة فى طبعته الخامسة سنة ١٩٦٦ .

والله يوفق العاملين لتحقيق السيرة المحمدية ، وإظهار أمجاد الأمة العربية .

شوال سنة ١٣٨٥
فبراير سنة ١٩٦٦

الطاهر أحمد الزاوى

كلمة عن بلاد العرب

بلاد العرب هى شبه جزيرة فى الطرف الجنوبى الغربى لقارة آسيا ، يحدها شمالاً ، الشام وفلسطين والجزيرة ، وجنوباً ، خليج عدن والمحيط الهندى . وشرقاً ، خليج عُمان والخليج الفارسى . وغرباً ، خليج ومضيق باب المندب والبحر الأحمر وترعة السويس .

ويبلغ مجموع مساحة شبه جزيرة العرب مليون ميل مربع ، وأعظم طول لها ١٤٠٠ ميل من العقبة إلى عدن .

وبلاد العرب عبارة عن هضبة تنحدر نحو الشرق . وجوها حار ويبلغ عدد سكانها نحو سبعة ملايين وهى موطن الساميين . وينقسم إلى عدة أقسام ، أشهرها ، اليمن والحجاز وتهامة ونجد واليمامة وبلاد البحرين .

وتنقسم بلاد اليمن إلى خمسة أقسام : حضرموت وشِحْر ومهرة وعُمان ونجران .

ويقال إن سبب تسمية « حضرموت » بهذا الاسم ، هو أن حضرموت بن قحطان كان أول من نزلها . وكان اسمه عامراً وإذا حضر حرباً أكثر فيها القتل . فصاروا يقولون عنه ، حضرموت . فأطلق هذا الاسم على الأرض التى كانت تسكنها قبيلته . ثم أطلق بعد ذلك على جهة متسعة شرق عدن بالقرب من البحر وهى كثيرة الرمال . ويقال إن بها قبر هود عليه السلام . ويقال إن اليمن سمى بذلك لوقوعه عن يمين الكعبة إذا استقبلتَ الشرق . ومن أشهر مدن اليمن (صنعاء) وهى قاعدته . وكانت عاصمة ملوك اليمن . وبقربها معادن للفحم الحجرى لم تستعمل للآن . وهى حسنة الأسواق واسعة التجارة وبقربها مدينة (مأرب) المسماة (سبأ) نسبة لعبد شمس الملقب بسبأ . يقال إنه بنى هناك سداً عظيما وساق إليه السيول من مكان بعيد . وشيد جزءاً كبيراً من المدينة على السد المذكور . وفى بعض السنين تراكت الأمطار فدفعت السد وهلك خلق كثير . فسمى السيل (سيل العَرِم) والعرم هو الذى لا يطاق دفعه . وفى تلك الجهات كتابات بالحرف المسند المعروف بالخط الحميرى .

ومن مدن اليمن (صعدة) إلى الشمال الغربى من صنعاء

و (زبيد) إلى الغرب من صنعاء و (بيت الفقيه)

وبلاد الحجاز واقعة فى شمالى اليمن ، شرق البحر الأحمر . وتمتد إلى خليج العقبة ، وعلى ساحلها جزائر صغيرة تلتجئ إليها صغار السفن عند الحاجة وسمى « حجازاً » لوقوعه بين نجد وتهامة .

وأشهر بلاد الحجاز ، مكة المسماة قديماً عند علماء الإغريق (ماكورابا) . والمدينة المنورة ـ مدينة الرسول ـ وكانت تسمى مدينة (يثرب) وبها قبر الرسول صلى الله عليه وسلم . وفى شماليها ، جبل (أُحد) ويقال للمدينة طيبة

ولها أسماء كثيرة (والطائف) بلدة خصبة، طيبة المناخ، كثيرة البساتين والعيون والجداول واقعة شرق مكة .

ومن أشهر بلاده خيبر، وهي واقعة بالشمال الشرقي من المدينة على طريق قوافل الشام . وبها سبعة حصون مشهورة عند العرب وهي : ناعم والقموص، حصن أبي الحقيق . وحصن الشق وحصن النطاط . وحصن السلام وحصن الوطيح وحصن الكتيبة . وتوصف خيبر بكثرة الحميات .

وقسم تهامة، وهو على ساحل البحر الأحمر بين اليمن جنوبا والحجاز شمالا . وسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها .

ونجد، وهو جنوبي الشام وغربي العراق وشرق الحجاز وشمالي اليمامة . وأراضيها خصبة وقاعدتها مدينة (الرياض) وكانت مركزاً للوهابيين . وهدمها المرحوم إبراهيم باشا . وإلى الشمال منها، جبل شمر أي جبل (طي) قصبته مدينة الحائل . وأشهر مدنها (أبانا) وهي التي ولد فيها محمد بن عبد الوهاب، شيخ مذهب الوهابية .

وقسم اليمامة . وهو بين نجد واليمن، ويتصل بالبحرين شرقاً، والحجاز غربا . ومن مدنه (اليمامة) وكانت مدينة عظيمة، ذات مياه ونخل . وهي مدينة مسيلمة الكذاب .

ومن أشهر ثغور بلاد العرب، (عَدَن) وهي على الساحل الجنوبي من بلاد العرب، واسعة التجارة .

ومَخا . وهي من الثغور الشهيرة على البحر الأحمر والمركز الأصلي لتجارة اليمن .

والحديدة . وهي من أشهر مدن اليمن، واقعة على البحر الأحمر . وترسو عليها سفن حجاج الهند .

وجُدة . على ساحل الحجاز على بعد ٦٥ ميلاً غربي مكة . وهي أحسن ثغور البحر الأحمر .

***

والعرب أقدم الأمم بعد الطوفان وتنسب إلى يقطان أو قحطان . وامتاز العرب بالقوة والشجاعة .

وقد قسم المؤرخون العرب إلى ثلاثة أقسام : بائدة وعاربة ومستعربة .

أما البائدة، فهم العرب الأول الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لقدم عهدهم وانقطاع أسباب العلم بآثارهم وهم عاد وثمود وطسم وجَديس وجُرهم الأولى . وكانت مواطن عاد بأحقاف الرمل بين اليمن وعُمان إلى حضرموت والشحر . ولما انتحلوا عبادة الأصنام أبادهم الله . وأما ثمود فكانت ديارهم بالحجر ووادي القرى بين الحجاز والشام . وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال وكانوا أهل كفر وبغي . وأما جديس فكانت ديارهم باليمامة وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها ثماراً وحدائق وقصوراً وأما جُرهم الأولى، فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعبرانية فكانوا على عهد عاد واندثروا .

وأما جُرهم الثانية، فهم من ولد قحطان، وبهم اتصل إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام . وكانت

مساكن بنى قحطان بالحجاز ولما أسكن إبراهيم الخليل ابنه إسماعيل فى مكة نشأ بينهم وتزوج منهم وصار يطلق على أولاده العرب المستعربة . لأن أصل إسماعيل ولسانه كان عبرانيا ولذلك قيل له ولولده (العرب) .

وأما العرب العاربة ، فهم بنو سبأ . واسم سبأ عبد شمس . وقالوا إنه لما أكثر الغزو والسبى ، سمى (سبأ) وهو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان . وكان لسبأ عدة أولاد ، منهم حمير وكهلان وعمر وأشعر وعاملة، بنو سبأ. وجميع قبائل العرب باليمن وملوكها التبابعة من ولد سبأ ، وجميع تبابعة اليمن من ولد حمير بن سبأ خلا عمران وأخيه موزيقياء فإنهما ابنا عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلب بن مازن بن الأزد . والأزد من ولد كهلان بن سبأ . وقيل لهم (عاربة) لنزولهم بالبادية مع العرب البائدة وتخلقهم بأخلاقهم .

أما من حيث المعتقد فى الجاهلية ، فكانت العرب أصنافاً : فصنف أنكروا الخالق والبعث وقالوا بالطبع والحيين والدهر المفنى كما أخبر الله عنهم فى كتابه العزيز :

(وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيي وما يهلكنا إلا الدهر) وصنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث . وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله (أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد) .

وصنف عبدوا الأصنام . وكانت أصنامهم مختصة بالقبائل . فكان ود لكلب وهو بدومة الجندل، وسُواع لهذيل . ويغوث ويعوق لمذحج ولقبائل من اليمن . ونسر لذى الكلاع بأرض حمير ، ويعوق لهمدان . واللات لثقيف بالطائف . والعُزى لقريش وبنى كنانة . ومناة للأوس والخزرج . وهُبل أعظم أصنامهم وكان على ظهر الكعبة . وكان إساف ونائلة بين الصفا والمروة . وكان منهم من يميل إلى اليهودية.ومنهم من يميل إلى النصرانية. ومنهم من يميل إلى الصابئة ويعتقد فى أنواء المنازل . وكان منهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الجن.وكانت علومهم : علم الأنساب والأنواء والتواريخ وتعبير الرؤيا . وكانت الجاهلية تفعل أشياء جاءت الشريعة الإسلامية بها. فكانوا لاينكحون الأمهات والبنات ، وكان أقبح شىء عندهم الجمع بين الأختين وكانوا يعيبون المتزوج بامرأة أخيه ويسمونه (الضيزن) وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون ويقفون المواقف كلها ، ويرمون الحجارة ، وكانوا يكبسون فى كل ثلاثة أعوام شهراً ويغتسلون من الجنابة الخ .

وملوك التبابعة هم بنو حمير ، وقيل لهم تبابعة لأنه يتبع بعضهم بعضا ، كلما هلك واحد منهم ، قام آخر . ولم يكونوا يسمون الملك منهم بتبع حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت .

ولم تزل تتوالى الملوك على حمير حتى صار الملك إلى ذى نواس سنة ٤٨٠ م واسمه زُرعة . ولما تغلب على ملك آبائه التبابعة تسمى (يوسف) وتعصّب لدين اليهودية وحمل عليه قبائل اليمن فاستجمعت معه حمير على ذلك،وأراد أهل نجران عليها وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية ، وكان هذا الدين وقع إليهم قديماً من بقية أصحاب الحواريين . ولما كان ذو نواس يدين باليهودية ويتعصب لها ، اتخذ أخدوداً وأضرمه ناراً ، وكان كل من

لم يتهوّد ألقاه فى الأخدود . قيل له (صاحب الأخدود) ويقال : إن رجلاً من أهل نجران أفلت من القتل وسار حتى قدم على قيصر ، صاحب الروم يستنصره على ذى نواس . فبعث إلى ملك الحبشة يأمره بنصره . فحاربه النجاشى وهزمه وانقرض أمر التبابعة سنة ٥٢٩ م ودخل أرباط اليمن بالحبشة وأذل حمير وهدم حصون الملك . وعلى ذلك انتهى ملك حمير من اليمن مدة ذى نواس . وبعد ذلك خرج على أرباط أحد رؤساء الحبشة وحاربه وقتله ، ثم أقاموا أبرهة ملكاً وهو الملقب (بالأشرم) وسيأتى ذكره فى قصة الفيل . ولما مات أبرهة ، تولى بعده ابنه يكسوم سنة ٥٧١ م وأذل حمير وقبائل اليمن .

هذا ملخص عن بلاد العرب وتاريخها نقدمه للقراء . وبعدئذ نبدأ بذكر السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ؟

نسبه الشريف

صلى الله عليه وسلم

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف[١] بن قُصَىّ[٢] بن كلاب بن مُرّة بن كعب ابن لؤى[٣] بن غالب بن فِهر[٤] بن مالك بن النضر[٥] بن كِنانة بن خُزيمة بن مُدْرِكة بن إلياس[٦] بن مُضَر[٧] بن نِزار[٨] بن مَعَدّ[٩] بن عدنان[١٠]

إن نسب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لا يختلف النسابون فيه إلى معد بن عدنان كما هو مذكور ها هنا وإنما اختلف النسابون من عدنان إلى إسماعيل ، لكنهم أجمعوا على أنه ينتهى إلى إسماعيل . وكره الإمام مالك رفع النسب إلى آدم لعدم ثبوته ، وعن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بلغ نسبه الكريم إلى عدنان قال « من هاهنا كذب النسابون » .

ومُضَر وربيعة هم صريح ولد إسماعيل باتفاق جميع أهل النسب .

وهذا النسب أشرف الأنساب . عن العباس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم ، ثم تخيّر القبائل فجعلنى من خير قبيلة ، ثم تخيّر البيوت فجعلنى من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » . وعن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله اصطفى

---

(١) مناف اسم صنم أضيف إلى عبد كما يقولون : عبد يغوث ، وعبد العزى ، وعبد اللات . (٢) قصى يقال اسمه زيد ويقال اسمه مجمع . (٣) لؤى تصغير لأى وهو الثور الوحشى ، وقد يكون تصغير لأى وهو البطء . والمشهور فيه الهمزة (٤) الفهر : الحجر على مقدار ملء الكف يذكر ويؤنث (٥) النضر : الذهب الأحمر (٦) إلياس مختلف فيه : فنهم من يقول إلياس موافق للذى هو خلاف الرجاء ، وهو مصدر يئس ، قيل سمى بذلك لأنه ولد بعد كبر سن أبيه ، وبعضهم يقول فيه إلياس بكسر الهمزة (٧) مضر : الأبيض مشتق من اللبن الماضر وهو الحامض (٨) نزار : من النزارة وهى القلة (٩) معد : من تمعد إذا اشتد (١٠) عدنان : مأخوذ من عدن فى المكان إذا أقام فيه ، ومنه جنات عدن أى جنات إقامة وخلود .

من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

مناقب أجـــداده

صلى الله عليه وسلم

النبى صلى الله عليـــه وسلم من سلالة آباء كرام ، وكلهم سادة وقادة ، ولهم مكان مكين ومقام بين العرب عظيم . وقد اشتهروا بالحكمة والشجاعة والإقـــدام والكرم كما يتبين ذلك ممـا نذكره بالاختصار من مناقبهم وأخبارهم .

قـــد كان (معد) صاحب حروب وغارات على بنى إسماعيـل ، ولم يحارب أحداً إلا رجع بالنصر . وهو أبو العرب .

وكان (نزار) أجمل أهل زمانه وأرجحهم عقلا .

وكان (مضر) جميلا كذلك . ولم يره أحد إلا أحبه ، ومن حكمه المأثورة :

« خير الخير أعجله ، فاحملوا أنفسكم على مكروهها ، واصرفوها عن هواها فيما أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق » .

والفواق ما بين الحلبتين . ومضر أول من حدا للإبل وكان من أحسن الناس صوتاً .

وكان (إلياس) فى العرب مثل لقمان الحـ[illegible] حكمه .

« من يزرع خيراً يحصد غبطة ، ومن يز[illegible]

وأما (فهر) فإليه جماع قريش ، وما كان فوق فهر [illegible] يقال

فهر كريماً يفتش على حاجة المحتاج فيسدها بماله ، وهو الجد السادس لابى عبيدة بن الجراح .

(كعب) وهو الجد الثامن لعمر بن الخطاب رضى الله عنه . كان يجمع قومه يوم العَروبة أى يوم الرحمة وهو يوم الجمعة ، فيعظهم ويذكرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وينبئهم بأنه من ولده ويأمرهم باتباعه .

(مُرّة) وهو الجد السادس لرسول الله صلى الله عليه وسلم والجد السادس أيضاً لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وفى مُرة أيضاً يجتمع نسب الإمام مالك بنسب الرسول صلى الله عليه وسلم .

(كلاب) اسمه حكيم ، وقيل عروة . ولقب بكلاب لأنه كان يكثر الصيد بالكلاب ، وهو الجد الثالث لآمنة أمه صلى الله عليه وسلم فهو ملتقى نسب أبيه بنسب أمه . وقيل : إنه أول من سمى الأشهر العربيـة المستعملة إلى الآن .

(قصى) ولد حوالى سنة ٤٠٠ م اسمه زيد ، ويقال له مُجمِّع وبه جمع الله القبائل من قريش فى مكة بعدتفرقها فأنزلهم أبطح مكة،وكان بعضهم فىالشعاب ورءوس الجبال بمكة،فقسم منازلهم فسمى مجمعا،وهذا عمل جليل وفضل عظيم لا يتم إلا على يد ذوى النفوس الأبية والهمم العالية . وقصىّ أول من أوقد نار المزدلفة وكانت توقد حتى يراهامن دفع من عرفة . وهو أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم . وقيل إنما لُقِّب قصيًّا لأنه أبعد عن أهله ووطنه مع أمه بعد وفاة أبيه ، فإنها تزوجت ربيعة بن حرام فرحل بها إلى الشام .

وفيه يقول حذافة بن غانم :

أبوكم قصى كان يدعى مجمعاً ‏ ‏ ‏ ‏ به جمع الله القبائل من فهر

وكان إلى قصىّ فى الجاهلية حجابة البيت[1] وسقاية الحاج[2] وإطعامه المسمى بالرفادة[3] ، والندوة وهى الشورى لا يتم أمر إلا فى بيته ، ولا يعقد عقد نكاح إلا فى داره ولا يعقد لواء حرب إلا فيها ، فكان بيته عبارة عن ناد للعرب ، بل هو ملجؤهم فى جميع المشكلات سواء كانت هذه المشكلات قومية أوشخصية .

ولما حضرته الوفاة نهى بنيه عن الخمر، ولا بد أنه أدرك مضرتها فنهى أحب الناس إليه عن احتسائها . وتوفى قصى عام ٤٨٠ فعاش ٨٠ عاماً .

ومن كلامه الدال على تجاربه ورجاحة عقله :

« من أكرم لئيما شاركه فى لؤمه ، ومن استحسن قبيحاً تُرِكَ إلى قبحه . ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان.ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان.والحسود هو العدو الخفى » وإذا كنا نحكم على الإنسان بكلامه فهذا يدل على أن قصيًّا كان يبغض اللؤم والقبح بغضاً شديداً ، وكان شجاعاً كارهاً للغرور والحسد .

(عبد مناف) اسمه المغيرة وكان يقال له « قمر البطحاء » لحسنه وجماله ، وكانت قريش تسميه الفيّاض لكرمه ، وهو الجد الرابع لعثمان بن عفان والجد التاسع للإمام الشافعى .

(هاشم) واسمه عمرو بن عبد مناف،ويقال له عمرو العلا لعلو رتبته ، وهو أخو عبد شمس ، وقد سادقومه بعد أبيه عبد مناف ، وقد وقعت مجاعة شديدة فى قريش بسبب جدب شديد حصل لهم ، فخرج هاشم إلى الشام فاشترى دقيقاً وكعكا وقدم به مكة فى الموسم فهشم الخبز والكعك ونحر جُزُراً[4] وجعل ذلك ثريداً وأطعم الناس حتى

---

(١) الحجابة هى سدانة البيت : أى تولية مفتاح بيت الله تعالى (٢) السقاية : سقى الحجيج كلهم الماء العذب ، وكان عزيزاً بمكة يجلب إليها من الخارج فيسقى الحجاج منه وينبذ لهم التمر والزبيب فيسقيهم إياه ، وكانت وظيفة لهم . (٣) الرفادة : إطعام الطعام لسائر الحجاج تمد لهم الأسمطة فى أيام الحج ، وكانت السقاية والرفادة مستمرة إلى أيام الخلفاء ومن بعدهم من الملوك والسلاطين ، وكان قصى يطعم الحجاج لأنهم ضيوفه .

(٤) جزر جمع جزور، من الإبل ، ويقع على الذكر والأنثى .

أشبعهم فسمى بذلك « هاشماً » وكان يقال له « أبو البطحاء » و « سيد البطحاء » . والبطحاء مسيل الوادى - ولم تزل مائدته منصوبة فى السراء والضراء ، وكان موسراً يؤدى الحق ويؤمّن الخائف . وهو أول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، فكان يرحل فى الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة ، وفى الصيف إلى الشام . قال الشاعر :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
سُنّتْ إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وقد جاء ذكر الرحلتين فى القرآن الكريم بسورة « قريش » قال تعالى : ﴿ لإيلاف قُرَيش إيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشتاءِ والصَّيف ليعبدُوا رَبَّ هٰذا البَيت . الذى أطْعَمهمْ مِنْ جُوع وآمَنَهمْ مِنْ خَوْف ﴾ .

ومات هاشم بغزة من أرض الشام تاجراً سنة ٥١٠ م .

(عبد المطلب) وأمه سلمى بنت زيد النجارية . واسم عبد المطلب شيبة الحمد لأنه ولد وله شيبة ، مع رجاء حمد الناس له ، وإنما قيل له عبد المطلب لأن عمه المطلب أردفه خلفه وكان بهيئة رثة لفقره فقيل له من هذا ؟ فقال: عبدى ، حياء ممن سأله ، وكان عبد المطلب مجاب الدعوة . وكان يرفع من مائدته للطير والوحوش فى رؤوس الجبال، وهذا إحساس لطيف ورفق بالحيوان الأعجم ؛ ولذا كان يقال له « مطعم الطير » ويقال له « الفيّاض » . وكان مفزع قريش فى النوائب وملجأهم فى الأمور وشريفهم وسيدهم كمالا وفعالا ؛ وهو أول من تحنث (تعبد) بحراء . كان إذا دخل شهر رمضان ؛ صعد حراء وأطعم المساكين ؛ وعاش مائة وعشرين سنة أو أكثر وقد انتهت إليه الرياسة بعد عمه المطلب . وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ؛ ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيّات الأمور . ورفض عبد المطلب فى نهاية عمره عبادة الأصنام ووحّد الله . وقال دغفل النسّابة : إن عبد المطلب كان أبيض ، مديد القامة حسن الوجه فى جبينه نور النبوة وعز الملك، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسْد غاب .

وهو الذى كشف عن زمزم بئر إسماعيل ؛ وأقام سقايتها للحجاج ؛ فكانت له فخراً وعزاً على قريش وعلى سائر العرب .

وكان يكرم النبى صلى الله عليه وسلم ويعظمه وهو صغير ويقول « إن لابنى هذا لشأناً عظيما » وذلك مما كان يسمعه من الكهان والرهبان قبل مولده وبعده . وكانت كنية عبد المطلب « أبا الحارث » كنى بذلك لأن الأكبر من ولده الذكور كان اسمه الحارث .

أولاد عبد المطلب : أعمام رسول الله وعماته

أولاد عبد المطلب عشرة ذكور : عبد الله وأبو طالب « واسمه عبد مناف » والزبير (أمهم فاطمة بنت عمرو المخزومية) . العباس - جد الخلفاء العباسيين - وضرار (أمهما نتيلة النمرية) . حمزة والمقوم (أمهما هالة بنت وهب)

أبو لهب وهو عبد العزى (أمه لُبنى الخزاعية) الحارث (أمه صفية من بنى عامر بن صعصعة) الغيداق (أمه ممنعة) واسمه حجل .

وست نسوة وهن : صفية وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأميمة وأروى وبرة[١] .

أما (عبد الله) فهو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؛ ويكنى أبا قثم وقيل أبا محمد وقيل أبا أحمد وهو أصغر أولاد عبد المطلب .

وقيل إن عبد المطلب أول من خضب بالوسمة أى السواد لأن الشيب أسرع إليه وكان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين جميع الشهر ؛ وكان صعوده للتخلى عن الناس يتفكر فى جلال الله وعظمته .

ويؤثر عن عبد المطلب سنن جاء القرآن وجاءت السنة بها . منها الوفاء بالنذر ؛ والمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ؛ والنهى عن قتل الموءودة وتحريم الخمر والزنا والحد عليه وألا يطوف بالبيت عُريان ؛ وتعظيم الأشهر الحرم . وهو أول من سنَّ دية النفس مائة من الإبل فجرت فى قريش ، ثم نشأت فى العرب وأقرها رسول الله .

وكان نديمه فى الجاهلية حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف والد أبى سفيان ، وكان فى جوار عبد المطلب يهودى فأغلظ ذلك اليهودى القول على حرب فى سوق من أسواق تهامة فأغرى عليه حرب مَن قتله ؛ فلما علم عبد المطلب بذلك ترك منادمة حرب ؛ ولم يفارقه حتى أخذ منه مائة ناقة دفعها لابن عم اليهودى حفظاً لجواره . ثم نادم عبد الله بن جُدعان التيمى .

نذر عبد المطلب

جد النبي صلى الله عليه وسلم

كان عبد المطلب نذر حين لقى من قريش العَنَت[٢] فى حفر بئر زمزم لئن ولد له عشرة نفر وبلغوا معه حتى يمنعوه لينحرنّ أحدهم عند الكعبة لله تعالى ؛ ولم يكن له ولد إلا الحارث .

وقد ارتاب بعضهم فى حكاية هذا النذر ؛ لكنا لا نرى مندوحة عن ذكرها لأنها وردت فى أمهات كتب التاريخ التى استقينا منها ، فقد رواها ابن إسحاق ونقلها الطبرى وابن الأثير وابن سعد فى طبقاته .

ولما بلغ أولاد عبد المطلب عشرة وعرف أنهم سيمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا كيف نصنع ؟ قال يأخذ

(١) لم يسلم من أعمام رسول الله إلا حمزة والعباس ، وأسلمت عمته صفية إجماعا وهى أم الزبير بن العوام ، وعاشت كثيراً وتوفيت سنة عشرين فى خلافة عمر بن الخطاب ، ولها ثلاث وسبعون سنة .

(٢) العنت : الوقوع فى أمر شاق .

كل رجل منكم قِدْحاً ثم يكتب فيه اسمه[1] ففعلوا وأتوه بالقداح ؛ فدخلوا على هُبل فى جوف الكعبة وكان أعظم أصنامهم ؛ وهو على بئر يجمع فيه مايهدى إلى الكعبة ؛ فقال عبد المطلب لصاحب القداح اضرب على بنىّ هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره الذى نذر ؛ وكان عبد الله أصغر إخوته وأحبهم إلى أبيه ؛ فلما أخذ صاحب القداح يضرب ؛ قام عبد المطلب يدعو الله تعالى ؛ ثم ضرب صاحب القداح فخرج قدح عبد الله ؛ فأخذ عبد المطلب بيده ثم أقبل إلى (إساف ونائلة) وهما الصنمان اللذان ينحر الناس عندهما . فقامت قريش من أنديتها فقالوا ماذا تريد أن تصنع ؟ قال أذبحه ، فقالت قريش وبنوه : والله لا ندعك تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه ، ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتى بابنه حتى يذبحه . فقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم : والله لا تذبحه حتى تعذر فيه فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه . وقالت قريش وبنوه لاتفعل ، وانطلق إلى كاهنة بالحجر فسلها ،فإن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بمالك وله فيه فرج قبلته . فانطلقوا حتى أتوها بخيبر فقص عليها عبد المطلب خبره ، فقالت لهم ارجعوا اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله ، فرجعوا عنها ، ثم غدوا عليها فقالت : نعم قد جاءنى الخبر فكم دية الرجل عندكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل وكانت كذلك ، قالت ارجعوا إلى بلادكم وقربوا عشراً من الإبل واضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرج على صاحبكم فزيدوا فى الإبل عشراً ثم اضربوا أيضاً حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى أتوا مكة ثم قربوا عبدالله وعشراً من الإبل فخرجت القداح على عبد الله ، فزادوا عشراً فخرجت القداح على عبد الله . فما برحوا يزيدون عشراً وتخرج القداح على عبد الله حتى بلغت الإبل مئة ثم ضربت فخرجت القداح على الإبل فقال من حضر قد رضى ربك ياعبد المطلب . فقال عبد المطلب لا والله حتى أضرب ثلاث مرات فضربوا ثلاثاً فخرجت القداح على الإبل فنحرت . ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع .

إن خروج القداح على عبد الله فى كل مرة حتى بلغت الإبل مئة من غرائب الصدف ، ولولا معارضة قريش وبنيه ومشورة الكاهنة لذهب عبد الله قرباناً لنذر عبد المطلب . ولكن شاء الله سبحانه وتعالى أن يحفظ أبا محمد حتى يظهر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قد التجأ عبد المطلب إلى هذا النذر لما عارضه عدى بن نوفل بن عبد مناف فى حفر زمزم وآذاه وقال له : « ياعبدالمطلب أتستطيل علينا وأنت فذ لاولد لك ؟ » فقال « أبالقلة تعيرنى ! فوالله لئن آتانى الله عشرة من الولد ذكوراً لأنحرن أحدهم عند الكعبة » وقيل سفه عليه وعلى ابنه ناس من قريش ونازعوه وقاتلوه فاشتدت بذلك بلواه وكان معه ولده الحارث ولم يكن له سواه ، فنذر ذلك النذر الذى ذكرناه .

---

(١) القدح : هو السهم الذى لا نصل فيه .

انصرف عبدالمطلب بعد أن نحر الإبل آخذاً بيد ابنه عبدالله فمر به على امرأة من بنى أسد بن عبدالعزى بن قصى وهى عند الكعبة ، فقالت له حين نظرت إلى وجهه أين تذهب ياعبد الله ؟ قال مع أبى ، قالت لك مثل الإبل التى نحرت عنك وقع على الآن فأبى وقال إن معى أبى لا أستطيع خلافه ولا فراقه ، وكان عبد الله أحسن رجل رؤى فى قريش ، وكان ذا عفة وسماحة . وكانت ولادة عبد الله نحو سنة ٥٤٥ م .

زواج عبد الله

خرج عبدالمطلب بعبدالله يريد تزويجه حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زُهرة وهو يومئذ سيد بنى زهرة سناً وشرفاً ، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب[1] وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعاً، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم فانتقل النور منه إليها ، ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عرضت عليه نفسها فقال « مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت على بالأمس » ؟ فقالت له: فارقك النور الذى كان معك بالأمس فليس لى بك اليوم حاجة[2] وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل - وكان قد تنصر واتبع الكتب - أنه كائن لهذه الأمة نبى. وكان تزويج عبد الله من آمنة بعد حفر زمزم بعشر سنين، وكان اسم عبد الله عبد الدار ، فلما كا فى السنة التى فدى فيها قال عبد المطلب « هذا عبد الله » فسماه يومئذ كذلك .

وبعد زواج عبد الله بقليل خرج من مكة قاصداً الشام فى تجارة وبعد أوبته منها ، نزل بالمدينة وهو مريض وبها أخواله من بنى النجار ، فأقام عندهم شهراً وهو مريض وتوفى لشهرين من الحمل بابنه محمد صلى الله عليه و ودفن فى دار النابغة[3] فى الدار الصغرى إذا دخلت الدار على يسارك فى البيت وله خمس وعشرون سنة ، و هو المشهور . وقيل ثمان وعشرون سنة. وترك عبدالله جاريته أم أيمن بركة الحبشية ، وخمسة جمال وقطعة من غ وقد رثته آمنة بهذه الأبيات :

عفا جانبُ البطحاء من آل هاشم ... وجاور لحداً خارجاً فى الغماغم

دعتـــه المنايا دعوةً فأجابها ... وما تركت فى الناس مثلَ ابن هاشم

عشيّـةَ راحوا يحملون سريره ... تعـــاوره أصحابُه فى التزاحم

فإن تك غالته المنون وريبُها ... فقد كان مِعطاء كثير التراحم

إن آمنة وعبد الله لم يلدا غير رسول الله ولم يتزوج عبد الله غير آمنة ، ولم تتزوج آمنة غيره .

(١) تجتمع آمنة هى وعبد الله فى كلاب

(٢) إن عرض عبد الله نفسه على المرأة لم يكن لريبة بل ليستبين الأمر الذى دعاها إلى بذل القدر الكثير من الإبل فى مقابلة الشىء على خلاف عادة النساء مع الرجال .

(٣) هو رجل من بنى عدى بن النجار

أصحاب الفيل

من الحوادث المهمة التى وقعت عام مولده صلى الله عليه وسلم حوالى سنة ٥٧٠ م قدوم أبرهة الأشرم ملك اليمن إلى مكة لهدم الكعبة وهذه خلاصتها :

إن الحبشة ملكوا اليمن بعد حمير فلما صار المُلك إلى أبرهة بن الصباح الأشرم ، بنى كنيسة عظيمة بصنعاء إلى جنب غُمدان يقال لها القُليس[1] لم ير مثلها فى زمانها بناها بالرخام وجيد الخشب المذهب وقصد أن يصرف حج العرب إليها ويبطل الكعبة ، فلما تحدث العرب بذلك غضب رجل من النّساءة من بنى فقيم بن عدى ابن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر .

والنساءة الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب فى الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من الأشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر ، ففيه أنزل الله تبارك وتعالى « إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ » قال ابن هشام ليواطئوا ليوافقوا . وكان أول من نسأ الشهور على العرب فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم القلمس وهو حذيفة بن عبد الله بن فقيم . وأول الأشهر الحرم « المحرم » . فخرج الكنانى حتى أتى القليس « الكنيسة » وتغوط فيها ليلا ثم خرج فلحق بأرضه ، فلما أُخبر بذلك أبرهة غضب وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه (وسمى هذا العام بعام الفيل) فلما وصل إلى الطائف بعد أن هزم من تعرض له من العرب ، بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود إلى مكة فساق أموال أهلها وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم وأحضرها إلى أبرهة ، وأرسل أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة وقال له سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، فسأل فقيل له عبد المطلب فقال له إن الملك يقول إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت . فقال له عبد المطلب والله ما نريد حربه ولا لنا بذلك طاقة . هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم فإن لم يمنعه منه فهو بيته وحرمه وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . ثم انطلق عبد المطلب مع رسول أبرهة إليه فلما استؤذن لعبد المطلب قالوا لأبرهة هذا سيد قريش فأذن له فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال له : حاجتك ؟ فذكر عبد المطلب أباعره التى أخذت له ، فقال أبرهة : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتك ،

---

[1] القليس كجميز مشتق من قلس الشىء إذا ارتفع ، وقد خربت هذه الكنيسة فى زمن السفاح أول خلفاء بنى العباس فإنه أمر عامله على اليمن فأخذ خشبها المرصع بالذهب والآلات المفضضة التى تساوى قناطير من الذهب ، فحصل له منها مال عظيم وحينئذ عفا رسمها وانقطع خبرها واندرست آثارها .

أتكلمني عن مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ قال له عبد المطلب : أنا رب الابل وإن للبيت رباً سيمنعه ، فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل فانصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز بالجبال والشعاب تخوفاً عليهم معرة الجيش[١] وقد كانوا أكثر من قريش عدداً . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجيشه . فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهُمَّ إن العبـد يمنع رحله فامنع حِلالك[٢]
لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدواً محالك[٣]
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك

فلما تهيأ أبرهة لدخول مكة وهيأ فيله الأعظم (محموداً) وهو مجمع على هدم البيت فكانوا كلما وجهوا الفيل إلى مكة برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى سائر الجهات قام يهرول . ويقال كان عدد الفيلة فى هذه الموقعة ثلاثة عشر فيلا . وبينما هم كذلك أرسل الله عليهم طيراً أبابيل من البحر[٤] أمثال الخطاطيف مع كل طائر ثلاثة أحجار ، واحد فى منقاره واثنان فى رجليه فقذفتهم بها وهى مثل الحمص والعدس لا تصيب أحداً منهم إلا هلك . وليس كلهم أصابت . ثم أرسل الله تعالى سيلاً فألقاهم فى البحر والذى سلم منهم ولى هارباً مع أبرهة إلى اليمن بنندر الطريق وأصيب أبرهة بتساقط أعضائه وخرجوا به معهم تتساقط أعضاؤه حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فمات حتى انصدع صدره عن قلبه . وقيل أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام . ولما مات أبرهة ، ملك مكانه ابنه يكسوم سنة ٥٧١ م .

ونظراً لأهمية هذا الحادث صار العرب يؤرخون به ؛ إذ لو تغلب أبرهة على قريش وتم له هدم الكعبة لأدخلت الديانة المسيحية مكة وأرغم العرب على اعتناقها؛ لأن اليمن كانت تابعة لأمراء الحبشة المسيحيين وأرغم كثير من أهلها سواء من عباد الأصنام أو اليهود على اعتناق المسيحية وكانت قريش تؤرخ السنين بموت قصى بن كلاب لجلالة قصى . فلما كان عام الفيل أرخت به .

وقد ذكرت حادثة الفيل فى القرآن قال تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ

---

(١) معرة الجيش : شدته .

(٢) لاهم أصله « اللهم » فإن العرب تحذف الألف واللام وتكتفى بما يبقى . والحلال ــ بكسر الحاء ــ جمع حلة وهى جماعة البيوت . والحلال ــ بفتح الحاء ــ خلاف الحرام .

(٣) المحال : القوة والشدة . والغدو أصله الغد .

(٤) الأبابيل : الجماعات ، ولم يتكلم لها العرب بواحد ، قال بعضهم واحده إبيل وإبول .

كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » .

يخبر الله تعالى رسوله بما حدث لأصحاب الفيل أى الجيش الذى سار لهدم الكعبة ، ومعهم الفيل وما كان من انهزامهم بما سلطه الله عليهم من جماعات الطير ترمى العدو بحجارة من سجيل . وتفسير السجِّيل ، طين يابس أو متحجر . وورد ذكر السجيل أيضا فى القرآن فى سورة الحجر ، قال تعالى : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ » أى على قوم لوط . وقال فى سورة هود « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ » .

وقد أخطأ من فسره بالميكروب . لأن اللفظ لا يفيد ذلك فى اللغة . وقد فتكت هذه الأحجار الصغيرة بالجيش الهاجم فعاد مهزوما من غير أن يبلغ مأربه . وجعلهم كعصف مأكول أى كورق زرع تأكله الدواب . فلما أصيبوا بهذه الحجارة تساقطت لحومهم فإن قيل : كيف يتصور أن هذه الحجارة الصغيرة تفتك بالجيش ؟ فهذه قدرة الله سبحانه وتعالى ، وقد كان قادراً على أن يهزمهم ويردهم من غير أن يسلط عليهم الطير ولكنه جعل ذلك سبباً .

وبانهزام الحبشة كما تقدم حفظ الله بيته الحرام من أن يهدم ، وقد صار فيما بعد قبلة المسلمين فى جميع أقطار الأرض .

مولده

صلى الله عليه وسلم

٢٠ أغسطس سنة ٥٧٠ م

ولد النبى صلى الله عليه وسلم فى فجر يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ٢٠ أغسطس سنة ٥٧٠ م (وأهل مكة يزورون موضع مولده فى هذا الوقت) فى عام الفيل . ولأربعين سنة خلت من حكم كسرى أنو شروان خسرو بن قباذ بن فيروز بمكة[1] فى المكان المعروف بسوق الليل فى الدار التى صارت تدعى بدار محمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج بن يوسف وأدخل ذلك البيت فى الدار حتى أخرجته الخيزران أم الهادى والرشيد فجعلته مسجداً يصلى فيه وكانت قبل ذلك لعقيل بن أبى طالب . ونزل على يد الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف فهى قابلته ، رافعاً بصره إلى السماء واضعاً يده بالأرض وكانت أمه تحدث أنها لم تجد حين حملت به ما تجده الحوامل من

(١) كان علماء الجغرافيا من الإغريق يطلقون على اسم مكة ماكورابا Makoraba

ثقل ولا وحم ولا غير ذلك . ولما ولدته أمه عليه الصلاة والسلام أرسلت إلى جده وكان يطوف بالبيت تلك الليلة فجاء إليها فقالت له يا أبا الحارث ولد لك مولود عجيب . فذعر عبد المطلب وقال أليس بشراً سوياً ؟ فقالت نعم ولكن سقط ساجداً ثم رفع رأسه وأصبعيه إلى السماء فأخرجته ونظر إليه وأخذه ودخل به الكعبة وعوّذه ودعا له ثم خرج ودفعه إليها . وهو الذى سماه محمداً . فقيل كيف سميت بهذا الاسم وليس لأحد من آبائك ؟ فقال إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم . وكانت تلك السنة التى حمل فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم سنة الفتح والابتهاج فإن قريشا كانت قبل ذلك فى جدب وضيق عظيم فاخضرّت الأرض وحملت الأشجار وأتاهم الرغد فى تلك السنة. ومن عجيب ماوقع عند ولادته ماروى من ارتجاج إيوان كسرى وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته وذلك إشارة إلى أنه لم يبق من ملوكهم المستبدين بالملك إلا أربعة عشر ملكا . فهلك عشرة فى أربع سنين وهلك أربعة إلى زمن عثمان رضى الله عنه . وغيض بحيرة طبرية بفاسطين[1] إشارة إلى أنه يحصل لأصحابها بأس شديد، وخمود نار فارس وكان على ما يقال لها ألف عام لم تخمد كما رواه البيهقى وأبو نعيم والخرائطى فى الهواتف وابن عساكر . ومن ذلك أيضاً ماوقع من زيادة حراسة السماء بالشهب وقطع رصد الشياطين ومنعهم من استراق السمع . ولقد أحسن الشقراطيسى حيث قال :

ضاءت لمولده الآفاق واتصلت ... بشرى الهواتف فى الإشراق والطفل[2]

وصرح كسرى تداعى من قواعده ... وانقض منكسر الأرجاء ذاميل

ونار فارس لم توقد وما خمدت ... مذ ألف عام ونهر القوم لم يسل

خرت لمبعثه الأوثان وانبعثت ... ثواقب الشهب ترمى الجن بالشهب

وينسب بعضهم ذلك إلى أنه حدث فى ذلك الوقت زلزال عظيم . قال اليعقوبى فى تاريخه : « وأصاب الناس زلزلة عمت جميع الدنيا » الخ . ويروى أن الرشيد أراد هدم إيوان كسرى فقال له وزيره يحيى بن خالد البرمكى : يا أمير المؤمنين ، لا تهدم بناء هو آية الإسلام . وقال البوصيرى فى الهمزية :

وتداعى إيوان كسرى ولولا ... آية منك ماتداعى البناء

وغدا كل بيت نار وفيه ... كربة من خمودها وبلاء

وعيون للفرس غارت فهل كا ... ن لنيرانهم بها إطفاء

وفى سابع يوم من ولادته صلى الله عليه وسلم عقّ[3] عنه جده بكبش .

---

(١) بحيث صارت يابسة

(٢) الهواتف : جمع هاتف وهو ما يسمع صوته ولا يرى شخصه

(٣) يقال عق عن ابنه : أى ذبح عنه شاة .

الاحتفال بمولده

صلى الله عليه وسلم

قال الإمام أبو شامة شيخ النووى : ومن أحسن ما ابتدع فى زماننا ما يُفعل كل عام فى اليوم الموافق ليوم مولده صلى الله عليه وسلم من الصدقات والمعروف وإظهار الزينة والسرور . فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقراء ، مشعر بمحبة النبى صلى الله عليه وسلم وتعظيمه فى قلب فاعل ذلك وشكر الله تعالى على ما منَّ به من إيجاد رسوله صلى الله عليه وسلم الذى أرسله رحمة للعالمين .

قال السخاوى : إن عمل المولد حدث بعد القرون الثلاثة ثم ما زال أهل الإسلام فى سائر الأقطار والمدن الكبار يعملون المولد ويتصدقون فى لياليه بأنواع الصدقات ويعتنون بقراءة مولده الكريم ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم . وقال ابن الجوزى : من خواصه أنه أمان فى ذلك العام وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام . وأول من أحدثه من الملوك ، الملك المظفر أبو سعيد صاحب إربل ، وألف له الحافظ بن دحية تأليفاً أسماه « التنوير فى مولد البشير النذير » فأجازه الملك المظفر بألف دينار . وصنع الملك المظفر المولد وكان يعمله فى ربيع الأول ويحتفل به احتفالاً هائلاً ، وكان شهماً شجاعاً بطلا عاقلاً عادلًا . وقيل إنه كان يصرف على المولد ثلاثمائة ألف دينار .

وكان السلطان أبو حمو موسى صاحب تلمسان يحتفل ليلة المولد غاية الاحتفال كما كان ملوك المغرب والأندلس فى ذلك العصر وما قبله . ومن احتفاله له ما حكاه الحافظ سيدى أبو عبد الله التنسى ، ثم التلمسانى فى كتابه « راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح » وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح ونصه . إنه كان يقيم ليلة الميلاد النبوى على صاحبه الصلاة والسلام بمشورة من تلمسان المحروسة مدعاة حفيلة يحشر فيها الناس خاصة وعامة فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة ، وبسط موشاة ووسائد بالذهب مغشاة ، وشمع كالأسطوانات وموائد كالهالات ، ومباخر منصوبة كالقباب يخالها المبصر تبراً مذاباً ، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة كأنها أزهار الربيع المنمنمة ، فتشتهيها الأنفس وتستلذها النواظر ويخالط حسن رياها الأرواح ويخامر رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال وقد علت الجميع أبهة الوقار والإجلال . وبعقب ذلك يحتفل المستمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومكفرات ترغب فى الإقلاع عن الآثام يخرجون فيها من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب ، وبالقرب من السلطان رضوان الله تعالى عليه خزانة المنجانة قد زخرفت كأنها حُلة يمانية لها أبواب موجفة على عدد ساعات الليل الزمانية فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها وفتح عند ذلك باب من أبوابها وبرزت منه جارية صورت فى أحسن صورة ، ...

فى يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة فتضعها بين يدى السلطان بلطافة ويسراهـ على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة . هـكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح ونداء المنادى حىّ على الفلاح . انتهى .

وفى زماننا هذا يحتفل المسلمون بيوم مولده صلى الله عليه وسلم فى جميع الأمم الإسلامية . وفى القطر المصرى تتلى الأذكار وتوزع الصدقات على الفقراء والمحتاجين . وفى القاهرة يتحرك موكب أرباب الطرق بعد الظهر أمام المحافظة ويسير قاصداً ميدان الاحتفال بالعباسية مجتازاً شوارع تحت الربع فالسكرية فالغورية فميدان الإشراقية فالفحامين فالحسينية فالعباسية ويشتد الزحام فى هذه الشوارع ويتقدم الموكب كوكبة من فرسان رجال الشرط وتحف به من الجانبين قوة من رجال الجيش . وقد جرت عادة الحكومة أن تحتفل بهذا اليوم المبارك احتفالاً رسمياً فى العباسية حيث تقام سرادقات للوزارات ويتوجه جلالة الملك أو نائبه إلى مكان الاحتفال وهناك يستعرض الحاميا المصرية على أثر وصوله ، ثم ينتقل إلى السرادق ويستقبل رجال الطرق الصوفية بأعلامهم وبعدئذ يقصد سرادق شيخ مشايخ الطرق الصوفية فيستمع لتلاوة القصة النبوية وبعد سماعها يخلع على تاليها الخلعة الملكية وتدار المرطبات والحلوى على الحاضرين ثم ينصرف بعد ذلك بموكبه الحافل أثناء قصف المدافع . وفى المساء تنار الزينات القائمة على السرادقات وتطلق الألعاب النارية البديعة ، وفى الصباح تعطل الحكومة وزاراتها ومصالحها وتتلى القصة النبوية الشريفة فى المشهد الحسينى بحضور محافظ مصر . وقد أبطلت بدع كثيرة بفضل عناية رجال الدين ويقظة رجال الإدارة .

هذا ولا نزل نطالب ولاة الأمور بمنع كل ما يخالف الدين من آثام ومما يجرى فى الموالد عادة لأن ذلك يشوّه محاسن الإسلام ويفسد المقاصد الشريفة من إقامة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أسماؤه

صلى الله عليه وسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لى أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر . وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمىّ . وأنا العاقب (والعاقب الذى ليس بعده نبى) وقال : « أنا محمد . وأنا أحمد . وأنا نبى الرحمة ونبى التوبة . وأنا المقفى وأنا الحاشر وأنا نبى الملاحم » وفى التهذيب سمّاه الله عز وجل فى القرآن رسولاً ، نبيًّا أميًّا ، شاهداً ، مبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . ورءوفاً رحيما . وجعله رحمة ونعمة وهادياً صلى الله عليه وسلم . ومن أسمائه الفاتح . وطه . ويس . وعبد الله وخاتم الأنبياء والمختار . وكنيته أبو القاسم وكناه جبريل « أبا إبراهيم » .

مرضعاته
صلى الله عليه وسلم

أرضعته صلى الله عليه وسلم من النساء ثمان وقل أكثر ، أولاهن أمه آمنة ثم ثويبة الأسلمية جارية عمه أبي لهب التي أعتقها حين بشرته بولادته أياماً قبل قدوم حليمة . وخولة بنت المنذر وأم أيمن . وامرأة سعدية غير حليمة ، وثلاث نسوة من العواتك .

وأكثرهن إرضاعاً له حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية وتكنى أم كبشة . وكان من عادة العرب إذ ولد لهم مولود أن يلتمسوا له مرضعة من غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد وأفصح له . فجاءت نسوة من بني سعد إلى مكة يلتمسن الرضعاء ومعهن حليمة السعدية في سنة شديدة القحط . فكل امرأة أخذت رضيعاً إلا حليمة وقد كانت تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها ـ الحارث بن عبد العزى ـ وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد ابن بكر يلتمس الرضعاء . قالت : وهي سنة شهباء[1] لم تبق لنا شيئاً ، فخرجت على أتان لي قمراء[2] معنا مشارف[3] لنا والله ما تبض[4] بقطرة وما ننام ليلنا من صبيّنا[5] الذي معنا من بكائه من الجوع . ما في ثديّ ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج . فخرجت على أتاني تلك فلقد أدمت[6] بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا[7] حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً فقلت لزوجي والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . فقال لا بأس عليك أن تفعلي عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . فذهبت إليه فأخذته وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره ، فلما أخذته رجعت به إلى رحلي فلما وضعته في حجري أقبل على ثدييّ بما شاء من لبن فشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى ثم ناما وما كنا ننام منه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى شارفنا فإذا إنها لحافل[8] فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريًّا فبتنا بخير ليلة ، وقال صاحبي حين أصبحنا ، تعلمي والله ياحليمة لقد أخذت نسمة مباركة فقلت والله إني لأرجو ذلك ، ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي فو الله لقطعت بالركب مالا يقدر عليه شيء من حُمُرهم حتى إن صواحبي ليقلن لي

---

(١) سنة شهباء يعني سنة الجدب والقحط لأن الأرض تكون فيها بيضاء (٢) على أتان لي قمراء ، الأنثى من الحمر ، والقمر التي في لونها بياض (٣) المشارف ـ بضم الميم ـ . الناقة المسنة (٤) ما تبض معناه لاترشح (٥) اسم هذا الصبي عبد الله بن الحارث وهو أخو رسول الله من الرضاعة وأخواته غيره أنيسة بنت الحارث وجذامة بنت الحارث وهي الشيماء غلب ذلك على اسمها فلا تعرف في قومها إلا به وهم لحليمة (٦) أدمت بالركب أي أطلت عليهم المسافة لتمهلهم عليها ، مأخوذ من الشيء الدائم (٧) العجف ـ بفتح العين والجيم ـ الهزال . (٨) الحافل : الممتلئة الضرع من اللبن .

يا ابنة أبى ذؤيب ويحك اربعى علينا [١] أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن بلى والله إنها لهى فيقان والله إن لها شأناً . ثم قدمنا منازلنا فى بلاد بنى سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبناً فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب فتروح أغنامهم جياعاً وما تبض بقطارة لبن وتروح غنمى شباعاً لبناً فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً [٢] فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شىء على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته فلم نزل بها حتى ردته معنا .

شق الصدر

قالت حليمة فرجعنا فوالله إنه بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه لفى بَهم لنا [٣] خلف بيوتنا إذا أتانا أخوه يشتد فقال لى ولأبيه ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه [٤] قالت فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما منتقعاً وجهه [٥] فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له مالك يابنى ؟ قال جاء نى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشقا بطنى فالتمسا فيه شيئاً لا أدرى ماهو ؟

قالت فرجعنا إلى خبائنا وقال لى أبوه ياحليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به . فاحتملناه فقدمنا به على أمه . فقالت ماأقدمك به ياظئر [٦] وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟ فقلت قد بلغ الله بابنى وقضيت الذى علىّ وتخوفت الأحداث عليه فأديته إليك كما تحبين . قالت ماهذا شأنك فاصدقينى خبرك قالت فلم تدعنى حتى أخبرتها . قالت أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قلت نعم . قالت كلا والله ماللشيطان عليه من سبيل ، وإن لابنى لشأناً أفلا أخبرك خبره ؟ قلت بلى . قالت رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء لى به قصور بُصرى [٧] من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله مارأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء . دعيه عنك وانطلقى راشدة كان أول ماشق صدره عليه الصلاة والسلام فى السنة الثالثة من عمره وقيل فى الرابعة وذلك لتطهيره وإخراج حظ الشيطان منه . وشق صدره صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء كما رواه البخارى . ويقول مؤرخو الافرنج ومنهم

---

(١) اربعى علينا أى اعطفى علينا بالرفق وعدم الشدة فى السير .
(٢) حتى كان غلاماً جفراً أى غليظا شديداً .
(٣) البهم بفتح الباء : الصغار من الغنم واحدتها بهمة (٤) فهما يسوطانه . يقال سطت اللبن والدم وغيرهما أسوطه إذا ضربت بعضه ببعض وحركته . واسم العود الذى يضرب به المسوط (٥) منتقعاً وجهه : أى متغيراً (٦) ياظئر . أصل الظئر الناقة التى تعطف
(٧) بصرى — بضم الباء — مدينة من أرض الشام

الأستاذ نيكولسون فى كتابه تاريخ أدب العرب صفحة (١٤٧ — ١٤٨) طبعة ١٩٠٧ وكذا الأستاذ موير فى كتابه « حياة محمد » إن هذه نوبة صرعية ، وهذا مردود لأنه لم تشاهد فيه علامات الصرع طول عمره .

وإلى قصة إرضاعه صلى الله عليه وسلم يشير صاحب الهمزية حيث يقول :

وبدت فى رضاعه معجزات	ليس فيها عن العيون خفاء
إذ أبتـــه ليتمه مرضعات	قلن ما فى اليتيم عنا غناء
فأتته من آل سعد فتـــاة	قد أبتها لفقرهـــا الرضعـــاء
أرضعته لبانهـــا فسقتهـــا	وبنيها ألبانهـن الشـاء
أصبحت شولا عجافا وأمست	ما بهـــا شائل ولا عجفاء
أخصب العيش عندها بعد محل	إذ غدا للنبى منها غـــذاء
يا لها منة لقد ضوعف الأجـ	ـر عليها من جنسها والجزاء
وإذا سخر الإله أناســـاً	لسعيد فإنهم سعـــداء

الحض على قتله صغيرا

وكانت حليمة كلما مر جماعة من اليهود وحدثتهم بشأنه صلى الله عليه وسلم ، حضوا على قتله وكلما عرضته على العرافين فى الأسواق ، صاحوا بقتله وكانوا يقولون اقتلوا هذا الصبى فليقتلن أهل دينكم وليكسرن أصنامكم وليظهرن أمره عليكم . وعن حليمة رضى الله عنها أنه مر بها جماعة من اليهود فقالت ألا تحدثونى عن ابنى هذا حملته أمه كذا ووضعته كذا ورأت عند ولادته كذا وذكرت لهم كل ما سمعته من أمه وكل ما رأته هى بعد أن أخذته وأسندت الجميع إلى نفسها كأنها هى التى حملته ووضعته . فقال أولئك اليهود بعضهم لبعض اقتلوه فقالوا أو يتيم هو ؟ فقالت لا . هذا أبوه وأنا أمه . فقالوا لو كان يتيما قتلناه لأن ذلك عندهم من علامات نبوته . وعن حليمة أيضا رضى الله عنها أنها نزلت به صلى الله عليه وسلم بسوق عكاظ وكان سوقاً للجاهلية بين الطائف ونخلة ، المحل المعروف ، كانت العرب إذا قصدت الحج أقامت بهذا السوق شهر شوال يتفاخرون ويتناشدون الأشعار ويبيعون ويشترون . فلما وصلت به حليمة سوق عكاظ رآه كاهن من الكهان فقال : يا أهل عكاظ اقتلوا هذا الغلام فإن له مُلكا فمالت به وحادت عن الطريق فأنجاه الله .

وقد رأت حليمة السعدية من النبى صلى الله عليه وسلم الخير والبركة وأسعدها الله بالإسلام هى وزوجها وبنوها .

وفاة آمنـــة

بعد أن ردت حليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرجت به أمه مرة إلى المدينة سنة ٥٧٥ - ٥٧٦ م لزيارة أخواله من بنى النجار أى أخوال جده عبد المطلب فمرضت وهى راجعة به وماتت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة وعمره ست سنين وكان عمر آمنة حين وفاتها ثلاثين سنة .

وفى الحديث أن رسول صلى الله عليه وسلم زار قبر أمه بالأبواء فى ألفِ مُقَنَّعٍ فبكى وأبكى أى فى ألف فارس مغطى بالسلاح .

فحضنته أم أيمن بركة الحبشية التى ورثها من أبيه[1] وحملته إلى جده عبد المطلب بن هاشم الذى كان يحبه ويكرمه فقد كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه . فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم :

« دعوا ابنى فوالله إن له لشأناً » .

ثم يجلسه معه عليه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع .

وبوفاة أمه صار يتيماً وقد أشير إلى يتمه فى القرآن قال تعالى : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى) وفى السنة التى استقل جده صلى الله عليه وسلم فيها بكفالته رمد الرسول رمداً شديداً .

عبد المطلب

يهنئ سيف بن ذى يزن

لما ظفر سيف بن ذى يزن الحميرى بالحبشة وذلك بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم أتته وفود العرب وأشرافها وكان من جملتهم وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم جد النبى صلى الله عليه وسلم وأمية بن عبد شمس وأسد ابن عبد العزى وعبد الله بن جُدعان فقدموا عليه وهو فى قصر يقال له غُمدان - بضم الغين - فطلبوا الإذن عليه فأذن لهم وتكلم عبد المطلب مهنئاً . ولما فرغ أدناه وقربه ثم استنهضوا إلى دار الضيافة وقاموا ببابه شهراً لا يصلون إليه ولا يؤذن لهم فى الانصراف . ثم انتبه إليهم انتباهة فدعا بعبد المطلب من بينهم فخلا به وأدنى مجلسه وقال[2] :

---

(١) أسلمت أم أيمن قديماً أول ظهور الإسلام وهاجرت إلى الحبشة وإلى المدينة وبايعت رسول الله وكان عليه السلام يقول : « أم أيمن أمى بعد أمى » وكان يزورها فى بيتها . ولما قبض رسول الله بكت ، فقيل لها مايبكيك على رسول الله ؟ فقالت إنى علمت أن النبى صلى الله عليه وسلم سيموت ولكن أبكى على الوحى الذى رفع عنا .

(٢) راجع الجزء الأول من العقد الفريد لابن عبد ربه والجزء الأول من تاريخ ابن عساكر .

ياعبد المطلب إنى مفوض إليك من علمى أمراً لو غيرك كان لم أبح له به ولكنى رأيتك معدنه فأطلعتك عليه فليكن مصوناً حتى يأذن الله فيه فإن الله بالغ أمره . إنى أجد فى العلم المخزون والكتاب المكنون الذى ادخرناه لأنفسنا واحتجبناه دون غيرنا خبراً عظيماً وخطراً جسيماً فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس كافة ولرهطك عامة ولنفسك خاصة » .

قال عبد المطلب :

« مثلك يا أيها الملك بر ، وسر ، وبشر ، ما هو ؟ فداك أهل الوبر زمراً بعد زمر » .

قال ابن ذى يزن :

« إذا ولد مولود بتهامة[1] . بين كتفيه شامة . كانت له الإمامة . إلى يوم القيامة »

قال عبد المطلب :

« أبيت اللعن لقد أبت بخير ما آب به أحد فلولا إجلال الملك لسألته عما ساره إلى ما ازداد به سروراً »

قال ابن ذى يزن :

« هذا حينه الذى يولد فيه أو قد ولد . يموت أبوه وأمه . ويكفله جده وعمه وقد وجدناه مراراً والله باعثه جهاراً ، وجاعل له منا أنصاراً يعز بهم أولياءه . ويذل بهم أعداءه . ويفتتح كرائم الأرض . ويضرب بهم الناس عن عرض . يخمد الأديان . ويكسر الأوثان ويعبد الرحمن . قوله حكم وفصل . وأمره حزم وعدل يأمر بالمعروف ويفعله . وينهى عن المنكر ويبطله » .

فقال عبد المطلب :

« طال عمرك . ودام ملكك . وعلا جدك . وعز فخرك . فهل الملك يسرنى بأن يوضح فيه بعض الإيضاح ؟ » .

فقال ابن ذى يزن :

« والبيت ذى الطنب . والعلامات والنصب . إنك ياعبد المطلب لجده من غير كذب » .

فخر عبد المطلب ساجداً . وقال ابن ذى يزن :

« ارفع رأسك . ثلج صدرك . وعلا أمرك . فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك ؟ » .

فقال عبد المطلب :

« أيها الملك . كان لى ابن كنت له محباً وعليه حدباً مشفقاً . فزوجته كريمة من كرائم قومه . يقال لها آمنة

---

(١) تهامة بالكسر سميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها ، من التهم وهو شدة الحر . يحدها بحر القلزم غربا والحجاز شمالا واليمن جنوبا .

بنت وهب بن عبد مناف . فجاءت بغلام بين كتفيه شامة فيه كل ما ذكرت من علامة ، مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه » .

قال ابن ذى يزن :

« إن الذى قلت لك كما قلت . فاحفظ ابنك واحذر اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا . اطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك فإنى لست آمن أن تدخلهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة . فيبغون لك الغوائل وينصبون لك الحبائل وهم فاعلون وأبناؤهم ، ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار مهاجره . فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق أن يثرب دار هجرته ، وبيت نصرته ، ولولا أنى أقيه الآفات ، وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه وأوطأت أقدام العرب عقبه ولكنى صارف إليك ذلك عن تقصير منى بمن معك » .

ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشر إماء سود وخمسة أرطال فضة وحلتين من حلل اليمن وكرش مملوءة عنبراً ، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال :

« إذا حال الحول فأنبئنى بما يكون من أمره » .

فما حال الحول حتى مات ابن ذى يزن . فكان عبد المطلب بن هاشم يقول « يامعشر قريش لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نفاد ولكن يغبطنى بما يبقى لى ذكره وفخره ولعقبى . » فإذا قالوا له وماذاك قال سيظهر بعد حين اهـ .

وفى أسد الغابة أن سيف بن ذى يزن أدرك النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره جده عبد المطلب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

كانت اليمن تابعة للحبشة فكره أهلها حكمهم ونهض سيف بن ذى يزن لاسترداد عرش آبائه فسعى لدى الإمبراطورية الرومانية لشد أزره فلم يفلح فالتجأ إلى ملك الفرس فأمده بجيش لحارب الحبشة وانتصر عليها وقتل واليها الذى كان يدعى مسروقاً وذلك حوالى سنة ٥٧٥ م ويوافق العام الذى توفيت فيه آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فليس هناك اعتراض على ذهاب الوفود العربية لتهنئة ابن ذى يزن من الوجهة التاريخية . أضف إلى ذلك أن الواجب يقضى على رؤساء العرب بذلك لقرابتهم وجوارهم واشتراك مصالحهم التجارية لأنهم كانوا يرحلون إلى اليمن للتجارة فى الشتاء كما كانوا يرحلون إلى الشام صيفاً .

وقد اعترض الأستاذ « فيل » Weil على صحة القصة المتقدمة من الوجهة التاريخية وفيما شرحه الأستاذ « برسيفال » M.C. de perceval رد على اعتراضه لأنه أثبت انهزام الحبشة لأول مرة فى سنة ٥٧٥ م وإن كانت لم تطرد نهائياً من اليمن إلا سنة ٥٩٧ م . أما الأستاذ موير فإنه لم يستطع تكذيب ذهاب الوفود ومعهم

عبدالمطلب (الذى كان وقتئذ حاكم مكة) تكذيباً باتاً بل قال إن القصة تشمل مبالغات كثيرة فيما يتعلق بالإخبار عن النبي المنتظر وهذا ما جعله يرتاب فيها . على أن المتتبع للسيرة النبوية يجد أن هذه القصة ليست فريدة فى بابها من حيث الإخبار برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن ما أخبر به سيف عبدَ المطلب قاله بحيرا لأبى طالب وعرفه سلمان الفارسى وأذاعه أحبار اليهود مما سنعنى بذكره مفصلاً فى كتابنا هذا إن شاء الله تعالى .

ولعل ما أخبر به ابن ذى يزن عبد المطلب كان من الأسباب التى جعلت عبد المطلب يكرم النبى صلى الله عليه وسلم ويقول لأولاده إذا نحّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجلسه لصغره : (دعوا ابنى فو الله إن له لشأنا) .

***

إن الطفل الصغير ، ذا المستقبل العظيم ، تظهر عليه آيات العظمة و الذكاء منذ نعومة أظفاره . ويكون له جاذبية خاصة تميزه عن سائر الأطفال بل تميزه عن إخوته إذا كان له إخوة . ويكون محبوباً مفضلاً على غيره أينما حل . وهذا هو شأن عظماء الرجال كما تلونا من سيرهم .

فكان عبد المطلب ، جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يرعاه رعاية خاصة ويؤثره على أولاده بسبب تلك الجاذبية والعظمة الكامنة فيه منذ الصغر . وهذه العظمة كانت تزداد وضوحاً كلما ترعرع وكبر . وقد ثبت بما رواه الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له جاذبية غريبة فكانوا يحبونه محبة فائقة ولا يخالفون له أمراً .

إن عبد المطلب لم يكن يعلم أن محمداً ، ذلك الطفل الصغير ، سيكون رسول الله ، لكنه كان يشعر فى قرارة نفسه بتلك الجاذبية التى لازمته طول مدة حياته وبتلك العظمة الكامنة فيه . وهذا هو السر فى محبته وشدة رعايته له ولا سيما أن عبد المطلب كان رجلاً عظيماً جليلاً ذا فطنة وفراسة فكان يقول لأولاده (دعوا ابنى فوالله إن له لشأناً) .

وفاة جده عبد المطلب

سنة ٥٧٨ م

وكفالة عمه أبى طالب

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى سنوات توفى جده عبد المطلب بمكة سنة ٥٧٨ م بعد عام الفيل بثمانى سنين وله عشر ومائةسنة . وقيل أكثر من ذلك وكان رسول الله يبكى خاف سريره ودفن بالحجون،جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها عند قبر جده قصى . ولما حضرته الوفاة أوصى به إلى عمه شقيق أبيه « أبى طالب » واسمه عبد مناف وعبد الكعبة وكان كريماً لكنه كان فقيراً كثير الأولاد . وكان يرى منه صلى الله عليه وسلم الخير والبركة ويحبه حباً شديداً ولذا لا ينام إلا إلى جنبه ويخرج به متى خرج . وأوصى عبد المطلب إلى أبى طالب أيضاً بسقاية زمزم وإلى ابنه الزبير بالحكومة وأمر الكعبة .

وفى هذه السنة مات حاتم الطائى وكسرى أنو شروان .

وقد أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال :

قدمت مكة وهم فى قحط فقالت قريش : يا أبا طالب أقحط الوادى وأجدب فهلم فاستسق فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجى تجلت عنه سحابة قتماء حوله أغيلمة (جمع غلام مصغر) فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ الغلام بأصبعه (أشار بأصبعه إلى السماء كالمتضرع الملتجئ) وما فى السماء قزعة (قطعة من سحاب) فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق واغدودق (كثر مطره) وانفجر الوادى وأخصب النادى وفى ذلك يقول أبو طالب مادحاً النبى صلى الله عليه وسلم :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم   فهم عنـده فى نعمة وفواضل

(الثمال) بكسر المثلثةالملجأ والغياثوقيل المطعم فى الشدة . (عصمة للأرامل) أى يمنعهم من الضياع والحاجة.

هذان بيتان من قصيدة طويلة لأبى طالب[1] . وقد شاهد أبو طالب هذا الاستسقاء فنظم هذه القصيدة وقد شاهده مرة أخرى قبل هذه ، فروى الخطابى حديثاً فيه أن قريشاً تتابعت عليهم سنو جدب فى حياة عبد المطلب فارتقى هو ومن حضره من قريش أبا قبيس (بالتصغير اسم الجبل المشرف على مكة) فقام عبد المطلب واعتضده

(١) ذكر القصيدة ابن إسحاق وهى أكثر من ثمانين بيتا .

صلى الله عليه وسلم فرفعه على عاتقه وهو يومئذ غلام فقال أيفع أو قرب ثم دعا فسقوا فى الحال فقد شاهد أبو طالب مادله على ما قال أعنى قوله :

« وأبيض يستسقى الغمام بوجهه »

وكان الاستسقاء فى الجاهلية الأولى بخلاف هذه الطريقة فكانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات واشتد الجدب واحتاجوا إلى الأمطار يجمعون بقراً معلقة فى أذنابها وعراقيبها السلع والعشر [1] ويصعدون بها إلى جبل وعر ويشعلون فيها النار ويفرقون بينها وبين أولادها ويسوقون البقر إلى ناحية المغرب دون سائر الجهات وتسمى هذه النار التى يشعلونها نار استمطار قال ابن أبى الحديد وإنما ضرموا النيران فى أذناب البقر تفاؤلا للبرق بالنار ويضجون بالدعاء والتضرع وكانوا يرون ذلك من الأسباب المتوصل بها إلى نزول الغيث .

كان عبد الله أبو رسول الله وأبو طالب من أم واحدة وروى أن أبا طالب قال لأخيه العباس ألا أخبرك عن محمد بما رأيت منه فقال بلى فقال : إنى ضممته إلىّ فكنت لا أفارقه ساعة من ليل ولا نهار ولا آتمن عليه أحداً . إنى كنت أنومه فى فراشى فأمرته ليلة أن يخلع ثيابه وينام معى فرأيت الكراهة فى وجهه لكنه كره أن يخالفنى وقال ياعماه اصرف بوجهك عنى حتى أخلع ثيابى إذ لا ينبغى لأحد أن ينظر إلى جسدى فتعجبت من قوله وصرفت بصرى حتى دخل الفراش فلما دخلت معه الفراش إذا بينى وبينه ثوب والله ما أدخلته فراشى فإذا هو فى غاية اللين وطيب الرائحة كأنه غمس فى المسك فجهدت لأنظر إلى جسده فما كنت أرى شيئاً وكثيراً ما كنت أفتقده من فراشى فإذا قمت لأطلبه نادانى ها أنا ياعم فأرجع ولقد كنت كثيراً ما أسمع منه كلاماً يعجبنى وذلك عند مضى بعض الليل ، وكنا لا نسمى على الطعام والشراب ولا نحمد بعده وكان يقول فى أول الطعام باسم الله الأحد فإذا فرغ من طعامه قال الحمد لله فتعجبت منه ثم لم أر منه كذبة ولا ضحكاً ولا جاهلية ولا وقف مع صبيان يلعبون [2]

---

(١) السلع والعشر : نوعان من الشجر .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٥٦٨ ، ٥٦٩ طبعة سنة ١٢٧٨ هـ .

السفر إلى الشام

سنـــة ٥٨٢ م

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة سنة ، خرج مع عمه أبى طالب إلى الشام فى ركب للتجارة سنة ٥٨٢م فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وهى قصبة حوران وكانت فى ذلك الوقت قصبة البلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان وكان ببصرى راهب يقال له بَحِيرا فى صومعة له . وكان ذا علم من أهل النصرانية ولم يزل فى تلك الصومعة راهباً ، إليه يصير علمهم عن كتاب يتوارثونه كابراً عن كابر .

فلما نزلوا ذلك العام ببحيرا وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام نزلوا به قريباً من صومعته . فصنع لهم طعاماً كثيراً وذلك عن شيء رآه وهو فى صومعته .

فقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريباً منه فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وتهصرت أغصانها (مالت) على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها .

فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع ثم أرسل إليهم فقال : إنى صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش . فأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحركم .

قال له رجل منهم والله يابحيرا إن لك لشأنا اليوم ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرا صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلكم . فاجتمعوا وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه فى رحال القوم تحت الشجرة . فلما نظر بحيرا فى القوم ولم ير الصفة التى يعرف ويجد عنده قال يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى ، قالوا يابحيرا ما تخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلاماً وهو أحدث القوم سنًا فتخلف فى رحالهم . فقال لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم ثم قام إليه رجل من قريش فاحتضنه وأجلسه مع القوم . فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرا فقال ياغلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ؟ وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما فأبى رسول الله أن يستحلفه بهما ، فقال له بحيرا فبالله إلا أخبرتنى عما أسألك عنه ؟ فقال له : سلنى عما بدا لك . فجعل يسأله عن أشياء من حاله

ومن نومه وهيئته فجعل رسول الله يخبره بخبره فيوافق ذلك ماعند بحيرا من صفته ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه وكان مثل أثر المحجمة (يعنى أثر المحجمة القابضة على اللحم حتى يكون ناتئاً) فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال له ماهذا الغلام منك ؟ قال ابنى. قال له بحيرا ماهو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً . قال فإنه ابن أخى . قال فما فعل أبوه قال مات وأمه حبلى به . قال صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليبغنّه شراً فإنه كائن له شأن عظيم فأسرع به إلى بلده . فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام (١)

إن بحيرا لما عرف رسول الله تخوّف عليه من اليهود فنصح لأبى طالب بالرجوع به سريعاً والمحافظة عليه . وقد روت حليمة أن اليهود كانوا إذا رأوه وعرفوه حض بعضهم بعضاً على قتله حتى إنها كانت تضطر إلى الاختفاء به والابتعاد عنهم . وعلى كل حال كانوا ينتظرون فى ذلك الوقت ظهور نبيّ وكان بعض المتعمقين فى الدين يعرفون علامات ذلك النبى ، وسنذكر فيما بعد أوصافه صلى الله عليه وسلم المذكورة فى التوراة ولاشك أن عالماً مثل بحيرا كان يعرفها .

الرد على مستر موير

قال مستر وليليام موير فى كتابه (حياة محمد) بشأن رحلته صلى الله عليه وسلم مع عمه إلى الشام :

« إن جميع الذين دونوا سيرة الرسول قد ذكروا تفاصيل كثيرة مضحكة عن هذه الرحلة تدل على عظامة نبوته المنتظرة » .

ثم أورد قصة سفره كما ذكرت فى هذا الكتاب وكما ذكرها المؤرخون . وإنا لاندرى لماذا كانت هذه التفاصيل مضحكة فى نظر مستر موير ! إنه يعترف بأن جميع المؤرخين رووا هذه التفاصيل ولا شك أنه يستقى منهم سيرة الرسول . ومن بينهم من يعتمد عليه ويحتج بكلامه ويرفض ما يريد رفضه إذا لم تكن الحادثة أو الرواية واردة فى كتبهم أو إذا طرأ تحريف فى نص كلامهم ، فهو يعوّل مثلا على ابن إسحاق وعلى الطبرى والواقدى وغيرهم فكان الواجب عليه باعتبار كونه مؤرخاً أن يقر هذه التفاصيل التى ذكرها جميع المؤرخين بلا استثناء . هذا وليس لديه رواية أثبت من رواياتهم تعارض أو تنفى ما ذكروه : أما كون هذه التفاصيل مضحكة ، فهذا مالم يقل به أحد من أكابر المؤرخين الذين استمد منهم مادته . وكان ينبغى عليه أن يقدر موقفه ويعلم أنه إنما يكتب تاريخ نبيّ لاشخص عادىّ . فالأنبياء والرسل تقع فى حياتهم أمور خارقة تدل على

(١) راجع قصة بحيرا فى سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى وطبقات ابن سعد . ولاصحة لما زعمه الدكتور اشبرنجر من أن أبا طالب رد محمدا مع بحيرا إلى مكة . Dr. Sprenger • Ile, p. 79 .

نبوتهم وتؤيد رسالتهم فالتى تقع قبل النبوة كالخوارق التى حدثت فى مولده صلى الله عليه وسلم وما شاهدته حليمة من تيسير الرزق والبركة وشق الصدر وماحدث أثناء سفره إلى الشام تسمى إرهاصات ، والتى تقع بعد النبوة تسمى معجزات . وكرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء غير أنهم لم يدعوا النبوة . ويجب الإيمان بالأوليا قال تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ولا شك أن محمداً صلى الله عليه وسلم وقعت منه خوارق العادات قبل النبوة وبعدها ولاسبيل إلى إنكار مجموع إرهاصاته ومعجزاته (أولا من الوجهة التاريخية لأن معاصريه وكبار الصحابة قد شاهدوها ورووها ورواها عنهم كبار المؤرخين ولو أبطلنا مشاهداتهم ورواياتهم لم يبق للتاريخ قيمة (ثانياً) من الوجهة الدينية لأن الدين يقر معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، فمن ذلك معجزات عيسى عليه السلام فإنه تكلم فى المهد صبياً وأبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الميت ومع ذلك لم يقل أحد من المسلمين إن هذه أمور مضحكة ، وكذا معجزات موسى عليه السلام وهى مذكورة فى التوراة والقرآن .

وفى العالم أناس ليسوا بأنبياء ولا أولياء تراهم فى كل زمان ممتازين على أبناء جيلهم يأتون أعمالا يستحيل على غيرهم الإتيان بمثلها . ولقد شاهدنا فى مصر فتى أمياً من أبناء أحد المزارعين ذاع صيته ونشرت الجرائد صورة هذا الطفل يضرب أرقاماً طوالًا وينطق بالجواب الصحيح بسهولة وبسرعة مدهشة من غير أن يخط بقلم ، وقد رأيته شخصياً أكثر من مرة وحار فيه علماء الرياضة وامتحنه كبار رجال الحكومة والصحافة . فهذا إنسان عادىّ له موهبة خاصة أذهلت عقول الخاصة . فكيف يمكن إنكار هذه الموهبة الخارقة والفتى لايزل حيًّا بين ظهرانينا يحل المسائل فى الطارق ويجيب كل سائل [1] .

فإذا جاء رجل مثل مستر موير بعد ذلك بجيل أو أكثر وزعم أن هذه خرافة مضحكة ابتدعها المصريون ، فهل يغيّر ذلك شيئاً من الحقيقة .

وقد تواترت الروايات أن زكريا عليه السلام كان يجد عند مريم فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء فثبت أن الذى ظهر فى حق مريم كان فعلاً خارقاً للعادة . ولم يقل أحد إن ذلك مضحك .

ويروى أن عيسى عليه السلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات أخذوا يتعنتون عليه وطالبوه بخلق خفاش فأخذ طيناً وصوره ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض قال تعالى (أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله) فهل قال أحد إن هذا أمر مضحك !؟ فلماذا يستبعدون الإرهاصات والمعجزات على رسول الله ؟ وروى القرآن أن عيسى تكلم فى المهد . وقد سأله الحواريون أن ينزل عليهم مائدة من السماء فسأل عيسى الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء تكون عيداً لهم وآية من الله فاستجاب الله دعاءه . فهل قال المسلمون إن هذا مضحك؟!

(١) كان هذا الغلام حيا فى أيام المؤلف .

من هو بحيرا ؟

كان بَحِيرا الذى مر ذكره راهباً مسيحيا فى الشام فى ذلك الوقت وقد ذكر فى الآداب البيزنطية أنه راهب نسطورى على مذهب أريوس و نسطور، وكان ينكر لاهوت المسيح ويقول إن تسميته بإله غير جائزة بل يجب أن يدعى كلمة وأن تدعى والدته مريم والدة الناسوت الذى هو مظهر الكلمة السامى لا والدة الله وكان بحيرا قساً عالما فلكياً منجماً وقد اتخذ صومعته بقرب الطريق الموصل إلى الشام وأقام هناك مدة تمر عليه العربان والقوافل فكان يأمرهم بعبادة الله الواحد وينهاهم عن عبادة الأصنام ، له تلميذ اسمه مذهب ، وكان من جملة المتتلمذين له سلمان الفارسى قبل إسلامه ، ولإسلامه قصة غريبة ستذكر فى موضعها .

قال مذهب : إن بحيرا توفى قتيلا بدسيسة بعض يهود أشرار ، ومعنى بحيرا فى السريانية عالم متبحر[1] وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن اسم بحيرا مشتق من الكلمة الآرامية بحيرا ومعناها المنتخب فهو لقب له ، قيل : إن اسم بحيرا المسيحى هو سرجيوس أو جرجيوس .

رعية رسول الله الغنم بمكة[2]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من نبى إلا قد رعى الغنم » قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال « وأنا » . وقال « ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم » قال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟ قال « وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط[3] » وعن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم نجنى الكباث[4] فقال : عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه فإنى كنت أجنيه إذ كنت راعى الغنم ، قلنا وكنت ترعى الغنم يا رسول الله ؟ قال نعم وما من نبى إلا قد رعاها . قيل : من حكم ذلك أن راعى الغنم التى هى من أضعف البهائم تسكن فى قلبه الرأفة واللطف فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هذب أولًا .

---

(١) راجع بحيرا فى دائرة المعارف العربية للبستانى

(٢) راجع طبقات ابن سعد الجزء الأول .

(٣) القراريط هى أجزاء من الدراهم والدنانير تشترى بها الحوائج الحقيرة . وقيل : إن القراريط موضع .

(٤) قال ابن سيده : الكباث بالفتح نضيج ثمر الأراك .

حرب الفجار [1]

(٥٨٠ ـ ٥٩٠)

أيام الفجار أربعة فالفجار الأول كان بين كنانة وهوازن . والثانى بين قريش وكنانة والثالث بين كنانا وبنى نضر بن معاوية ولم يكن فيه كبير قتال، والفجار الأخير بين قريش وكنانة كلها وهوازن وكان بين هذا الأخير ومبعث النبي صلى الله عليه وسلم خمس وعشرون سنة . وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم الفجار الأخير وهو ابن خمس عشرة سنة وكان سببها أن النعمان بن المنذر أمير الحيرة بعث بلطيمة [2] له إلى سوق عكاظ للتجارة وأجارها له عروة الرجال من بنى هوازن فنزلوا على ماء يقال له أوراة ، فوثب البرّاض ، خليع من بنى كنانة على عروة فقتله وهرب إلى خيبر فاستخفى بها ولقى بشر بن أبى خازم الأسدى الشاعر فأخبره الخبر وأمره أن يعلم ذلك عبد الله بن جدعان وهشام بن المغيرة وحرب بن أمية ونوفل بن معاوية الديلى وبلعاء بن قيس . فوافى عكاظ فأخبرهم فخرجوا موائلين منكشفين إلى الحرم وبلغ قيساً الخبر آخر ذلك اليوم فقال أبو براء رئيس هوازن : ما كنا من قريش إلا فى خدعة فخرجوا فى آثارهم فأدركوهم وقد دخلوا الحرم فناداهم رجل من بنى عامر يقال له الأدرم بن شعيب بأعلى صوته : إن ميعاد ما بيننا وبينكم هذه الليالى من قابل وأنا لا نأتلى فى جمع .

ولم تقم تلك السنة سوق عُكَاظ [3] فمكثت قريش وغيرها من كنانة وأسد بن خزيمة ومن لحق بهم من الأحابيش سنة يتأهبون لهذه الحرب وتأهبت قيس عيلان ، ثم حضروا من قابل ورؤساء قريش : عبد الله بن جدعان وهشام ابن المغيرة وحرب بن أمية وأبو أحيحة سعيد بن العاص وعتبة بن ربيعة والعاص بن وائل ومعمر بن حبيب الجمحى وعكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار وخرجوا متساندين [4] ويقال بل أمرُهم إلى عبد الله ابن جدعان وكان فى قيس أبو براء عامر بن مالك بن جعفر وسبيع وربيعة ابنا معاوية النضرى ودُريد بن الصِّمّة ومسعود ابن معتب وأبو عروة بن مسعود وعوف بن أبى حارثة المرى وعباس بن رعل السلمى . وهؤلاء هم الرؤساء والقادة .

---

(١) الفجار بكسر الفاء بمعنى المفاجرة كالقتال والمقاتلة ، وذلك أن قتالا كان فى الشهر الحرام ففجروا فيه (٢) اللطيمة : الإبل تحمل التجارة كالطيب والبز وأشباههما .

(٣) عكاظ . قال الليث : سمى عكاظ عكاظاً لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضاً بالفخار أى يدعك . وعكظ فلان خصمه باللدد والحجج عكظا . وحكى السهيلى ، كانوا يتفاخرون فى سوق عكاظ إذا اجتمعوا . وعكاظ اسم سوق من أسواق العرب فى الجاهلية وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ فى كل سنة ويتفاخرون بها ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون . قال الواقدى ، عكاظ بين نخلة والطائف . وذو المجاز خلف عرفة . ومجنة بمر الظهران . وهذه أسواق قريش والعرب ولم يكن فيها أعظم من عكاظ . قالوا كانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوال ثم تنتقل الى سوق مجنة فتقيم فيها عشرين يوما من ذى القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذى المجاز فتقيم فيها الى أيام الحج .

(٤) أى ليس لهم أمير واحد يجمعهم

ويقال بل كان أمرهم جميعاً إلى براء وكانت الراية بيده وهو الذى سوّى صفوفهم فالتقوا فكانت الدبرة (الهزيمة) أول النهار لقيس وكنانة على هوازن ومن ضوى إليهم . ثم صارت الدبرة آخر النهار لقريش وكنانة على قيس فقتلوهم قتلا ذريعاً حتى نادى عتبة بن ربيعة يومئذ — وإنه لشاب ما كان له ثلاثون سنة — إلى الصلح فاصطلحوا على أن يعدوا القتلى وودت قريش لقيس ما قتلت فضلا عن قتلاهم ووضعت الحرب أوزارها فانصرفت قريش وقيس .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الفجار فقال « قد حضرته مع عمومتى ورميت فيه بأسهم وما أحب أنى لم أكن فعلت » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كنت أنبل على أعمامى » يعنى أناولهم النبل .

حلف الفضول(١)

كان حلف الفضول منصرف قريش من الفجار . وكان أشرف حلف . وأول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم فى دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً فتعاقدوا وتعاهدوا بالله لنكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه مابل بحر صوفة ، وفى التآسى فى المعاش ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم وإنى أعذر به هاشم وزهرة وتيم . تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بل بحر صوفة ولو دعيت به لأجبت وهو حلف الفضول » .

هل سافر النبى إلى اليمن ؟

قال الأستاذ فيل الألمانى Weil إن رسول الله سافر فى السادسة عشرة من عمره إلى اليمن مع عمه الزبير فى رحلة تجارية . ورد عليه الدكتور اشبرنجر Dr Sprenger إن هذا الخبر ليس له أساس صحيح وإنه لم يجده فى الكتب الموثوق بها . والحقيقة كما قال الدكتور اشبرنجر . نعم قد ذكر الطبرى رواية جاء فيها أن خديجة إنما كانت استأجرت رسول الله ورجلا آخر من قريش إلى سوق حباشة بتهامة الخ ، غير أنه جاء فى الطبرى بعد ذلك أن الواقدى قال « فكل هذا خطأ والمشهور رواية ابن إسحاق وهى رحلته إلى الشام » كذلك لم يسافر الرسول إلى الحبشة بطريق البحر ولا إلى فارس ولا إلى مصر فكل هذا من الأوهام الكاذبة .

(١) الحلف أصله المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق فما كان منه فى الجاهلية على الفتن والقتال والغارات فذلك الذى ورد النهى عنه فى الإسلام وما كان منه فى الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام فذلك الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » يريد المعاقدة على الخير ونصرة الحق .

ابتعاده صلى الله عليه وسلم عن معايب الجاهلية

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره كشف العورة قبل البعثة . وسمع وهو صغير من دار من دور مكة غناء وصوت دفوف فى حفلة زواج فنام فما أيقظه إلا حر الشمس ، وكان يأبى أن يحضر مع قومه العيد الذى كانوا يقيمونه لصنم يقال له (بوانة) حتى غضب عليه عمه أبو طالب وعماته . ولم يذق شيئاً ذبح على الأصنام حتى أكرمه الله برسالته . ولم يدخل فى يهودية أو نصرانية ، واعتزل الأوثان ونهى عن الوأد[1] وكان يحيها وإذا أراد أحد ذلك أخذ الموءودة من أبيها وتكفلها . ولم يلعب الميسر ولم يشرب خمراً قط مع أنها كانت منتشرة إلا أن تحريم الخمر ليس من خصائصه صلى الله عليه وسلم بل حرمها على نفسه كثير فى الجاهلية لما فى شربها من آفات وسيئات ، وحرمها من أجداده صلى الله عليه وسلم قُصى وعبد المطلب . لكن الإسلام حرمها تحريماً عامًّا وسنّ عقوبة لشاربها .

وعادة وأد البنات من أفظع الجرائم التى تقشعر منها الأبدان فحرمها واستأصل شأفتها الإسلام وطهّر العرب منها . قال تعالى فى سورة التكوير : (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) .

الرحلة الثانية

إلى الشام ٥٩٥ م

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة ، قال له أبو طالب أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان علينا وهذه عير قومك[2] وقد حضر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيرانها فلو جئتها فعرضت عليها نفسك لأسرعت إليك . وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له فأرسلت إليه فى ذلك وقالت له أنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك . فخرج مع غلامها ميسرة وجعل عمومته يوصون به أهل العير حتى قدم بُصرى[3] من الشام وهى مدينة على طريق دمشق فنزلا فى ظل شجرة ، فقال نسطور الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبىّ . ثم قال لميسرة : أفى عينيه حمرة ؟ قال : نعم لا تفارقه . قال : هو نبىّ وهو آخر الأنبياء . وكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتد الحر ، يرى ملكين يظلان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشمس فوعى ذلك كله ميسرة وباعوا تجارتهم وربحوا ضعف ما كانوا يربحون ، فلما رجعوا أخبرها ميسرة بما قال الراهب نسطور . فلما رأت خديجة الربح الكثير أضعفت له ضعف ما سمت له .

---

(١) الوأد : هو أن يعمد الرجل إلى ابنته فيقذفها فى حفرة من الأرض ويهيل عليها التراب ثم يدعها إلى أن تموت . والقبائل التى عرف عنها الوأد ربيعة وكندة وتميم وبعض أفراد من القبائل الأخرى . وكان صعصعة بن ناجية التميمى يبذل المال فى سبيل شراء المولودة ليخلصها من الوأد وكان زيد بن عمرو بن نفيل القرشى يمنع ذلك أيضا .

(٢) العير ، الإبل التى تحمل الميرة

(٣) Bostra

قال مستر موير عند ذكر هذه الرحلة « إن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن فى وقت من الأوقات طامعاً فى الغنى ، إنما كان سعيه لغيره ولو ترك الأمر لنفسه لآثر أن يعيش فى هدوء وسلام قانعاً بحالته ولما فكر فى رحلة كهذه ، ولكن لما عرض عليه عمه السفر شعرت نفسه الكريمة بضرورة تفريج كربة عمه فأجاب طلبه مسروراً » .

تزويج رسول الله

خديجة رضى الله عنها

كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى امرأة حازمة جلدة شريفة غنية جميلة من أواسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً ، وكانت تدعى فى الجاهليـة بالطاهرة وبسيدة قريش . وقد عرض كثيرون عليهـا الزواج فلم تقبل . فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من رحلته إلى الشام ، أرسلت إليه من يرغبه فى الزواج وقيل : إنها أرسلت أختها وقيل : أرسلت نفيسة مولاة لها . فقال : ما بيدى ما أتزوج به . فقالت : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : فمن هى ؟ قالت له : خديجـة . قال : فأنا أفعل . فذهبت فأخبرت خديجة فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها لحضر ودخل رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى عمومته فزوجه أحدهم . فقال عمرو بن أسد : « هذا البضـع لا يقرع أنفه[1] » . وتزوجها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة . وذلك بعد عودته من الشام بشهرين .

وقد حضر رؤساء مضر وحضر أبو بكر رضى الله عنه ذلك العقد فقال أبو طالب :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معد (معدنه) وعنصر مضر (أصله) وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، فإن كان فى المـال قل فإن المـال ظل زائل وأمر حائل . ومحمـد من قد عرفتم قرابتـه وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لهـا ما آجله وعاجله كذا[2] ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم » . فلمـا أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل ابن عم خديجة فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت فنحن سادة العرب وقادتها وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يرد أحد من النـاس فخركم وشرفكم ؛ وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهـدوا

(١) أى لا يضرب أنفه لكونه كريماً لأن غير الكريم إذا أراد ركوب الناقة الكريمة يضرب أنفه ليرتدع بخلاف الكريم .

(٢) أصدقها رسول الله صلى الله عليـه وسلم اثنتى عشرة أوقية ونصفا من الذهب والأوقية أربعون درهماً شرعيا ، وقيل : كان صداقها عشرين بكرة (البكرة الأنثى من الإبل) ولا منافاة لجواز كون البكرات عوضاً عن ذلك القدر .

علىّ معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على كذا » ثم سكت .

فقال أبو طالب : قد أحببت أن يشركك عمها . فقال عمها عمرو بن أسد :

« اشهدوا علىّ يامعشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد » فقبل النبى صلى الله عليه وسلم النكاح وشهد على ذلك صناديد قريش .

وأولم عليها صلى الله عليه وسلم فنحر جزوراً وقيل جزورين وأطعم الناس وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف ، وفرح أبو طالب فرحاً شديداً وقال : الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب ودفع عنا الغموم ، وهى أول وليمة أولمها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدى : ويقولون أيضاً إن خديجة أرسلت إلى النبى صلى الله عليه وسلم تدعوه إلى نفسها (تعنى التزويج) وكانت امرأة ذات شرف وكان كل قرشى حريصاً على نكاحها قد بذلوا الأموال لو طمعوا بذلك فدعت أباها فسقته خمراً حتى ثمل ونحرت بقرة وخلقته بخلوق وألبسته حلة حبرة ثم أرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمومته فدخلوا عليه فزوجه . فلما صحا قال : ما هذا العقير وما هذا العبير وما هذا الحبير ؟ قالت : زوجتنى محمد بن عبد الله . قال:مافعلت ، أنى أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل . قال الواقدى: وهذا غلط والثبت عندنا المحفوظ من حديث محمد بن عبد الله بن مسلم عن أبيه عن محمد بن جبير بن مطعم ومن حديث ابن أبى الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، ومن حديث ابن أبى حبيبة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس « أن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أباها (خويلد بن أسد) مات قبل الفجار [1] » .

تزوج خديجة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهى بكر ـ عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ثم هلك عنها وتزوجها بعده أبو هالة النباش بن زرارة .

وولدت خديجة لعتيق ، هندا بنت عتيق وولدت لأبى هالة هندا بنت أبى هالة وهالة بن أبى هالة ، فهند بنت عتيق وهند وهالة ابنا أبى هالة وكلهم إخوة أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خديجة .

وبعد زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بخديجة لم يسافر فى رحلة للتجارة بل أقام بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة .

وولدت خديجة لرسول الله جميع ولده إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية . فأكبر أولاده القاسم وبه كان يكنى « أبا القاسم » ثم الطيب ، ثم الطاهر، ثم رقية ، ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة . قال الواقدى : ولم أر أصحابنا يثبتون الطيب ويقولون هو الطاهر .

---

(١) راجع أيضاً طبقات ابن سعد الجزء الأول طبع ليدن ص ٨٥ وقال الحلبى فى سيرته « وفى كون المزوج لها أباها خويلدا أو كونه حضر تزويجها نظر لأن المحفوظ عن أهل العلم أن خويلد بن أسد مات قبل حرب الفجار » .

تجديد بناء الكعبة

سنة ٦٠٥ م

الكعبة هى بيت الله الحرام ، وهو بناء مربع الشكل فى وسط المسجد الحرام ، بابه مرتفع على الأرض نحو قامة . وقد بنى الكعبة إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وهو رسول من أولى العزم أرسله الله إلى الكلدانيين فى جنوب بابل وكانوا يعبدون النجوم والأوثان . ثم ترك إبراهيم قومه حين عصوه وهاجر إلى مدين وهناك أمره الله تعالى بالهجرة بولده إسماعيل [1] وأمه هاجر إلى بلاد العرب فقصدوا مكة ثم أمره الله ببناء الكعبة . قال السيد الإمام التقى الفاسى : بناء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام الكعبة ثابت بالكتاب والسنة . وروى الأزرقى فى تاريخه عن ابن إسحاق أن الخليل عليه الصلاة والسلام لما بنى البيت جعل طوله فى السماء تسع أذرع وجعل طوله فى الأرض من قبل وجه البيت الشريف من الحجر الأسود إلى الركن الشامى اثنتين وثلاثين ذراعاً وجعل عرضه فى الأرض من قبل الميزاب من الركن الشامى إلى الركن الغربى الذى يسمى الآن الركن العراقى اثنتين وعشرين ذراعاً وجعل طوله فى الأرض من جانب ظهر البيت الشريف من الركن الغربى المذكور إلى الركن اليمانى إحدى وثلاثين ذراعاً وجعل عرضه فى الأرض من الركن اليمانى إلى الحجر الأسود عشرين ذراعاً ، وجعل الباب لاصقاً بالأرض غير مرتفع عنها ولا مبوّب حتى جعل لها تبع الحيرى باباً .

ومقام إبراهيم عليه السلام بإزاء وسط البيت الذى فيه الباب . قال ياقوت فى معجم البلدان : إن خصائص الكعبة كثيرة وفضائلها لا تحصى ولا يسع كتابنا هذا إحصاء الفضائل وليست أمة فى الأرض إلا وهى تعظم ذلك البيت وتعترف بقدمه وفضله وأنه من بناء إبراهيم حتى اليهود والنصارى والمجوس والصابئة . وقد بقيت الكعبة على هيئتها من عمارة إبراهيم عليه السلام إلى أن بلغ النبى صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة من عمره فخافت قريش أن تهدم لتصدع جدارنها بسيل دخلها بعد حريق أصابها وكانت رضماً [2] فوق القامة وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جُدة [3] فتحطمت فخرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش فابتاعوا خشبها وأعدوه لتسقيفها .

---

(١) إسماعيل أكبر ولد إبراهيم كان اسمه اشمويل فعرب ، وأمه هاجر من القبط من قرية أمام العرمى قريبة من فسطاط مصر هاجر إبراهيم إلى مكة ومعه إسماعيل وهو ابن سنتين وأمه هاجر ثم انصرف إبراهيم إلى الشام ، واسماعيل أول من تكلم بالعربية وهو ابن ثلاث عشرة سنة وكان كلام الناس قبل ذلك العبرانية . ولما بلغ إسماعيل عشرين توفيت أمه هاجر وهى ابنة تسعين سنة فدفنها إسماعيل فى الحجر وأوحى الله إلى إبراهيم أن يبنى البيت فبناه معه وتوفى إسماعيل بعد أبيه فدفن داخل الحجر مما يلى الكعبة مع أمه هاجر .

(٢) الرضم أن تنضد الحجارة بعضها على بعض من غير ملاط .

(٣) فى حديث بناء الكعبة عن وهب بن منبه ـ أن سفينة حجتها الريح إلى الشعيبة وهو مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز وكان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة . ومعنى حجتها الريح : دفعتها .

وكان بمكة نجار يدعى باقوم مولى سعيد بن العاص وصانع المنبر الشريف فأمروه أن يلي بناء الكعبة وكان صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة معهم فلما بلغ البناء موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يضع الحجر موضعه وأرادت كل قبيلة رفعه وتواعدوا للقتال ثم تشاوروا بينهم فجعلوا أول من يدخل من باب بني شيبة يقضي بينهم . فكان أول من دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه ، قالوا هذا الأمين رضينا به وأخبروه الخبر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه وبسطه على الأرض ثم أخذ الحجر فوضعه فيه ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه . ففعلوا فلما بلغوا موضعه ، وضعه هو بيده الشريفة فرضوا بذلك وانتهوا عن الشرور . وكانت قريش تسمي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحي الأمين . لوقاره وهديه وصدق لهجته وبعده عن الأدناس .

وفي كتاب تهذيب الأسماء أن أول امرأة عربية كست الكعبة الحرير ، نتيلة أم العباس وسببه أن العباس ضاع وهو صغير فنذرت إن وجدته أن تكسوها فوجدته ففعلت .

تسميته بالأمين

صلى الله عليه وسلم

جاء في دائرة المعارف البريطانية في ترجمة حياته صلى الله عليه وسلم أن تسميته بالأمين مأخوذة من اسم أمه (آمنة) وإن كان العرب لا يجعلون علاقة بينهما في هذه التسمية . هذا ما زعمه كاتب الترجمة في دائرة المعارف البريطانية فهو يريد أن يقول إن العرب لم يسموه أميناً لأمانته بل لأن اسم والدته آمنة فلا فخر ولا فضل . والحقيقة التاريخية هي أنه صلى الله عليه وسلم سمي أميناً لأمانته ولذا استخدمته خديجة في تجارتها فربحت ربحاً طائلاً ثم تزوجته لثقتها به ، وكانوا يستأمنونه على ودائعهم وقد جعله قومه حكما بينهم في بناء الكعبة عن طيب نفس . قال المسيو سيديو Sédillot في كتابه تاريخ العرب [1] « ولما بلغ محمد من العمر خمساً وعشرين سنة استحق بحسن سيرته واستقامة سلوكه مع الناس أن يلقب (بالأمين) وقال موير Muir [2] إنه لقب بالأمين بإجماع أهل بلده لشرف أخلاقه . وكتب لفظة أمين بالإنجليزية هكذا Faithful .

وكان أهل مكة يستأمنونه صلى الله عليه وسلم ويودعون عنده ودائعهم إلى أن هاجر إلى المدينة وترك علياً مكانه فبقي حتى رد الودائع إلى أربابها ثم هاجر .

(١) الطبعة الثانية سنة ١٨٧٧ الجزء الأول صفحة ٥٨ (٢) كتاب تاريخ حياة محمد صفحة ٢٠ طبعة سنة ١٩١٢

خلقه صلى الله عليه وسلم

فى طفولته وشبابه

الأخبـار عن حاله صلى الله عليـه وسلم فى طفولته قليـلة غير مستفيضة لعدم العناية بتدوين السيرة وقتئذ. ونذكر هنا أنه كان صلى الله عليـه وسلم فى صغره يلعب ذات مرة مع غلمـان قريش فـكانوا يحملون الحجارة فى أُزُرهم فتبدو عوراتهم، فخالفهم صلى الله عليه وسلم وصار يحملها على رقبته لئلا ترى عورته.

وعن علىّ - رضى الله عنـه - قال سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول: ما هممت بقبيح ممـا همّ به أهل الجاهليـة حتى أكرمنى الله بالنبوة إلا مرتين من الدهر كلتـاهما عصمنى الله عز وجل من فعلهما: قلت لفتى كان معى من قريش بأعلى مكة فى غنم لأهله يرعاها: أبصر لى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان[1] قال: نعم، فلمـا جئت أدنى دار من مكة سمعت غنـاء وصوت دفوف ومزامير. فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة. فلهوت بذلك الصوت حتى غلبنى النوم فنمت، فما أيقظنى إلا مسُّ الشمس فرجعت إلى صاحبى. فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك.

إن الله تعالى إذا أراد أن يحفظ شخصاً، سد عليه أبواب الملاهى والفساد وأوجه العقبات فى طريقها وصده عن سبلها بكيفيـة لا تخطر على بال. لذلك سلط جل شأنه عليـه صلى الله عليـه وسلم النعاس حتى لا يشاهد شيئاً مما كان يجرى فى أفراح الجاهلية من لهو وفرح وخمر وما شاكل ذلك، ليبقى نقيًّا طاهراً من كل شائبة بل من كل ريبة.

وعن أم أيمن قالت: كانوا فى الجاهلية يجعلون لهم عيداً عند بوانة، وهو صنم من أصنام مـكة تعبده قريش وتعظمه وتنسك أى تذبح له وتحلق عنده وتعـكف عليـه يوماً إلى الليل فى كل سنة، فـكان أبو طالب يحضر مع قومه ويكلم رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن يحضر ذلك العيد معه فيأبى ذلك. قالت حتى رأيت أبا طالب غضب عليـه ورأيت عماته غضبن عليـه أشد الغضب وجعلن يقلن: إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا وما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تـكثر لهم جمعاً! فلم يزالوا به حتى ذهب معهم. ثم رجع فزعاً مرعوباً. فقلن: ما دهاك؟ فقال: إنى أخشى أن يكون بى لم (أى لمة وهى المس من الشيطان) فقلن: ما كان الله ليبتليك

---

(١) السمر: الحديث ليلا.

بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك . فما الذى رأيت ؟ فقال : إنى كلما دنوت من صنم تمثّل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : « وراءك يا محمد لا تمسه » قالت : فما عاد إلى عيدهم حتى تنبأ صلى الله عليه وسلم .

ولم يذق صلى الله عليه وسلم شيئاً ذبح على الأصنام . وقيل له عليه الصلاة والسلام : هل عبدت وثناً قط ؟ قال : لا . قالوا : هل شربت خمراً ؟ قال : ما زلت أعرف أن الذى هُم عليه كفر . وما كنت أدرى ما الكتاب ولا الإيمان (أى كيفية الدعوة إليهما) . وعنه صلى الله عليه وسلم : لما نشأتُ بغضت إلى الأصنام والشعر .

وكان عليه الصلاة والسلام يرعى الغنم فى صغره لزيادة الرحمة فى قلبه فكان يرعاها لأهل مكة كما تقدم .

وحضر النبىّ صلى الله عليه وسلم حرب الفجار . قيل وكان له من العمر ١٤ سنة وكان يناول عمومته السهام .

وحضر صلى الله عليه وسلم حلف الفضول .

ولما سافر إلى الشام فى تجارة لخديجة — رضى الله عنها — ظهرت أمانته ونجح فى تجارته وربح ربحاً طائلاً . قال ميسرة غلام خديجة : يا محمد اتجرنا لخديجة (كذا سفرة) ما رأينا ربحاً قط أكثر من هذا الربح . وقد أحبه ميسرة حبّاً عظيما لما رآه من أمانته وحسن أخلاقه .

ومما يدل على رجاحة عقله وحضور بديهته لحل المشكلات ، الطريقة التى ابتكرها لإشراك المتنازعين فى وضع الحجر الأسود .

وقد وثقت به خديجة لما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه فاستأجرته ليتاجر لها وضاعفت له الأجر وكانت — رضى الله عنها — امرأة عاقلة شريفة فلما عاد صلى الله عليه وسلم وأخبرها غلامها عن حميد صفاته دعته عليه الصلاة والسلام وقالت له : إنى رغبت فيك لقرابتك منى وشرفك فى قومك وأمانتك عندهم وحسن خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها فلما تزوجها كان مثال الزوج الصالح وكان موضع احترامها وتقديرها . يدل على ذلك قولها له بعد نزول الوحى وهى تهدئ روعه : « والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » وقد كانت أول من آمن به . وقال رسول الله فى حقها : « أفضل نساء الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم » (امرأة فرعون) . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثنى عليها كثيراً أمام عائشة — رضى الله عنها — حتى أدركتها الغيرة . فالوفاق بينهما فى المعيشة الزوجية كان بالغاً حده ولا شك أن هذا من حسن الخلق وصفاء السيرة والسريرة . ولما أدركت عائشة رضى الله عنها — الغيرة من حسن ثنائه صلى الله عليه وسلم على خديجة قالت : هل كانت

إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها . فغضب رسول الله حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال : « لا والله ما أبدلنى الله خيراً منها . آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى وكذبنى الناس ، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها أولاداً إذ حرمنى أولاد النساء » قالت عائشة فقلت فى نفسى لا أذكرها بسيئة أبداً . فكان عليه السلام متجليا فى صغره وشبابه بخير الخلال وأجل الصفات . بعيداً عن الشبهات .

رسالة محمد

صلى الله عليه وسلم

إثباتها من التوراة والإنجيل

أرسل النبى صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة ناسخاً بشريعته الشرائع الماضية ، قال تعالى . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة سبأ

وقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾

سورة الفرقان

وقد وردت البشارة به فى التوراة والإنجيل والزبور

فجاء فى قول يوحنا حكاية عن المسيح عليه السلام (ص ١٤ ف ١٥) ما يأتى :

(إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الآب فيعطيكم فارقليطاً آخر ليمكث معكم إلى الأبد . روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم وفيكم) .

وفى ص ١٦ ف ٥ : (وأما الآن فأنا ماض إلى الذى أرسلنى وليس أحد منكم يسألنى أين تمضى لكن لأنى قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم لكنى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الفارقليط . Paraclet لكن إن ذهبت أرسله إليكم ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطيئته وعلى بر وعلى دينونة . أما على الخطيئة فلأنهم لا يؤمنون بى ، وأما على بر فلأنى ذاهب إلى أبى ولا ترونني أيضا . وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين . إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية . ذاك يمجدنى لأنه لا يأخذ مما لى ويخبركم)

إن هذه الترجمة رديئة فالأسلوب ضعيف والألفاظ مكررة تكراراً لا مسوغ له والجمل مفككة خالية

من الروح ولذا لا يتأثر منهـا القارئ وترجمة الفارقليط أو البارقليط بالعربية (أحمد) كما قال تعالى فى كتابه العزيز : (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)[1] وقد تصرف المترجمون فى هـذه اللفظة فـكانوا تارة ينقلونها عن اللغات الثلاث الأصلية وهى : العبرانية والـكلدانية واليونانية بالمعزى وأخرى بالخاص أو يكتبونها البارقليط كما هى :

ومن يقرأ هذه النصوص وينعم النظر فى معناها ومرماها يجد أن عيسى عليه السلام بشر برسالة نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام فسماه فارقليطاً آخر يعنى رسولا غيره تبقى شريعته إلى قيام الساعة ولا يأتى بعده نبى ولا رسول . وقال إنه إن لم ينطلق لا يأتى الفارقليط وقد بكّت النبى صلى الله عليه وسلم النصارى واليهود الذين أنـكروا نبوة المسيح وأساءوا إليه وحرفوا دينه وقد أرشد النبى عليه الصلاة والسلام الناس كافة إلى الحق وكان لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به أى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحىٌ يوحى ، وثبت أنه أخبر بأمور آتية وقد وقع ما أخبر به ومجّد عيسى عليه السلام وتدل آيات القرآن الـكريم على ما ورد فى الإنجيل فإن النبى صلى الله عليه وسلم (الفارقليط الذى أتى بعـــد عيسى عليه السلام) لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به وأنه يرشد إلى الحق . قال تعالى : (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) .

وإذا كان الفارقليط لا يشير إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإلى من يشير إذن ؟ وأين الذى جاء بعد عيسى عليه السلام ؟ ومن هو الذى بكّت العالم على خطيئته ومن هو روح الحق الذى لا يتكلم من نفسه الخ ، أليس هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء فى وصية موسى الـكليم عليه السلام كما فى ص ٢٣ ف ٢ : من التثنية ولفظه :

(قال جاء الرب من سيناء وأشرق من ساعير واستعان من فاران ومعه ألوف الأطهار فى يمينه سنة من نار . أحب الشعوب جميع الأطهار بيده والذين يقتربون من رجليه يقبلون من تعليمه) ،

هذه الوصية هى آخر وصايا موسى عليه السلام . وقد أخبر بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ووضح لهم أن

---

(١) سورة الصف . وقد سأل المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار الدكتور كارلو نلينو المستشرق الإيطالى عن معنى كلمة باركليت فقال : إن معناها « الذى له حمد كثير » وهذا يوافق أفعل التفضيل من حمد .

الله جاء من سيناء [١] وأوصاكم بواسطتى باتباع التوراة ويستشرق عليكم بواسطة عيسى من ساعير وهى جبال فلسطين فلم يبق إلا أن يستعلن من جبال فاران(والمراد بها مكة وهى البلدة التى سكنها إسماعيـل) وألوف الأطهار هم الصحابة رضوان الله عليهم . فى يمينه سنة من نار وهى الشريعة الإسلامية لأنها أحرقت المشركين .

ولما كان من المهم أن نعرف مكان فاران التى وردت فى وصية موسى بحثت عنها فى أشهر المراجع الموثوق بها فقد جاء فى معجم ياقوت جزء ٦ صفحة ٣٢٣ طبع مصر سنة ١٣٢٤ (فاران هى من أسماء مكة ورد ذكرها فى التوراة قيل هى اسم لجبال مكة) وجاء فى كتاب صفة جزيرة العرب للهمدانى طبع ليدن ١٨٨٣ صفحة ١٧٠ : وأما معدن فران فإنه نسب إلى فَرانَ بن بَلِيّ بن عمرو كما قيل فى جبال الحرم جبال فاران وذكرت بذلك فى التوراة وهى نسبة إلى فاران بن عمليق . وجاء فى كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام تأليف قطب الدين النهروانى المكى طبع ليبـيك سنة ١٨٥٧ ص ١٨ عند ذكر أسماء مكة ما يأتى :

(ومن أسمائها كوثى لأن كوثى اسم لمحل من قيقعان وفاران والمقدسة وقرية النمل لكثرة نملها والحاطمة لحطمها للجبابرة والوادى والحرم الخ) فلم يبق شك فى أن فاران جبال بمكة أو هى مكة نفسها سميت باسم تلك الجبال .

وجاء فى سفر أشعيا الإصحاح الحادى والأربعين (أنصتى إلىّ أيتها الجزائر ولتجدد القبائل قوة ليقتربوا ثم يتـكلموا . لنتقدم معاً إلى المحاكمة من أنهض من المشرق الذى يلاقيه النصر عند رجليه دفع أمامه أمماً وعلى ملوك سلطه . جعلهم كالتراب بسيفه وكالقش المنـذرى بقوسه . طردهم . مر سالمـا فى طريق لم يسلكه برجليه من فعل وصنع داعياً الأجيال من البدء أنا الرب الأول ومع الآخرين أنا هو) والمراد بالقبائل قبائل العرب وصاحب السيف والقوس هو محمد صلى الله عليه وسلم فإن عيسى لم يحارب أصلا .

وجاء فى الفصل ١٨ من الـكتاب الخامس من سفر التثنية أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام (قل لبنى إسرائيل إنى أقيم لهم آخر الزمان نبياً مثلك من بنى إخوتهم) وكل نبى بعث بعد موسى كان من بنى إسرائيل وآخرهم عيسى عليه السـلام فلم يبق أن يكون من بنى إخوتهم إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه من ولد إسماعيل وإسماعيل أخو إسحاق وإسحاق جد بنى إسرائيل فهذه هى الأخوة التى ذكرت فى التوراة ولو كانت هذه البشارة بنبى من أنبياء بنى إسرائيل لم يكن لذكر إخوتهم معنى .

وجاء فى كتاب الرؤيا المنسوب إلى يوحنا الإنجيلى فى ص ١٩ ف ١١ ما نصه : (ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أميناً صادقاً وبالعدل يحـكم ويحارب وعيناه كلهيب نار وعلى رأسه تيجان

(١) يريد بمجيئه ظهور دينه وتوحيده بما أوحى إلى موسى بسيناء .

كثيرة وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو) وهناك قال إنه يحارب ولا شك أنه محمد صلى الله عليه وسلم . وقد كان يدعى قبل الرسالة بالأمين الصادق كما أسلفنا .

وجاء فى رؤيا يوحنا اللاهوتى ص ١٩ ف ١٥ (ومن فمه يخرج سيف ماض لكى يضرب به الأمم وهو سيرعاهم بعصا من حديد وهو يدوس معصرة خمر سخط وغضب الله القادر على كل شىء) والمراد من قوله يخرج من فمه سيف ماض الخ هو القرآن الكريم . وقد داس النبى صلى الله عليه وسلم معصرة خمر أعنى أنه حرم الخمر تحريماً قطعيا . أما عيسى فقد روى عنه المسيحيون أنه قلب الماء خمراً فى عرس قانا وروى عنه أنه قال عن الخمر إنها دمه .

هذه النصوص المذكورة فى التوراة والإنجيل ناطقة برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، لهذا لما كان بحيرا الراهب متبحراً فى علم النصرانية فقد عرف النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره برسالته مما اطلع عليه فى الكتب المقدسة ففيها أوصافه عليه الصلاة والسلام وشىء من إرهاصاته ومعجزاته وكانت حليمة السعدية تعرض النبى صلى الله عليه وسلم على اليهود والكهان وتحدثهم بشأنه فيعرفونه من أوصافه وأحواله وقد أخبر برسالته عليه الصلاة والسلام ورقة بن نوفل ابن عم خديجة وكان شيخاً نصرانيًّا عند ما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى من الوحى إذ قال له « هذا هو الناموس الذى نزل الله على موسى » إلى آخر ما قال مما سيأتى ذكره فى موضعه . هذا وقد أنذر اليهود برسول الله صلى الله عليه وسلم وإليك ما جاء فى سيرة ابن هشام :

إنذار يهود

برسول الله صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لنا ما كنا نسمع من رجال يهود وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا إنه قد تقارب زمان نبىّ يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله أجبناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به وفيهم نزلت هذه الآيات من البقرة : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) قال ابن هشام : يستفتحون : يستنصرون ، ويستفتحون أيضاً يتحاكمون . وفى كتاب الله تعالى : (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) .

قال ابن إسحاق : وحدثنى صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف بن محمود بن لبيد بن عبد الأشهل عن

سلمة بن سلامة بن وقش وكان سلمة من أصحاب بدر . قال كان لنا جار من يهود فى بنى عبد الأشهل قال فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بنى عبد الأشهل قال سلمة وأنا يومئذ من أحدث من فيه سناً علىّ بردة لى مضطجع فيها بفناء أهلى فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار قال فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت . فقالوا له ويحك يا فلان أترى هذا كائناً أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ويجزون فيها بأعمالهم ؟ قال : نعم والذى يُحلف به . ولو دان له بحظه من تلك النار أعظم تنور فى الدار يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه بأن ينجو من تلك النار غداً . فقالوا له ويحك يا فلان فما آية ذلك ؟ قال : نبىّ مبعوث من نحو هذه البلاد وأشار بيده إلى مكة واليمن . قالوا : ومتى تراه ؟ قال : فنظر إلىّ وأنا أحدثهم سناً . فقال : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه . قال سلمة فو الله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم وهو حىّ بين أظهرنا فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً . قال : فقلنا له ويحك يا فلان ألست بالذى قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال : بلى ولكن ليس به . قال ابن إسحاق وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بنى قريظة قال : قال لى هل تدرى عم كان إسلام ثعلبة بن سعية وأسد بن عبيد نفر من هدل إخوة بنى قريظة كانوا معهم فى جاهليتهم ثم كانوا سادتهم فى الإسلام ، قال قلت لا والله . قال فإن رجلا من يهود من أهل الشام يقال له ابن الهيبان قدم علينا قبل الإسلام بسنين فحل بين أظهرنا لا والله ما رأينا رجلا قط لا يصلى الخمس أفضل منه فأقام عندنا فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا فيقول لا والله حتى تقدموا بين يدى مخرجكم صدقة فنقول له كم ؟ فيقول صاعاً من تمر أو مدّين من شعير قال فنخرجها ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقى الله لنا فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونسقى . قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً ثم حضرته الوفاة عندنا فلما عرف أنه ميت قال : يا معشر يهود ما ترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قلنا أنت أعلم . قال فإنى إنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبىّ قد أظل زمانه وهذه البلدة مهاجره فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه وقد أظلكم زمانه فلا تُسبقُن إليه : يا معشر يهود فإنه يبعث بسفك الدماء وسبى الذرارى والنساء ممن خالفه فلا يمنعنكم ذلك منه . فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصر بنى قريظة قال هؤلاء الفتية — وكانوا شباباً أحداثاً — يا بنى قريظة والله إنه للنبى الذى كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان ، قالوا ليس به ، قالوا بلى والله إنه لهو بصفته ، فنزلوا فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم . قال ابن إسحاق فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود .

قال تعالى يوبخ أهل الكتاب على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وجحودهم نبوته (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) أى تشهدون أن نعت محمد فى كتابكم ثم تكفرون به ولا تؤمنون به وأنتم تجدونه عندكم فى التوراة والإنجيل النبىّ الأمىّ .

سلمان الفارسي

وقصة إسلامه

سلمان الفارسى أبو عبد الله ويعرف بسلمان الخير مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصله من جىّ وهو مدينة أصفهان وكان اسمه قبل الإسلام مابه بن بوذخشان بن مور سلان بن بهبوزان بن فيروز بن سهرك من ولد آب الملك وكان ببلاد فارس مجوسيًّا سادن النار[1] . وكان أبوه مجوسيًّا فاتفق أنه هرب منه يوماً ولحق بالرهبان وصحبهم ثم قدم الحجاز عند ظهور النبى مع العرب فباعوه إلى يهودى من قريظة فأتى به المدينة فلما دخلها النبى أسلم وشهد معه أكثر المشاهد . وأول مشاهده وقعة الخندق وكان من فضلاء الصحابة وزهادهم وعلمائهم وذوى القربى من الرسول وهو الذى أشار على الرسول بحفر الخندق حين جاءت الأحزاب ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلمان منا أهل البيت » وكان يعمل الخوص بيده ويأكل من ثمنه وآخى الرسول بينه وبين أبى الدرداء وروى عنه جماعة من العلماء . توفى سنة ٣٥ للهجرة وقيل ٣٤ ودفن فى المدائن شرقى بغداد وله مقام إزاء إيوان كسرى يزار حتى الآن ويعرف بمقام سلمان پاك وهى لفظة فارسية معناها الطاهر . قيل عاش ١٥٠ سنة وقيل أكثر من ذلك وهو من معمرى العرب .

وهذه قصة إسلامه عن ابن عباس رضى الله عنه .

عن ابن عباس رضى الله عنه قال حدثنى سلمان الفارسى وأنا أسمع من فيه قال : كنت رجلا من أهل فارس من أصبهان من جىّ ابن رجل من دهاقينها[2] وكنت أحب خلق الله إليه فأجلسنى فى البيت كالجوارى فاجتهدت فى الفارسية[3] وكان أبى صاحب ضيعة وكان له بناء يعالجه فقال لى يوماً يابنىّ قد شغلنى ما ترى فانطلق إلى الضيعة ولا تحتبس فتشغلنى عن كل ضيعة بهمى بك . فخرجت لذلك فمررت بكنيسة النصارى وهم يصلون فملت إليهم وأعجبنى أمرهم وقلت هذا والله خير من ديننا فأقمت عندهم حتى غابت الشمس لا أنا أتيت الضيعة ولا رجعت إليه فاستبطأنى وبعث رسلا فى طلبى وقد قلت للنصارى حين أعجبنى أمرهم أين أصل هذا الدين ؟ قالوا بالشام فرجعت إلى والدى . فقال يا بنىّ قد بعثت إليك رسلا . فقلت مررت بقوم يصلون بكنيسة فأعجبنى ما رأيت من أمرهم وعلمت أن دينهم خير من ديننا . فقال يا بنىّ دينك ودين آبائك خير من دينهم فقلت كلا والله فخافنى وقيدنى فبعثت إلى النصارى وأعلمتهم ما وافقنى من أمرهم وسألتهم إعلامى من يريد الشام ففعلوا فألقيت الحديد من رجلى وخرجت معهم حتى أتيت الشام فسألتهم عن عالمهم فقالوا الأسقف فأتيته فأخبرته وقلت

---

(١) راجع سيرة ابن هشام وأسد الغابة لابن الأثير

(٢) دهاقين جمع دهقان وهو شيخ القرية

(٣) وفى حديث على بن جابر « فى المجوسية »

أ كون معك أخدمك وأصلى معك . قال أقم . فمكثت مع رجل سوء كان يأمرهم بالصدقة فإذا أعطوه شيئاً أمسكه لنفسه حتى جمع سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً[1] فتوفى فأخبرتهم بخبره فزجرونى فدللتهم على ماله فصلبوه ولم يغيبوه ورجموه وأجلسوا مكانه رجلاً فاضلاً فى دينه زهداً ورغبة فى الآخرة وصلاحاً فألقى الله حبه فى قلبى حتى حضرته الوفاة فقلت أوصنى فذكر رجلا بالموصل وكنا على أمر واحد حتى هلك فأتيت الموصل فلقيت الرجل فأخبرته بخبرى وأن فلانا أمرنى بإتيانك فقال : أقم فوجدته على سبيله وأمره حتى حضرته الوفاة . فقلت له أوصنى ، فقال : ما أعرف أحداً على ما نحن عليه إلا رجلا بعمورية فأتيته بعمورية[2] فأخبرته بخبرى فأمرنى بالمقام وثاب لى شيئاً واتخذت غنيمة وبقرات فحضرته الوفاة فقلت إلى من توصى بى ؟ فقال : لا أعلم أحداً اليوم على مثل ما كنا عليه ولكن قد أظلك نبىٌّ يبعث بدين إبراهيم الحنيفية . مهاجره بأرض ذات نخل وبه آيات وعلامات لا تخفى ، بين منكبيه خاتم النبوة يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة فإن استطعت فتخلص إليه فتوفى فمر بى ركب من العرب من بنى كلاب فقلت أصحبكم وأعطيكم بقراتى وغنمى هذه وتحملونى إلى بلادكم فحملونى إلى وادى القرى فباعونى من رجل من اليهود . فرأيت النخل فعلمت أنه البلد الذى وصف لى فأقمت عند الذى اشترانى وقدم عليـــه رجل من بنى قريظة فاشترانى منه وقدم بى المدينة فعرفتها بصفتها فأقمت معه أعمل فى نخله وبعث الله نبيه ﷺ وغفلت عن ذلك حتى قدم المدينة فنزل فى بنى عمرو بن عوف . فإنى لفى رأس نخلة إذ أقبل ابن عم لصاحبى[3] ، فقال أى فلان قاتل الله بنى قيلة[4] مررت بهم آنفاً وهم مجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة يزعم أنه نبىٌّ . فوالله ما هو إلا أن سمعتها ، فأخذنى القر فرجفت بى النخلة حتى كدت أسقط ونزلت سريعاً فأقبلت على عملى حتى أمسيت فجمعت شيئاً فأتيته به وهو بقباء عند أصحابه . فقلت اجتمع عندى شىء أردت أن أتصدق به فبلغنى أنك رجل صالح ومعك رجال من أصحابك ذوو حاجة فرأيتهم أحق به فوضعته بين يديه فكف يده وقال لأصحابه كلوا فأكلوا . فقلت هذه واحدة ، ورجعت وتحوّل إلى المدينة فجمعت شيئاً فأتيته به فقلت أحببت كرامتك فأهديت لك هدية وليست بصدقة فمد يده فأكل وأكل أصحابه فقلت هاتان اثنتان ، ورجعتُ فأتيتـه وقد تبع جنازة فى بقيع الغرقد[5] وحوله أصحابه . فسلمت وتحولت أنظر إلى الخاتم فى ظهره فعلم ما أردت فألقى رداءه فرأيت الخاتم فقبلته وبكيت فأجلسنى بين يديه فحدثته بشأنى كله كما حدثتك يا ابن عباس ، فأعجبه ذلك وأحب أن يسمعه أصحابه ففاتنى معه بدر وأحد بالرّق فقال لى : كاتب

(١) الورق بكسر الراء مفتوحا ماقبلها : الفضة

(٢) عمورية بفتح أوله وتشديد ثانيه : بلد من بلاد الروم فتحها المعتصم سنة ٢٢٣ هجرية

(٣) كان ذلك فى يوم الجمعـة ١٦ من ربيع الأول بعد وصول رسول الله إلى المدينـة بأربعة أيام (٢ يوليـة سنة ٦٢٢ م)

(٤) بنى قيلة : يريد عرب المدينة

(٥) بقيع الغرقد : أصل البقيع فى اللغة الموضع الذى فيـه أروم الشجر من ضروب شتى وبه سمى بقيع الغرقد . والغرقد كبار العوسج ، وبقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة وهى داخل المدينة

يا سلمان عن نفسك فلم أزل بصاحبي حتى كاتبته على أن أغرس له ثلاثمائة ودية[1] وعلى أربعين أوقية من ذهب فقال النبي صلى الله عليه وسلم أعينوا أخاكم بالنخل فأعانوني بالخمس والعشر حتى اجتمع لي فقال لي انقر لها ولا تضع منها شيئا حتى أضعه بيدى ففعلت فأعانني أصحابي حتى فرغت فأتيته فكنت آتيه بالنخلة فيضعها ويسوّى عليها ترابا فأنصرف . والذى بعثه بالحق فما ماتت منها واحدة وبقى الذهب فبينما هو قاعد إذ أتاه رجل من أصحابه بمثل البيضة من ذهب أصابه من بعض المعادن . فقال ادع سلمان المسكين الفارسى المكاتب . فقال أدّ هذه فقلت يا رسول الله وأين تقع هذه مما علىّ[2] ؟

هذه قصة سلمان الفارسى وهى كما يتضح للقارئ المنصف معقولة وليس فيها شيء من المبالغة ، ويلاحظ أن سلمان كان من صغره ميالا إلا التدين والتقشف فصاحب كبار أهل الدين وتعلم منهم وهذه القصة تدل على صدق رسالة نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام ، لأن سلمان ما عرف النبيّ إلا بالعلامات التى أخبره بها صاحبه بعمورية ولم يسلم إلا بعد أن تحقق صحة هذه العلامات فيه صلى الله عليه وسلم . ومن المحقق من ترجمة حياة سلمان أن أباه كان مجوسيًّا من بلاد الفرس وأنه هرب منه ولحق بالرهبان وصاحبهم واحداً بعد واحد إلى أن لقى النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم .

ونلاحظ أن سلمان لم يذكر أسماء الرهبان أو الأساقفة الذين كان يلازمهم وإن كان قد ذكر بلادهم .

وشهد رسول الله لسلمان الفارسى بالطهارة والحفظ الإلهى والعصمة حيث قال : « سلمان منا أهل البيت » وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من فارس » وأشار إلى سلمان الفارسى .

وكان سلمان من خيار الصحابة وزهادهم وفضلائهم وذوى القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت عائشة كان لسلمان مجلس من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل حتى كان يغلبنا على رسول الله . وسئل علىّ عن سلمان ، فقال ، علم العلم الأول والعلم الآخر وهو بحر لا ينزف وهو منا أهل البيت وهو الذى أشار على رسول الله بحفر الخندق لما جاءت الأحزاب . فأمر رسول الله بحفره فاحتمى المهاجرون والأنصار فى سلمان وكان رجلا قويا . وتوفى سنة ٣٥ هـ فى آخر خلافة عثمان وقيل إنه عاش ٣٥٠ سنة فأما ٢٥٠ فلا يشكون فيه .

من تسمى فى الجاهلية بمحمد

كانت العرب تسمع من أهل الكتاب ومن الكهان أن نبيًّا يبعث من العرب اسمه (محمد) فسمى

(١) الودية : واحدة الودى : صغار فسيل النخل

(٢) راجع الجزء الثانى من أسد الغابة لابن الأثير

من بلغه ذلك من العرب ولده محمداً طمعاً فى النبوة . سمى محمد بن الخزاعى بن حزابة من بنى ذكوان من بنى سليم طمعاً فى النبوة فأتى أبرهة باليمن فكان معه على دينه حتى مات فلما وجه قال أخوه قيس بن خزاعى :

فذلكم ذو التاج .منا محمد ورايته فى حومة الحرب تخفق

وكان فى بنى تميم محمد بن سفيان بن مجاشع وكان أسقفاً قيل لأبيه إنه يكون للعرب نبىٌّ اسمه محمد فسماه محمداً. ومحمد الجشمى فى بنى سواءة . ومحمد الأسيدى ومحمد الفقيمى سموهم طمعاً فى النبوة .

هذا ماوجدته فى طبقات ابن سعد فليرجع إليه من شاء . ومن هذا كله يتضح أنهم كانوا ينتظارون ظهور نبى فى ذلك الزمان .

عبادة الأصنام والأوثان

الصنم ينحت من خشب ويصاغ من فضة ونحاس . والجمع أصنام . وقيل هو ما كان له جسم أو صورة ، فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن . قال ابن الأثير : الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ماله جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمى تعمل وتنصب فتعبد، والصنم : الصورة بلا جثة. ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين . قال وقد يطلق الوثن على غير الصورة (١) .

الوثنية ببلاد العرب ترجع إلى عهد بعيد جدًا . قيل إن إسماعيل بن إبراهيم لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثيرة حتى ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق ، ضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضاً فتفسحوا فى البلاد لالتماس المعاش (٢) .

وكان الذى حدا بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لايظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم وصبابة بالحرم وحبًا له . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبرهيم وإسماعيل .

ثم أدى بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبرهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم وانتجثوا (٣) ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما بقى فيهم من ذكرها وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبرهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة مع إدخالهم فيه ماليس منه .

وكان أول من غيَّر دين إسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان وسيَّب السائبة ووصل الوصيلة وبَحَر البَحِيرة

(١) راجع لسان العرب (٢) كتاب الأصنام لأبى المنذر هشام (٣) استخرجوا .

وحمى الحامية ، عمرو بن ربيعة ، وهو لُحَىّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدى وهو أبو خزاعة .

وكانت أم عمرو بن لحى فهيرة بنت عمرو بن الحارث .

وكان الحارث هو الذى يلى أمر الكعبة فلما بلغ عمرو بن لُحَىّ نازعه فى الولاية وقاتل جرهماً بينى إسماعيل فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة ونفاهم من بلاد مكة وتولى حجابة البيت بعدهم .

ثم إنه مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إن بالبلقاء من الشام حَمَّة [1] إن أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرأ ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه؟ فقالوا : نستسقى بها المطر ونستنصر بها على العدو . فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . وقيل إنهم أعطوه صنماً يقال له هُبل فقدم بمكة فوضعه عند الكعبة فكان أول صنم وضع بمكة .

قال ابن هشام : فحدثنا الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : رفعت لى النار فرأيت عَمراً (أى عمرو بن لُحَىّ) رجلا قصيراً أحمر أزرق يجر قُصبه فى النار . قلت : من هذا ؟ قيل هذا عمرو بن لُحَىّ أول من بحر البحيرة ووصل الوصيلة وسيَّب السائبة وحمى الحامية وغيَّر دين إبراهيم ودعا العرب إلى عبادة الأوثان .

وقد جاء فى القرآن ذكر الأصنام الخمسة التى كان يعبدها قوم نوح ؛ قال تعالى :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ .

ولم يرد ذكر هُبل فى القرآن .

ويقال إن هذه الأصنام وجدها عمرو بن لُحَىّ فى ساحل جُدة وفرقها فاتخذتها العرب آلهة .

ومن الأصنام المشهورة القديمة إساف ونائلة عبدتها خزاعة وقريش ومن حج البيت بعدُ من العرب وكانوا ينحرون ويذبحون عندها .

ومَنَاة كان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج . وقد ورد ذكر مناة فى القرآن . قال تعالى ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ .

وكانت لهذيل وخزاعة . وقد هدمها على رضى الله عنه عند فتح مكة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والفِلس وهو صنم طيئ هدمه علىٌ رضى الله عنه بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الحمة : ماءة حارة يستشفى بها .

واللات (تأنيث الله) وهي أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة وكانت قريش كلها تعظمها وهي بالطائف ذكرها الله في القرآن فقال ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ ولم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة فهدمها وأحرقها بالنار . والطاغية هي اللات كانوا يقولون لها الربة . وجاء في قاموس الإسلام (1) « أن هيرودت لم يشر إلى الكعبة لكنه ذكر اللات وقال إنها من أعظم آلهة العرب وهذا دليل قوي على وجود ذلك الصنم المسمى باللات وقد كان من معبودات ذلك الزمن » .

ومن أصنامهم العُزى (تأنيث الأعز) والأعز بمعنى العزيز ويقال إنها أحدث من اللات ومناة . كانت بوادي نخلة الشآمية وكانت أعظم الأصنام عند قريش وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح .

قال ابن حبيب : العزى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبده غَطَفَان . وفي التنزيل ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ .

ولم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم فعابها وغيرها من الأصنام ونهاهم عن عبادتها ونزل القرآن فيها فاشتد ذلك على قريش، ومرض أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف مرضه الذي مات فيه فدخل عليه فدخل عليه أبو لهب فوجده يبكي فقال له ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمن الموت تبكي ولا بد منه ؟ فقال : لا ولكني أخاف ألا تعبد (العزى) بعدي ! فقال له أبو لهب : ما عبدت في حياتك لأجلك ولا تترك عبادتها بعدك لموتك . فقال أبو أحيحة : الآن علمت أن لي خليفة وأعجبه شدة نصبه في عبادتها (2) .

وتدل القصة على شدة التمسك بعبادة الأصنام . وكان بعضهم يعبد الملائكة وكانوا يقولون : الملائكة بنات الله . قال تعالى : (﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ .

فلما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة ، بعث خالد بن الوليد فهدم العزى، وكانت لقريش أصنام حول الكعبة وفي جوفها وكان أعظمها عندهم هُبل . قيل إنه كان من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى . أدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر وكان يقال لهبل خزيمة وعنده ضرب عبد المطلب على ابنه عبد الله بالقداح . ومن الأصنام التي كانت عند الكعبة إساف ونائلة فلما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة أخرجت من المسجد وأحرقت وكان يبلغ عددها ٣٦٠ صنما . ومن أصنامهم مناف .

وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به وإذا قدم من سفره ، كان أول ما يصنع الرجل إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً وكانوا يسمون الحجارة التي ينصبونها حول الحرم « الأنصاب » .

(1) Dictionary of Islam by Hughes p 292. 2nd edition

(٢) راجع معجم البلدان (عزى) وكتاب الأصنام لابن الكلبي ص ٢٣ .

ومن أصنامهم : ذو الخلَصة وسعد وذو الكفين وذو الشرى والأقيصر وسعير وعميانس والأسحم والأشم وأوال وباجر والبجة والبعيم وباج وبوانة وتيم وجريش ، وعبدة الأصنام ينكرون بعث الأجساد . وكان م العرب من يعتقد التناسخ وتنقل الأرواح فى الأجساد وكانوا يعتقدون وقوع المسخ ونسبوا أكثر الأمراض إ الجن وعبدها بعضهم ومن هذا يرى أن آلهة العرب كانت متعددة .

الأربعة الباحثون عن دين إبراهيم

قد استنكر بعض العرب عبادة الأصنام وأدرك أنها لاتنفع ولا تضر وذلك فى الجاهلية قبل أن يبعث رسو الله صلى الله عليه وسلم . فقد حدث أنه بينما كانت قريش مجتمعة يوماً فى عيدلهم عند صنم من أصنامهم يعتكفون عنا ويدورون به وكان ذلك عيداً لهم كل سنة، إذ خاص منهم أربعةوهم : ورقةبن نوفل بن أسد بن عبدالعزى.وعبيدا ابن جحش بن رئاب وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى وزيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى فقا بعضهم لبعض تعلموا والله ما قومكم على شىء لقد أخطأوا دين إبراهيم ماحجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يف ولا ينفع ؟ ياقوم التمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شىء . فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية،دين إبراه

١ — فأما ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب فى أهلها حتى علم ع من أهل الكتاب .

٢ — وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبش ومعه امرأته أم حبيبة ابنة أبى سفيان مسلمة ثم تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هناك نصرانياً . وخاف رسو الله صلى الله عليه وسلم بعده على امرأته أم حبيبة .

٣ — وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ، ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده .

٤ — وأما زيد بن عمرو بن نفيل ، فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قوم فاعتزل الأوثان .

الرد على مستر كانون سل

قال مستر كانون سل فى كتابه « حياة محمد [1] » (قال زيد وأصحابه إنهم رغبوا فى اتباع دين إبراهيم . ويظا أن محمداً أخذ منهم هذه الفكرة) ثم قال : (بقى زيد حنيفاً وعاب على أهل مكة عبادة الأصنام فأثار ذلك غضب

(1) The Life of Muhammad by The Rev. Canon Sell.

فأرغم على ترك مكة والإقامة فى جبل حراء وبعد أن أمضى هنالك زمناً يفكر ، توفى ودفن بأسفل الجبل وقد كان له تأثير عظيم فى محمد الذى كان يجل شأنه ويقدره قدره . ولا ريب أن هؤلاء الرجال وأمثالهم من ذوى العقول الراجحة كانوا كثيراً مايتشاورون ويتحادثون فيما وصلت إليه حالة العرب الاجتماعية من الانحطاط ويأسفون لانتشار الوثنية وضعف مركزهم السياسى . ولم ينجح عثمان بن الحويرث فى تأسيس سلطة مركزية لاعتماده على دولة أجنبية ـ الامبراطورية الرومانية ـ ومع ذلك كانت الحاجة تدعو إلى وجود سلطة مركزية والاعتراف بالكعبة وجعلها قوة دينية للعرب جميعاً ، فكيف الوصول إلى ذلك ؟ وكيف يمكن إبطال عبادة الأصنام ؟ إلى أن قال وهنا سنحت الفرصة لظهور نبى وقد كان الاستعداد لظهوره قريباً وما لبث أن ظهر نبى قوى الشخصية ذو فطنة سياسية فائقة برسالة محدودة للأمة العربية اه هذا مازعمه مستر كانون سل . فنقول :

نعم إن هؤلاء تحادثوا فى أمر انتشار عبادة الأصنام وأخذوا يبحثون عن الدين الصحيح لكن محادثتهم كانت قليلة . وليس لها شأن ولم يبلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجتمع بهم ويحادثهم فى شؤون العرب الدينية أو السياسية وقد كان زيد بن عمرو مضطهداً ولجأ إلى حراء لكن لم تكن له اجتماعات برسول الله حتى يقال إنه تذاكر معه مسائل الدين وترك فى نفسه أثراً عميقاً أو أنه أخذ منه الفكرة لأن المسألة ليست مسألة اقتباس فكرة فالقرآن وما حواه من فصاحة وبلاغة خارقة وحكم بالغة وأمثال محكمة وذكر أحوال الماضين من أنبياء وأمم وأنباء المستقبل وعلاقة الإنسان بخالقه وعلاقته بغيره والتشريع العظيم الشأن الذى صار موضوع بحث الأئمة المجتهدين والعلماء الأعلام ـ لا يكون مصدره اجتماع زيد بن عمرو برسول الله مصادفة فى حراء أو فى الطريق . ثم إننا فوق ذلك لا نعلم من تاريخ رسول الله أنه كان يتذاكر مع رجال أو كانوا يعلمونه من صغره إلى أن صار نبياً بل الثابت أنه كان أمياً لا يدرى ما الكتابة والقراءة ولا الدين وأصوله حتى أوحى إليه ثم إن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم لم تكن محدودة للأمة العربية كما ظن سل وأمثاله بل كانت رسالته عامة بنص القرآن؛ قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

وإليك ترجمة حياة زيد بن عمرو إتماماً للبحث :

ترجمة زيد بن عمرو [1]

هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك القرشى العدوى والد سعيد بن زيد أحد العشرة وابن عم عمر بن الخطاب يجتمع هو وعمر فى نفيل . سئل عنه النبى صلى الله عليه وسلم فقال « يبعث أمة وحده يوم القيامة » وكان يتعبد فى الجاهلية ويطلب دين إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ويوحد الله تعالى ويقول إلهى إله إبراهيم ودينى دين

(١) راجع أسد الغابة

إبراهيم وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : (الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله تعالى) إنكاراً لذلك وإعظاماً له وكان لا يأكل مما ذبح على النصب (الأوثان) واجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بزيد بن عمرو بأسفل بلدح[1] قبل أن يوحى إليه وكان يحيي الموءودة . وعن زيد بن حارثة قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً حاراً من أيام مكة وهو مردفي فلقينا زيد ابن عمرو بن نفيل فحيي كل واحد منا صاحبه فقال النبي صلى الله عليه وسلم يازيد مالي أرى قومك قد شنفوا لك[2] قال والله يا محمد إن ذلك لغير نائلة ترة لي فيهم ولكن خرجت أبتغي هذا الدين حتى أقدم على أحبار خيبر فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به فقلت ما هذا الدين الذي أبتغي . فخرجت فقال لي شيخ منهم إنك لتسأل عن دين ما نعلم أحداً يعبد الله به إلا شيخاً بالحيرة . قال فخرجت حتى أقدم عليه فلما رآني قال ممن أنت ؟ قلت أنا من أهل بيت الله من أهل الشوك والقرظ . قال إن الذي تطلب قد ظهر ببلادك . قد بعث نبي قد طلع نجمه وجميع من رأيتهم في ضلال قال فلم أحس بشيء .

قال زيد بن حارثة ومات زيد بن عمرو وأنزل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي في زيد « إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده » .

وقال أبو بكر الصديق يذكر اجتماعه بزيد بن عمرو :

« كنت جالساً بفناء الكعبة وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعداً . فمر به أمية بن أبي الصلت فقال ، كيف أصبحت ياباغي الخير ؟ قال ، بخير . قال هل وجدت ؟ قال لا ولم آل من طلب . فقال :

كل دين يوم القيامة إلا ماقضى الله والحنيفة بور

أما إن هذا النبي الذي ينتظر منا أو منكم أو من أهل فلسطين؟ قال ولم أكن سمعت من قبل ذلك بنبي ينتظر أو يبعث . فخرجت أريد ورقة بن نوفل وكان كثير النظر في السماء ، كثير همهمة الصدر . فاستوقفته ثم قصصت عليه الحديث . فقال : نعم ياابن أخي . أبى أهل الكتاب والعلماء إلا أن هذا النبي الذي ينتظر من أوسط العرب نسبا . ولي علم بالنسب ، وقومك أوسط العرب نسبا . قلت ياعم ، وما يقول النبي ؟ قال : يقول ماقيل له (أي مايوحى إليه) إلا أنه لا ظلم ولا تظالم . فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، آمنتُ وصدقت » .

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يامعشر قريش والذي نفس زيد بيده ماأصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري . وكان يقول : اللهم لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلمه ثم يسجد على راحته . وقال ابن إسحاق : حدثني بعض آل زيد كان إذا دخل الكعبة قال : « لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً . عذت بما عاذ به إبراهيم » ويقول وهو قائم « أنفي لك عانٍ

(١) بلدح واد قبل مكة من جهة الغرب (٢) أي أبغضوك

راغم . مهما تجشمني فإني جاشم . البر أبغي لا المال وهل مهجر كمن قال ؟ » وكان الخطاب بن نفيل قد آذى زيد ابن عمرو بن نفيل حتى خرج إلى أعلى مكة فنزل حراء مقابل مكة ووكل به الخطاب شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفهائهم فلا يتركونه يدخل مكة وكان لا يدخلها إلا سراً منهم فإذا علموا به آذنوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم على فراقهم . وتوفى زيد قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم[1] فرثاه ورقة بن نوفل :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما ... تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك رباً ليس رب كمثله ... وتركك أوثان الطواغي كما هيا
وقد يدرك الإنسان رحمة ربه ... ولو كان تحت الأرض ستين واديا

وكان يقول « يامعشر قريش إياكم والرياء فإنه يورث الفقر » .

هذه ترجمة زيد بن عمرو وهو مع اعتناقه دين إبراهيم هرباً من الوثنية لم يكن يعلم أحب الوجوه إلى الله تعالى ليعبده به ولم يذكر أنه اجتمع برسول الله غير مرة ولا بأبي بكر غير المرة التي ذكرناها .

بدء الوحي

٦ أغسطس سنة ٦١٠ م

لما قربت أيام الوحي حُبب إليه صلى الله عليه وسلم الخلوة فكان يختلي في غار حراء ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها ، وكانت عبادته على دين إبراهيم عليه السلام وقيل كان يتعبد إلهاماً من الله ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح ، وكانت تلك الرؤيا الصادقة مقدمات الوحي . قيل مدتها ستة أشهر .

فلما تم له أربعون سنة جاءه جبريل بالنبوة وذلك في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده ، فيكون عمره إذ ذاك أربعين سنة قمرية وستة أشهر وثمانية أيام ، وذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠ م وهو بغار حراء .

جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

« أول مابدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرؤيا الصالحة في النوم[2] فكان لا يرى رؤيا إلا

(١) وفي تاريخ القرون الوسطى لجامعة كامبردج أن زيداً مات في صبا النبي (صلى الله عليه وسلم) .
(٢) إن عائشة لم تدرك هذه القصة لكن الظاهر أنها سمعت ذلك منه صلى الله عليه وسلم لقولها قال فأخذني فغطني . وكانت مدة الرؤيا ستة أشهر وحينئذ يكون ابتداء النبوة بالرؤيا حصل في شهر ربيع الأول وهو شهر مولده

جاءت مثل فَلَق الصبح[١] ثم حبب إليه الخلاء[٢] وكان يخلو بغار حِراء[٣] فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع[٤] إلى أهله و يتزود لذلك[٥] ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلهـا حتى جاءه الحق[٦] وهو فى غار حراء فجاءه الملك[٧] فقال له اقرأ ، فقال ما أنا بقارئ[٨] فأخذنى فغطنى[٩] حتى بلغ منى الجَهْـد ، ثم أرسلنى . فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثالثة[١٠] ثم أرسلنى فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم . فرجع بها[١١] رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجُفُ فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال زملونى ، زملونى[١٢] فزملوه حتى ذهب عنه الروع .فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيتُ على نفسى[١٣] . فقالت خديجة : كلا والله ما يُخزيك الله أبداً[١٤] ، إنك لتصل الرحم[١٥] وتحمل الكَلّ[١٦] وتَكسِبُ المعدوم[١٧] وتَقرِى الضيف وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقَة بن نوفل ابن أسد بن عبد العُزّى ابن عم خـديجة ، وكان امرأً قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانىّ . فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتبَ وكان شيخاً كبيراً قد عمى . فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك[١٨] فقال لى ورقة يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس[١٩] الذى نزّل الله على موسى ، ياليتنى فيها[٢٠] جَذَعا[٢١] ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك[٢٢] فقـال رسول الله صلى الله عليه وسـلم أو مخرجىّ هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثـل ماجئت

---

(١) كضياء الصبح (٢) بمعنى الخلوة أى الاختـلاء (٣) حراء جبل بينه وبين مكة ثلاثة أميـال على يسار الذاهب إلى منى ، والغار ثقب فيه وهو أول موضع نزل فيه القرآن (٤) يحن ويشتاق ويرجع (٥) يتخذ الزاد للخلوة أو التعبد

(٦) هو الوحى . (٧) جاءه الوحى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان (٨) ما نافيـة وفى رواية كيف أقرأ أو ماذا أقرأ فتكون ما استفهامية (٩) ضمنى وعصرنى (١٠) ذكر السهيلى أن الغط ثلاثا إشارة إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم يحصل له شدائد ثلاث ثم يحصل له الفرج بعـد ذلك فكانت الأولى إدخال قريش له صلى الله عليه وسلم فى الشعب والتضييق عليـه والثانية اتفاقهم على قتله صلى الله عليه وسلم والثالثة خروجه من أحب البلاد إليه

(١١) أى بالآيات (١٢) أى لفونى لشدة ما لحقه من هول الأمر . والعادة جارية بسكون الرعدة بالتلفف .

(١٣) الموت أو المرض لشدة الرعب (١٤) أى ما يفضحك الله (١٥) القرابة (١٦) وهو الذى يستقل بأمره .

(١٧) أى تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك .

(١٨) تعنى النبى صلى الله عليه وسلم لأن الأب الثالث لورقة هو الأخ للأب الرابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم . أو قالته على سبيل الاحترام .

(١٩) صاحب الوحى والمراد به جبريل عليه الصلاة والسلام . وأهل الكتاب يسمونه الناموس الأكبر .

(٢٠) أى فى مدة النبوة .

(٢١) أى ياليتنى كنت شابا عند ظهور نبوتك حتى أقوى على المبالغة فى نصرتك . والجذع هو الصغير من البهائم ، واستعير للانسان .

(٢٢) من مكة .

به إلا عودى ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزّرا [١] ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى [٢] » .

أول ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم من القرآن « اقرأ » كما صح ذلك عن عائشة وروى ذلك عن أبى موسى الأشعرى وعبيد بن عمير . قال النووى : وهو الصواب الذى عليه الجماهير من السلف والخلف .

النبى المنتظر

اتفق مؤرخو العرب وأصحاب السير أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون ظهور نبىّ فى ذلك الزمان وكانوا يعلمون أوصافه وأحواله . من ذلك أنهم ذكروا :

(١) أنه ثبت بالأخبار القريبة من التواتر أن شقا وسطيحا كانا كاهنين يخبران بظهور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل زمان ظهوره .

(٢) قصة حليمة السعدية وأنها كانت تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهود كلما مر بها جماعة منهم وتحدثهم بشأنه فكانوا يحضون على قتله فتهرب منهم .

(٣) أنهم اتفقوا على أن بحيرا الراهب عرف الرسول بعلامات فيه وقال لأبى طالب « ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنّه شرًّا فإنه كائن له شأن عظيم فأسرع به إلى بلده » .

(٤) فى سيرة ابن هشام فصل عن إنذار يهود برسول الله نقلا عن رواية ابن إسحاق فليراجع فى موضعه وقد أوردته فى هذا الكتاب .

(٥) قصة سلمان الفارسى الذى أسلم بعد أن استدل على رسول الله بعلامات كان يعرفها من الراهب الذى صحبه أخيراً . وقصة إسلام سلمان مشهورة ومذكورة فى المصادر المعتبرة التى يعوّل عليها المؤرخون ولا يمكن أن تكون مختلقة ، فقد رواها ابن عباس عن لسان سلمان الفارسى نفسه . والقصة مذكورة فى هذا الكتاب أيضاً لأهميتها .

(٦) إسلام عبد الله بن سلام بن الحارث فإنه كان حَبراً عالماً . قال سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف له فكنت مسرًّا لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة إلى آخر ما قال مما هو مذكور فى هذا الكتاب نقلا عن سيرة ابن هشام .

(٧) كانت العرب تسمع من أهل الكتاب ومن الكهان أن نبيًّا يبعث فى العرب اسمه محمد فسمى

---

(١) أى بالغاً شديداً وهذا ظاهر فى أنه أقر بنبوته ولكنه مات قبل الدعوة إلى الإسلام فيكون مثل بحيرا ، ودفن بمكة .

(٢) أى احتبس ثلاث سنين .

من بلغه ذلك من العرب ولده محمداً طمعاً فى النبوة ، وقد ذكرت فى كتابى هذا أسماء بعضهم نقلا عن طبقات ابن سعد كاتب الواقدى .

(٨) ما جاء فى صحيح البخارى فى باب بدء الوحى من أن ورقة بن نوفل (ذلك الشيخ العالم بالنصرانية والذى كان يكتب الإنجيل بالعبرانية) قال لرسول الله حين عرضته عليه خديجة : « هذا الناموس الذى نزل على موسى » الخ .

(٩) أن النبى صلى الله عليه وسلم لما جمع بنى قينقاع — وهم طائفة من اليهود — قال لهم : « يامعشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبىّ مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وفى عهد الله إليكم » ،

(١٠) كان قيس بن نُشْبة فى الجاهلية منجماً متفلسفاً واعداً بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم فأتاه فقال له يامحمد ما كَحْلَةُ ؟ فقال : السماء . قال : وما مَحْلَةُ ؟ فقال : الأرض . فآمن به وقال لايعرف هذا إلا نبىٌّ . فقال قيس فى ذلك :

تابعتُ دين محمد ورضيتُه كلَّ الرضا لأمانتى ولدينى
مازلتُ آمُلُه وأرقب وقته والله قدر أنه يهدينى
أعنى ابن آمنةَ الأمينَ ومن به أرجو التخاصَ من عذاب الهونِ

فكان قوم قيس إذا وردوا على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال لهم « كيف حبركم[1] » .

كل هذا وغيره يؤيد أنهم كانوا ينتظرون نبيًّا يظهر فى ذلك الزمان وليس ذلك بمستغرب فإن البشارة به صلى الله عليه وسلم قد وردت فى التوراة والإنجيل وقد أثبتنا ذلك فى فصل سابق من هذا الكتاب مستشهدين بآيات من الكتاب المقدس المطبوع باللغة العربية (راجع ص ٥٧ — ٦٠) فلا بد أن أهل الكتاب فى ذلك الزمان كانت لديهم كتب أخرى ألفها علماؤهم شرحاً للكتاب المقدس فاستقوا منها تلك المعلومات والعلامات التى عرفوا بها صفة رسول الله وموطنه وزمنه واضطهاد قومه له وهجرته . إننا نرجح ذلك بل نؤكده لأننا إذا كنا قد استخرجنا من الكتاب المقدس المطبوع فى أيامنا آيات تبشر برسالته صلى الله عليه وسلم وتصفه وتصف شريعته وموطنه وأصحابه فلا بد أن يكون أهل الكتاب قديماً — ولا سيما العلماء منهم — قد اطلعوا فى النسخ العبرية القديمة التى كانت لديهم ، ولم نتوصل إليها ، على معلومات أوفى خاصة بالرسول تعد غريبة بالنسبة لنا .

هذا ما يستنتجه المؤرخ المنصف ، بل هذا ما يتبادر إلى ذهن من تتبع سيرة الرسول .

أما مستر موير فإنه انبرى فى الجزء الثانى من كتابه يكذب جميع المصادر التاريخية ويرفض ما جاء فيها من

---

(١) المخصص لابن سيده الجزء التاسع . ص ٧ طبعة بولاق سنة ١٣١٩ هـ

أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون نبيًا يبعث ، زاعماً أن هذه الروايات لا أساس لها من الصحة وأنها من مخترعات المؤرخين لأنه لو اعترف بصحتها أو بصحة بعضها لوجب عليه أن يعترف برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، فى حين أنه حاول فى جميع ما كتبه واستنبطه إثبات أنه لم يكن نبيًا بل كان رجلا يدعى النبوة لبسط نفوذه ! !

النبيُّ الأميُّ

أول ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم من القرآن « اقرأ » كما صح ذلك عن عائشة وروى ذلك عن أبى موسى الأشعرى ، وعبيد بن عمير . قال النووى وهو الصواب الذى عليه الجماهير من السلف . وقوله « ما أنا بقارئ » أى إنى أمى فلا أقرأ الكتب . قال الزجاج : الأمى الذى على خلقة الأمة لم يتعلم الكتاب فهو على جبلته . وفى التنزيل العزيز ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ سورة البقرة . فمعنى الأميين فى هذه الآية الذين لا معرفة لهم بقراءة ولا كتابة .

قال أبو إسحاق : معنى الأمى المنسوب إلى ما عليه جبلة أمه أى لا يكتب وهو فى أنه لا يكتب أمى لأن الكتابة مكتسبة فكأنه نسب إلى ما يولد عليه . أى على ما ولدته أمه عليه . وكانت الكتابة فى العرب من أهل الطائف تعلموها من رجل من أهل الحيرة وأخذها أهل الحيرة عن أهل الأنبار . وفى الحديث « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » أراد على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب فهم على جبلتهم الأولى . وفى الحديث « بعثت إلى أمة أمية » قيل للعرب الأميون لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة . هذا معنى كلمة « أمى » فى اللغة العربية وهكذا كان يفهمها العرب .

قال تعالى فى سورة الأعراف ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ وقال تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ الآية .
قال الفخر الرازى فى تفسيره : « فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون والنبى عليه الصلاة والسلام كان كذلك ، فلهذا السبب وصفه بكونه أميًا . قال أهل التحقيق وكونه أميًا بهذا التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه :

(الأول) أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوماً مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته . والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فإنه لا بد أن يزيد فيها بالقليل والكثير . ثم إنه عليه الصلاة والسلام ـ مع أنه ما كان يكتب وما كان يقرأ ـ يتلو كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير فكان ذلك من المعجزات ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ) .

(الثانى) أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهماً فى أنه ربما طالع الأولين فحصّل هذه العلوم

من تلك المطالعة ، فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلون ﴾ .

(الثالث) أن تعلم الخط شئ سهل فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعى . فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم فى الفهم . ثم إنه تعالى آتاه علوم الأولين والآخرين وأعطاه من الحقائق مالم يصل إليه أحد من البشر ومع تلك القوة العظيمة فى العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذى يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلاً وفهماً فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جارياً مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الأمور الخارقة للعادة وجار مجرى المعجزات » اه .

***

وقد طالعت ما كتبه الذين تعرضوا لهذا البحث من الافرنج الذين ترجموا حياة النبى صلى الله عليه وسلم فوجدت تخبطا مدهشاً فقد بحث الأستاذ نولدكه الألمانى فى كتابه « تاريخ القرآن[1] » هل كان النبى يعرف القراءة والكتابة ؟ فلم يجزم بشىء بيد أنه زعم أن لفظة «أمى» المذكورة فى القرآن لا تدل على أنه يجهل القراءة والكتابة بل تفيد أنه لا يعرف الأسفار القديمة !!

والثابت من التاريخ والقرآن والحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم ما كان يعرف القراءة والكتابة بالرغم من أن بعض المستشرقين يحاولون أن يثبتوا عكس ذلك من غير برهان . إنهام يستنتجون بعقولهم . ليتعجبوا ماشاءوا من أميته ولكن يجب عليهم أن يعترفوا بأنه ما كان يعلم القراءة والكتابة . وجاء فى قاموس الإسلام[2] :

« ومع ذلك فمن المحقق أنه (النبى صلى الله عليه وسلم) كان يتظاهر بأنه يجهل القراءة والكتابة كى يجعل إنشاء القرآن معجزاً » .

فهل بعد ذلك تعسف ! لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ أو يكتب لتحدث بذلك أصحابه أو أعداؤه ، ولما أمكن أن يكون سرًّا مكتوماً طول حياته خصوصاً أن جميع صفات النبى وأعماله قد روتها الصحابة بالتفصيل حتى خصوصياته فى منزله مع نسائه . على أن المنصفين من مؤرخى الافرنج وفلاسفتهم قد اعترفوا بأميته فمن ذلك ما كتبه المسيو سيديو فى كتابه « تاريخ العرب » الجزء الأول ص ٥٩ من الطبعة الثانية . ..

« ولما كان (رسول الله صلى الله عليه وسلم) غير متعلم مثل أبناء وطنه كان لا يعرف القراءة » .

---

(1) Geschichte des Qorans

(2) Dictionary of Islam by Thomnas Patrick Hughes. 2nd, edition, p. 392

وقال الفيلسوف الانجليزى توماس كارليل فى كتاب الأبطال الذى عنى بترجمته الأستاذ محمـــد السباعى رحمه الله :

« ثم لا ننسى شيئاً آخر وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك فى بلاد العرب . ويظهر لى أن الحقيقة هى أن محمـــداً لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ماتعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها » .

وجاء فى كتاب الإسلام تأليف الكونت هنرى دى كاسترى ترجمة المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا :

« إن محمداً ما كان ليقرأ أو ليكتب بل كان ـ كاوصف نفسه مراراً ـ نبيًّا أميا ، وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه . ولا شك أنه يستحيل على رجل فى الشرق أن يتلقى العلم بحيث لايعلمه الناس لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان ، على أن القراءة والكتابة كانت معدومة فى ذلك الحين من تلك الأقطار الخ » .

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميًّا احتاج إلى كتاب يكتبون له وقد ذكرهم الحافظ أبو القاسم فى تاريخ دمشق ، وروى ذلك كله بأسانيده وهم :

أبو بكر الصديق . وعمر بن الخطاب . وعثمان وعلى . والزبير . وأبىّ بن كعب بن قيس وزيد بن ثابت . ومعاوية بن أبى سفيان . ومحمد بن مسلمة . والأرقم بن أبى الأرقم وأبان بن سعيد بن العاص وأخوه خالد بن سعيد وثابت بن قيس . وحنظلة بن الربيع . وخالد بن الوليد . وعبد الله بن الأرقم . وعبد الله بن زيد بن عبد ربه . والعلاء بن عتبة . والمغيرة بن شعبة . والسجل . وزاد غيره شرحبيل بن حسنة . وقالوا وكان أكثرهم كتابة زيد بن ثابت ومعاوية رضى الله عنهم .

وسيأتى فى غزوة أحد أن العباس كان بمكة وكتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم كتاباً يخبره بجمع قريش وخروجهم . فلما جاء كتاب العباس وكان أرسله مع رجل من بنى غفار ، فك رسول الله ختمه ودفعه لأبىّ بن كعب فقرأه عليه فاستكتم أبيًّا [١] .

فلو كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرف القراءة لما دفع كتاباً يحوى أخباراً سرية إلى أحد لقراءته .

قال زيد بن ثابت رضى الله عنه : كنت جار رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا نزل عليه الوحى بعث إلىّ فكتبته له .

وذكر ابن ماكولا أن تميم بن جراشة وفد على النبى صلى الله عليه وسلم وروى عنه أنه قال : قدمت على النبى صلى الله عليه وسلم فى وفد ثقيف فأسلمناه وسألناه أن يكتب لنا كتاباً فيه شروط فقال اكتبوا ما بدا لكم

(١) راجع السيرة النبوية لدحلان . الجزء الأول ٢٥٨ طبعة المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٥ هـ

ثم ائتونى به فسألناه فى كتابنا أن يحلّ لنا الربا والزنا فأبى علىّ أن يكتب لنا فسألنا خالد بن سعيد بن العاص فقال له علىّ : تدرى ما تكتب ؟ قال أكتب ماقالوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بأمره . فذهبنا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال للقارئ اقرأ . فلما انتهى إلى الربا قال : ضع يدى عليها فوضع يده فقال ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَا ﴾ الآية . ثم محاها وألقيت علينا السكينة فما راجعناه فلما بلغ « الزنا » وضع يده عليها وقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إنه كَانَ فَاحِشَةً ﴾ الآية ثم محاها وأمر بكتابنا أن ينسخ لنا [1] .

وقد زعم بعضهم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتلو الكتب الدينية القديمة ومنها استقى معلوماته ، وهذا الزعم لا أساس له ، إذ لم يكن فى جزيرة العرب كتب دينية باللغة العربية فى ذلك الوقت . ومن المؤكد أنه ما كان يعرف أى لغة من اللغات الأجنبية .

وقد قيل أيضاً إنه صلى الله عليه وسلم اقتبس بعض تعاليم المسيحية أثناء سفره إلى الشام عند ما كان يتاجر ، وبديهى أن التاجر العربى الذى لا يعرف اللغة الآرامية واليونانية كان يتعذر عليه الحصول على معلومات دينية من مسيحيى الشام . أما الذين كانوا يتكلمون العربية من هؤلاء المسيحيين فقد كانوا جهالاً أميين .

وأما ماقيل من أن ورقة بن نوفل ترجم جزءاً من الكتب المسيحية إلى العربية فغير محتمل بالمرة [2] ومع ذلك يزعم درمنغم فى كتابه « حياة محمد » أن ورقة ترجم الأناجيل إلى العربية وهذا زعم لا أساس له إنما هو مجرد ظن .

فالمستشرقون الذين زعموا أن رسول الله كان يعرف القراءة والكتابة غضوا الطرف عن الآيات التى صرحت بأنه كان أمياً . ذلك لأنهم وجدوا أن القرآن معجز ويحتوى على قصص الماضين وعلى شريعة عظيمة فاقت كل الشرائع وفيه عظات بالغة وحكم وأمثال رائعة وأن أبناء هذا العصر مع تقدم العلوم والفنون وانتشار الجامعات لم يستطيعوا أن يضعوا شريعة للناس كالشريعة الإسلامية ولا آداباً وأخلاقاً كالآداب والأخلاق الواردة فى القرآن ، فهالهم الأمر وتحيروا وقالوا فى أنفسهم من أين جاء لمحمد (صلى الله عليه وسلم) هذا العلم كله ، وكيف كان أمياً ؟ فإن قيل لهم هذا دليل على نبوته وأنه صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه ، لم يسلموا لأنهم لو سلموا بنزول الوحى عليه لزمهم التصديق برسالته تخلصاً من هذا المأزق ، ونفوا عنه الأمية وقالوا إنه كان يقرأ ويكتب

(١) راجع أسد الغابة الجزء الأول « تميم بن جراشة » .
(٢) راجع الجزء الثانى من كتاب تاريخ القرون الوسطى لجامعة كامبردج ص (٣٠٥ ، ٣٠٦) .
The Cambridge Madieval His' ory Vol 2. (1931) pp (305 . 306)

ويتلو الكتب القديمة ولما وجدوا أن التاريخ لايساعدهم على هذا الزعم لأن معاصريه صلى الله عليه وسلم أقروا أنه كان أمياً وأن ذلك يطابق ماجاء فى القرآن ، قال قائلهم إنه كان يخفى أمره ويكتم عن الناس (وعن الناس جميعاً حتى عن زوجاته وأولاده وجميع أصحابه !) علمه بالقراءة والكتابة . وهذا قول مضحك لأن الذى يقرأ ويكتب لا بد أن يراه أحد بل يراه كثير من الناس ، فإن هذا أمر لا يمكن إخفاؤه كالأكل والشرب . هذه هى الحقيقة وهذا ما نعتقد وما يجب أن يعتقده كل باحث فى السيرة المحمدية والشريعة الإسلامية .

فترة الوحى[1]

جاء فى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما[2] وهو يحدث عن فترة الوحى فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه : بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك[3] الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت[4] فقلت زملونى زملونى فأنزل الله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ[5] قُمْ فَأَنْذِرْ[6] وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ[7] فَاهْجُرْ ﴾ فحمى الْوَحْىُ[8] وتتابع .

قال ابن إسحاق : ابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل فى شهر رمضان بقول الله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ . تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ وقال الله تعالى: ﴿ حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ وذلك ملتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين ببدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان .

ولما فتر الوحى حزن النبى صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً غدا منه مراراً كى يتردى من رءوس الجبال فكلما أوفى على

(١) فترة الوحى : احتباس الوحى عن النزول .
(٢) توفى جابر بعد أن عمى سنة أربع وسبعين وهو آخر الصحابة موتا بالمدينة وله فى البخارى تسعون حديثا .
(٣) جبريل (٤) إلى أهلى بسبب الرعب . (٥) التدثير والتزميل بمعنى واحد .
(٦) اقتصر على الإنذار لأن التبشير إنما يكون لمن دخل فى الإسلام ولم يكن إذ ذاك من دخل فيه .
(٧) الأوثان . (٨) كثر نزول الوحى بعد هذه الآية .

ذروة جبل لـكى يلقى نفسه منه تبدى له جبريل فقال يامحمد إنك رسول الله حقًّا . فيسكن لذلك جأشه وتقر نفـ
وكانت مدة فترة الوحى ثلاث سنين كما جزم به ابن إسحاق ثم نزل عليه جبريل بسورة الضحى يقسم له ربه ، و
الذى أكرمه بما أكرمه به ، ماودعه وما قلاه ، فقال تعالى :
﴿ وَٱلضحَى وَٱللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلْأُولَى . وَلَسَوْ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ يعرفه الله
ماقطعه قطع المودع وما أبغضه .

روى أن الوحى لما تأخر عنه قال المشركون إن محمداً ودعه ربه وقلاه فنزلت ردًّا عليهم : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَ
لَكَ مِنَ ٱلْأُولَى ﴾ فإنها باقية خالصة من الشوائب وهذه فانية مشوبة بالمضار .

أول من آمن به

أول من آمن به من الرجال البالغين الأحرار أبو بكر ، ومن الصبيان على ، ومن النساء خديجة ، ومن المو
زيد بن حارثة ، ومن العبيد بلال بن رباح الحبشى .

قال أهل الأثر وعلماء السير إن أول الناس إيمانًا به صلى الله عليه وسلم على الإطلاق خديجة رضى الله عنـ
وصلى رسول الله معهـا آخر يوم الاثنين وهو أول يوم من صلاته وكانت الصلاة وقتئذ ركعتين بالغـ
وركعتين بالعشى .

وكان علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه لم يبلغ الحلم حين أسلم وكان ابن عشر سنين وكان عند النبى صلى
عليه وسلم قبل أن يوحى إليه يطعمه ويقوم بأمره وهو أصغر إخوته وسيأتى سبب إسلامه رضى الله عنـ
فى ترجمة حياته . .

وأول من أسلم من النساء بعد خديجة أم أيمن وأم الفضل زوج العباس وأسماء بنت أبى بكر وأم جمـ
فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب .

أبو بكر الصديق

وإسلامه

هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى القرشي التيمى .

ولد أبو بكر سنة ٥٧٣ م وهو أول الخلفاء وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، وهي ابنة عم أبي قحافة وهو صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار وفي الهجرة والخليفة بعده . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى عنه عمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وحذيفة وزيد بن ثابت وغيرهم . وقد اختلف في اسمه فقيل كان عبد الكعبة فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله . وقيل إن أهله سموه عبد الله ولا يبعد ذلك لأن التسمية بعبد الله كانت موجودة قبل الإسلام ويقال له عتيق أيضاً . واختلفوا في السبب الذي قيل له لأجله « عتيق » فقال بعضهم قيل له عتيق لحسن وجهه وجماله . قاله الليث بن سعد وجماعة معه . وقال الزبير بن بكار وجماعة معه إنما قيل له عتيق لأنه لم يكن في نسبه شيء يعاب به . وقيل إنما سمى عتيقاً لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أنت عتيق الله من النار » وعن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له « أنت عتيق من النار » فيومئذ سمى عتيقاً . وقيل له « الصديق » أيضاً . قالت عائشة رضى الله عنها : لما أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كان قد آمن وصدق وفتنوا به ، فقال أبو بكر إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك . أصدقه بخبر السماء غدوة أو روحة . فلذلك سمى أبو بكر الصديقَ ، وقال أبو محجن الثقفي :

وسميت صديقاً وكل مهاجر سواك يسمى باسمه غير منكر
سبقت إلى الإسلام والله شاهد وكنت جليساً في العريش المشهر

وكان رضى الله عنه صديقاً لرسول الله قبل البعثة وهو أصغر منه سناً بثلاث سنوات ، وكان يكثر غشيانه في منزله ومحادثته وقيل كنى بأبي بكر لا بتكاره الخصال الحميدة فلما أسلم آزر النبي صلى الله عليه وسلم في نصر دين الله تعالى بنفسه وماله وكان له لما أسلم أربعون ألف درهم أنفقها في سبيل الله مع ما كسب من التجارة . قال تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ. وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ وقد أجمع المفسرون على أن المراد منه أبو بكر ؛ قال الفخر الرازى ردًا على من قال إنها نزلت في حق على رضى الله عنه :

« ولما ذكر ذلك بعضهم فى محضرى قلت أقيم الدلالة العقلية على أن المراد من هذه الآية أبو بكر . وتقريرها أن المراد من هذا الأتقى هو أفضل الخلق فإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد هو أبو بكر فهاتان المقدمتان متى صحتا صح المقصود إلى أن قال ـ لأن الأمة مجمعة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله إما أبو بكر أو علىّ ولا يمكن حمل هذه الآية على علىّ بن أبى طالب فتعين حملها على أبى بكر . وإنما قلنا لا يمكن حملها على علىّ بن أبى طالب لأنه قال فى صفة هذا الأتقى « وما لأحد عنده من نعمة تجزى » وهذا الوصف لا يصدق على علىّ بن أبى طالب لأنه كان فى تربية النبى صلى الله عليه وسلم ولأنه أخذه من أبيه وكان يطعمه ويسقيه ويكسوه ويربيه وكان الرسول منعما عليه نعمة يجب جزاؤها . أما أبو بكر فلم تكن للنبى عليه السلام عليه نعمة دنيوية بل أبو بكر كان ينفق على الرسول عليه السلام . بل كان للرسول عليه السلام عليه نعمة الهداية والإرشاد إلى الدين إلا أن هـذا لا يجزى لقوله تعالى : « ما أسألكم عليه من أجر » والمذكور هاهنا ليس مطلق النعمة بل نعمة تجزى فعلمنا أن هذه الآية لا تصلح لعلى رضى الله عنه » .

كان أن أبو بكر رضى الله عنه من رؤساء قريش فى الجاهلية محببا فيهم مؤلفا لهم وكان إليه الأشناق فى الجاهلية[1] كان إذا حمل شيئا صدقته قريش وأمضوا حمالته وحمالة من قام معه وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه فلما جاء الإسلام سبق إليه وأسلم على يده جماعة لمحبتهم له وميلهم إليه حتى إنه أسلم على يده خمسة من العشرة وقد ذهب جماعة إلى أنه أول من أسلم . قال الشعبى سألت ابن عباس من أول من أسلم ؟ قال أبو بكر، أما سمعت قول حسان :

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة فاذكر أخاك أبابكر بما فعـلا
خير البرية أتقاها وأعدلهـا بعـد النبى وأوفاها بما حمـلا
والثـانى التـالى المحمـود مشهده وأول الناس قدماً صدّق الرسلا

وكان أعلم العرب بأنساب قريش وما كان فيها من خير وشر وكان تاجراً ذا ثروة طائلة وكريماً حسن المجالسة عالماً بتعبير الرؤيا ، ولما أسلم جعل يدعو الناس إلى الإسلام . قال ابن إسحاق بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر رضى الله عنه ما عتم عنه حين ذكرته له أى أنه بادر به . ونزل فيه وفى عمر « وشاورهم فى الأمر » فكان أبو بكر بمنزلة الوزير من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يشاوره فى أموره كلها ولما اشتد أذى كفار قريش لم يهاجر إلى الحبشة مع المهاجرين بل بقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجر معه إلى المدينة تاركاً عياله وأولاده

---

(١) الأشناق : الديات

وأقام معه فى الغار ثلاثة أيام . قال الله تعالى : ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

ولما كانت الهجرة جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر وهو نائم فأيقظه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أذن لى فى الخروج قالت عائشة فلقد رأيت أبا بكر يبكى من الفرح ، ثم خرجا حتى دخلا الغار فأقاما فيه ثلاثة أيام . قال تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ سورة التوبة .

وقد دلت هذه الآية على فضيلة أبى بكر لأن رسول الله لولا ثقته التامة بأبى بكر لما استصحبه فى هجرته واستخلصه لنفسه وكل من سوى أبى بكر فارق رسول الله وأنه تعالى سماه ثانى اثنين . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكرمه ويجله ويعرف أصحابه مكانه ويثنى عليه فى وجهه ، واستخلفه فى الصلاة وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان بالحديبية وخيبر وفتح مكة وحنيناً والطائف وتبوك وحجة الوداع .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذاً خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلا » ،ودفع أبو بكر عقبة ابن أبى معيط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خنق رسول الله وهو يصلى عند الكعبة خنقاً شديداً وقال : « ياقوم أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » وأعتق أبو بكر سبعة كانوا يعذبون فى الله تعالى منهم بلال وعامر بن فهيرة . وكان أبو بكر إذا مُدح قال « اللهم أنت أعلم بى من نفسى ، وأنا أعلم بنفسى منهم اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون واغفرلى مالا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون » وهذا من تواضعه رضى الله عنه، ومما يدل على قوة إرادة أبى بكر ما قاله أبو السفر وهو : دخلوا على أبى بكر فى مرضه فقالوا ياخليفة رسول الله ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك ؟ قال : قد نظر إلى . قالوا : ما قال ؟ قال : « إنى فعّال لما أريد » .

قال عمر رضى الله عنه : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ووافق ذلك مالًا عندى فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته ، فجئت بنصف مالى . فقال : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت مثله . وجاء أبو بكر بكل ما عنده فقال يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك ؟ قال أبقيت لهم الله ورسوله . قلت لا أسبقه إلى شىء أبداً .

ومن أخبار تواضعه رضى الله عنه أنه كان يحلب للحى أغنامهم ، فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحى : الآن لايحلب لنا منائحنا ، فسمعها أبو بكر فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم وإنى لأرجو ألا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه ، فكان يحلب لهم ، فربما قال للجارية أتحبين أن أرغى لك أو أن أصرح ؟ فأى ذلك قالت فعل .

والآن يقولون إننا فى عصر المدنية والحرية والديمقراطية ومع هذا تجد الموظف الصغير يأنف أن يكلم الناس أو يقضى حوائجهم .

وعن سالم بن عبيد أن النبى صلى الله عليه وسلم لما اشتد مرضه أغمى عليه فلما أفاق قال : مروا بلالا فليؤذن ومروا أبا بكر فليصل بالناس ؟ قال ثم أغمى عليه فقالت عائشة إن أبى رجل أسيف فلو أمرت غيره . فقال أقيمت الصلاة ؟ فقالت عائشة : يارسول الله إن أبى رجل أسيف فلو أمرت غيره . قال : إنكن صواحبات يوسف مروا بلالا فليؤذن ومروا أبا بكر فليصل بالناس . ثم أفاق فقال : أقيمت الصلاة ؟ قالوا : نعم . قال ادعوا لى إنساناً أعتمد عليه فجاءت بريرة وإنسان آخر فانطلقوا يمشون به وإن رجليه تخطان فى الأرض ، فأجلسوه إلى جنب أبى بكر فذهب أبو بكر يتأخر فحبسه حتى فرغ الناس فلما توفى ـ قال وكانوا قوماً أميين لم يكن فيهم نبى قبله ـ قال عمر : لايتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفى هذا . فقالوا له اذهب إلى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فادعه يعنى أبا بكر . فذهبت : فوجدته فى المسجد قال : فأجهشت أبكى . قال : لعل نبى الله توفى . قلت : إن عمر قال لايتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفى هذا . قال : فأخذ بساعدى ثم أقبل يمشى حتى دخل فأوسعوا له فأكب على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كاد وجهه يمس وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر نفسه حتى استبان أنه توفى . فقال : إنك ميت وإنهم ميتون ، قالوا ياصاحب يارسول الله توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم : فعلموا أنه كما قال .

قال ابن إسحاق توفى أبو بكر رضى الله عنه يوم الجمعة لسبع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤) وصلى عليه عمر بن الخطاب .

توفى بعد النبى صلى الله عليه وسلم بسنتين وأشهر بالمدينة وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وكان أبو بكر رجلا أبيض نحيفاً خفيف العارضين أحنى معروق الوجه غائر العينين . ناتئ الجبهة . عارى الأشاجع . يخضب بالحناء والكتم ، وكان أول من أسلم من الرجال وأسلم أبواه . له ولو الديه ولولده وولدولده صحبة رضى الله عنهم ، واختلف فى سبب موته . فقيل إنه مات مسموماً . وقيل إنه اغتسل فى يوم بارد فحم خمسة عشر يوماً ثم مات بعدها ، وقيل إنه مات كمداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذه ترجمة حياة أبى بكر أثبتناها هنا بمناسبة إسلامه وما كان له من الشأن العظيم والقدر الرفيع ، ولأنه قد بذل المجهود فى نصرة الرسول فدل بذلك على غاية الوفاء ومنتهى الإخلاص . ولم يكن ـ رضى الله عنه ـ رجلا ضعيفاً كما ظن بعض المستشرقين، بل كان شجاعاً وكان مع شجاعته مخلصاً لايبالى بالأهوال ويحتمل المشقات كما يستفاد من سيرته ، فبقى مع الرسول ولم يهاجر إلى الحبشة مع المهاجرين عند اشتداد أذى الكفار على المسلمين ، ولما دعاه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة معه بكى من فرط السرور واشترك معه فى غزواته، وهو ممن ثبت مع رسول الله

فى غزوة أحد . ولما توفى النبى فقد الناس صوابهم وقال عمر : من قال : إن محمداً مات ضربته بسيفى هـذا . أما أبو بكر فلك شعوره ولم يفقده وقع المصاب الجلل صوابه ، فقال : إنك ميت وإنهم ميتون ، وسيأتى تفصيل ذلك عند ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا كانت هذه مواقف ضعف وخلل وهن فأين مواطن القوة؟ ولم نذكر هنا أعماله الجليلة فى خلافته[1] ، (راجع كتاب أبى بكر الصديق للمؤلف) .

يقول هؤلاء المستشرقون إنه كان يصدق الرسول تصديقاً أعمى وإنه كان كالنساء سريع البكاء ، وهو قول عجيب ، فكيف لا يصدق الرسول وهو يعلم أنه صادق لا يكذب ، بل هو أعلم خلق الله بصدقه عليه الصلاة والسلام لصحبته له تلك الصحبة الطويلة . إن تصديقه لرسول الله فى كل ما قال نتيجة الثقة به ولأجل هذه الثقة المتينة كان لا يتردد فى التصديق به ، ولأجلها تحمل معه الشدائد والاضطهادات ، ولأجلها أنفق أمواله كلها وهذا شأن العاقل الذى إذا ثبت يقينه على أساس قوى لم يبال بما يصادفه من عقبات فى سبيل نصرة الحق . أما بكاؤه عند سماع القرآن فهذا أظهر دليل على إخلاصه وتوقد ذكائه وقوة فهمه لكلام الله عز وجل إذ بقدر الفهم يكون التأثر ، وقد أجمعوا على كثرة علمه ووفور عقله وفهمه وزهده وتواضعه .

كلماته المأثورة

كان رضى الله عنه يقول :

« أكيس الكياسة التقوى ، وأحمق الحمق الفجور ، وأصدق الصدق الأمانة ، وأكذب الكذب الخيانة إن العبد إذا داخله العجب بشىء من زينة الدنيا مقته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة . ليتنى كنت شجرة تعضد ثم تؤكل . وكان يأخذ بطرف لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد » .

وقال : « لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ولا فى مال لا ينفق منه فى سبيل الله . ولا فيمن يغلب جهله حلمه . ولا فيمن لا يخاف فى الله لومة لائم » .

« وجدنا الكرم فى التقوى والغناء فى اليقين والشرف فى التواضع » .

« من مقت نفسه فى ذات الله ، أمنه الله من مقته » .

« فاز بالمروءة من امتطى التغافل ، وهان على القربى من عرف باللجاج »

« إياكم والفخر . وما فخر من خلق من تراب ثم إليه يعود ، ثم يأكله الدود » .

« لا خير فى خير بعده النار . ولا شر فى شر بعده الجنة » .

---

(١) كانت مدة خلافة أبى بكر سنتين قضى فيها على المرتدين قضاء مبرما وأخضع بنى غسان وبنى تغلب وهزم الفرس ودخلت جيوشه عاصمتهم وتغلب على العراق وجهز جيشاً يبلغ عدده ثلاثين ألفاً لمحاربة الروم فى الشام — كل ذلك فى سنتين .

علی ابن أبی طالب

وإسلامه

علی بن أبی طالب بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد سنة ٦٠٠ - ٦٠١ بعد الميلاد وأم علىّ فاطمة بنت أسد بن هاشم وكنيته أبو الحسن وصهر رسول الله على ابنته فاطمة وأبو السِّبطين. وهو أول هاشمی ولد من هاشميين . والخليفة الرابع وأول خليفة من بنى هاشم وكان حين أسلم لم يبلغ الحلم . وقال ابن إسحق إنه كان يومئذ ابن عشر سنين وكان فى كفالة النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه لأن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب كثير العيال قليل المال فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وضمه إليه وأخذ العباس جعفراً وضمه إليه تخفيفاً عن أبى طالب ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

وسبب إسلامه أنه دخل على النبى ﷺ ومعه خديجة رضى الله عنها وهما يصليان سواء . فقال : ما هذا ؟ فقال رسول الله ﷺ : دين الله الذى اصطفاه لنفسه وبعث به رسله ، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته والكفر باللات والعزى فقال على رضى الله عنه : هـذا أمر لم أسمع به من قبل اليوم فلست بقاض أمراً حتى أحدث أبا طالب . وكره رسول الله ﷺ أن يفشى سره قبل أن يستعلن أمره . فقال له ياعلىّ إذ لم تسلم فاكتم هذا . فمكث علىّ ليلته ثم إن الله تعالى هداه إلى الإسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ فأسلم على يديه[1] وكان علىّ رضى الله عنه يخفى إسلامه خوفاً من أبيه إلى أن اطلع عليه وأمره بالثبات عليه فأظهره حينئذ . أما أبو طالب فلم يرض أن يفارق دين آبائه ، وعن أنس بن مالك قال : بُعث النبى ﷺ يوم الاثنين وأسلم علىّ يوم الثلاثاء . وأمره رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه ليلة خرج مهاجراً وقال : إن قريشاً لم يفقدونى ما رأوك فاضطجع على فراشه . وسيأتى ذكر ذلك عند الكلام على الهجرة ، ثم لحق برسول الله بالمدينة بعد قضاء ديون رسول الله ورد الودائع التى كانت عنده ، فلما وصل إليها كانت قدماه قد ورمتا من المشى وكانتا تقطران دما فاعتنقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكى رحمة لما أصاب قدميه وتفل فى يديه ومسح بهما رجليه ودعا له بالعافية فلم يشتكهما حتى استشهد رضى الله عنه . وشهد بدراً وغيرها من المشاهد، ولم يشهد غزوة تبوك لاغير لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه على أهله . وأصابته يوم أحد ست عشرة ضربة . وكان على رضى الله عنه مع شجاعته الفائقة عالما .

واستخلف على رضى الله عنه ، وبويع بالمدينة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قتل عثمان وذلك

(١) لم يكن على رضى الله عنه حين أسلم يبلغ الحلم وكان يومئذ ابن عشر سنين وعلى ذلك لم يعبد الأصنام وقيل كان عمره ثمانى سنين .

فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة سنة خمس وثلاثين (٢٤ يونيه ٦٥٦) .

قتله رضى الله عنه

انتدب ثلاثة نفر من الخوارج : عبد الرحمن بن ملجم المرادى وهو من حمير وعداده فى بنى مراد وهو حليف بنى جبلة ،من كندة، والبرك بن عبدالله التميمى،وعمرو بن بكير التميمى،فاجتمعوا بمكة وتعاهدوا وتعاقدوا ليقتلن هؤلاء الثلاثة على بن أبى طالب ومعاوية وعمرو بن العاص ويريحون العباد منهم . فقال ابن ملجم أنا لكم بعلىّ ، وقال البرك أنا لكم بمعاوية ، وقال عمرو بن بكير أنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا على ذلك وتعاقدوا عليه وتواثقوا ألا ينكص منهم رجل عن صاحبه الذى سمى له ويتوجه له حتى يقتله أو يموت دونه . فحددوا ليلة سبع عشرة من رمضان ثم توجه كل رجل منهم إلى المصر الذى فيه صاحبه . فقدم عبد الرحمن بن ملجم الكوفة فلقى أصحابه من الخوارج فكاتمهم مايريد وكان يزورهم ويزورونه فزار يوماً نفراً من بنى تيم الرباب فرأى امرأة منهم يقال لها قطام بنت سخبة بن عدى بن عامر بن عوف بن ثعلبة بن سعد بن ذهل بن تيم الرباب وكان علىّ قتل أباها وأخاها بالنهروان فأعجبته فخطبها . فقالت لا أتزوجك حتى تسمى لى . فقال لاتسأليني شيئاً إلا أعطيتك . فقالت: ثلاثة آلاف وقتل على بن أبى طالب . فقال : والله ماجاء بى إلى هذا المصر إلا قتل علىّ وقد أعطيتك ماسألت: ولقى ابن ملجم شبيب بن بجرة الأشجعى فأعلمه ما يريد ودعاه أن يكون معه فأجابه إلى ذلك وظل ابن ملجم تلك الليلة التى عزم فيها أن يقتل علياً فى صبيحتها يناجى الأشعث بن قيس الكندى فى مسجده حتى طلع الفجر . فقال له الأشعث ، فضحك الصبحُ فقام ابن ملجم الكندى وشبيب بن بجرة فأخذ أسيافهما ثم جاءا حتى جلسا فى مقابل السدة التى يخرج منها علىّ . فلما خرج اعترضه الرجلان فضرب الاثنان بسيفيهما ، فأما سيف ابن ملجم فأصاب جبهته إلى قرنه ووصل إلى دماغه وكان قد سن سيفه شهراً . وأما سيف شبيب فوقع فى الطاق فسمع علىّ يقول لا يفوتنكم الرجل وشد الناس عليهما من كل جانب. فأما شبيب فأفلت وأخذ ابن ملجم فأدخل على علىّ فقال « أطيبوا طعامه وألينوا فراشه فإن أعش فأنا ولى دمى عفو أو قصاص ، وإن أمت فألحقوه بى أخاصمه عند رب العالمين » ضرب علىّ رضى الله عنه فى السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين (٢٤ يناير سنة ٦٦١) واستشهد بعد ذلك بثلاثة أيام ودفن بالكوفة ليلة الأحد التاسع عشر من شهر رمضان وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر . وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة على الأصح وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر.

قال علىّ الباقر كان علىّ آدم اللون مقبل العينين عظيمهما ذا بطن . أصلع . ربعة لايخضب . وقال أبو إسحاق السبيعى رأيته أبيض الرأس واللحية وكان ربما خضب لحيته . وقال أبو رجاء العطارى : رأيت علياً ربعة ضخم البطن . كبير اللحية قد ملأت صدره . أصلع شديد الصلع .

هذا وقد اقتصرت فى تاريخ حياة على رضى الله عنه عَلَى هذا القدر الضرورى لأن المقام لايسع أكثر من ذلك (راجع كتاب « الإمام على بن أبى طالب » رضى الله عنه للمؤلف) .

زيد بن حارثة

وإسلامه

زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى . و يقع فى نسبه خلاف وتغيير وزيادة ونقص وهوأشهر موالى رسول الله . ويقال له حِب رسول الله وهبته خديجة رضى الله عنها للنبى صلى الله عليه وسلم قبل النبوة وهو ابن ثمان سنين وأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبناه وذلك أن أباه قد وجد (حزن) لفقده وجداً شديداً وكان قد أخذ فى السبى . فلما علم أبوه أنه بمكة قدمها ليفديه فدخل حارثة وأخوه كعب على النبى صلى الله عليه وسلم فقالا : يا ابن عبد المطلب ، ياابن هاشم ، ياابن سيدقومه ! جئناك فى ابننا عندك فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه . فقال من هو ؟ قالا : زيد بن حارثة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلا غير ذلك ؟ قالا ماهو ؟ قال : ادعوه وخيروه فإن اختاركم فهو لكم وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً . قالا قد زدتنا على النصف وأحسنت فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم . هذا أبى وهذا عمى ، قال : فأنا من قد عرفت ورأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما . قال : ماأريدهما وما أنا بالذى أختار عليك أحداً . أنت منى مكان الأب والعم . فقالا : ويحك يازيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وأهل بيتك ؟ ! قال نعم . ورأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحجر فقال يامن حضر اشهدوا أن زيدا ابنى يرثنى وأرثه . فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما وانصرفا [1]

وهاجر زيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وشهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية وخيبر وكان هو البشير إلى المدينة بنصر المؤمنين يوم بدر ، وكان من الرماة المذكورين وزوجه رسول الله ﷺ مولاته أم أيمن فولدت له أسامة ، وتزوج زينب بنت جحش أم المؤمنين [2] ثم طلقها ثم تزوجها رسول الله ﷺ . وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : « لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحى لكتم هذه الآية : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ فإن رسول الله ﷺ لما تزوجها — يعنى

---

(١) زيد بن حارثة من أبوين مسيحيين لكنه لم يكن يعلم شيئاً عن المسيحية لأنه سبى صغيرا ووهبته خديجة للنبى قبل النبوة وهو ابن ثمانى سنين .

(٢) وهى ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

زينب ـ قالوا إنه تزوج حليلة ابنه فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَـٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ وكان زيد يقال له زيد بن محمد فأنزل الله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ الآية .

قال العلماء ولم يذكر الله عز وجل فى القرآن باسمه العلم من أصحاب نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم إلا زيداً فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ .

وآخى رسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين حمزة . وأرسله رسول الله أخيراً أميراً على الجيش فى غزوة مؤتة فقاتل فيها حتى قتل وذلك فى جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة ، وكان زيد أبيض أحمر وكان ابنه أسامة آدم شديد الأدمة (أى أسمر) .

الدعوة إلى الاسلام خفية

بعد أن نزلت سورة « يا أيها المدثر » أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الله تعالى وتتابع الوحى . ونزول هذه السورة ابتداء رسالته صلى الله عليه وسلم فهى متأخرة عن نبوته ، وصار عليه الصلاة والسلام يدعو الناس إلى الإسلام خفية ثلاث سنين لعدم الأمر بالإظهار إلى أن أمر بإظهار الدعوة وكان من أسلم إذا أراد الصلاة ذهب إلى بعض الشعاب ليستخفى بصلاته من المشركين حتى اطلع نفر من المشركين على سعد بن أبى وقاص وهو فى نفر من المسلمين يصلون فى بعض الشعاب فناكروهم وعابوا عليهم مايصنعون وقاتلوهم فضرب سعد رجلًا منهم فشجه وهو أول دم أهريق فى الإسلام . فعند ذلك دخل رسول الله ﷺ هو وأصحابه دار الأرقم مستخفين بصلاتهم وعبادتهم إلى أن أمره الله تعالى بإظهار الدين . ودار الأرقم هى دار للأرقم بن أبى الأرقم من السابقين فى الإسلام وهى فى أصل الصفا .

وقد أسلم من الصحابة بدعاء أبى بكر : عثمان بن عفان . والزبير بن العوام . وعبد الرحمن بن عوف . وسعد بن أبى وقاص . وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا (١) وهنا يجب أن نذكر شيئاً عنهم لرفعة شأنهم :

١ ـ فعثمان بن عفان هو الخليفة الثالث . هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ويقال له ذو النورين لأنه تزوج بنتى رسول الله ﷺ رقية ثم أم كلثوم بعد وفاة رقية . ولد فى السنة السادسة بعد الفيل وقتل شهيداً يوم الجمعة لثمان عشرة خلون من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين وهو ابن ٨٢ سنة وكانت خلافته ثنتى عشرة سنة . وفى زمنه كانت غزوة الإسكندرية ثم سابور ثم إفريقية ثم قبرس وإصطخر الآخرة وفارس الأولى ثم خوز وفارس الآخرة ثم طبرستان ودارا بجرد وكرمان وسجستان ثم الأساودة فى البحر وغيرهن ثم مرو .

(١) كان كل من أبى بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بزازاً ، وكان الزبير جزارا وسعد بن أبى وقاص يصنع النبل .

وكان رضى الله عنه حسن الوجه رقيق البشرة كث اللحية أسمر كثير الشعر بين الطويل والقصير وكان محبباً من قريش [1] . .

٢ ــ الزبير بن العوام أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أخى خديجة بنت خويلد زوجة النبى وكان عمره حين أسلم اثنتى عشرة سنة ، وهو أحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة فى أحدهم : عثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف . هاجر الزبير إلى الحبشة ثم إلى المدينة وهو أول من سل سيفاً فى سبيل الله . شهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة وحصار الطائف والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وشهد اليرموك وفتح مصر . وكان أسمر ربعة معتدل اللحم خفيف اللحية . وكان الزبير يوم الجمل قد ترك القتال وانصرف فلحقه جماعة من الغوغاء فقتلوه بوادى السباع بناحية البصرة وقبره هناك ، قتل فى جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وكان عمره حينئذ سبعاً وستين وقيل ستاً وستين سنة .

٣ ــ عبد الرحمن بن عوف ولد بعد الفيل بعشر سنين قبل دخول رسول الله دار الأرقم . أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة الذين هم أهل الشورى الذين أوصى إليهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالخلافة . هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة وشهد مع رسول الله بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد . وجرح يوم أحد إحدى وعشرين جراحة وجرح فى رجله وسقطت ثنيتاه . وكان كثير الإنفاق فى سبيل الله . أعتق فى يوم واحداً وثلاثين عبداً . وكان كثير المال محظوظاً فى التجارة ، غنيًّا . وكان أبيض مشرباً بحمرة ، حسن الوجه ، رقيق البشرة أعين أهدب الأشفار أقنى له جمة ضخم الكفين غليظ الأصابع لاتغير بشعره . توفى سنة ثنتين وثلاثين وهو ابن ثنتين وسبعين ودفن بالبقيع .

٤ ــ سعد بن أبى وقاص ــ وكان عمره حين أسلم تسع عشرة سنة وهو أحد العشرة وأحد الستة أصحاب الشورى وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله وأول من أراق دماً فى سبيل الله هاجر إلى المدينة قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها . شهد مع رسول الله بدراً وأحداً والخندق وسائر المشاهد وكان يقال له فارس الإسلام . وأبلى يوم أحد بلاء شديداً وكان مجاب الدعوة . استعمله عمر بن الخطاب على الجيوش التى بعثها إلى بلاد الفرس ، وكان أمير الجيش الذى هزم الفرس بالقادسية وبجلولاء وغنمهم وفتح مدائن كسرى وبنى الكوفة وولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه العراق . ورمى سعد يوم أحد ألف سهم . ولما قتل عثمان رضى الله عنه اعتزل سعد الفتن فلم يقاتل فى شىء من تلك الحروب . توفى سنة خمس وخمسين بقصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة ودفن بالبقيع وكان آدم طوالا ذا هامة .

(١) راجع كتاب « عثمان بن عفان » للمؤلف .

٥ — طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى وسماه رسول الله ﷺ طلحة الخير وطلحة الجود وهو من المهاجرين الأولين لم يشهد بدراً وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد : قتل يوم الجمل لعشر خلون من جمادى الأولى سنة ست وثلاثين . وكان عمره أربعاً وستين سنة وقبره بالبصرة مشهور يزار ويتبرك به .

هذا جزء يسير من تراجم الخمسة الذين أسلموا بدعاء أبى بكر ، وهم من الرجال الذين ذاع صيتهم فى الإسلام لما قاموا به من جلائل الأعمال ، وقد أسلم بعد هؤلاء أبو عبيدة الجراح واسمه عامر بن عبد الله بن الجراح ابن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وأبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبى الأرقم، وعثمان ابن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ابنا مظعون ، وعبيدة بن الحارث وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة بنت الخطاب وأسماء بنت أبى بكر وعائشة بنت أبى بكر وهى صغيرة وخباب بن الأرتّ حليف بنى زهرة وعمير بن أبى وقاص أخو سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن مسعود ومسعود بن القارى وهو مسعود بن ربيعة وسليط بن عمر وأخوه حاطب بن عمر وعيَّاش بن أبى ربيعة بن المغيرة وامرأته أسماء بنت سلامة وخنيس بن حذافة بن قيس وعامر ابن ربيعة وعبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد بن جحش وجعفر بن أبى طالب وامرأته أسماء بنت عُميس وحاطب ابن الحارث وغيرهم .

الرد على مستر مرجوليوث

قدمنا أن عثمان بن عفان قد أسلم إجابة لدعوة أبى بكر لكن الأستاذ مرجوليوث فى كتابه محمد [1] يزعم أن سبب إسلامه أنه كان يحب رقية بنت رسول الله ﷺ ويريد أن يتزوجها . فلما بلغه أنها خطبت لغيره حزن وأخبر أبا بكر بما بلغه وصادف مرور رسول الله ﷺ فأسرّ أبو بكر كلمات فى أذن الرسول وبذلك انتهى الأمر وأسلم عثمان وتزوج رقية، ولم يذكر لنا مستر مرجوليوث المصدر الذى استقى منه هذا الخبر حتى نناقشه و نفنده . فما كل رواية يؤخذ بها ويعوّل عليها . ثم يعرض بعد ذلك إلى خالد بن سعيد وسبب إسلامه . فقد كان خالد من السابقين إلى الإسلام فكان ثالثاً أو رابعاً وقيل كان خامساً فى الإسلام . وسبب إسلامه أنه رأى فى النوم أنه وقف على شفير النار فذكر من سعتها ما الله أعلم به وكأنّ أباه يدفعه فيها ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذاً بحقويه [2] لايقع فيها ففزع من نومه وقال : أحلف إنها لرؤيا حق ولقى أبا بكر رضى الله عنه فذكر ذلك له . فقال له أبو بكر أريد بك خيرا ، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه فإنك ستتبعه فى الإسلام الذى يحجزك من

(1) Mohammed by D. S. Margliouth, 3 rd edition. Page 97

(٢) الحقوان بالكسر والفتح : الخاصرتان .

أن تقع فى النار وأبوك واقع فيها فلقى رسول الله ﷺ وهو بأجياد [1] فقال : يا محمد إلى من تدعو ؟ قال : أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ولا يدرى من عبده ممن لم يعبده . قال خالد فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فسرّ رسول الله ﷺ بإسلامه . وبعد أن ذكر مرجوليوث رؤيا خالد باختصار وتعبير أبى بكر لها وأن هذه الرؤيا كانت سبب إسلام خالد بن سعيد ، تساءل هل الناس حقيقة يحلمون هكذا ؟ لكنه قال « إن فلا ماريون وميرز (Flammarion and Myers) يجيبان نعم إنهم يرون مثل ذلك » وهما من العلماء المشهورين . والمدهش أن الأستاذ مرجوليوث لا يعلم أن الناس يرون أحلاماً هكذا مع إقرار علماء النفس فى أوربا وأمريكا بذلك . والأحلام على العموم شائعة بين الناس وليست رؤيا خالد من الأحلام المستغربة حتى يشك فيها مثل مرجوليوث . أما إذا كان الشك لغرض فهذا أمر آخر .

إن الناس يرون أحلاماً يتحقق بعضها وبعضها يحتاج إلى تأويل . ويستبعد جدًّا أن يقص إنسان حلما مختلقاً وليس للأحلام حدود أو ضوابط حتى يقال إن هذا حلم وهذا ليس بحلم . فلا محل لتحكم مستر مارجوليوث واستنكاره رؤيا خالد بن سعيد للنار . وهذا يوسف عليه السلام ورؤياه التى قصها على أبيه فقد تحققت بعد أربعين عاماً وما رآه الفتيان اللذان كانا معه فى السجن مما ورد ذكره فى القرآن فقد عبّر يوسف عليه السلام رؤياهما وتحققت حسب تعبيره ، إذ عاد أحدهما إلى مركزه السابق لدى الملك وأعدم الآخر . إلا أن مستر مرجوليوث غرضه التهم على الإسلام لا استنكار الأحلام . وهذا لا يليق بمستشرق مثله .

إيذاء المشركين

لأبى بكر الصديق

عبادة الأصنام مع أنها واضحة البطلان فإن العرب كانوا متمسكين بها تمسكاً شديداً لرسوخها فى نفوسهم منذ زمن طويل فلا يطيقون سماع من يعيبها أو يطعن فيها بل لا يقبلون إرشاد ناصح يخاطبهم بالحسنى ويناقشهم بالعقل والبرهان . فإذا قيل لهم كيف تعبدون الحجارة التى لا تنفع ولا تضر ، ولا تبصر ولا تسمع ، ولا تعلم من يعبدها ، ومن لا يعبدها ، ثارت ثائرتهم . وقالوا : هذا ما وجدنا عليه آباءنا واعتدوا على أعز الناس لديهم وأشرفهم وأعقلهم وأسماهم أخلاقاً . فلم يكن من الحكمة وأصالة الرأى أن يجهر النبى ﷺ وأصحابه القليلون بالإسلام ويؤدوا شعائرهم الدينية أمام أمة بأسرها متعصبة لدينها الوثنى تعصباً أعمى .

وقد أدرك بعض أفراد بعقلهم الثاقب وفطرتهم السليمة أن قومهم فى خطأ مبين فمنهم من مات وهو منكر

---

(١) أجياد ، محلة بمكة .

لعبادة الأصنام قبل الإسلام . ومنهم من آمن برسول الله عند مابلغته رسالته كسلمان الفارسى أو عند مادعاه رسول الله إلى اتباع الدين القويم كأبى بكر ، ومن أسلم بدعائه وغيرهم ولم يبالوا بما يصيبهم من سخط قومهم وإيذائهم مع ما يعلمونه من قلة عدد المؤمنين فى بادئ الأمر .

فما وقع لأبى بكر رضى الله عنه من الأذية ما ذكره بعضهم كما فى السيرة الحلبية أن رسول الله ﷺ لما دخل دار الأرقم ليعبد الله هو ومن معه من أصحابه سرًا ألح أبو بكر رضى الله عنه فى الظهور (1) فقال له النبى ﷺ يا أبا بكر إنا قليل . فلم يزل به حتى خرج رسول الله ﷺ ومن معه من الصحابة رضى الله عنهم وقام أبو بكر فى الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس ودعا إلى رسول الله . فهو أول خطيب دعا إلى الله تعالى ، فثار المشركون على أبى بكر رضى الله عنه وعلى المسلمين يضربونهم فضربوهم ضربًا مبرحًا ، ووطئ أبو بكر بالأرجل وضرب ضربًا شديداً . وصار عتبة بن ربيعة (2) يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين ويحرفهما إلى وجهه حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه فجاءت بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبى بكر إلى أن أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته . ثم رجعوا فدخلوا المسجد فقالوا والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة . ثم رجعوا إلى أبى بكر وصار والده أبو قحافة وبنو تيم يكلمونه فلا يجيب حتى آخر النهار . ثم تكلم وقال : ما فعل رسول الله ﷺ فعذلوه فصار يكرر ذلك . فقالت أمه والله مالى علم بصاحبك . فقال : اذهبى إلى أم جميل فاسأليها عنه فخرجت إليها وقالت لها أن تسأل عن محمد بن عبد الله . فقالت لا أعرف محمداً ولا أبا بكر . ثم قالت تريدين أن أخرج معك ؟ قالت نعم . فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعاً فصاحت وقالت : إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق . وإنى لأرجو أن ينتقم الله منهم ، فقال لها أبو بكر رضى الله عنه : ما فعل رسول الله ﷺ . فقالت له هذه أمك تسمع . قال فلا عين عليك منها : أى إنها لاتفشى سرك . قالت: سالم هو فى دار الأرقم . فقال والله لا أذوق طعاماً ولا أشرب شرابًا أو آتى رسول الله ﷺ ، قالت أمه فأمهلناه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجنا به يتكئ على حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرق له رقة شديدة وأكب عليه يقبله وأكب عليه المسلمون كذلك . فقال بأبى أنت وأمى يارسول الله مابى من بأس إلا ما نال الناس من وجهى وهذه أمى برة بولدها فعسى الله أن يستنقذها بك من النار ، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت .

---

(1) هذا دليل على أن أبا بكر لم يكن ضعيفاً لأنه لو كان كذلك لما ألح فى الظهور وهو يعلم عداء قريش للمسلمين ودليل على قوة إيمانه بصدق رسالة النبى صلى الله عليه وسلم .

(2) عتبة بن ربيعة قتله حمزة بن عبد المطلب يوم بدر كافراً .

لاشك أن المسلمين فى ذلك الوقت كانوا فى خطر شديد . فقد كان لايهدأ للمشركين بال إلا إذا أساءوا إليهم ولذلك كان الاستخفاء فى غاية الحكمة . وبقى المسلمون مستخفين فى دار الأرقم حتى كملوا أربعين رجلا ، وكان آخرهم إسلاماً عمر بن الخطاب . فلما كملوا به أربعين خرجوا وأظهروا إسلامهم .

تلك شجاعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقوة إيمانه وصدق يقينه . لقد وقف أمام المشركين وجهاً لوجه ولم يبال بكثرتهم وعرض حياته الغالية للخطر ليدعوهم إلى الحق، إلى عبادة الله الواحد القهار و نبذ الشرك وخلع الوثنية فأصيب بشر ما يصاب به إنسان وكاد يقضى عليه، فلما أفاق كان أول ما تلفظ به السؤال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم ترتح نفسه وتطمئن حتى رآه بعينيه سالماً معافى . فأين هذا من الذين يخالفون عقائدهم ويميلون مع الأهواء وينضمون إلى من يأنسون فيه القوة ويعينون على الباطل لمتاع مؤقت لايلبث أن يزول ؟

لو كان المسلمون فى بادئ أمرهم متهاونين مذبذبين لما ثبتت دعائم الإسلام وصار قوى الأركان ، متين البنيان . بل لقبر فى مهده ، لكنه ارتفع على كواهل رجال أقوياء صادقين أدهشوا العالم بأعمالهم وجهادهم حتى خضعت لهم أمم الأرض ! فبمثل عمل هؤلاء فليهتد المصلحون .

إظهار الإسلام

سنة ٦١٣ م

أمر الله سبحانه وتعالى النبى صلى الله عليه وسلم أن يصدع بما جاءه منه ، وأن يدعو الناس إليه وبأمرهم به. وكان بين إخفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستتاره به وبين أمر الله تعالى إياه بإظهار دينه ثلاث سنين من بعثه ، ثم قال الله تعالى له ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ [١] ﴾ أى لا تبال بهم ولا تلتفت إلى لومهم إياك على إظهار الدعوة . وقال تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ [٢] ﴾ . فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا [٣] . فقال : يامعشر قريش . فقالت قريش محمد على الصفا يهتف . فأقبلوا واجتمعوا . فقالوا مالك يامحمد ؟ قال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى ؟ قالوا نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط . قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . يابنى عبد المطلب . يابنى عبد مناف . يابنى زهرة - حتى عدد الأفخاذ من قريش - إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا

(١) سورة الحجر .

(٢) سورة الشعراء .

(٣) مكان مرتفع فى أسفل جبل أبى قبيس فى مواجهة الكعبة من الجهة الشرقية .

إلا أن تقولوا لا إله إلا الله . فقال أبو لهب « تبًا لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا » ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ السورة كلها . فلما سمع أبو لهب قوله ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ قال إن كان ما يقول محمد حقًا افتديت منه بمالي وولدي فنزل ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ وكان أبو لهب إذا سأله وفد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنه ساحر ومجنون لينصرفوا عنه قبل لقائه . وقد أغضبت هذه السورة أبا لهب فأظهر شدة العداوة وصار متهمًا فلم يقبل قوله في رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنه خاب سعيه وبطل غرضه . وروى عن طارق المحاربي أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في السوق يقول : أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجل خلفه يرميه بالحجارة وقد أدمى عقبيه . ويقول لا تطيعوه فإنه كذاب . فقلت من هذا ؟ قالوا محمد وعمه أبو لهب . أما امرأته فهي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية فكانت أيضًا في غاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وترمى الشوك في طريقه .

وعن الزهري أنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام سرا وجهراً فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به وكفار قريش غير منكرين لما يقول . فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أنه غلام بني عبد المطلب يكلم من السماء فكان ذلك حتى عاب آلهتهم التي يعبدونها وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر فشنقوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك وعادوه .

وعن ابن عتبة أنه قال : لما أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ومن معه وفشا أمره بمكة ودعا بعضهم بعضا فكان أبو بكر يدعو ناحية سراً ، وكان سعيد بن زيد مثل ذلك ، وكان عثمان مثل ذلك ، وكان عمر وحمزة بن عبد المطلب وأبو عبيدة بن الجراح يدعون علانية ، فغضبت قريش من ذلك وظهر منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد والبغي وأشخص به منهم رجال فبادوه وتستر آخرون وهم على ذلك الرأى إلا أنهم ينزهون أنفسهم عن القيام والإشخاص برسول الله ﷺ . وكان أهل العداوة والمباداة لرسول الله ﷺ وأصحابه الذين يطلبون الخصومة والجدل : أبو جهل بن هشام وأبو لهب بن عبد المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن قيس بن عدى وهو ابن الغليطة ، والوليد بن المغيرة وأبي بن خلف ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والعاص بن وائل ، والنضر بن الحارث ومنبه بن الحجاج وزهير بن أبي أمية والسائب بن صيفي بن عابد ، والأسود بن عبد الأسد ، والعاص بن سعيد بن العاص ، والعاص بن هاشم وعقبة بن أبي مُعيط ، وأبو الأصدى الهذلي والحكم بن أبي العاص وعدى بن الحمراء . وذلك أنهم كانوا جيرانهم . والذين كانت تنتهى عداوة رسول الله إليهم أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط . وكان عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب أهل عداوة ولكنهم لم يشخصوا بالنبي صلى الله عليه وسلم نحو قريش ولم يسلم منهم أحد إلا أبو سفيان [١] .

---

(١) راجع طبقات ابن سعد .

عبد الله بن مسعود

أول من جهر بالقرآن

كان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود ، اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ : فقالوا والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط . فمن رجل يسمعهم ؟ فقال عبد الله بن مسعود[1] أنا . فقالوا إنا نخشاهم عليه إنما نريد رجلا له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه . فقال دعونى ؛ فإن الله سيمنعنى ، فغدا عبد الله حتى أتى المقام فى الضحى وقريش فى أنديتها حتى قام عند المقام . فقال رافعاً صوته ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ . فاستقبلها فقرأ بها فتأملوا . فجعلوا يقولون : ما يقول ابن أم عبد ؟ ثم قالوا إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد . فقاموا فجعلوا يضربون فى وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ . ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه . فقالوا : هذا الذى خشينا عليك . فقال : ما كان أعداء الله قط أهون علىّ منهم الآن ، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غداً . قالوا حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون .

وقيل إن أبا جهل لطمه فشق أذنه وأدماه فانصرف وعينه تدمع فلما رآه النبى عليه السلام رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً . فإذا جبريل عليه السلام يجىء ضاحكاً مستبشراً فقال ياجبريل تضحك وابن مسعود يبكى ؟ فقال : ستعلم ، فلما ظفر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ فى الجهاد ، فقال عليه السلام : خذ رمحك والتمس فى الجرحى من كان به رمق فاقتله فإنك تنال ثواب المجاهدين . فأخذ يطالع القتلى فإذا أبو جهل مصروع يخور ، فخاف أن تكون به قوة فيؤذيه فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه[2] .

الضرب والشتم

حيلة الجهال المتعصبين

إن كفار قريش ، لم يفكروا فى مناقشة ما يسمعون من الآيات القرآنية التى كان يتلوها رسول الله ﷺ وأصحابه ، بل كانوا يتهمونه بالكذب تارة أو بالجنون أو بالسحر ويضربون من يجهر بالقرآن . وهذا سلاح الضعيف الجاهل . إن رسول الله كان يعيب آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ويقول : إنها أصنام صنعتموها بأيديكم وهى لاتنفع ولا تضر ولاتسمع ولاتبصر . فاتركوها واعبدوا الله خالق السموات والأرض ويعدد لهم

---

(١) كان عبد الله بن مسعود قصيراً جداً طوله نحو ذراع خفيف اللحم دقيق الرجلين . يقال إن عبد الله سادس من أسلم . وقد هاجر الهجرتين وشهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله .

(٢) تفسير الفخر الرازى جزء ٦ ص ٥٨٥ .

صفاته وقدرته جل شأنه ، فلولا رسوخ العقيدة الباطلة فى نفوسهم ، والعقائد الباطلة القديمة ، تشل عقل معتنقيها ، نقول لولا رسوخ العقيدة ، لحكموا عقولهم وبادروا إلى الإيمان بالله ، لكن عزّ عليهم أن يأتى رجل منهم ويتهمهم بالكفر والضلال ويعيب تلك الآلهة القديمة التى وجدوا آباءهم وأجدادهم يسجدون لها ويقدمون لها الذبائح والهدايا . فالتجأوا إلى الضرب والشتم وهذا شأن كل جاهل متعصب . ولما دخل رسول الله مكة فاتحاً وأمر بهدم تلك الأصنام التى كانوا يعتقدون أنها مقدسة لا يقدر أحد على إيصال الأذى إليها ، وهدمت بالفعل ووجد أن لا حول لها ولا قوة وقتل من كان فيها من المشعوذين، أيقنوا أنهم كانوا فى ضلال مبين فقال الرسول: ﴿ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ فاللهم طهّر قلوبنا من الشرك وأمتنا مسلمين .

القرآن

تحيّر ألبـــاب العرب

تحيّرت ألباب العرب فى القرآن الذى نزل بلغتهم وهم أهل فصاحة و بلاغة . وخشيت قريش أن ينتشر الإسلام وينتصر النبى ﷺ بدينه على الأصنام . فاتفقوا على إطلاق اسم على رسول الله ﷺ ينفّر القبائل منه، ويشوّه سمعته ، ويكون عقبة فى سبيل نشر دعوته . ذلك أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم . وقد حضر الموسم فقال لهم : يامعشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم . وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه . وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً . فقالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أنتم قولوا أسمع . قالوا نقول كاهن قال والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه[1] قالوا فنقول مجنون قال ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته[2]. قالوا فنقول شاعر . قال: ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رَجَزَه ، وهزَجه ، وقريضه، مقبوضه ، ومبسوطه[3] فما هو بالشعر . قالوا فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السُّحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده[4] . قالوا فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعَذْق[5] . وإن فرعه لجناة[6] وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف

(١) الزمزمة كلام خفى لا يفهم . والسجع أن يكون الكلام المنثور له نهايات كنهايات الشعر

(٢) بخنقه . يريد الاختناق الذى يصيب المجنون . والتخالج: اختلاج الأعضاء وتحركها عن غير إرادة . والوسوسة ما يلقيه الشيطان فى نفس الإنسان .

(٣) هذه كلها أنواع من الشعر (٤) إشارة إلى ما كان يعمل الساحر من أن يعقد خيطاً ثم ينفث عليه . ومنه قوله تعالى : « ومن شر النفاثات فى العقد » يعنى الساحرات (٥) العذق الكثير الشعب والأطراف فى الأرض .

(٦) أى فيه ثمر يجنى .

أنه باطل ، وإن أقرب القول لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك . فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر أحد إلا حذروه إياه . لكن النتيجة جاءت عكس ذلك فقد انتشر ذكره صلى الله عليه وسلم في بلاد العرب .

وقد كان ضماد بن ثعلبة الأزدى صديقاً للنبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية . وكان رجلاً يتطبب ويرقى ويطالب العلم . فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون إن محمداً مجنون . فجاءه وقال إني راق فهل بك من شيء فأرقيك ؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم بقوله : « الحمد لله نحمده ونستعينه . من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد » ، فقال له ضماد أعد علىّ كلماتك هؤلاء ، فأعادهن النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً . فقال : والله لقد سمعت قول الكهنة ، وسمعت قول السحرة ، وسمعت قول الشعراء ، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات لقد بلغت ناعوس البحر [1] فمد يدك أبايعك على الإسلام فمد النبي صلى الله عليه وسلم يده فبايعه وأسلم .

وهكذا أخفق مسعاهم وسقط إفكهم والحسود لا يسود ، والكذب لاتقوم له قائمة فلا بد أن يسود الحق ويكتسح الباطل أمامه .

قريش تفاوض أبا طالب
في أمر رسول الله ﷺ

المفاوضة الأولى

لما رأت قريش أن أبا طالب قد قام دون النبي ﷺ ولم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشرافهم إلى أبي طالب: عُتبة وشيبة ابنا ربيعة . وأبو البَختري بن هشام . والأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل السهمى ونبيه ومنبِّه ابنا الحجاج ، وغيرهم ــ فقالوا يا أبا طالب : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه . فقال لهم أبو طالب قولاً جميلا ، وردهم رداً رقيقاً ، فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ لما هو عليه . هذه هي المفاوضة الأولى ، لكنها لم تثمر شيئاً ، إذ ظل الرسول يدعو إلى عبادة الله كما كان .

---

(١) هكذا جاء في رواية مسلم « ناعوس البحر » وفي غيره « قاموس البحر » وهو الصحيح كما في الروايات الأخرى . وقاموس البحر : وسطه ولجته . والمعنى بلغت غاية الغايات .

المفاوضـــة الثانية

ثم لما تباعد الرجال وتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ فكروا فى مفاوضة أبى طالب مرة أخرى . فمشوا إليه وقالوا : ياأبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا وإنا قد استنهيناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل . وإنا والله لانصبر على هذا من شتم آلهتنا وآبائنا ، وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين أو كما قالوا ، ثم انصرفوا عنه . ومعنى ذلك أنهم هددوا أبا طالب فى هذه المرة وأظهروا له العداوة ، فعظم عليه فراق قومه وعداوتهم له ، ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله ﷺ وخذلانه ، فبعث إلى رسول الله ﷺ فأعلمه ماقالت قريش ، وقال له أبق على نفسك وعلىّ ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق . فظن رسول الله ﷺ أن عمه قد خذله وضعف عن نصرته . فقال له « ياعماه والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذ الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته » ثم بكى رسول الله ﷺ وقام . فلما ولى ناداه أبو طالب فأقبل عليه وقال : (اذهب ياابن أخى فقل ماأحببت فوالله لاأسلمك لشىء أبداً) فتدبر أيها القارئ فى قوة رسول الله تلك القوة المعنوية العظيمة أمام شعب معاد معاند وشدة تمسكه بمبدئه إلى النهاية ! !

المفاوضة الثالثة

أصر أبو طالب على الدفاع عن ابن أخيه قياماً بالواجب عليه نحو من تربى فى كفالته ونشأ فى بيته وعملا بالمروءة . ولكنه مع ذلك بقى على دينه ولم يعتنق الإسلام لذلك صارت مهمته شاقة ومركزه حرجاً فأمامه قريش متعصبة لدينها وقد أغضبها قيام محمد صلى الله عليه وسلم بنشر الإسلام ومحاربة الأصنام ، وصاحب الدعوة لايثنيه عن القيام بما أمر به سخرية ساخر أو اضطهاد مضطهد فلو أن أبا طالب أسلم لكان دفاعه أعظم وحجته أبلغ أمام العرب وأحكم ، ولكنه ظل على دين آبائه ودافع عن رسول الله لاعن عقيدة بل أداء لواجب القرابة .

وفى هـذه المرة مشوا إلى أبى طالب بعمارة بن الوليد . فقالوا : ياأباطالب هذا عمارة بن الوليد فتى قريش وأشعرهم وأجملهم فخذه فلك عقله ونصرته فاتخذه ولداً وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذى سفه أحلامنا وخالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك فنقتله فإنما رجل برجل . فقال والله لبئس ماتسوموننى ! أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبداً فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : لقد أنصفك قومك وماأراك تريد أن تقبل منهم شيئاً . فقال والله ماأنصفونى ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم علىّ فاصنع مابدا لك . وكل عاقل يرى أن ماعرضته قريش على أبى طالب فى غاية السخف لكنهم كانوا يتلمسون الحيل للخلاص من صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم بأى حال فلما يئسوا من إجابة طلبهم اشتدت قريش على من

أسلم فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم . وقام أبو طالب فى بنى هاشم فدعاهم إلى منع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابوا إلى ذلك .

تعذيب المسلمين

أخذت قريش تؤذى النبى ﷺ وتؤذى من آمن به حتى عذبوا جماعة من المستضعفين عذاباً شديداً يدل على مبلغ تعصبهم وقسوتهم .

فمن الذين عذبوا لأجل إسلامهم بلال بن رباح الحبشى مولى أبى بكر . وكان أبوه من سبى الحبشة وأمه حمامة سبية أيضاً وهو من مولدى الشراة وكنيته أبو عبد الله نصار بلال لأمية بن خلف الجمحى فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه فى الرمضاء على وجهه وظهره [1] ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره ويقول لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فكان بلال وهو فى هذه الحال يقول : « أحد . أحد » فرآه أبو بكر يعذب ، فقال لأمية بن خلف الجمحى ألا تتقى الله فى هذا المسكين؟ فقال أنت أفسدته فأنقذه فقال: عندى غلام على دينك أسود أجلد من هذا أعطيكه به قال : قبلت ، فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالا فأعتقه . وقيل اشتراه أبو بكر بخمس أواق . أما أمية بن خلف فقتله بلال، واشترك معه معاذ بن عفراء وخارجة بن زيد وحبيب بن أساف . قال ابن إسحاق : أما ابنه علىّ فقتله عمار بن ياسر وحبيب بن أساف وذلك فى موقعة بدر .

ومن المعذبين ــ عمار بن ياسر أبو اليقظان العنسىّ وهو بطن من مراد . وعنس هذا أسلم هو وأبوه وأمه وأسلم قديماً ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الأرقم بن أبى الأرقم بعد بضعة وثلاثين رجلا . أسلم هو وصهيب فى يوم واحد.وكان ياسر حليفاً لبنى مخزوم فكانوا يخرجون عماراً وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحر الرمضاء فمرّ بهم النبى صلى الله عليه وسلم . فقال : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » فمات ياسر فى العذاب وأغلظت امرأته سمية القول لأبى جهل فطعنها فى فرجها بحربة فماتت !! وهى أول شهيد فى الإسلام وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة وبوضع الصخر فى شدة الحر على صدره تارة أخرى . فقالوا لانتركك حتى تسب محمداً وتقول فى اللات والعزى خيراً . ففعل فتركوه فأتى النبى صلى الله عليه وسلم يبكى فقال : ماوراءك ؟ فقال شر يارسول الله كان الأمر كذا وكذا فقال : فكيف تجد قلبك ؟ قال أجده مطمئناً بالإيمان فقال ياعمار إن عادوا فعد . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ .

ومنهم خبَّاب بن الأرت وكان إسلامه قديماً . قيل سادس ستة قبل دخول رسول الله دار الأرقم فأخذه الكفار

(١) ويكفى ذلك تعذيباً لشدة حر مكة فى فصل الصيف .

وعذبوه عذاباً شديداً فكانوا يعرونه ويلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالرَّضْف وهى الحجارة المحماة بالنار ولووا رأسه فلم يجبهم إلى شىء مما أرادوا وهاجر وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل الكوفة ومات سنة سبع وثلاثين . وقال على رضى الله عنه : رحمه الله إن خبّاباً أسلم راغباً وهاجر طائعاً وعاش مجاهداً وابتلى فى جسمه ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا .

ومنهم صُهيب بن سنان الرومى كناه رسول الله ﷺ « أبا يحيى » قبل أن يولد له . وكان ممن يعذب فى الله فعذب عذاباً شديداً فلما أراد الهجرة منعته قريش فافتدى نفسه منهم بماله أجمع وجعله عمر بن الخطاب عند موته يصلى بالناس إلى أن يستخلف بعض أهل الشورى .

ومنهم عامر بن فهيرة مولى الطفيل بن عبد الله . وكان الطفيل أخا عائشة لأمها أم رومان أسلم قديماً قبل دخول رسول الله دار الأرقم وكان من المستضعفين يعذب فى الله فلم يرجع عن دينه واشتراه أبو بكر وأعتقه . ولما خرج رسول الله وأبو بكر إلى الغار مهاجرين أمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة أن يروح بغنم أبى بكر عليهما وكان يرعاها وهاجر معهما إلى المدينة يخدمهما . وشهد عامر بدراً وأحداً وقتل يوم بئر معونة سنة أربع من الهجرة وهو ابن أربعين سنة .

ومنهم لبيبة جارية بنى مؤمل بن حبيب بن كعب أسلمت قبل إسلام عمر بن الخطاب وكان يعذبها حتى تفتن ثم يدعها ويقول إنى لم أدعك إلا سآمة فتقول كذلك يفعل الله بك إن لم تسلم فاشتراها أبو بكر فأعتقها .

هذه أمثلة ذكرتها ليتضح للقارئ اشتداد العذاب على هؤلاء المساكين رجالا ونساء

ومما أصاب النبى ﷺ من الإيذاء ما قاله ابن عمر كما فى البخارى : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله فلفّ ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه فدفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى رواية ثم قال : أتقتلون رجلًا أن يقول ربى الله !

وفى رواية البخارى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند الكعبة وجمع من قريش فى مجالسهم إذ قال قائل منهم ألا تنظرون إلى هذا المرائى ؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجىء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه . فانبعث أشقاهم فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه وثبت النبى صلى الله عليه وسلم ساجداً فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك فانطلق منطلق إلى فاطمة فأقبلت تسعى وثبت النبى صلى الله عليه وسلم ساجداً حتى ألقته عليهم تسبهم . فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم عليك بقريش ، ثم سمى فقال اللهم عليك بعمرو بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبى معيط وعمارة بن الوليد وقد سقطوا جميعهم صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى قليب بدر . أما عقبة بن أبى معيط فكان من أسرى بدر وأمر رسول الله بقتله .

ما عرضته قريش

على رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال عتبة بن ربيعة يوماً وهو جالس فى نادى قريش والنبى عليه الصلاة والسلام جالس فى المسجد وحده: يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون . فقالوا بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله فقال ياابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السِّطة فى العشيرة [١] والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم وسفّهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم كفّرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع . قال يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لانقطع أمراً دونك وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّا تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم . قال فاسمع منى قال : أفعل قال :

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ سورة فصلت ، ثم مضى رسول الله فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة منه أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد . ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ماسمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا ماوراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورائى أنى قد سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط . والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة . يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها بى . خلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه. فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به . قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم [٢] .

---

(١) السطة مثل العدة بمعنى الوسط ، الخيار . قال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » .
(٢) راجع سيرة ابن هشام .

لقد ظن أبو الوليد فى بادئ الأمر أن النبى ﷺ يقبل ما يعرضه عليه من مال وجاه وملك فأظهر له استعداد قريش لمنحه كل ما يبغى على ألا يتعرض لدينهم ولا يدعوهم إلى ترك عبادة الأصنام . فإن ذلك لأن الإنسان ولا سيما الفقير المحتاج يطمع فى المال وتغره أبهة الملك فيتشبث بهما ويسعى إليهما ما وجد للسعى سبيلا ولو كان أبو الوليد عرض ذلك كله أو بعضه على غير النبى ﷺ لاغتبط به واتفق مع قريش فى الحال وأراح نفسه وأصحابه من العناء والإيذاء والتعذيب والتهديد بالقتل فى كل وقت . ولكن النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن طامحاً إلى شىء من ذلك أصلا ولم يكن فى وسعه أن يتنحى عن الدعوة إلى الإسلام مهما حاولت قريش صرفه عنها . ألا ترى أنه قال لعمه أبى طالب « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » ـ وما ذلك إلا لأن الله سبحانه قد أمره بنشر الدعوة حيث قال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ وقال عز شأنه ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ أى اصبر على مشاق التكاليف وأذى المشركين . فكيف بعد هذا الأمر الإلهى تخور عزيمته وتفتر قوته ولا يصبر على كل ما يصيبه من الإيذاء ؟ بل كيف يغتر بحطام الدنيا وينخدع لما تعرضه عليه قريش من ملك وجاه ومال .

ولما رأت قريش أن رسول الله قد رفض ما عرضوه عليه قالوا له يامحمد إن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسيِّر عنا هذه الجبال التى ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ؟ فإن صدقوك وصنعت ماسألناك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا كما تقول . فقال ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من الله بما بعثنى به وقد بلغتكم ما أرسلت به فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم . قالوا فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ؛ وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم . فقال لهم رسول الله ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا . وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً ـ أو كما قال ـ فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم . قالوا فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل . فقال رسول الله ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل . قالوا يامحمد فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه

ونطلب منك ما نطلب فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا إذا لم تقبل منك ما جئتنا به ، إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة [1] يقال له الرحمن وإنا لا نؤمن بالرحمن أبداً فقد اعتذرنا إليك يامحمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا . وقال قائلهم نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله . وقال قائلهم لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلًا . فلما قالوا ذلك لرسول الله قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال يامحمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ثم قال له فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتى معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك ! ! ثم انصرف رسول الله إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ولما رأى من مباعدتهم إياه [2] .

إن هذه المطالب التى طلبتها قريش من النبى ﷺ مطالب مدهشة تدل على شدة تعنتهم وعنادهم وعلى أنهم لايريدون أن يؤمنوا إلا إذا شاهدوا المستحيلات ورأوا خوارق العادات ولذلك سألوا رسول الله أشياء عجيبة لاتخطر على البال بقصد تعجيزه والتشهير به فسألوه أن يغير طبيعة بلادهم فيسيّر الجبال ويفجر الأنهار ويحيي الموتى أو أن يجعل الله له الجنان والقصور ويعطيه الكنوز . فهذه مطالب عبّاد المادة عباد الأصنام . ثم ما أسخف ماسأله عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة الذى طلب أن يتخذ النبى عليه الصلاة والسلام سلماً إلى السماء ويأتى بصك وأربعة ملائكة يشهدون معه على صحة ما يقول . ولماذا كل هذا ؟ ليؤمن عبد الله بن أبى أمية ! هذا وقد قاسى الأنبياء صلوات الله عليهم الصعاب فى سبيل هداية الكفار الذين كانوا يرمونهم بالضلال والسفاهة والجنون والسحر . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فماذا أجابوه على ذلك ؟ ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

ولما دعا هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله رموه بالسفاهة والكذب . قال تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

(١) اليمامة ويقال لها العروض باعتبار موقعها من اليمن كأنها معترضة . فهى بين نجد وتهامة والبحرين وعمان والشحر وحضرموت وسبأ ، وهى مقام مسيلمة الكذاب .

(٢) راجع سيرة ابن هشام . وسيأتى ذكر إسلام عبد الله بن أبى أمية عند فتح مكة .

ولما أظهر موسى عليه السلام المعجزة وألقى العصا فانقلبت ثعباناً ادعوا أنه ساحر . قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ . قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فالمتعنتون لا يؤمنون مهما رأوا من الآيات البينات وخوارق العادات ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فهل بعد ذلك مكابرة وإصرار على الكفر ؟ ! .

حماقة أبي جهل .

لما عاد رسول الله آسفاً من عناد قومه وتشبثهم بالكفر قال أبو جهل : يامعشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه آلهتنا ، وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، ومن هذا تظهر شدةعداوة أبي جهل للنبي ﷺ وهذه العداوة أخرجتهعن حد العقل فأخذ يسلك سلوك الجهال ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذ النبي من شره ونجاه من غدره .

كان أبو جهل فرعون هذه الأمة اسمه عمرو بن هشام ، قتل يوم بدر كافراً وكانت بدر في السنة الثانية من الهجرة . قتله عمرو بن الجموح وابن عفراء الأنصاريان ، وكانا حدثين وحديثهما في الصحيح مشهور . وفي كتب السنن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه مقتولا قال : (قتل فرعون هذه الأمة) وقد كان سيء الخلق فظاً غليظ القلب . فمن ذلك أنه ظلم تاجراً قدم من زبيد بثلاثة أجمال حسان فسامها منه أبو جهل بثلث أثمانها ثم لم يسمها لأجله سائم فأكسد عليه سلعته ولم ينصفه غير رسول الله لأنه ساومه حتى ألحقه برضاه وأخذها رسول الله فباع جملين بالثمن وأفضل بعيراً باعهوأعطىأرامل بني عبد المطلبثمنه . وكان وصياً على يتيم فأكل مالهوطرده فاستعان اليتيم بالنبي صلى الله عليه وسلم فمشى معه ورد إليه ماله منه .

وابتاع من شخص يقال له الأراشي أجمالا بأثمانها فلما استعان الرجل برسول الله وذكر له أنه غريب وابن سبيل وأن أبا جهل غلبه على حقه قام معه إلى أبي جهل وضرب عليه بابه فقال من هذا ؟ قال محمد فخرجإليه وقد امتقع لونه . فقال أعط هذا الرجل حقه فامتلأ رعباً وأعطى الرجل حقه . هذا هو أبو جهل وهذا شيء من غلظته وجوره وهضمه للحقوق .

وفي كتاب قاموس الإسلام الطبعة الثانية سنة ١٨٩٦ ص ٨ « إن أبا جهل كان فخوراً فاجراً » .

Dictionar of 'slam 2 nd edition. (1896) pag: 8.

قريش تمتحن رسول الله ﷺ

لم تكتف قريش بهذا كله بل أرادوا إحراجه عليه الصلاة والسلام بالأسئلة فبعثوا النضر بن الحارث [١] وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله وقالا لهم إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاثة نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل . وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فروا فيه رأيكم . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجب. وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه . وسلوه عن الروح وما هى . فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل . فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط حتى قدما مكة على قريش فقالا يامعشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء فإن أخبركم عنها فهو نبى وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله فقالوا يامحمد أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب . وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها . وأخبرنا عن الروح وما هى ؟

فقال لهم رسول الله أخبركم بما سألتم عنه غداً ولم يستثن . فانصرفوا عنه فمكث رسول الله خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه وحياً ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشى مما سألناه عنه . فشق على الرسول تأخير الوحى وما يتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبريل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه .

قال المفسرون إن القوم لما سألوا النبى ﷺ عن المسائل الثلاث قال عليه السلام أجيبكم عنها غداً ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس الوحى خمسة عشر يوماً ثم نزل قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ والسبب فى أنه لا بد من ذكر هذا القول ـ إن شاء الله ـ هو أن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلانى غداً لم يبعد أن يموت قبل مجىء الغد ولم يبعد أيضاً لو بقى حياً أن يعوقه عن ذلك الفعل شىء من العوائق فإذا كان لم يقل إن شاء الله صار كاذباً فى ذلك الوعد ، والكذب منفر وذلك لا يليق بالأنبياء عليهم السلام .

---

(١) صحة نسبه : النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة ، بخلاف مارواه ابن إسحاق ، ثم ابن منده وأبو نعيم عن ابن إسحاق من أنه كلدة بن علقمة . وأجمع أهل السير على أنه قتل يوم بدر كافراً . قتله على بن أبى طالب .

جاء جبريل من الله عز وجل بخبر ما سألوه عنه ، فقال تعالى فى شأن الفتية ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ وقال فيما سألوه عنه من أمر الرجل الطواف ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ إلى آخر القصة .

وقال تعالى فيما سألوه عنه من أمر الروح ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

وقد أيد هذه الرواية الدكتور ولفنسون الإسرائيلى مدرس اللغات السامية بالجامعة المصرية ودار العلوم فقال فى رسالته (تاريخ اليهود فى بلاد العرب) صفحة ٩٨ ما يأتى :

« وينفى بعض المستشرقين صحة هذه القصة الخطيرة دون أن يأتوا بدليل نطمئن إليه . والحق أن من العسير إنكار رواية تاريخية كانت سبباً فى نزول سورة الكهف والآيات الخاصة بالروح وذى القرنين وعندنا دليل يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الرواية من المحتمل أن تكون واقعية[1] وهى أن فى التلمود قصة مشهورة تشبه قصة أهل الكهف ومن هذه القصة أخذ أحبار اليهود الأسئلة التى وجهوها للرسول بواسطة وفد قريش . ويؤيد هذه القصة ماذهبنا إليه من أنه لم يكن بمكة أحد من اليهود ؛ إذلو وجد منهم فى مكة ما أوفد قريش وفدهم إلى المدينة ليسألوا أحبار اليهود عن شأن النبى وإذا وجد منهم أحد فلا بد أن يكون غير عالم » .

وأنزل الله عليه ﷺ فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وبعث من مضى من آبائهم من الموتى ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أى لا أصنع من ذلك إلا ما شئت .

وأنزل عليه فى قولهم خذ لنفسك ماسألوه أن يأخذ لنفسه أن يجعل له جناناً وقصوراً وكنوزاً ويبعث ملكاً يصدقه بما يقول ويرد عنه ، ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ

---

(١) قوله من المحتمل أن تكون واقعية ــ تعبير ضعيف لأنه يرد على المستشرقين الذين أنكروا هذه الرواية بلا بينة ويثبتها بأن لها شبها فى التلمود فكان الأجدر به أن يقول « إنها واقعية » ولابد أن نذكر أن الأستاذ مرجوليوث أنكر صدور هذه الأسئلة من اليهود وعدا ذلك فقد أخطأ وقال: « الإسكندر الأكبر » بدلا من ذى القرنين. وفرق بين الاثنين فالأول رومى والثانى يمنى كما أثبت ذلك المقريزى وغيره . واسم ذى القرنين الصعب بن ذى مرائد بن الحارث الرائش بن الهمام ذى سدد . وقد أخطأ المفسرون والمؤرخون الذين قالوا : إن ذا القرنين هو الاسكندر المقدونى .

إنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ، انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا . تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ ﴾ أن تمشى فى الأسواق وتلتمس المعاش ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا ﴾ .

وأنزل الله عليه فيما قال عبد الله بن أبى أمية : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾

وأنزل عليه فى قولهم إنا قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن ولن نؤمن به أبدا ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ .

وأنزل عليه فيما قال أبو جهل وما هم به : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ .

وأنزل الله عليه فيما عرضوا عليه من أموالهم : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

إسلام جابر بن عبد الله

بحث الأستاذ مرجوليوث وأجهد نفسه فى البحث على مايظهر فى كتابه (محمد) صفحة ١٠٦ عن الأساتذة الذين كانوا يعلمون رسول الله الكتب المقدسة فقال ما ترجمته :

« كان جابر بن عبد الله مولى بنى عبد الدار يهوديًا صائغًا فى مكة فكان يجلس هو وياسر — يهودى آخر — يقرآن الكتاب المقدس أثناء اشتغالهما بالتجارة ، وكان النبىُّ يمر عليهما ويستمع منهما » ومعنى ذلك حسب رأيه أنه كوّن أفكاره الخاصة بالتوراة من سماع جابر بن عبد الله وهو يتلو عليه لكنه قال بعدئذ « إن جابراً اعتنق الإسلام عند سماعه النبىَّ يقرأ سورة يوسف » فإذا كان جابر اليهودى قد أسلم عند سماعه

قصة يوسف وهى فى التوراة التى كان يتلوها على النبى صلى الله عليه وسلم كما ادعى فلا بد أن القصة مذكورة فى القرآن بغاية الدقة والإحكام والتفصيل المدهش حتى إنها حيَّرت لُب جابر الذى ذكره مرجوليوث كمعلم لرسول الله ، على أن الأستاذ مرجوليوث اعترف بإسلام جابر لأنه مذكور فى كتب السير ، وإنا نعد إسلامه دليلًا على إعجاز القرآن الكريم وعلى أنه منزل على رسول الله . أما ياسر فقد أسلم أيضاً وعذب لإسلامه عذاباً شديداً حتى مات .

وقال الأستاذ مرجوليوث « ويُظن أن الجزء الخاص بالمسيحية فى القرآن قد تعلمه النبى من صهيب الذى أسلم قديمًا وقد كان روميًّا من الموصل » وإنا نقول إن إسلام هؤلاء دليل على رسالة رسول الله وصدقه وقد أسلم صهيب ورسول الله فى دار الأرقم وكان من المستضعفين بمكة المعذبين فى الله عزوجل وهاجر إلى المدينة وشهد المشاهد كلها مع رسول الله . هذا وقد ذكرنا أن الأستاذ نولدكه اعترف بأن رسول الله ما كان يعرف الأسفار القديمة .

وما قاله مرجوليوث قاله كفار قريش قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلا إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ قال الكلبى ومقاتل نزلت فى النضر بن الحارث فهو الذى قال هذا القول وأعانه عليه قوم آخرون ، يعنى عداساً مولى حويطب بن عبد العزى ويسارا غلام عامر بن الحضرمى وجبراً مولى عامر وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب وكانوا يقرأون التوراة ويحدثون أحاديث منها فلما أسلموا كان النبى صلى الله عليه وسلم يتعهدهم ومن أجل ذلك قال النضر ما قال .

الهجرة الأولى إلى الحبشة

شهر رجب السنة الخامسة من المبعث (سنة ٦١٥ م)

لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مايصيب أصحابه من البلاء والعذاب وما هو فيه من العافية لمكانه من الله عز وجل ودفاع أبى طالب عنه وأنه لا يقدر أن يمنعهم قال لهم :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » ومكث هو فلم يبرح يدعو إلى الله سرًّا وجهراً .

وكان اسم النجاشى وقتئذ أصحمة بن أبجر ، ومعنى أصحمة بالعربية عطية . والنجاشى اسم لكل ملك لى الحبشة وكان الأحباش مسيحيين نسطوريين فخرج المهاجرون متسللين سرًّا وذلك فى شهر رجب سنة خمس من بعد النبوة (سنة ٦١٥ م) .

وكان الذين خرجوا اثنى عشر رجلاً وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشعيبة [1] ، فمنهم الراكب والماشى ، ووفق الله

(١) تصغير شعبة فى مكة قبل جدة .

للسلمين ساعة جاءوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة وخرجت قريش فى أثرهم حتى جاءوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحداً . فكان خروجهم سراً .

قالوا قدمنا أرض الحبشة فجاورنا بها خير جار، أمناعلى ديننا وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه . وكانت الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ويجدون فيها رزقاً وأمناً حسناً .

كان عدد المهاجرين قليلا ولكن كان لهجرتهم هذه شأن عظيم فى تاريخ الإسلام فإنها كانت برهانا ساطعا لأهل مكة على مبلغ إخلاص المسلمين وتفانيهم فى احتمال ما يصيبهم من المشقات والخسائر فى سبيل تمسكهم بعقيدتهم .

وكانت هذه الهجرة الأولى مقدمة للهجرة الثانية إلى الحبشة ثم الهجرة إلى المدينة . وهذه أسماء المهاجرين والمهاجرات:

عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله . أبو حذيفة بن عتبة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل . مصعب بن عمير . الزبير بن العوام . عبد الرحمن بن عوف . أبو سلمة بن عبد الأسد ومعه امرأته : أم سلمة . عثمان بن مظعون . عبد الله بن مسعود . عامر بن ربيعة ومعه امرأته : ليلى بنت أبى هيثمة . أبو سبرة . حاطب بن عمرو . سهيل بن بيضاء وهو سهيل بن وهب .

شفاعة الغرانيق

افتراء الزنادقة على رسول الله ﷺ

روى بعض المؤرخين ونقل عنهم المفسرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من قومه كفاً عنه ، جلس خالياً وتمنى فقال ليته لا ينزل على شىء ينفرهم عنى وقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ودنا منهم ودنوا منه فجلس يوماً مجلساً فى ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ حتى بلغ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ ألقى الشيطان كلمتين على لسانه : « تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى » فتكلم رسول الله ﷺ بها ثم مضى فقرأ السورة كلها وسجد وسجد القوم جميعا ورفع الوليد بن المغيرة ترابا إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود ، ويقال إن أبا أحيحة سعيد ابن العاص أخذ ترابا ورفعه إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً فبعض الناس يقول إنما الذى رفع التراب الوليد وبعضهم يقول أحيحة ، وبعضهم يقول كلاهما فعل ذلك فرضوا بما تكلم به رسول الله وقالوا قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق . ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده وأما إذا جعلت لها نصيباً فنحن معك . فكبر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم حتى جلس فى البيت، فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة

(١) الغرانيق فى الأصل الذكور من طير الماء واحدها غرنوق وغرنيق ، سمى به لبياضه وقيل هو الكركى . والغرنوق أيضا الشاب الأبيض الناعم . وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم إلى الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التى تعلو فى السماء وترتفع .

فقال جبريل ما جئتك بهاتين الكلمتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قلتُ على الله ما لم يقل فأوحى الله إليه ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ .

نقل هذه الرواية ابن سعد فى طبقاته عن عبد الله بن حنطب . وقد قال الترمذى إن عبد الله بن حنطب لم يدرك النبى صلى الله عليه وسلم أخرجه الثلاثة [1]. أما الآية التى قيل إنها نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال على الله مالم يقل بذكره شفاعة الغرانيق وهى : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية فلم تنزل بهذه المناسبة . فقد قال ابن عباس فى رواية عطاء ، نزلت هذه الآية فى وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه شططا وقالوا متعنا باللات سنة وحرم وادينا كما حرمت مكة من شجرها وطيرها ووحشها فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم فكرروا ذلك الالتماس وقالوا إنا نحب أن تعرف العرب فضلنا عليهم فإن كرهت مانقول وخشيت أن تقول العرب أعطيتهم مالم تعطنا فقل الله أمرنى بذلك فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وداخلهم الطمع فصاح عليهم عمر وقال أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية [2] .

وروى صاحب الكشاف أنهم جاءوا بكاتبهم فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله إلى ثقيف لا يعشرون ولا يحشرون ، ولا يجبون ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قالوا للكاتب اكتب ولا يجبون والكاتب ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقام عمر بن الخطاب وسل سيفه وقال : أسعرتم قلب نبينا يامعشر قريش أسعر الله قلوبكم ناراً . فقالوا لسنا نكلمك إنما نكلم محمداً . فنزلت هذه الآية. وهذه القصة إنما وقعت بالمدينة فلهذا السبب قالوا إن هذه الآية مدنية .

وذكر الطبرى مسألة شفاعة الغرانيق فقال : حدثنى محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد المدنى عن محمد بن كعب القرظى . ثم سرد رواية محمد بن كعب القرظى بما يقارب رواية عبد الله بن حنطب التى نقلناها عن طبقات ابن سعد إلا أنه قال فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فأذهب الله عز وجل عن نبيه الحزن وآمنه من الذى كان يخاف ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم إنها الغرانيق العلا وإن شفاعتهن ترجى بقول الله عز وجل حين ذكرت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى [3] إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿لِمَنْ يَشَاءُ

---

(١) راجع الجزء الثالث من كتاب أسد الغابة .

(٢) تفسير الفخر الرازى . (٣) أى عوجاء .

وَيَرْضَى ﴾ أى فكيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده الخ .

أما محمد بن كعب القرظى ـ منسوب إلى بنى قريظة الطائفة المعروفة من اليهود ـ فهو تابعى توفى سنة ثمان ومائة . جاء فى تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى ما يأتى :

« وما تقدم نقله عن قتيبة من أنه ولد فى عهد النبي ﷺ لا حقيقة له وإنما الذى ولد فى عهده هو أبوه فقد ذكروا أنه من سبى قريظة ممن لم يحتلم ولم ينبت فخلوا سبيله . حكى ذلك البخارى فى ترجمة محمد . قال الفخر الرازى فى تفسيره الآية المتقدمة بعد أن ذكر قصة شفاعة الغرانيق : هذه رواية عامة المفسرين الظاهريين . أما أهل التحقيق فقد قالوا : هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول . أما القرآن فمن وجوه :

أحدها — قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾

وثانيها — قوله ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ .

وثالثها — قوله ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ فلو أنه قرأ عقيب هـذه الآية تلك الغرانيق العلا ، لكان قد ظهر كذب الله تعالى فى الحال . وذلك لا يقوله مسلم .

ورابعها — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ وكلمة كاد معناها قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنه لم يحصل .

وخامسها — قوله ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لوجود غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل لوجود التثبيت .

وسادسها — قوله ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ .

وسابعها — قوله ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ﴾ .

أما السنة فهى ما روى عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال : هذا من وضع الزنادقة وصنف فيه كتاباً . .

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم فى أن رواة هذه القصة مطعون فيهم . وأيضاً فقد روى البخارى فى صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن وليس فيها حديث الغرانيق .

وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة حديث الغرانيق . وأما المعقول فمن وجوه :

أحدها — أن من جوز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الأوثان فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان فى نفى الأوثان .

وثانيها — أنه عليه السلام ما كان يمكنه فى أول الأمر أن يصلى ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنًا أذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه وإنما كان يصلى إذا لم يحضروها ليلا أو فى أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم .

وثالثها — أن معاداتهم الرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجداً مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم ؟

رابعًا — قوله : ﴿ فَيَنْسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التى تبقى الشبهة معها فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن بالقرآن فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى .

وخامسها — وهو أقوى الوجوه — أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا فى كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى . ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فإنه لا فرق فى العقل بين النقصان من الوحى وبين الزيادة فيه . فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة وكل ما فى الباب أن جمعًا من المفسرين ذكروها هنا لكنهم ما بلغوا حد التواتر وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة .

ثم ذكر الفخر الرازى تفصيلات أخرى فلتراجع . وإنا نعتقد أن هذه القصة باطلة ومدسوسة ومن وضع الزنادقة الذين يريدون بالإسلام سوءاً ومع هذا فليس من المعقول أن يعترف النبى ﷺ بشفاعة الغرانيق وهو يدعو إلى عبادة الله تعالى ويحارب الأصنام ولو كان الشيطان له سلطان عليه ﷺ بدرجة أنه يملى عليه ويحرك لسانه بالكفر لكان ألعوبة له ليس فى هذه القصة فقط بل فى غيرها أيضًا ، والنبى معصوم من الشيطان . قال البيضاوى فى تفسيره بعد ذكر قصة الغرانيق : (ثم نبهه جبريل فاغتم به فعزاه الله بهذه الآية وهو مردود عند المحققين وإن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه) قال إسماعيل القنوى فى حاشيته: وهو مردود عند المحققين ، بل يجب أن يكون مردوداً عند جميع المسلمين لما عرفته من أمارات الكذب . قوله وإن صح الخ إشارة إلى منع صحته رواية لما قاله القاضى عياض فى الشفاء إنه لم يوجد فى شيء من الكتب المعتمدة بسند صحيح وقال إنه من وضع الزنادقة . وقال القاضى عياض إن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل إنما أولع به المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب .

قال ابن حزم فى كتاب الملل والنحل جزء ٤ ص ٢٣ : وأما الحديث الذى فيه وأنهن الغرانيق العلا وأن شفاعتهن لترتجى فكذب بحت لأنه لم يصح قط من طريق النقل ولا معنى للاشتغال به إذ وضع الكتاب لا يعجز عنه أحد .

وقال البيهقى : رواة هذه القصة كلهم مطعون فيهم . وقال الإمام النووى نقلا عنه وأما مايرويه الأخباريون والمفسرون أن سبب سجود المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ماجرى على لسانه من الثناء على آلهتهم فباطل لا يصح منه شيء لا من جهة النقل ولا من جهة العقل لأن مدح إله غير الله كفر ولا يصلح نسبة ذلك إلى رسول الله ﷺ ولا أن يقوله الشيطان على لسانه ﷺ ولا يصح تسلط الشيطان عليه وإلا لزم عدم الوثوق بالوحى . اهـ .

وقال الألوسى فى تفسيره : « وأقبح الأقوال التى رأيناها فى هذا الباب وأظهرها فساداً أنه ﷺ أدخل تلك الكلمة من تلقاء نفسه حرصاً على إيمان قومه ثم رجع عنها . ويجب على قائل ذلك التوبة ، كبرت كلمة خرجت من أفواههم إن يقولون إلا كذباً . وقريب منه ماقيل إنها كانت قرآناً منزلًا فى وصف الملائكة عليهم السلام . فلما توهم المشركون أنه يريد عليه الصلاة والسلام مدح آلهتهم بها نسخت . وأنت تعلم أن تفسير الآية أى قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا . ﴾ الخ ، لا يتوقف على ثبوت أصل لهذه القصة » .

أما معنى قوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ﴾ الخ الآية إن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى ، وإن عصمهم عن الخطأ مع العلم فلم يعصمهم عن جواز السهو ووسوسة الشيطان بل حالهم فى جواز ذلك كحال سائر البشر . فالآية ليست بخصوص قصة الغرانيق بل هى بخصوص وسوسة الشيطان على العموم للأنبياء والرسل فالواجب ألا يتبعوا إلا فيما يفعلونه عن علم . فذلك هو المحكم . وقال أبو مسلم معنى الآية أنه لم يرسل نبيا إلا إذا تمنى كأنه قيل وما رأسلنا إلى البشر ملكا . وما أرسلنا إليهم نبيا إلا منهم وما أرسلنا نبيا خلا عند تلاوته الوحى من وسوسة الشيطان وأن يلقى فى خاطره ما يضاد الوحى ويشغله عن حفظه فيثبت الله النبى على الوحى وعلى حفظه ويعلم صواب ذلك وبطلان ما يكون من الشيطان . قال وفيما تقدم من قوله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ تقوية لهذا التأويل فكأنه تعالى أمره أن يقول للكافرين أنا نذير لكم لكنى من البشر لا من الملائكة ولم يرسل الله تعالى مثلى ملكا بل أرسل رجالا فقد يوسوس الشيطان إليهم .

فأمثال هذه القصص المدسوسة المكذوبة على رسول الله هى التى جعلت للطاعنين فى الإسلام مجالًا للنقد وتشويه الحقائق وتقبيح المحاسن ، وقد حشرت فى كتبنا من غير تحقيق . وهاك دليلا آخر على كذب هذه القصة من الوجهة التاريخية وهو :

.. إن الهجرة الأولى إلى الحبشة كانت فى رجب سنة خمس من النبوة وكانت السجدة فى رمضان من السنة

نفسها [١] أى قبل إسلام وعمر لأنهما أسلما فى السنة السادسة [٢] .

وقد أجمع المؤرخون على أن المسلمين قبل إسلام عمر كانوا يستخفون فى دار الأرقم ويؤدون شعائرهم الدينية فى منازلهم ، وكان أصحاب النبى ﷺ لا يقدرون أن يصلوا عند الكعبة حتى أسلم عمر . فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلوا معه واتفقوا على تسميته « الفاروق » .

فإذا كان المسلمون قبل إسلام عمر ما كانوا يستطيعون الصلاة عند الكعبة فكيف مع هذا يقال إن رسول الله سجد عند الكعبة وسجد معه القوم جميعاً ؟؟ الحقيقة أن الرواية كذب واختلاق محض .

قال موير فى الجزء الثانى من حياة محمد : إن حمزة وعمر أسلما فى السنة السادسة من النبوة ، وقال إن المسلمين لم يعودوا يخفون صلاتهم فى منازلهم بل كانوا بعدئذ يجتمعون حول الكعبة ويصلون وهم آمنون مطمئنون .

إن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة عادوا إلى مكة بسبب ما بلغهم من تحسن الأحوال أو أنهم سمعوا إشاعة كاذبة تطمئنهم فقدموا فى شوال سنة خمس إلا أنه لم يدخل أحد منهم إلا بجوار عثمان بن مظعون فإنه دخل بلا جوار ومكث قليلا ثم أسرع الرجوع إلى الحبشة لأن المسلمين كانوا لا يزالون يضطهدون وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعيب الأصنام .

فكل هذه البراهين تؤيد أن قصة شفاعة الغرانيق أو أن النبى ﷺ ذكر آلهة قريش بخير ، افتراء واختلاق ولا يمكن أن يصدق هذه القصة أحد من المؤرخين المحققين . وقد ذكرت فى كتاب تاريخ القرون الوسطى لجامعة كامبردج الجزء الثانى ص (٣١٠ ، ٣١١ [٣]) باعتبار أنها صحيحة . وأنه ﷺ ندم على ما قال ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه ، واستنتج الكاتب أنه (عليه الصلاة والسلام) لم يكن يعتقد أنه إنما يتبع أمراً إلهياً سواء عند تلفظه بهذه الكلمات أو عند عدوله عنها . لكنه علق فى الهامش بما يأتى :

« إن كثيراً من المحققين المسلمين يعتبرون هذه القصة خرافية وهذا ما كان ينتظر منهم . لكن من المدهش أن مؤرخا غير متحيز مثل (كايتانى) ينكرها أيضاً » .

وأنا أقول لا وجه للدهشة لأن المؤرخ الذى يقدر موقفه ولا يتحيز لأحد يعترف بالحقيقة بغض النظر عن أى اعتبار آخر فإذا كان الأستاذ (كايتانى) وهو ذلك المؤرخ الإيطالى الكبير الذى يصدر المؤلفات الضخمة عن تاريخ الإسلام ينكر هذه القصة فما ذلك إلا أنه لم يرد أن يثبت إلا ما وصل إليه تحقيقه فى هذه المسألة دون تحيز .

---

(١) راجع الجزء الأول من طبقات ابن سعد طبع ليدن سنة ١٩١٧ ص ١٣٨ .

(٢) راجع تهذيب الأسماء للنووى طبع جوتنجن ص ٤٤٩ وراجع ابن إسحاق وكتاب موير الجزء الثانى وراجع قاموس الإسلام Dictionary of Islam p. 650

(3) Cambridge Medieval History olv 2 (1913) pp. 310-311

إسلام حمزة

حمزة بن عبد المطلب . وأمه هالة بنت وهب ، وهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخوه من الرضاعة أرضعتها ثويبة مولاة أبي لهب . وكان رضى الله عنه أسن من رسول الله بسنتين ، وهو سيد السهداء وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة . أسلم سنة ست من النبوة وكنيته أبو عمارة وكان شجاعاً ، محارباً ، قوى الجسم ، طويل القامة .

وكان سبب إسلامه أن أبا جهل اعترض رسول الله ﷺ فآذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه والتضعيف له فلم يكلمه رسول الله ﷺ وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان التيمي في مسكن لها فوق الصفا تسمع ذلك ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد لقريش عند الكعبة فجلس معهم ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له فكان إذا رجع من قنصه لم يرجع إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز قريش وأشدها شكيمة وكان يومئذ مشركا على دين قومه . فلما مر بالمولاة وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إلى بيته قالت له يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد من أبى الحكم آنفاً ؛ وجده ها هنا فآذاه وشتمه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد . فاحتمل حمزة الغضب فخرج سريعاً لايقفُ على أحد كما يصنع ، يريد الطواف بالبيت معداً لأبى جهل أن يقع به . فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها ضربة شجه بها شجةمنكرة وقامت رجال من قريش من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقالوامانراك ياحمزة إلا قد صبأت[1] . فقال حمزة وما يمنعنى وقد استبان لى منه ذلك . أنا أشهد أنه رسول الله ﷺ وأن الذى يقوله الحق فوالله لا أنزع فامنعونى إن كنتم صادقين . قال أبو جهل دعوا أبا عمارة فإنى والله لقد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً وثبت حمزة على إسلامه . فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا يتناولونه به ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدراً وأبلى فيها بلاء عظيما مشهوراً . وقاتل يوم بدر بسيفين وشهد أحداً فقتل بها يوم السبت النصف من شوال من السنة الثالثة من الهجرة بعد أن قتل من المشركين قبل أن يُقتل أحداً وثلاثين نفساً وبينما كان يقاتل إذ عثر عثرة وقع فيها على ظهره فانكشف الدرع عن بطنه فزرقه[2] وحشى الحبشى مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله ، ومثّل به المشركون وبجميع قتلى المسلمين وجعل نساء

---

(١) كان يقال للرجل إذا أسلم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم قد صبأ ، يعنون أنه خرج من دين إلى دين كما تصبأ النجوم أى تخرج من مطالعها . وكانت العرب تسمى النبى صلى الله عليه وسلم الصابئ لأنهم اعتبروه خارجاً من دين قريش إلى الإسلام .

(٢) زرقه : رماه بالمزراق .

المشركين ، هند وصواحباتها بجدعن أنوف المسلمين وآذانهم ويبقرن بطونهم ، وبقرت هند بطن حمزة رضى الله عنه فأخرجت كبده فجعلت تلوكها فلم تسغها فلفظتها . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لو دخل بطنها لم تمسها النار » وبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رآه قتيلا . ومع ذلك عفا رسول الله عن هند يوم الفتح . ودفن عند أحد فى موضعه وكان عمره تسعا وخمسين سنة وكان حمزة أول شهيد صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عمر بن الخطاب

وسبب إسلامه

عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى وأمه حنتمة بنت هاشم . ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة . روى عن عمر أنه قال ولدت بعد الفجار الأعظم بأربع سنين ويوافق مولده سنه ٥٨١ م . وكان مديد القامة . تاجراً مشهوراً من أشراف قريش . وكانت إليه السفارة فى الجاهلية ، وذلك أن قريشاً إذا وقعت بينهم حرب أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر رضوا به وبعثوه منافراً ومفاخراً ، ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديداً عليه وعلى المسلمين . وقد ذكرنا أنه كان يعذب جارية بنى مؤمل لإسلامها فاشتراها أبو بكر وأعتقها .

إسلامه رضى الله عنه

عن ابن عباس أنه قال : « أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة وثلاثون رجلا وامرأة ثم إن عمر أسلم فصاروا أربعين » وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر ابن الخطاب أو عمرو بن هشام » يعنى أبا جهل .

وحكى عمر عن سبب إسلامه فقال :

كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ فبينا أنا فى يوم حار شديد الحر بالهاجرة فى بعض طرق مكة إذ لقينى رجل من قريش فقال أين تذهب ياابن الخطاب أنت تزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك ؟ قال قلت وماذاك ؟ قال أختك قد صبأت [1] فرجعت مغضباً . وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه ، وقد كان ضم إلى زوج أختى رجلين

(١) أخت عمر فاطمة بنت الخطاب ، أسلمت قبله هى وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل . وقد تقدم الكلام عن زيد وهو أحد الأربعة الباحثين عن دين إبراهيم قبل رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلا غرابة إذا بادر سعيد إلى اعتناق الإسلام فإن أباه كان فى الجاهلية رفض عبادة الأصنام وبحث عن خير الأديان .

فجئت حتى قرعت الباب . فقيل من هذا ؟ قلت ابن الخطاب . وكان القوم جلوساً يقرأون فى صحيفة معهم . فلما سمعوا صوتى تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم فقامت المرأة ففتحت لى . فقلت : ياعدوة نفسها قد بلغنى أنك صبأت . قال فأرفع شيئاً فى يدى فأضربها به فسال الدم فلما رأت المرأة الدم بكت ثم قالت ياابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمت . فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير فنظرت فإذا بكتاب فى ناحية البيت . فقلت ما هذا الكتاب ؟ أعطنيه — وكان عمر كاتباً — فقالت لا أعطيك ، لست من أهله . أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تتطهر وهذا لا يمسه إلا المطهرون . قال لم أزل بها حتى أعطتنيه — بعد أن اغتسل — فإذا فيه (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) . فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدى ثم رجعت إلىّ نفسى فإذا فيها ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ قال فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ثم ترجع إلىّ نفسى حتى بلغت ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ حتى بلغت إلى قوله ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قال فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه منى وحمدوا الله عز وجل ، ثم قالوا ياابن الخطاب أبشر فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال : اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين إما عمرو بن هشام وإما عمر بن الخطاب . وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك فأبشر . قال فلما عرفوا منى الصدق قلت لهم أخبرونى بمكان رسول الله ﷺ . فقالوا هو فى بيت فى أسفل الصفا وصفوه . فخرجت حتى قرعت الباب قيل من هذا ؟ قلت ابن الخطاب ، قال وقد عرفوا شدتى على رسول الله ﷺ ولم يعلموا بإسلامى فما اجترأ أحدمنهم أن يفتح الباب . فقال رسول الله ﷺ : افتحوا له فإنه إن يرد الله به خيراً يهده . ففتحوا لى وأخذ رجلان بعضدى حتى دنوت من النبى ﷺ فقال أرسلوه فأرسلونى فجلست بين يديه فأخذ بمجمع قميصى فجبذنى إليه . ثم قال : أسلم ياابن الخطاب اللهم اهده ، قال قلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة .

وكان إسلام عمر فى السنة السادسة من النبوة ، وكان فى السادسة والعشرين من عمره بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام . وسماه رسول الله الفاروق لأنه لما أسلم قال لرسول الله : ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا ؟ قال : بلى والذى نفسى بيده إنكم لعلى الحق إن متم أو حييتم قال فقلت ففيم الاختفاء ! والذى بعثك بالحق لتخرجن ، فأخرجناه فى صفين حمزة فى أحدهما وأنا فى الآخر حتى دخلنا المسجد فنظرت إلىّ قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها ، فسمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق ، وفرق بين الحق والباطل . قال عمر رضى الله عنه : لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أىّ أهل مكة أشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة حتى آتيه فأخبره أنى أسلمت . قال قلت أبو جهل ، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه فخرج إلىّ أبو جهل . فقال مرحباً ما جاء بك ؟ قال جئت لأخبرك أنى آمنت

بالله وبرسوله محمد وصدقت بما جاء به . فضرب الباب فى وجهى وقال : قبّحك الله وقبح ماجئت به فكان إسلام عمر ضربة قاضية على أبى جهل[١] .

ولا شك أن عمر رضى الله عنه قد أسلم لما قرأ آى الذكر الحكيم مع أنه كان قبل إسلامه يعذب جارية بنى مؤمل لإسلامها أشد العذاب بلا رحمة ولا شفقة ولا يتركها إلا إذا ملّ وكلّ ، وهذا يدل على أنه كان شديد البغض للإسلام شديد التعصب لدينه ، وقد تعدى على أخته وشجها ، ولم يكن أحد يتصور أن صاحب هذا الخلق الشديد الحانق على الإسلام والمسلمين والمعتدى على الرجال والنساء بالتعذيب والضرب يسلم بمجرد قراءته آى القرآن . نعم لم يكن أحد يتصور ذلك لكن لما كان القرآن ليس كلام البشر بل كلام الله سبحانه وتعالى كان له تأثير عجيب فى النفوس ، ولا بد أن سامعه يرق قلبه مهما كان قاسياً . لذلك لم يسع عمر بن الخطاب هذا العربى الصميم إلا الاعتراف بأن ما تلاه هو كلام الله سبحانه وتعالى وليس فى استطاعة البشر الإتيان بمثله فصدق بما جاء به محمد ﷺ وإن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب . وعمر رضى الله عنه ثانى الخلفاء الراشدين وقد ضرب المثل الأعلى بعدله وزهده[٢] .

قال على رضى الله عنه : ما علمت أحداً هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده أسهماً ، وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها فطاف سبعاً ثم صلى ركعتين عند المقام ثم أتى حلقهم واحدة واحدة وقال : شاهت الوجوه ، من أراد أن تثكله أمه وييتم ولده وترمل زوجته فليلحقنى وراء هذا الوادى فما تبعه أحد منهم .

ومن مناقب عمر بن الخطاب العظيمة رضى الله عنه أن الوحى نزل على وفق قوله فى آيات كثيرة منها : (١) آية أخذ الفداء عن أسارى بدر (٢) آية تحريم الخمر (٣) آية تحويل القبلة (٤) آية أمر النساء بالحجاب (٥) النهى عن القيام على قبر من مات من المنافقين .

وطعن عمر رضى الله عنه يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين (يوافق سنة ٦٤٤ م) وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح المشهور .

والذى طعن عمر : العلج أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة وهو قائم فى صلاة الصبح حين أحرم بالصلاة طعنه بسكين ذات طرفين فضربه فى كتفه وخاصرته وقيل ضربه ضربات فقال : الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الإسلام . والظاهر أن العلج هذا كان مجنوناً لأنه طعن مع عمر ثلاثة عشر رجلا . توفى منهم سبعة وعاش الباقون ، ولما أحس أنه مقتول قتل نفسه .

---

(١) أبو جهل عم عمر . (٢) للمؤلف كتاب واف فى سيرته رضى الله عنه .

وكانت خلافته ـ رضى الله عنه ـ عشر سنين وخمسة أشهر وواحداً وعشرين يوماً وثبت فى صحيح البخارى وغيره أنه أول من جمع الناس لصلاة التراويح فجمعهم على أبىّ بن كعب بن قيس رضى الله عنه ،وأجمع المسلمون فى زمنه وبعده على استحبابها . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه مر على المساجد فى رمضان وفيها القناديل فقال : « نوّر الله على عمر قبره كما نوّر علينا مساجدنا » .

قال الغزالى رحمه الله : لما ولى عمر رضى الله عنه الخلافة ، كانت له زوجة يحبها فطلقها خيفة أن تشير عليه بشفاعة فى باطل فيطيعها ويطلب رضاها ، وذلك لشدة تمسكه بالعدل .

الهجرة الثانية

إلى الحبشة

لما قدم أصحاب النبى ﷺ مكة من الهجرة الأولى (بسبب إسلام عمر وإظهار الإسلام) اشتد عليهم قومهم وسطت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديداً فأذن لهم رسول الله ﷺ فى الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية . فكانت خرجتهم الآخرة أعظمها مشقة ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ونالوهم بالأذى واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشى من حسن جواره لهم ، وتخوفوا من حماية دولة أجنبية قوية للمسلمين المهاجرين . فقال عثمان يارسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشى ولست معنا . فقال رسول الله أنتم مهاجرون إلى الله وإلىّ لكم هاتان الهجرتا جميعاً قال عثمان فحسبنا يارسول الله . وكان عدة من خرج فى هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وسبعاً غرائب ، فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشى فى أحسن جوار . فلما سمعوا بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا ومن النساء ثمانى نسوة فمات منهم رجلان بمكة وحبس بمكة سبعة نفر .

حصار الشعب وخبر الصحيفة

(مقاطعة رسول الله وأتباعه)

لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله ﷺ وجعل الإسلام ينتشر فى القبائل ، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله للقتل . أعنى أنهم اتفقوا وتعاهدوا على مقاطعتهم مقاطعة تامة انتقاماً منهم لإسلامهم ودفاعهم عن رسول الله ﷺ وكتبوا بذلك صحيفة توكيداً لأنفسهم

وعلقوها فى جوف الكعبة هلال المحرم سنة سبع من النبوة (٦١٧ م) . وكانت الصحيفة مكتوبة بخط بغيض ابن عامر بن هاشم فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشلت يده . وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبى طالب فى شعبه مع بنى هاشم وخرج أبو لهب إلى قريش فظاهرهم على بنى هاشم وبنى المطلب وقطعوا عنهم الميرة والمادة فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغوا الجهد وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب . فمن قريش من سره ذلك ومنهم من ساءه وقال انظروا ما أصاب بغيض بن عامر فأقاموا فى الشعب ثلاث سنين حتى أنفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ماله وأنفق أبو طالب ماله وأنفقت خديجة مالها وصاروا إلى حد الضر والفاقة . ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور وظلم وبقى ما كان فيها من ذكر الله ، فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى طالب فذكر أبو طالب لإخوته وخرجوا إلى المسجد . فقال أبو طالب لكفار قريش إن ابن أخى قد أخبرنى — ولم يكن يكذبنى — قط أن الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة فلحست ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم وبقى ما كان فيها من ذكر الله ، فإن كان ابن أخى صادقا نزعتم عن سوء رأيكم وإن كان كاذبا دفعته إليكم فقتلتموه أو استحييتموه . قالوا: قد أنصفتنا فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها فإذا هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقط فى أيديهم ونكسوا على رءوسهم . فقال أبو طالب علام نحبس ونحصر وقد بان الأمر ، ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة فقال: اللهم انصرنا ممن ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم الله منا ثم انصرفوا إلى الشعب . وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببنى هاشم وكان فيهم مطعم بن عدى وعدى بن قيس وزمعة بن الأسود وأبو البخترى بن هشام وزهير ابن أبى أمية فلبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا . فلما رأت قريش ذلك سقط فى أيديهم وعرفوا أن لن يسلموهم وكان خروجهم من الشعب فى السنة العاشرة .

وفى سيرة ابن هشام أنهم أقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهدوا لا يصل إليهم شىء إلا سرا مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش . وقد كان أبو جهل بن هشام فيما يذكرون لقى حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد وهى عند رسول الله ومعه فى الشعب فتعلق به وقال أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاءه أبو البخترى وقال طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل . فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه . فأخذ له أبو البخترى لحى بعير فضربه به فشجه ووطئه وطئاً شديداً وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيشمتوا بهم ، ورسول الله على ذلك يدعو قومه ليلا ونهاراً وسراً وجهارا مباديا بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس . هذا ومن المدهش أن مرجوليوث

يقول إن أبا جهل كان مشهوراً بالعقل والذكاء[١] ، وهل تدرى لماذا أيها القارىء ؟ لأنه كان معاديا لرسول الله لأن أعماله وصفاته التى ذكرناها لاتدل على أنه كان عاقلا ذكيًا . إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو العرب إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم فى دنياهم وأخراهم . كان يدعو إلى عبادة الله الواحد ، وإلى نبذ عبادة الحجارة . ومعنى ذلك أنه كان يعمل على انتشالهم من الانحطاط الدينى الذى كانوا غارقين فيه ورفعهم إلى أعلى المراتب وأسمى العقائد . وعدا ذلك لقد كان عليه الصلاة والسلام يهذبهم ويعلمهم مكارم الأخلاق ويبث فى نفوسهم الآداب الاجتماعية العالية ، فهل يقال عن رجل اتصف بشدة عدواته لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه عاقل ! ثم إن مرجوليوث يظهر حنقه على من أسلموا ولا سيما إذا كانوا من الأبطال الأشداء فيرميهم بأوصاف ذميمة منفرة !!.

الطفيل بن عمرو الدوسى

شاعر يحكم عقله ويسلم

كانت قريش إذا سمعت بقدوم أحد من العرب يقابلونه ويحذرونه من رسول الله ويصفونه بكل نقيصة خشية أن يسلم ويعود إلى بلاده ويدعوهم إلى الإسلام ، لكن الطفيل بن عمرو الدوسى لم يعبأ بتحذيرهم بل حكم عقله وتقابل مع رسول الله وسمع منه القرآن ففكر فيه وتذوقه لأنه شاعر فأسلم وهذه قصته :

هو الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبد الله ابن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن نصر بن الأزد الدوسى . يلقب ذا النور .

كان الطفيل بن عمرو الدوسى يحدث أنه قدم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها فمشى إليه رجال من قريش وكان الطفيل شريفاً شاعراً لبيباً . فقالوا ياطفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل بين أظهرنا قد أعضل بنا[٢] وفرق جماعتنا وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبينه وبين زوجه ، وإنما نخشى عليك وعلى قومك فلا تكلمه ولا تسمع منه . قال فو الله مازالوا بى حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه حتى حشوت أذنى كرسفاً[٣] ، فرقاً أن يبلغنى من قوله وأنا أريد أن لا أسمعه . قال : فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى عند الكعبة قال فقمت قريباً منه فأبى الله إلا أن يسمعنى قوله . فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت فى نفسى واثكل أمى ، والله إنى لرجل شاعر لبيب ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ إن كان الذى يأتى حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته ، فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت يامحمد إن قومك قالوا لى كذا وكذا ثم إن الله أبى إلا أن أسمع قولك فسمعت قولا حسناً فاعرض على أمرك.

---

(١) راجع هذا الكتاب صفحة ١٦٢ ! (٢) قد أعضل بنا : أى اشتد أمره (٣) الكرسف ــ بضم الكاف ــ : القطن .

فعرض عليّ الإسلام وتلا عليّ القرآن فو الله ما سمعت قولا قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه فأسلمت وقلت يارسول الله إنى امرؤ مطاع فى قومى وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عونا عليهم فيما أدعوهم إليه . فقال اللهم اجعل له آية . قال : فخرجت إلى قومى حتى إذا كنت بثنية تطلعنى على الحاضر[١] وقع نور بين عينى مثل المصباح فقلت اللهم فى غير وجهى فإنى أخشى أن يظنوها مثلة لفراق دينهم فتحولت فى رأس سوطى فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلق وأنا أهبط إليهم من الثنية فلما نزلت أتانى أبى وكان شيخاً كبيراً فقلت إليك عنى ياأبت فلست منك ولست منى . قال ولم أى بنى ؟ قلت إنى أسلمت . قال أى بنى فدينى دينك . فأسلم . ثم أتتنى صاحبتى فقلت لها مثل ذلك فأسلمت . وقالت أتخاف عليّ من ذى الشرى ، صنم لهم ــ فقلت لا . أنا ضامن لذلك . ثم دعوت دوساً فأبطأوا عن الإسلام . فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فقلت يارسول الله قد غلبنى على دوس الربا فادع الله عليهم . فقال اللهم اهد دوساً إلىّ . ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم ، قال فرجعت فلم أزل بأرض قومى دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقضى بدراً وأحداً والخندق ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معى من قومى ورسول الله ﷺ بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو بثمانين بيتاً من دوس ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين . ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ حتى فتح الله عز وجل عليه مكة فقلت يارسول الله ابعثنى إلى ذى الكفين ــ صنم عمرو بن حممة ــ حتى أحرقه . فخرج إليه فجعل طفيل يقول وهو يحرقه وكان من خشب :

يا ذا الكفين لست من عبّادكا * ميلادنا أقدم من ميلادكا * إنى حشوت النار فى فؤادكا

ثم رجع طفيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم[٢] .

وفاة أبى طالب

سنة ٦٢٠ م

كان أبو طالب بن عبد المطلب من أشد الناس دفاعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن نفسه لم تطاوعه على اعتناق الإسلام وفراق دين آبائه . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مازالت قريش كاعةعنى[٣] حتى مات عمى وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحب أن يسلم عمه لأنه هو الذى كفله وذاد عنه إلى آخر لحظة من حياته . ولما اشتد مرضه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعم ، قلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة (يعنى قل الشهادة)

(١) الثنية : الطريق فى الجبل . والحاضر : القوم النازلون على الماء (٢) راجع أسد الغابة والسيرة النبوية لابن هشام .
(٣) الكاعة : جمع كائع ، وهو الجبان . أراد أنهم كانوا يجبنون عن أذى النبى فى حياته .

فقال له أبو طالب : ياابن أخي لولا مخافة السبة وأن تظن قريش إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها فأنزل الله تعالى .
﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ سورة القصص . قال الزجاج أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه رسول الله أن يقول لا إله إلا الله فأبى أن يقولها خشية أن تعيره قريش على أن الذي منعه من الإسلام هو خوف الملام والشتم وأنه فارق دين آبائه واتبع دين ابن أخيه وقد رباه صغيراً ، فالمشهور أنه مات كافراً وكان له من الولد جعفر وعلي وعقيل وطالب وأم هانئ واسمها فاختة وجمانة وكلهم أعقب إلا طالباً . وكان أبو طالب أعرج وتوفي بعد النبوة بعشر سنين وقبل الهجرة بثلاث سنين بالغاً من العمر نحو ثمانين سنة . وقالت الشيعة إن أبا طالب مات مسلماً .

وفي أسد الغابة — لما اشتد بأبي طالب مرضه دعا بني عبد المطلب فقال : إنكم لن تزالوا بخير ما سمعتم قول محمد واتبعتم أمره فاتبعوه وصدقوه ترشدوا .

ولما مات أبو طالب قال له رسول الله ﷺ — رحمك الله وغفر لك لا أزال أستغفر لك حتى ينهاني الله . فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون فأنزل الله :﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

وفاة خديجة

سنة ٦٢٠ م

توفيت خديجة زوج رسول الله بعد أبي طالب بثلاثة أيام وقيل بأكثر من ذلك . في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين ولها خمس وستون سنة وكان مقامها مع رسول الله صلى ﷺ بعد ما تزوجها أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر ودفنها رسول الله ﷺ بالحجون ولم تكن الصلاة على الجنائز يومئذ . وحزن عليها النبي ونزل في حفرتها . وتتابعت على رسول الله بموت أبي طالب وخديجة المصائب لأنهما كانا من أشد المعضدين له المدافعين عنه فاشتد أذى قريش عليه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه وطرح بعضهم عليه سلى الشاة وهو يصلي (السلى الجلدة التي يكون فيها الولد) وسمي العام الذي مات فيه أبو طالب وخديجة « عام الحزن » ولم ينس رسول الله محبته لخديجة بعد وفاتها وكان دائماً يثني عليها ولم يتزوج عليها حتى ماتت إكراما لها . وقد كانت مثال الزوجة الصالحة الوفية ، فبذلت نفسها وما لها لرسول الله وصدقته حين نزل عليه الوحي .

سفره إلى الطائف

الطائف بلدة في الحجاز على مسافة ٦٥ ميلا جنوبا شرقيًّا من مكة ، وهي مشهورة بجودة مناخها وخصب أرضها

وفواكهها ولا سيما العنب والبرقوق والرمان والخوخ وبها مياه جارية ويضرب بعنبها المثل فى الحسن وربما جمد الماء فيها فى الشتاء . والجبل الذى هى عليه يقال له (غزوان) وهى مصيف أغنياء مكة[١] ، ومقر عبادة العزى وقد سافر إليها النبى ﷺ لثلاث بقين من شوال سنة عشر من المبعث (يناير ـ فبراير سنة ٦٢٠ م) ومعه مولاه زيد بن حارثة يلتمس من ثقيف النصرة فعمد إلى جماعة من أشراف ثقيف ودعاهم إلى الله فقال واحد منهم : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الآخر والله لا أكلك أبداً لأنك إن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغى لى أن أكلك . وأغروا بسفهائهم وعبيدهم يسبونه ويرمونه بالحجارة ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط وقد أدموا رجليه فلما اطمأن ورجع عنه السفهاء قال عليه الصلام والسلام : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس . اللهم ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع ، إنى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى لاحول ولاقوة إلا بك » وهذا الدعاء مشهور بدعاء الطائف . فلما رأى ابنا ربيعة عتبة وشيبة مالقى رسول الله تحركت له رحمهما فدعوا له غلاماً لهما نصرانيًا يقال له عداس . فقالا له : خذ قطفاً من هذا العنب وضعه فى ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله فلما وضع رسول الله يده قال ، باسم الله . فنظر عداس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة . قال له رسول ﷺ ومن أهل أى البلاد أنت ياعداس وما دينك ؟ قال أنا نصرانى وأنا رجل من أهل نينوى[٢] ، فقال له رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال له وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله ﷺ ذلك أخى كان نبيا وأنا نبى . فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه ورجليه. فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك ياعداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال ياسيدى ما فى الأرض خير من هذا الرجل . لقد خبرنى بأمر لايعلمه إلا نبى ؟ فقالا : ويحك ياعداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف فوجد قومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به . وفى الطبرى : أن بعضهم ذكر أن رسول الله ﷺ لما انصرف من الطائف مريداً مكة مر به بعض أهل مكة فقال رسول الله ﷺ : هل أنت مبلغ عنى رسالة أرسلك بها ؟

---

(١) وكان يطلق اسم الطائف على ما اكتنفها من البلاد واسمها القديم « وج » ثم سميت بالطائف بحائطها المطيف بها . وموقعها ببطن من جبل غزوان وهو أبرد مكان فى الحجاز لأن الثلج يقع أحيانا على ذروة الجبل فوق البلدة . . . .

(٢) قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل.

قال : نعم . قال : ائت الأخنس بن شريق[١] فقل له يقول لك محمد هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالة ربى ؟ قال فأتاه فقال له ذلك . فقال الأخنس : إن الحليف لا يجير على الصريح . فأتى النبي ﷺ فأخبره . قال : تعود ؟ قال : نعم . قال : ائت سهيل بن عمرو فقل له إن محمداً يقول لك هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالات ربى ؟ فأتاه فقال له ذلك . فقال إن بنى عامر بن لؤى لا تجير على بنى كعب . فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره . قال: تعود ؟ قال: نعم . قال : أنت المطعم بن عدى فقل له إن محمدا يقول لك : هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالات ربى ؟ قال: نعم فليدخل . فرجع إليه الرجل فأخبره ، وأصبح المطعم قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه فدخلوا المسجد . فلما رآه أبو جهل قال: أمجير أم متابع ، قال : بل مجير . قال : قد أجرنا من أجرت . فدخل النبي ﷺ مكة وأقام بها ، فدخل يوماً المسجد الحرام والمشركون عند الكعبة فلما رآه أبو جهل قال : هذا نبيكم يا بنى عبد مناف . قال عتبة بن ربيعة : وما تنكر أن يكون منا نبى أو ملك ؟ فأخبر بذلك النبي ﷺ أو سمعه فأتاهم فقال : أما أنت ياعتبة بن ربيعة فو الله ما حميت لله ولا لرسوله ولكن حميت لأنفك . وأما أنت ياأبا جهل فو الله لا يأتى عليك غير كبير من الدهر حتى تضحك قليلا وتبكى كثيراً . وأما أنتم يامعشر الملأ من قريش فو الله لا يأتى عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون .

ويقال إن رسول الله صلى الله وسلم أقام بالطائف عشرة أيام ، وظاهر أن الذى دعاه إلى السفر هو التماس النصرة ، ولكنهم خذلوه وما التمس النصرة من ثقيف إلا بعد أن توفى أبو طالب وخديجة . أضف إلى ذلك أن فريقاً من المسلمين هاجروا إلى الحبشة ، ولما عاد من الطائف لم يستطع دخول مكة إلا بجوار رجل كالمطعم بن عدى .

وفى رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطائف مر به نفر من جن أهل نصيبين اليمن وهو يقرأ سورة (الجن) فاستمعوا له وآمنوا به ، ولم يشعر بهم صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ . وكانوا سبعة وقيل أكثر .

الإسراء والمعراج

سنة ٦٢١ م

كان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، وبه جزم ابن حزم فى ليلة سبع وعشرين من شهر رجب وهو المشهور وعليه عمل الناس وكان ليلة الاثنين . وكان بعد خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف .

كان الإسراء إلى بيت المقدس والمعراج إلى السموات ، وفرضت عليه فى تلك الليلة الصلوات الخمس وقد ذكر

(١) هو ابن أبى شريق

الإسراء فى القرآن . قال تعالى :

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

واختلف فى كيفية الإسراء فالأكثرون من طوائف المسلمين اتفقوا على أنه أسرى بجسد رسول الله ﷺ (١) والأقلون قالوا إنه ماأسرى إلا بروحه . حكى عن محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن حذيفة أنه قال: ذلك رؤيا وأنه مافقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما أسرى بروحه . حكى هذا القول أيضاً عن عائشة رضى الله عنها وعن معاوية رضى الله عنه وحديث عائشة ليس بالثابت لأنها لم تكن حينئذ زوجته . قال النسفى وكان الإسراء فى اليقظة . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : والله مافقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه . وعن معاوية مثله ، وعلى الأول الجمهور إذ لافضيلة للحالم ولا مزية للنائم .

واتفق الأكثرون من طوائف المسلمين على أنه أسرى بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصحيح . جاء فى زاد المعاد لابن قيم الجوزية :

« وقد نقل ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا : إنما كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده ، ونقل عن الحسن البصرى نحو ذلك . ولكن ينبغى أن يعلم الفرق بين أن يقال كان الإسراء مناماً وبين أن يقال كان بروحه دون جسده وبينهما فرق عظيم . وعائشة ومعاوية لم يقولا كان مناماً وإنما قالا أسرى بروحه ولم يفقد جسده وفرق بين الأمرين فإن مايراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم فى الصور المحسوسة فيرى كأنه عرج به إلى السماء أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض وروحه لم تصعد ولم تذهب وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال . والذين قالوا عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم طائفتان : طائفة قالت عرج بروحه وبدنه ، وطائفة قالت عرج بروحه ولم يفقد بدنه ، وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناماً وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسرى بها وعرج بها حقيقة وباشرت من جنس ماتباشر به بعد المفارقة ، وكان حالها فى ذلك كحالها بعد المفارقة فى صعودها إلى السموات سماء سماء حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فتقف بين يدى الله سبحانه وتعالى فيأمرها بما يشاء ثم تنزل إلى الأرض ، فالذى كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة . ومعلوم أن هذا الأمر فوق مايراه النائم » الخ

فالإسراء ما كان مناماً قطعاً لأنه لو كان مناماً لما كذبه المشركون فإن من الناس من يرى أنه صعد إلى السماء أو قطع مسافات شاسعة لا يتصورها العقل ، وليس المنام معجزة خارقة للعادة ، والروح فى المنام لاتفارق الجسم

---

(١) وفى الشفا للقاضى عياض : ذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفى اليقظة وهذا هو الحق وهذا قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبى هريرة ومالك بن صعصعة وأبى حبة البدرى وابن مسعود والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وابن المسيب وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج

كذلك لو كان الإسراء مناماً لصرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم [١]

والطبرى فى تفسيره ينكر أن الإسراء كان بالروح فقط وقد رد على من قال بذلك فقال :

« والصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال : إن الله أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله حمله على البراق حتى أتاه به وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل فأراه ماأراه من الآيات، ولا معنى لقول من قال أسرى بروحه دون جسده لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن فى ذلك مايوجب أن يكون دليلا على نبوته ولا حجة له على رسالته ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك يدفعون به عن صدقه فيه إذ لم يكن منكراً عندهم ولا عند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بنى آدم أن يرى الرائى منهم فى المنام ماعلى مسيرة سنة فكيف ماهو على مسيرة شهر أو أقل ، إلى أن قال : ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق إذ كانت الدواب لاتحمل إلا الأجسام إلا أن يقول قائل إن معنى قولنا أسرى بروحه رأى فى المنام أنه أسرى بجسده على البراق فيكذب حينئذ بمعنى الأخبار التى رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جبريل حمله على البراق لأن ذلك إذا كان مناماً على رأى صاحب هذا القول ولم تكن الروح عنده مما يركب الدواب ولم يحمل على البراق جسم النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم على قوله حمل على البراق لا جسمه ولاشىء منه وصار الأمر عنده كبعض أحلام النائمين وذلك دفع لظاهر التنزيل وما تتابعت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءت به الآثار عن الأئمة من الصحابة والتابعين »

ومما قاله الفخر الرازى فى تفسيره : قال أهل التحقيق إن الذى يدل على أنه تعالى أسرى بروح محمد وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى القرآن والخبر . أما القرآن فهذه الآية . وتقرير الدليل أن العبد اسم لمجموع الجسد والروح فوجب أن يكون الإسراء حاصلا لمجموع الجسد والروح الخ وأما الخبر فهو الحديث المروى فى الصحاح وهو مشهور وهو يدل على الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم منه إلى السموات اهـ .

والمعراج به صلى الله عليه وسلم إلى السموات ليطلع على عجائب الملكوت كما قال تعالى : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ وإلا فالله تعالى لايحويه زمان ولا مكان ورأى ربه تلك الليلة وأوحى إلى عبده ماأوحى وفرض عليه خمس صلوات وجمع له الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فصلى بهم فى بيت المقدس ثم استقبلوه فى السموات ورجع صلى الله عليه وسلم من ليلته إلى مكة .

وقد أنكر المسيحيون إسراء رسول الله ومعراجه وليس ذلك بمستغرب منهم ، إنما الغريب أنهم يؤمنون بقيام المسيح وصعوده إلى السماء ، ففى آخر إنجيل مرقص :

(ثم إن الرب بعد ما كلمهم ، ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله)

---

(١) ذهب فريق من المعتزلة إلى القول بأنه أسرى به فى النوم لافى اليقظة ، خلافا لأهل السنة والجماعة

وجاء فى آخر إنجيل لوقا:

(وفيما هو « المسيح » يباركهم ، انفرد عنهم وأصعد إلى السماء)

تأثير خبر الإسراء

فى قريش

لما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الناس بما رآه فصدقه الصديق وكل من آمن به إيماناً قوياً وارتد ناس ممن آمن به . وكذبه الكفار واستوصفوه مسجد بيت المقدس فوصفه لهم وسألوه عن أشياء فى المسجد فمثل بين يديه فجعل ينظر إليه ويصفه ويعد أبوابه لهم باباً باباً فيطابق ماعندهم . وسألوه عن عير لهم فأخبرهم بها وبوقت قدومها فكان كما أخبر .

ويروى أنه ﷺ لما رجع إلى مكة من ليلته أخبر بمسراه أم هانئ بنت أبى طالب أخت على رضى الله عنه وأنه يريد أن يخرج إلى قومه ويخبرهم بذلك لأنه ما أحب أن يكتم قدرة الله وما هو دليل على علو مقامه ﷺ فتعلقت بردائه أم هانئ وقالت أنشدك الله ياابن عم ألا تحدث بها قريشاً فيكذبك من صدقك فضرب بيده على ردائه فانتزعه منها . قالت : وسطع نور عند فؤاده كاد يخطف بصرى فخررت ساجدة فلما رفعت رأسى فإذاهو قدخرج. قالت فقلت لجاريتى نبعة وكانت حبشية اتبعيه وانظرى ماذا يقول فلما رجعت أخبرتنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى إلى نفر من قريش فى الحطيم وفيهم مطعم بن عدى وأبو جهل بن هشام فأخبرهم بمسراه .

ولما قص رسول الله خبر الإسراء على جمع من قريش أعظموا ذلك الإسراء وصار بعضهم يصفق وبعضهم يضع يده على رأسه تعجباً (فلو كان الإسراء رؤيا منامية لما كانت مستغربة ولما أحدث تلك الضجة وكذبه المسلمون اللهم إلا من كان منهم قوى العقيدة ثابت الإيمان) . قال مطعم بن عدى إن أمرك قبل اليوم كان أمراً يسيراً غير قولك اليوم ، هو يشهد أنك كاذب . نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدراً شهراً . أتزعم أنك أتيته فى ليلة واحدة ؟ واللات والعزى لاأصدقك وما كان هذا الذى تقول قط . فقال أبو بكر رضى الله عنه يامطعم بئس ما قلت لابن أخيك جبهته وكذبته أنا أشهد أنه صادق وفى رواية فسعى رجال من المشركين إلى أبى بكر رضى الله عنه فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال وقد قال ذلك ؟ قالوا نعم . قال لئن قال ذلك لقد صدق . قالوا أتصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة وروحة . فقال مطعم : يامحمد صف لنا بيت المقدس . فقال أبو بكر رضى الله عنه صف لى يارسول الله فإنى قد جئته فجاءه جبريل بصورته ومثاله فجعل يقول : باب منه فى موضع كذا وباب منه فى موضع كذا وأبو بكر رضى الله عنه يقول : أشهد أنك رسول الله حتى أتى على أوصافه .

وهذه هي الأحاديث الواردة فى صحيح البخارى الخاصة بالإسراء والمعراج مشروحة فى الهامش شرحاً موجزاً نقلا عن القسطلانى :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لما كذبنى قريش قمت فى الحجر فجلا الله لى بيت المقدس[١] فطفقت أخبرهم عن آياته[٢] وأنا أنظر إليه » .

المعراج[٣]

عن مالك بن صعصعة رضى الله عنهما أن نبى الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به قال : بينما أنا فى الحطيم — وربما قال فى الحجر — مضطجعاً إذ أتانى آت[٤] فقد قال وسمعته يقول فشق ما بين هذه إلى هذه — قال الراوى من ثغرة نحره[٥] إلى شعرته — فاستخرج قلبى ثم أتيت بطست من ذهب[٦] مملوءة إيمانا فغسل قلبى ثم حشى ثم أعيد[٧] ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض — قال الراوى وهو البراق يضع خطوه عند أقصى طرفه[٨] فحملت عليه فانطلق بى جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا ؟ قال جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال محمد . قيل وقد أرسل إليه ؟ قال نعم . قيل مرحباً به فنعم المجىء جاء ففتح[٩] فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه[١٠] فسلمت عليه فرد السلام . ثم قال مرحباً بالابن الصالح . ثم صعد بى إلى السماء الثانية فاستفتح فقيل من هذا ؟ قال جبريل قيل ومن معك؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قال : مرحباً فنعم المجىء جاء . ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى[١١] وهما ابنا الخالة . قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قالا مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . ثم صعد بى إلى السماء الثالثة فاستفتح . قيل من هذا ؟ قال جبريل . قيل ومن معك ؟ قال محمد . قيل وقد أرسل إليه ؟ قال نعم . قيل مرحباً فنعم المجىء جاء . ففتح فلما خلصت إذا يوسف . قال هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . ثم صعد بى حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل من هذا ؟ قال جبريل . قيل ومن معك ؟ قال محمد . قيل وقد أرسل إليه ؟ قال نعم . قيل مرحباً فنعم المجىء جاء .

---

(١) أى أزال الحجاب بينى وبينه (٢) علاماته (٣) المعراج بكسر الميم من العروج وهو الصعود (٤) قوله فى الحجر لأنه حجر عليه بجدار قصير ، مكان معروف ملاصق للبيت وفيه ستة أذرع من أصل البيت الشريف وقيل كله من البيت . ورجح . ويقال له الحطيم وهو ما بين البيت والمقام . سمى حطيما لأنه حطم عن مساواة البيت أو لأن الذنوب تحطم أى تزال فيه . وقوله أتانى آت أى جبريل عليه السلام (٥) ثغرة نحره : الموضع المنخفض بين الترقوتين (٦) قبل تحريم استعماله (٧) ثم أعيد فى موضعه من الصدر المقدس (٨) عند أقصى طرفه ، أى يضع رجله عند منتهى مايرى بصره وهو يدل على أنه كان يمشى على وجه الأرض . وسمى البراق لشدة بريقه أو لسرعة سيره (٩) ففتح خازنها الباب (١٠) فسلم عليه لأن المار يسلم على القاعد وإن كان المار أفضل من القاعد

(١١) يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم وهما ابنا الخالة لأن أم يحيى إيشاع بنت فاقوذ أخت حنة بنت فاقوذ أم مريم وذلك أن عمران ابن ماثان تزوج حنة وزكريا تزوج إيشاع فولدت إيشاع يحيى وولدت حنة مريم فتكون إيشاع خالة مريم وحنة خالة يحيى فهما ابنا خالة بهذا الاعتبار وليس عمران هذا أبا موسى . ولأبى ذر ابنا خالة

ففتح فلما خلصت إذا إدريس قال هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه فرد . قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . ثم صعد بى حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح . قيل من هذا ؟ قال جبريل . قيل ومن معك ؟ قال محمد[1] قيل وقد أرسل إليه . قال نعم . قال مرحباً به فنعم المجىء جاء . فلما خلصت فإذا هارون . قال هذا هارون فسلم عليه . فسلمت عليه فرد . ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . ثم صعد بى حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل من هذا ؟ قال : جبريل . قيل ومن معك ؟ قال محمد . قيل وقد أرسل إليه ؟ قال نعم . قال مرحباً . فنعم المجىء جاء . فلما خلصت فإذا موسى . قال هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه ، ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح فلما تجاوزت بكى قيل له ما يبكيك ؟[2] قال أبكى لأن غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى[3] ثم صعد بى إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل . قيل من هذا ؟ قال جبريل . قيل ومن معك قال محمد . قيل وقد بعث إليه ؟ قال نعم . قال مرحباً فنعم المجىء جاء ، فلما خلصت فإذا إبراهيم . قال هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام . فقال مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح[4] . ثم رفعت إلى سدرة المنتهى[5] فإذا نبقها[6] مثل قلال هجر[7] وإذا ورقها مثل آذان الفيلة . قال هذه سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان . فقلت ماهذا ياجبريل ؟ قال أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات . ثم رفع لى البيت المعمور فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فأخذت اللبن فقال هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك . ثم فرضت علىّ الصلوات خمسين صلاة كل يوم فرجعت فمررت على موسى فقال بم أمرت ؟ قلت أمرت بخمسين صلاة كل يوم . قال إن أمتك لاتستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإنى والله خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشراً ، فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت قلت بخمس كل يوم . فقال إن أمتك لاتستطيع خمس صلوات كل يوم وإنى جربت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، قلت وسألت ربى حتى استحييت ولكن أرضى وأسلّم قال فلما

---

(١) سقطت التصلية لأبى ذر

(٢) خطاب لموسى (٣) ليس بكاؤه حسداً حاشا لله بل أسفاً على مافاته من الأجر المرتب على رفع درجته بسبب ماحصل من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزم ذلك لنقص أجره لأن لكل نبى مثل أجر جميع من اتبعه وقوله غلام مراده به أنه صغير السن بالنسبة إليه وقد أنعم الله عليه بما لم ينعم به عليه مع طول عمره (٤) قد استشكل رؤية الأنبياء فى السموات مع أن أجسادهم مستقرة فى قبورهم بالأرض وأجيب بأن أرواحهم تشكلت بصور أجسادهم أو أحضرت أجسادهم لملاقاته صلى الله عليه وسلم تلك الليلة تشريفا له وتكريما (٥) سدرة المنتهى التى ينتهى إليها ما يعرج من الأرض (٦) النبق : ثمرة السدرة (٧) هجر : اسم بلد ومراده أن ثمرها فى الكبر كالجرار التى تصنع بهجر ، وكانت معروفة عند المخاطبين .

جاوزت نادانى مناد : أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى[١] .

عن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ قال هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى بيت المقدس[٢] . قال والشجرة الملعونة فى القرآن هى شجرة الزقوم .

هل رأى رسول الله ربه ليلة الإسراء ؟

أنكرت عائشة رؤية رسول الله ربه ليلة الإسراء وروى عن ابن عباس أنه رآه بعينه ومثله عن أبى ذر وكعب رضى الله عنهما وكان الحسن رحمه الله يحلف على ذلك . ومن القائلين بالرؤية ابن مسعود وأحمد بن حنبل وجماعة من الصحابة وعن ابن عباس أنه قال : « أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم » ، وعن عكرمة سئل ابن عباس هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ؟ فقال نعم . قال النووى فى شرح صحيح مسلم « والأصل فى الباب حديث ابن عباس حبر الأمة والمرجوع إليه فى المعضلات وقد راجعه ابن عمر رضى الله عنهم فى هذه المسألة وراسله هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ! فأخبره أنه رآه . ولا يقدح فى هذا حديث عائشة رضى الله عنها فإنها لم تخبر أنها سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لم أر ربى وإنما ذكرت ماذكرت متأولة لقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ ولقول الله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ ﴾ والصحابى إذا قال قولا وخالفه غيره منهم لم يكن قوله حجة وإذا صحت الروايات عن ابن عباس فى إثبات الرؤية وجب المصير إلى إثباتها فانها ليست مما يدرك بالعقل ويؤخذ بالظن ، وإنما يتلقى بالسماع ولا يستجيز أحد أن يظن بابن عباس أنه تكلم فى هذه المسألة بالظن والاجتهاد، وقد قال معمر بن راشد حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس ماعائشة عندنا بأعلم من ابن عباس . ثم إن ابن عباس أثبت شيئاً نفاه غيره والمثبت مقدم على النافى .

والراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعينى رأسه ليلة الإسراء . والظاهر أن إخباره صلى الله عليه وسلم بالمعراج لم يكن عند إخباره بالإسراء بل تأخر عنه بناء على أنهما كانا فى ليلة وأحد ولم تنزل قصة المعراج فى سورة الإسراء بل أنزل ذلك فى سورة النجم ، ومما يؤيد أنهما كانا فى ليلة واحدة قول البخارى فى صحيحه « باب كيف فرضت الصلاة ليلة الإسراء » لأن من المعلوم أن فرض الصلوات الخمس إنما هو فى المعراج .

---

(١) هذه من أقوى ما يستدل به على أنه صلى الله عليه وسلم كلمه ربه ليلة الاسراء بغير واسطه

(٢) وبذلك تمسك من قال كان الإسراء فى المنام . ومن قال كان فى اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية من قوله أريها ليلة أسرى به . والإسراء إنما كان فى اليقظة لأنه لو كان مناماً ما كذبته قريش فيه ، واذا كان ذلك فى اليقظة وكان المعراج فى تلك الليلة لزم أن يكون فى اليقظة أيضا اذ لم يقل أحد إنه نام لما وصل بيت المقدس ثم عرج به وهو نائم وإنما كان فى اليقظة ، فإضافة الرؤيا الى العين احتراز عن رؤيا القلب .

نقول وقد خالفت عائشة ابن عباس فى هل كان الإسراء بالجسد أو بالروح فقالت عائشة والله مافقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن صعد بروحه وابن عباس يقول إنه إسراء بالجسد وفى اليقظة وهذا ماذهب إليه معظم الصحابة أما ما يتصوره بعضهم من أن الصعود بالجسد إلى السموات مستحيل عقلا فنقول إن هذا الصعود بالجسم معجزة لرسول الله لاتدرك بالعقل كجميع معجزاته وكمعجزات الرسل عليهم صلوات الله ولو كان الصعود بالروح فقط لصرح به رسول الله ولما كذبته قريش .

وإذا كان أمر الإسراء والمعراج عجيبا فأعجب منه أن المسيح يصلب ويقتل ويدفن ثم يقوم من بين الموتى ويصعد إلى السماء ويجلس على يمين الله كما يعتقد المسيحيون .

فريضة الصلاة

فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ولا خلاف فى ذلك . قيل كما هى الآن فى عدد الركعات وهو الأصح . والصلاة هى فريضة قائمة وشريعة ثابتة عرفت فرضيتها بالكتاب وهو قوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى ﴾ فإنه يدل على فرضيتها وعلى كونها خمسا لأنه أمر بالمحافظة على جميع الصلوات وعطف الصلاة الوسطى وأقل جمع يتصور معه وسطى هو الأربع . وبالسنة قوله عليه الصلاة والسلام « إن الله فرض على كل مسلم ومسلمة فى كل يوم وليلة خمس صلوات » .

وحكمة مشروعيتها التذلل والخضوع بين يدى الله تعالى ومناجاته بالقراءة والذكر واستعمال الجوارح فى خدمته وهى أفضل العبادات البدنية الظاهرة .

جاء فى رسالة الصلاة لابن سينا : أن الصلاة تشبه النفس الإنسانى الناطق بالأجرام الفلكية والتعبد الدائم للحق المطلق طلباً للثواب السرمدى . قال رسول الله ﷺ (الصلاة عماد الدين) والدين هو تصفية النفس الإنسانى عن الكدورات الشيطانية والهواجس البشرية والإعراض عن الأعراض الدنيوية الدنية . والصلاة هى التعبد للمعبود الأعظم الأعلى ، فعلى هـذا لايحتاج إلى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ يعرفون لأن العبادة هى المعرفة أى عرفان واجب الوجود وعلمه بالسر الصافى والقلب النقى والنفس الفارغة . فإذا حقيقة الصلاة علم الله سبحانه وتعالى بوحدانيته ووجوب وجوده وتنزيه ذاته وتقديس صفاته فى سوانح الإخلاص فى صلاته ، وأعنى بالإخلاص أن تعلم صفات الله بوجه لا يبقى للكثرة فيه مشرع ولا للإضافة فيه منزع ، فمن فعل هذا فقد أخلص وصلى وماضل وما غوى ومن لم يفعل فقد افترى وكذب وعصى . والله أجل وأعلى وأعز من ذلك وأقوى اه .

قال صلى الله عليه وسلم (لا إيمان لمن لاصلاة له ولا إيمان لمن لاأمانة له) وقال (صلوا كما رأيتمونى أصلى)

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

عرض الرسول ﷺ نفسه على قبائل العرب

أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته بادئ الأمر ثم أعلنها فى السنة الرابعة من النبوة ودعا إلى الإسلام عشر سنين يوافى المواسم كل عام يتبع الحجاج فى منازلهم بمنى والموقف يسأل عن القبائل قبيلة قبيلة ، ويسأل عن منازلهم ويأتى إليهم فى أسواق الموسم وهى عكاظ ومجنة وذو المجاز ، وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال ، ثم تجئ إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوماً ، ثم تجئ إلى سوق ذى المجاز فتقيم به أيام الحج وكان صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه عليهم ويدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ، وكان يطوف على الناس فى منازلهم ويقول : « يأيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » وكان أبو لهب يمشى وراءه ويقول : إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم ، وروى ابن إسحاق أنه صلى الله عليه وسلم عرض نفسه على كندة وكلب وعلى بنى حنيفة وبنى عامر بن صعصعة فقال له رجل منهم أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظفرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ فقال الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . فقال له أنقاتل العرب دونك فإذا أظفرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك وأبوا عليه ، فلما رجعت بنو عامر إلى منازلهم وكان فيهم شيخ أدركته السن لا يقدر أن يوافى معهم الموسم . فلما قدموا عليه سألهم عما كان فى موسمهم فقالوا : جاءنا فتى من قريش أحد بنى عبد المطلب يزعم أنه نبى يدعونا أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال : يابنى عامر هل لها من تلاف ؟ أى هل لهذه القصة من تدارك ، والذى نفس فلان بيده مايقولها كاذبا من بنى إسماعيل قط وإنها لحق وإن رأيكم غاب عنكم .

وروى الواقدى أنه صلى الله عليه وسلم أتى بنى عبس وبنى سليم وبنى محارب وفزارة ومرة وبنى النضر وعذرة والحضارمة فردوا عليه صلى الله عليه وسلم أقبح الرد وقالوا أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك ، ولم يكن أحد من العرب أقبح عليه من بنى حنيفة وهم أهل اليمامة ، قوم مسيلمة الكذاب ، ومن ثم جاء فى الحديث « شر قبائل العرب بنو حنيفة » ومن أقبح القبائل فى الرد عليه صلى الله عليه وسلم ثقيف ، ومن ثم جاء « شر قبائل العرب بنو حنيفة وثقيف » وما زال صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل فى كل موسم يقول لا أكره أحداً على شيء . من رضى الذى أدعو إليه فذاك ومن كره لم أكرهه وإنما أريد منعى من القتل حتى أبلغ رسالة ربى فلم يقبله صلى الله عليه وسلم أحد من تلك القبائل ويقولون : قوم الرجل أعلم به ، أترون أن رجلا يصلحنا وقد أفسد قومه ؟

بدء إسلام الأنصار

بيعة العقبة الأولى ـ إسلام سعد بن معاذ

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على قبائل العرب وحجاجهم كما كانت عادته كل موسم ، فبينما هو عند العقبة التى تضاف إليها الجمرة فيقال جمرة العقبة وهى على يسار القاصد منى من مكة إذ لقى رهطا من الأوس والخزرج كانوا يحجون من العرب . وهما قبيلتان مشهورتان عظيمتان من العرب فى يثرب وقد لقبهم رسول الله بالأنصار لما هاجر إليهم ومنعوه ونصروه ، وكان الذين لقيهم ﷺ من الخزرج هم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث ويعرف بابن عفراء وهما من بنى النجار . ورافع بن مالك بن العجلان وعامر بن عبد حارثه وهما من بنى زريق . وقطبة بن عامر بن حديدة من بنى سلمة وعقبة بن عامر بن نابى من بنى غنم وجابر بن عبد الله بن رباب من بنى عبيدة فعرض النبى عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فقبلوا ذلك منه وأثر فى قلوبهم وكان اليهود مع الأوس والخزرج بالمدينة وكانوا أهل كتاب والأوس والخزرج أهل شرك وأوثان . وكانوا إذا كان بينهم شىء تقول اليهود إن نبيًّا سيبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم وكانوا يصفونه بصفاته لهم فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم النبى ﷺ ودعوهم إلى الإسلام فأسلم كثيرون منهم حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا وذلك سنة اثنتى عشرة من النبوة(٦٢١م) فلقوه بالعقبة فبايعوه بيعة النساء ، وسميت بذلك لأنها كانت على الأمور التى ورد ذكرها فى سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء وهى هذه الآية :

﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وبعد أن تمت هذه البيعة بعث ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم إلى المدينة يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام وكان يسمى مصعب بالمدينة المقرئ فأسلم على يده سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، وكان سعد من أجل رؤسائهم ثم فشا فيهم الإسلام فى المدينة . وقال سعد لما أسلم لبنى عبد الأشهل : « كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تسلموا » فأسلموا . فكان من أعظم الناس بركة فى الإسلام . وشهد بدراً . لم يختلفوا فيه وشهد أحداً والخندق وفيها أصيب بسهم وهو الذى حكم على بنى قريظة بالقتل كما سيأتى وبعد أن حكم عليهم انفجر عرقه فاحتضنه رسول الله فجعلت الدماء تسيل على رسول الله . فجاء أبو بكر وقال : وا انكسار ظهره !! فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « مه » . فقال عمر : « إنا لله وإنا إليه راجعون »ولما دفنه رسول الله وانصرف من جنازته ، جعلت دموعه تحادر على لحيته ويده فى لحيته ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان

من دار بنى أمية بن زيد وخطامة ووائل وواقف؛ وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت (وهو صيفى) وكان شاعراً لهم وقائداً يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام ولم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة .

بيعة العقبة الثانية

اتفق جماعة من الأنصار على لقاء النبي ﷺ مستخفين لا يشعر بهم أحد فوافوا مكة فى الموسم فى ذى الحجة مع كفار قومهم واجتمعوا به وواعدوه أوسط أيام التشريق[1] فلما كان الليل خرجوا بعد مضى ثلثه يتسللون حتى اجتمعوا بالعقبة وحضر معهم عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر[2] وأسلم تلك الليلة وجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وكان لايزال على دين قومه وأحب أن يتوثق لابن أخيه وكان أول من بايع تلك الليلة وهو أول من تكلم . فقال يامعشر الخزرج (وكانت العرب تسمى الخزرج والأوس به) إن محمداً منا حيث قد علمتم فى عز ومنعة وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم فإن كنتم ترون أنكم تفون له بما دعوتموه إليه ومانعوه فأنتم وذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة . فقال الأنصار قد سمعنا ما قلت فتكلم يارسول الله وخذ لنفسك وربك ما أحببت فتكلم وتلا القرآن ورغب فى الإسلام ثم قال تمنعوننى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم وكان للبراء بن معرور فى تلك الليلة المقام المحمود فى الإخلاص والتوثق لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أخذ بيده وقال : والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ذرارينا فبايعنا يارسول الله فنحن والله أهل الحرب ، فاعترض الكلام أبو الهيثم بن التيهان حليف بنى عبد الأشهل فقال يارسول الله إن بيننا وبين الناس حبالا وإنا قاطعوها يعنى اليهود فهل عسيت إن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال بل الدم الدم ، الهدم الهدم ، أنتم منى وأنا منكم أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم وكانت عدة الذين بايعوا فى تلك الليلة سبعين رجلا وامرأتين : نسيبة بنت كعب أم عمارة وأسماء بنت عمرو بن عدى من بنى سلمة[3] واختار رسول الله ﷺ اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وقال لهم أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم . وأنا كفيل على قومى . والنقباء هم :

(١) سعد بن عبادة (٢) أسعد بن زرارة . (٣) سعد بن الربيع . (٤) سعد بن خيثمة . (٥) المنذر بن عمرو (٦) عبد الله بن رواحة . (٧) البراء بن معرور . (٨) أبو الهيثم بن التيهان . (٩) أسيد بن حضير . (١٠) عبد الله ابن عمرو بن حرام . (١١) عبادة من الصامت . (١٢) رافع بن مالك بن العجلان . وروى أنه نقب على النقباء أسعد بن زرارة فتوفى بعد والمسجد النبوى يبنى . فكان أول من دفن بالبقيع من المسلمين .

---

(١) وهى ثلاثة أيام بعد النحر لأن لحم الأضاحى يشرق فيها للشمس أى يشرر وقال ابن الأعرابى سميت بذلك لأن الهدى والضحايا لاتنحر حتى تشرق الشمس أى تطلع (٢) قتل عبد الله بن عمرو يوم أحد وقد مثل به . (٣) بايعته المرأتان من غير مصافحة .

فلما بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم رجعوا إلى المدينة فكان قدومهم فى ذى الحجة فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بقية ذى الحجة والمحرم وصفر وهاجر إلى المدينة فى شهر ربيع الأول وقدمها لاثنتى عشرة ليلة خلت منه وقد كانت قريش لما بلغهم إسلام من أسلم من الأنصار اشتدوا على من بمكة من المسلمين فأصابهم جهد شديد . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسالا حتى لم يبق أحد من المسلمين بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وعلى بن أبى طالب فإنهما أقاما بأمره وكان صلى الله عليه وسلم ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة .
وإسلام الأنصار له شأن كبير فى تاريخ الإسلام بل فى تاريخ الدنيا .

مؤامرة قريش
على قتل رسول الله ﷺ

لقد بلغ اضطهاد قريش للمسلمين أنهم اضطروهم إلى الهجرة ففريق هاجر إلى الحبشة ثم هاجر من بقى مع رسول الله إلى المدينة . ولما علمت قريش تتابع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة أخيراً إلى المدينة وقد صارت له شيعة وأنصار من غيرهم وأنه أجمع على اللحاق بهم؛ تشاوروا فيما يصنعون فى أمره فاجتمعوا فى « دار الندوة » وهى دار قصى بن كلاب [1] وتشاوروا فى حبسه أو إخراجه عنهم (نفيه) ثم اتفقوا على أن يتخيروا من كل قبيلة منهم فتى شاباً جلداً فيقتلوه جميعاً فيتفرق دمه فى القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعاً ويقال إن هذا كان رأى أبى جهل . وهكذا نجد دائما اسم أبى جهل وأبى لهب فى كل مؤامرة ضد النبي صلى الله عليه وسلم وكل إيذاء واضطهاد كأن لا عمل لهما غير ذلك .

استعدوا لقتله عليه الصلاة والسلام من ليلتهم وأتى جبريل رسول الله فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه فلما كانت العتمة اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه فأمر علياً أن ينام على فراشه ويتشح ببرده الأخضر وأن يتخلف عنه ليؤدى ما كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من الودائع إلى أربابها فامتثل أمره فكان أول من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ووقى بنفسه رسول الله ﷺ .

وهنا نقول إن الأستاذ مرجوليوث اعتاد أن يصف أعداء رسول الله برجاحة العقل والنبل ولا يعدم أن يجد كتاباً يذكره كمصدر له من من غير تحقيق فقد قال عن أبى جهل فى كتابه (محمد) « إنه حاز شهرة عظيمة فى العقل حتى إنه دخل دار الندوة فى سن الثلاثين فى حين أنه كان لا يسمح لأحد من أهل مكة بدخولها إلا إذا بلغ

(١) دار الندوة بمكة أحدثها قصى بن كلاب لما تملك مكة . كانوا يجتمعون بها للمشاورة وصارت بعد ولده لمعاوية بن أبى سفيان وقيل وهى أول دار بنتها قريش بمكة . قال الحلبي دار الندوة من جهة الحجر عند المقام الحنفى الآن وكان لها باب إلى المسجد أعدت للاجتماع للمشورة وكانت قريش لاتقضى أمراً إلا فيها وكانوا لايدخلون فيها غير قرشى إلا إن بلغ أربعين سنة بخلاف القرشى .

الأربعين » والحقيقة أنهم كانوا لايدخلون فيها غير قرشي إلا إن بلغ أربعين سنة بخلاف القرشي تمييزاً له وبما أن أبا جهل قرشي فكان يسوغ له دخول دار الندوة قبل الأربعين وليس ذلك لأنه كان شديد الذكاء راجح العقل بل لأنه كان قرشياً .

القــــرآن

وما نزل منــــه بمكة

عن ابن عباس ، قال أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة . أما إقامته بالمدينة عشراً فهذا مما لا خلاف فيه . وأما إقامته بمكة بعد النبوة فالمشهور ثلاث عشرة سنة لأنه صلى الله عليه وسلم أوحى إليه وهو ابن أربعين سنة وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح .

والقرآن منه مكي ومنه مدني . فالمكي ما نزل قبل الهجرة أي بمكة والمدني مانزل بعد الهجرة سواء كان بالمدينة أو بغيرها من أي البلاد حتى ولو كان بمكة أو عرفة

والسفير بين الله تعالى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، جبريل عليه السلام . كما قال تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ وقال ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ الآيات .

وقد تحداهم الله تعالى بأن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا . فالقرآن معجزة رسول الله الباقية إلى يوم القيامة . وقد احتوى على العلوم الكثيرة والأخبار الصادقة عن الغيوب الماضية والآتية والأحكام العادلة .

ونزل القرآن بلغة قريش وقريش خلاصة العرب . وللقرآن أسماء كثيرة منها الفرقان والتنزيل والحديث الخ . ومعناه ، القراءة . قال ابن عباس « القرآن والقراءة واحد » .

ويشتمل على ١١٤ سورة ، أطولها « البقرة » ونزل من القرآن بمكة اثنتان وثمانون سورة ونزل تمام بعضها بالمدينة وكان أول مانزل على رسول الله ﷺ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . ثم نٓ والقلم ومايسطرون . ثم والضحى . ثم يأيها المزمل ثم يأيها المدثر . ثم فاتحة الكتاب . ثم تبت . ثم إذا الشمس كورت . ثم سبح اسم ربك الأعلى . ثم والليل إذا يغشى . ثم والفجر . ثم ألم نشرح لك صدرك . ثم الرحمن . ثم والعصر . ثم إنا أعطيناك الكوثر . ثم ألهاكم التكاثر . ثم أرأيت الذي يكذب بالدين . ثم ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ثم والنجم إذا هوى . ثم عبس وتولى . ثم إنا أنزلناه في ليلة القدر . ثم والشمس وضحاها . ثم والسماء ذات

البروج . ثم والتين والزيتون . ثم لإيلاف قريش . ثم القارعة . ثم لا أقسم بيوم القيامة . ثم ويل لكل همزة . ثم والمرسلات عرفاً . ثم قٓ والقرآن المجيد . ثم لا أقسم بهذا البلد . ثم والسماء والطارق . ثم اقتربت الساعة . ثم صٓ والقرآن ذى الذكر . ثم الأعراف . ثم سورة الجن . ثم سورة يسٓ . ثم تبارك الذى نزل الفرقان . ثم حمد الملائكة . ثم سورة مريم . ثم سورة طه . ثم طسمٓ الشعراء . ثم طسٓ النمل . ثم طسمٓ القصص . ثم سورة بنى إسرائيل . ثم سورة يونس . ثم سورة هود . ثم سورة يوسف . ثم الحجر . ثم الأنعام . ثم الصافات . ثم لقمان . ثم حمٓ المؤمن . ثم حم السجدة . ثم حم عسقٓ . ثم الزخرف . ثم سبأ . ثم تنزيل الزمر . ثم حمٓ الدخان . ثم حمٓ الشورى . ثم حمٓ الأحقاف . ثم والداريات . ثم هل أتاك حديث الغاشية . ثم سورة الكهف . ثم سورة النحل . ثم إنا أرسلنا نوحاً . ثم سورة إبراهيم . ثم اقترب للناس حسابهم . ثم قد أفلح المؤمنون . ثم الرعد . ثم والطور . ثم تبارك الذى بيده الملك . ثم الحاقة . ثم سأل سائل . ثم عم يتساءلون . ثم والنازعات غرقاً . ثم إذا السماء انفطرت . ثم سورة الروم . ثم العنكبوت .

وعن ابن عباس أنه قال : كان القرآن ينزل مفرقاً لاينزل سورة سورة فمانزل أولها بمكة أثبتناها بمكة وإن كان تمامها بالمدينة وكذلك مانزل بالمدينة وإنه كان يعرف فصل ما بين السورة والسورة إذا نزل بسم الله الرحمن الرحيم فيعلمون أن الأولى قد انقضت وابتدئ أخرى .

الهجرة إلى المدينة

١٢ ربيع الأول (سنة ٦٢٢ م)

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرصدونه فأخذ حفنة تراب وجعل ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو قوله تعالى يسٓ إلى قوله : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ثم انصرف فلم يروه . فلما أفاقوا من غشيتهم جعلوا يطلعون فيرون علياً نائماً وعليه برد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون إن محمداً لنائم . فأقاموا بالباب يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ حتى يقوم فى الصباح . فلما أصبحوا قام علىّ عن الفراش فقالوا له أين صاحبك؟ قال لا أدرى فعلموا أن النبي ﷺ قد نجا . فأما علىّ فأقام بمكة حتى يؤدى ودائع النبي ﷺ وقصد النبي ﷺ دار أبى بكر رضى الله عنه وأعلمه بأن قد أذن له بالهجرة ، فقال أبو بكر : الصحبة يارسول الله . قال الصحبة فبكى أبو بكر رضى الله عنه فرحاً واستأجر عبدالله بن أريقط الديلى وكان مشركا ليدل بهما إلى المدينة وينكب عن الطريق العظمى . ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أبى بكر وعلىّ وآل أبى بكر، وكان خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة يوم الخميس أول يوم من ربيع الأول وقدم المدينة لاثنتى عشرة خلت منه، وذلك يوم الاثنين الظهر لثلاث وخمسين سنة من مولده ٢٨ يونيه (٦٢٢م) وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حين خروجه من مكة إلى المدينة «اللهم إنك

تعلم أنهم أخرجونى من أحب البلاد إلىَّ فأسكنى أحب البلاد إليك » رواه الحاكم فى المستدرك وكان مدة مقامه بمكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة . ثم أتيا الغار الذى بجبل (ثور) على ثلاثة أميال من جنوب غربى مكة ،وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع لهما بمكة ثم يأتيهما ليلاً وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يأتيهما بها ليلا ليأخذا حاجتهما من لبنها وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بطعامهما فأقاما فى الغار ثلاثاً . ولما فقدته قريش اتبعوه ومعهم القائف فقاف الأثر حتى وقف عند الغار وقال هنا انقطع الأثر[1] وإذا بنسيج العنكبوت على فم الغار وقد عششت على بابه حمامتان . فقالت قريش ماوراء هذا شىء . وجعلوا مئة ناقة لمن يرده عليهم . فلما مضت الثلاث وسكن الناس أتاهما دليلهما ببعيرين فأخذ أحدهما رسول الله ﷺ من أبى بكر بالثمن لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه الصلاة والسلام فى استكمال فضل الهجرة إلى الله تعالى . ثم ركبا وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة يخدمهما فى الطريق وأتتهما أسماء بسفرة لهما وشقت نطاقها وربطت السفرة فسميت « ذات النطاقين » وحمل أبو بكر جميع ماله وكان نحو ستة آلاف درهم وبينما هما فى الطريق مجردين من كل سلاح بصر بهما سراقة بن مالك بن جُعشم فاتبعهما ليردهما فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخت :(غاصت) قوائم فرسه فى أرض صلبة . فقال ادع لى يامحمد ليخلصنى الله أن أرد عنك الطلب فدعا له فخلص . فعاد يتبعهما . فدعا عليه الثانية فساخت قوائم فرسه فى الأرض أشد من الأولى . فقال يامحمد قد علمت أن هـذا من دعائك علىّ فادع الله أن ينجينى مما أنا فيه ولك عهد الله أن أرد عنك الطلب . فدعا له فخلص وعاهدهم أن لايقاتلهم ولايخبر عنهم وأن يكتم عنهم ثلاث ليال . فرجع سراقة ورد كل من لقيه عن الطلب بأن يقول ماهاهنا .

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت :

« فبينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة[2] قال قائل[3] لأبى بكر هذا رسول الله ﷺ متقنعاً[4] فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر فداء له أبى وأمى والله ماجاء به فى هذه الساعة إلا أمر . قالت عائشة فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبى ﷺ لأبى بكر أخرج من عندك فقال أبو بكر إنما هم أهلك[5] بأبى أنت يارسول الله قال : فإنى قد أذن لى فى الخروج[6] ، فقال أبو بكر الصحبة بأبى أنت يارسول الله . قال رسول الله ﷺ نعم . قال أبو بكر فخذ بأبى أنت يارسول الله إحدى راحلتى هاتين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن[7] قالت عائشة فجهزناهما أحث الجهاز[8] وصنعنا لهم سفرة فى جراب فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها[9] فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاقين ، وأسماء بنت أبى بكر

---

(١) لايخفى أن للعرب شهرة فى اقتفاء الأثر .

(٢) أول الزوال عند شدة الحر (٣) فى الطبرانى أن قائل ذلك أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها (٤) مغطياً رأسه .

(٥) يريد عائشة وأمها (٦) الخروج إلى المدينة (٧) أى لا آخذ إلا بالثمن . (٨) أحث الجهاز : أسرع ، والجهاز مايحتاج إليه فى السفر وغيره (٩) النطاق مايشد به الوسط.

الصديق كانت أسن من عائشة وهى أختها لأبيها وكان عبد الله بن أبى بكر أخا أسماء شقيقها ، قالت ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار فى جبل ثور (جبل بمكة) فمكثنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ثقف [١] لقن [٢] فيدلج [٣] من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت [٤] فلا يسمع أمراً يكتادان به [٥] إلا وعاه [٦] حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة [٧] من غنم [٨] فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان فى رسل وهو لبن منحتهما ورضيفهما [٩] حتى ينعق بهما [١٠] عامر بن فهيرة بغلس [١١] ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث . واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بنى الديل [١٢] وهو من بنى عبد بن عدى هاديا خريتا ـ والخريت الماهر بالهداية ـ قد غمس حلفاً فى آل العاص بن وائل السهمى [١٣] وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال فجاءهما براحلتيهما صبح ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل [١٤] قال سراقة ابن جعشم : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله ﷺ وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره. فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال ياسراقة إنى قد رأيت آنفاً أسودة [١٥] بالساحل أراها [١٦] محمداً وأصحابه . قال سراقة فعرفت أنهم هم فقلت له إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا ثم لبثت فى المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى وهى من وراء أكمة [١٧] فتحبسها علىّ وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت فحططت بزجه [١٨] الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسى فركبتها فرفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم فعثرت بى فرسى فخررت عنها فقمت فأهويت يدى إلى كنانتى [١٩] فاستخرجت منها الأزلام [٢٠] فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذى أكره فركبت فرسى تقرب بى وعصيت الأزلام حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت [٢١] يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عثان [٢٢] ساطع فى السماء مثل الدخان . فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسى حتى جئتهم ووقع فى نفسى حين لقيت مالقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم أخبار مايريد الناس بهم وعرضت

---

(١) حاذق (٢) لقن: سريع الفهم (٣) يدلج : يخرج (٤) كبائت بهـا لشدة رجوعه بالغلس . (٥) أى يطلب لهما مافيه المكروه (٦) وعاه : حفظه . (٧) منحة : شاة تحلب آناء بالغداة وآناء بالعشى (٨) من غنم كانت لأبى بكر رضى الله عنه (٩) هو اللبن الموضوع فيه الحجارة المحماة لتذهب وخامته وثقله (١٠) ينعق بها : يزجرها (١١) الغلس ظلام آخر الليل (١٢) هو عبد الله بن أريقط مصغر (١٣) يعنى أنه حليف لهم وأخذ بنصيب من عقدهم ، وكانوا إذا تحالفوا غمسوا أيديهم فى دم أو خلوق أو شىء يكون فيه تلوين فيكون ذلك تأكيداً للحلف (١٤) أسفل من عسفان (١٥) أشخاصا (١٦) أظنها (١٧) أكمة : ربوة مرتفعة (١٨) الزج : الحديد الذى فى أسفل الرمح (١٩) الكنانة : كيس السهام (٢٠) الأزلام جمع زلم : أقلام كانوا يكتبون على بعضها نعم وعلى بعضها لا ، وكانوا إذا أرادوا أمرا استقسموا بها فإذا خرج السهم الذى عليه نعم خرجوا وإذا خرج الآخر لم يخرجوا . ومعنى الاستقسام معرفة قسم الخير والشر (٢١) ساخت : غاصت (٢٢) عثان : دخان من نار .

عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى [1] ولم يسألانى إلا أن قالا أخف عنا فسألته أن يكتب لى كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من [2] أديم ثم مضى رسول الله ﷺ . ومما وقع لهما فى الطريق أنهما لقيا طلحة بن عبيد الله فى الطريق وكان راجعاً من تجارة فحياهما وكساهما ثياباً بيضاً وقيل لقيهما الزبير كذلك ولعلهما لقياهما معاً أو متعاقبين فكسواه وأبا بكر ماذكر اه

* * *

غادر رسول الله مكة مسقط رأسه بعد أن سخر به قومه ورفضوا دعوته وتمسكوا بعقيدتهم القديمة التى ألفوها ولم يحكموا عقولهم ، ولم يعترفوا أن عبادة الأصنام من دون الله تعالى كفر . وليس بعد الكفر ذنب ولا بعد الشرك ضلال . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

غادر رسول الله مكة وهو آسف لفراق قومه بعد أن صبر على أذاهم وجاهد وكافح سنين طويلة ، فغادرهم ذلك النور الساطع والعلم الواسع والهمة العالية والنفس الأبية والروح الطاهرة النقية والشخصية الجذابة المحبوبة والوجه المشرق الدائم الابتسام والخلق العظيم والفم الذى لا ينطق عن الهوى .

لقد غادرهم ذلك الرسول الأمين ، الهادى إلى الصراط المستقيم ، مبلغ رسالات رب العالمين .

ولو علمت قريش الحقيقة وتخلوا عن التعصب ، لتمسكوا بأهدابه وتعلقوا بأذياله واغترفوا من فيض علمه وبحور حكمته واهتدوا بهديه وتخلقوا بخلقه وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة .

إن الرسول بهجرته قد ترك مكة فى ظلام دامس فلما وصل المدينة ، أشرقت أنواره فى جميع أرجائها فخرج القوم يستقبلونه بالبشر والسرور ويتسابقون لمشاهدة وجهه الصبوح ويتبركون به ويستضيفونه ويستمعون إلى حكمه البالغة . وقد عبروا عن شعورهم بذلك النور بقولهم « طلع البدر علينا »

وصوله ﷺ إلى المدينة

وصل رسول الله للمدينة يوم الاثنين من شهر ربيع الأول قرب الظهر . ونزل قباء على كلثوم بن الهدم [3] شيخ بنى عمرو بن عوف وهم بطن من الأوس . وقباء قرية على ميلين من جنوب المدينة وهى خصبة بها حدائق من أعناب ونخيل وتين ورمان وأقام بها رسول الله يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجد قباء وهو

---

(١) فلم يرزآنى : لم ينقصانى (٢) أديم : جلد مدبوغ .

(٣) كلثوم بن الهدم بن امرىء القيس ويعرف بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان شيخاً كبيراً أسلم قبل وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأقام عنده أربعة أيام وتوفى كلثوم قبل بدر بيسير ولم يدرك شيئاً من المشاهد .

الذى أسس على التقوى من أول يوم ، ونزل أبو بكر رضى الله عنه على حبيب بن إساف بالسنح[١] ثم قدم على رضى الله عنه ومعه الفواطم وأم أيمن وولدها أيمن وجماعة من ضعفاء المؤمنين بعد أن أدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده إلى الناس ، ولما وصل نزل على كلثوم بن الهدم اقتداء بالنبى ﷺ وكان على رضى الله عنه فى طريقه يسير الليل ويكمن النهار حتى تفطرت قدماه فاعتنقه النبى صلى الله عليه وسلم وبكى رحمة به لما بقدمه من الورم وتفل فى يديه وأمرّهما على قدميه فلم يشكهما بعد ذلك ، ثم ركب النبى ﷺ يوم الجمعة يريد المدينة وأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها فى المسجد الذى ببطن الوادى بمن معه من المسلمين وكانوا مئة وهى أول جمعة صلاها بالمدينة وأول خطبة خطبها فى الإسلام ثم ركب راحلته (القصوى) يريد المدينة وأرخى زمامها فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا قالوا هلم يارسول الله إلى العدد والعدة والمنعة ويعترضون ناقته فيقول خلوا سبيلها فإنها مأمورة حتى بركت عند موضع مسجده اليوم وكان مربداً للتمر[٢] لغلامين يتيمين وهما سهل وسهيل ابنا عمرو من بنى النجار فلما بركت لم ينزل عنها ثم وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به فالتفتت خلفها ثم رجعت إلى مبركها الأول فبركت فيه ووضعت جرانها (مقدم عنقها) فنزل عنها رسول الله ﷺ واحتمل أبو أيوب الأنصارى[٣] رحل ناقته إلى بيته فأقام عنده حتى بنى حجره ومسجده ودعا رسول الله ﷺ صاحبى المربد ـ وكانا غلامين ـ فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً فقالا بل نهبه لك يا رسول الله فأبى أن يقبل منهما هبة حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير ذهباً أداها من مال أبى بكر ثم بناه مسجداً وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن (الطوب النىء) فى بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن :

هـذا الحمال لاحمال خيبر هـذا أبر ربنـا وأطهر[٤]

ويقول :

إن الأجر أجر الآخره فارحم الأنصـار والمهاجره

ثم وادع رسول الله ﷺ اليهود وكتب بينه وبينهم كتاب صلح وموادعة وسنأتى على نص الكتاب فيما بعد

وقبل أن يتم رسول الله بناء مسجده مات سعد بن زرارة بالذبحة والشهقة وكان نقيبا لبنى النجار فطلبوا إقامة نقيب مكانه فقال أنا نقيبكم ولم يخص منهم أحداً دون آخر فكانت من مناقبهم . وأقام رسول الله يبنى مسجده

---

(١) السنح إحدى محال المدينة (٢) المربد : موضع يجفف فيه التمر (٣) اسمه خالد بن زيد كليب بن ثعلبة بن عوف بن غنم بن مالك ابن النجار الأنصارى الخزرجى النجارى شهد العقبة وبدراً وأحدا والخندق وسائر المشاهد وكان مع على بن أبى طالب رضى الله عنه ومن خاصته وغزا أيام معاوية أرض الروم مع يزيد بن معاوية سنة إحدى وخمسين فتوفى عند مدينة القسطنطينية فدفن هناك .

(٤) الحمال بكسر الحاء المهملة وفتح الميم مخففة . ولأبى ذر الحمال بفتح الحاء المهملة أى هذا المحمول من اللبن أبر عند الله وأطهر من محمول (خيبر) الذى يحمل منها التمر والزبيب ونحوهما الذى يغتبط به حاملوه . تمثل بشعر رجل من المسلمين هو عبد الله بن رواحة قال ابن شهاب الزهرى: ولم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هـذا البيت والممتنع على المصطفى إنشاء الشعر لا إنشاده .

من ربيع الأول إلى صفر ، فكان مسجداً بسيطاً ، جدرانه من اللبن ، على قاعدة من الحجارة . والسقف من جريد النخل ، مقاماً على الجذوع ولم يكن فيه أثر للزخرفة أو النقش وليس به منبر . فكان الرسول يخطب فى بادئ الأمر بلا منبر .

فرح أهل المدينة بمقدم النبى ﷺ فرحاً شديداً وقابلوه بالابتهاج وصعدت ذوات الخدور على الأسطحة. وعن عائشة رضى الله عنها : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاس النساء والصبيان والولائد يقلن جهراً :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع (١)
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

ولعبت الحبشة بحرابهم فرحاً بقدومه صلى الله عليه وسلم . وكانت الأنصار يتقربون إلى رسول الله بالهدايا رجالهم ونساؤهم .

قال ابن عباس ولد النبى ﷺ يوم الاثنين، واستنبئ يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين، وقبض يوم الاثنين ، وابتدئ التاريخ فى الإسلام من هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ، وأول من أرخ بالهجرة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه سنة سبع عشرة من الهجرة إلا أن التاريخ الهجرى يبدأ قبل الهجرة بشهرين . وذلك أنهم جعلوا مبدأ التاريخ المحرم من تلك السنة والنبى ﷺ بعد بمكة ، ثم كانت الهجرة بعد ذلك فى ربيع الأول .

ذكر الهجرة فى القرآن

قال تعالى : ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ وهذا إعلام من الله لأصحاب رسول الله ﷺ أنه المتوكل بنصر رسوله على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أولم يعينوه . إذ يقول لصاحبه ، يقول : إذ يقول رسول الله لصاحبه أبى بكر لاتحزن ، وذلك أنه خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهما فجزع من ذلك فقال له رسول الله ﷺ لاتحزن إن الله معنا وإن الله ناصرنا فلن يعلم المشركون بنا ولن يصلوا إلينا ، وقد نصره الله على عدوه وهو بهذه الحال من الخوف وقلة العدد .

---

(١) ثنية مشرفة على المدينة يطؤها من يريد مكة ، وهى موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكة

خطبة رسول الله ﷺ

فى أول جمعة صلاها بالمدينة

هذا نص الخطبة التى خطبها رسول الله ﷺ فى أول جمعة صلاها بالمدينة فى بنى سالم بن عوف (١).

« الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسول أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيدا . وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ماأوصى به المسلم المسلم ، ثم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكراً ، وأن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ماتبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره فى السر والعلانية لاينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً فى عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ماقدم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد . والذى صدق قوله وأنجز وعده لاخلف لذلك فإنه يقول عزوجل ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله ،فى السر والعلانية فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، وإن تقوى الله يوقى مقته ويوقى سخطه ،وإن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضى الرب ويرفع الدرجة . خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله . قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم فإنه من يصلح مابينه وبين الله يكفه الله مابينه وبين الناس ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولاقوة إلا بالله العظيم (٢) » .

***

هذه هى أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة فى أول جمعة ونلاحظ أن رسول الله لم يذكر فيها أهل مكة ولا ما كان من عنادهم وإصرارهم على الكفر وإيذائهم المسلمين وتآمرهم على قتله بل قصر خطبته على حض

(١) صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أول جمعة بالمدينة فى المسجد الذى فى بطن الوادى بمن معه من المسلمين وهم مائة وسمى هذا المسجد بمسجد الجمعة وهو على يمين السالك نحو قباء . (٢) راجع تاريخ الطبرى .

المسلمين على التقوى وتذكيرهم بالله تعالى وهذا فى الحق غاية الأدب ومنتهى مايصل إليه حلم الحليم . ولو كان غير رسول الله لاستفزه الغضب وعدد مثالبهم لأنهم هم الذين خذلوه واضطهدوه وأخرجوه من أحب البلاد إليه وكانوا عقبة فى سبيل تبليغ رسالة ربه وقد صدق الله تعالى حيث قال ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

نعم إن هذا خلق عظيم وأدب كريم ونحن نرى رجال الأحزاب يستعملون فى خطبهم أقبح الألفاظ وأشنع الشتائم لأسباب تافهة ومع ذلك يزعمون أنهم قادة وسادة ينشرون العلم والمدنية وينشدون الإصلاح والحرية !!

معاهدة رسول الله ﷺ اليهود

قال ابن إسحاق وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط عليهم واشترط لهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرون من قريش على ربعتهم [(١)] يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وأن المؤمنين لا يتركون مفرجاً بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن من دونه وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة [(٣)] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم ولا يقتل مؤمن فى كافر ولا ينصر كافر على مؤمن . وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم

(١) الربعة والرباعة : الحال التى جاء الإسلام وهم عليها . ويقال فلان يقوم برباعة أهله إذا كان يقوم بأمرهم وشأنهم .
(٢) العانى الأسير ، والمخذول الذى تركه قومه ولم يواسوه .
(٣) الدسيعة هى مايخرج من حلق البعير إذا رغا فاستعاره هنا للعطية وأراد به هنا ما ينال منهم من ظلم .

أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم وأن كل غازية غزت معنا تعقب بعضها بعضاً وأن المؤمنين يبىء[1] بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن وأنه من اغتبط[2] مؤمنا قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[3] إلا نفسه وأهل بيته وأن ليهود بنى النجار مثل ماليهود بنى عوف وأن ليهود بنى الحارث مثل ماليهود بنى عوف وأن ليهود بنى ساعدة مثل ماليهود بنى عوف وأن ليهود بنى جشم مثل ماليهود بنى عوف وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ماليهود بنى عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم وأن لبنى الشطنة مثل ماليهود بنى عوف وأن البر دون الإثم وأن موالى ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة[4] يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا ينحجز على ثار جرح وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ؛ وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار[5] يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب[6] وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم وأن ليهود الأوس مواليهم وأنفسهم مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وأن الله جار لمن بر واتقى ومحمد الله صلى الله عليه وسلم » .

---

(١) يبىء : يمنع ويكف (٢) اغتبطه : إذا قتله عن غير شىء يوجب قتله (٣) لا يوتغ : لا يهلك (٤) بطانة الرجل : خاصته وأهل سره (٥) الاشتجار : الاختلاف ، يقال اشتجر القوم إذا اختلفوا . (٦) من دهم يثرب : يريد من فاجأها . يقال دهمتهم الخيل تدهمهم

الخزرج والأوس
وما كان بينهما وبين اليهود

الخزرج والأوس هما قبيلتان مشهورتان من العرب فى يثرب وقد لقبهم رسول الله ﷺ بالأنصار لما هاجر إليهم لأنهم هم الذين نصروه ومنعوه . وقد مر ذكرهم فى بيعتى العقبة الأولى والثانية ولاشك أن الباحث يشتاق إلى الوقوف على تاريخ هاتين القبيلتين ، وما كان بينهما وبين اليهود من علاقات وحروب لأن ذلك يساعده على فهم تاريخ سكان المدينة ، وعلى موقف الأنصار واليهود إزاء الإسلام والمسلمين وليكون على بينة من أمرهم عند ذكرهم فى الحوادث التى وقعت بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة .

خزرج وأوس أخوان أبو هما حارثة بن ثعلبة العنقاء ، بن عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف ابن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وأم أوس وخزرج قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد من قضاعة ولذلك يقال لهما ابنا قيلة . وكان منهما قبيلتان مشهورتان عظيمتان من العرب فى يثرب تذكران غالبًا معًا فيقال الأوس والخزرج . لكن غلب اسم الخزرج وسموا أيضًا الأنصار لأنهم أول من قام بنصرة النبى ﷺ وساعدوه فى حروبه وآووه إلى أرضهم .

أما أصلهم فقد جاء فى كتب السير ، أنه لما خرج مزيقياء من اليمن بعد تفرق أهل سبأ ، بسيل العرم[1] ملك غسان بالشام ثم هلك وملك ابنه ثعلبة العنقاء . ولما هلك ملك بعده عمرو ابن أخيه جفنة فسخط مكانه ابنه حارثة وأجمع الرحلة إلى يثرب ونزل على يهود خيبر وسألهم الحلف والجوار على الأمان والمنعة فأعطوه من ذلك ما سأل وقيل لما سار ثعلبة بن عمرو بن عامر فى من معه اجتازوا يثرب فتخلف بها أوس وخزرج ابنا حارثة فى من معهما فنزل بعضهم بضرار وبعضهم بالقرى مع أهلها ولم يكونوا أهل نعم ولا شاة لأن البلاد لم تكن بلاد مرعى ولا نخل لهم ولا زرع إلا الأعذاق اليسيرة فكانوا يحيون الأرض الموات ويزرعونها والأموال لليهود فلبثوا حينًا من الدهر على ذلك وهم فى ضيق مال وسوء حال ، ثم قدم منهم مالك بن عجلان على أبى جبيلة الغسانى فسأله عن حالهم فأخبره بضيق معاشهم : فقال : مابالكم لا تغلبونهم كما غلبنا أهل بلدنا ووعده أنه يسير إليهم فينصرهم فرجع مالك وأخبر

(١) أثبتت بحوث الأستاذ جليزر Glaser فى سنة ١٨٩٦ أن السيل قد حدث وتكرر حدوثه وقد أهمل السد فنشأ عن ذلك تصدع جوانبه ويرى الأستاذ ولفنسون أن سيل العرم ليس هو السبب الوحيد فى هجرة جميع البطون الأزدية إلى شمال الجزيرة بل لابد أن تكون هناك أسباب أخرى .

قومه بوعد أبى جبيلة فاستعدوا له ، وقدم عليهم وخشى أن يتحصن منه اليهود فاتخذ حائرا [١] وبعث إليهم فقال خواصهم وحشمهم وأذن لهم فى دخول الحائر ثم أمر جنوده فقتلوهم عن آخرهم . وقال للأوس والخزرج : إذا لم تتغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلأحرقنكم ورجع إلى الشام . فأقاموا فى عداوة مع اليهود ثم صنع لهم مالك بن عجلان طعاماً ودعاهم فامتنعوا خوفاً من الغدر فاعتذر إليهم مالك عن فعل أبى جبيلة ووعدهم أنه لايقصد مثل ذلك فأجابوه وجاءوا إليه فغدرهم وقتل ٨٧ من رؤسائهم وفر الباقون وصورت اليهود مالكا فى كنائسهم وبيعهم وكانوا يلعنونه كلما خلوا .

وذكر ابن الأثير رواية أخرى وهى أن اليهود كان لهم ملك اسمه الفيطون وكان ظالماً فاسقاً . وقد سن سنة أن كل امرأة تتزوج يدخل عليها قبل زوجها . فاتفق يوماً زفاف أخت مالك هذا فأتت مجلساً فيه أخوها وكشفت عن ساقها . فقال لها أخوها : قد أتيت بسوء . فقالت : الذى يراد بى الليلة أشد من هذا فثارت النخوة فى رأسه واحتال على الدخول معها عند الملك فى زى امرأة فلما خلا المكان قتله [٢] وفر إلى أبى جبيلة ولم يكن هذا ملكا لغسان بل معظماً عند ملوك غسان وقد ذلوا بعد هذه الفعلة وخافوا ولجأ كل قوم إلى بطن من الأوس والخزرج يستنصرون بهم ويكونون لهم أحلافاً ، وعظم شأن مالك وسوده الحيان . ولم يمض زمان طويل حتى أثرى الأوس والخزرج وامتنع جانبهم وقد تناسلوا وتكاثروا وتشعبوا عدة بطون فكان بنو الأوس كلهم لمالك بن الأوس فمنهم خطة بن جشم بن مالك وثعلبة ولوذان وعوف كلهم بنو عمرو بن عوف بن مالك . ومن بنى عوف حنش ومالك وكلفة . ومن مالك معاوية وزيد . ومن زيد عبيد وضبيعة وأمية ومن كلفة جحجبا . ومن مالك بن الأوس الحارث وكعب ابنا الخزرج بن عمرو بن مالك . فمن كعب بنو ظفر . ومن الحارث بن الخزرج حارثة وجشم . ومن جشم بنو عبد الأشهل . ومن مالك بن الأوس أيضا بنو سعد وبنو عامر ابنا مرة بن مالك فبنو سعد الجعادرة . ومن بنى عامر عطية وأمية ووائل بنو زيد بن قيس بن عامر . ومن مالك بن الأوس أيضاً أسلم وواقف ابنا امرئ القيس بن مالك . فهذه بطون الأوس كما ذكر ابن خلدون .

وأما الخزرج فخمسة بطون من كعب وعمرو وعوف وجشم والحارث .

١ — فمن كعب بن الخزرج ، بنو ساعدة بن كعب .

٢ — وعمرو بن الخزرج بنو النجار وهم : تيم الله بن ثعلبة بن عمرو وهم شعوب كثيرة : بنو مالك وبنو عدى

---

(١) الحائر : هو المكان المطمئن الوسط المرتفع الجوانب (٢) نقل الأستاذ ولفنسون فى كتابه تاريخ اليهود فى بلاد العرب هذه القصة عن خلاصة الوفا وقال إنها خرافية لأنه ليس من المعقول أن ملكا يهوديا يرتكب جريمة منكرة كهذه تناقض روح التوراه وتخالف الإيمان بإله موسى دون أن يجد مقاومة عنيفة وإنكارا شديدا من شعبه وأبناء جلدته وقال ومن الغريب أن قصة كهذه تماما قصها الطبرى عن طسم وجديس وأنكر الأستاذ ولفنسون أيضا القصة الأولى الخاصة بمالك بن العجلان بعد أن نقلها عن الأغانى . وعلى كل حال لم يكن اليهود والخزرج على وفاق بل كانوا فى شقاق فى هذه المدة بسبب أن اليهود كانوا أصحاب الأموال والخزرج والأوس لبثوا حينا من الدهر وهم فى عسر .

وبنو مازن وبنو دينار ، كلهم بنو النجار . ومن مالك بن النجار ، مبدول واسمه عامر وغانم وعمرو : ومن عمرو عـدى ، ومعاوية .

٣ — ومن عوف بن الخزرج ، بنو سام والقواقل وهما : عوف بن عمرو بن عوف والقواقل ثعلبة ومرضخة بنو قوقل بن عوف ، ومن سالم بن عوف ، بنو العجلان بن زيد بن عصم بن سالم وبنو سالم بن عوف .

٤ — ومن جشم بن الخزرج بنو غضب بن جشم ويزيد بن جشم . فمن غضب بنو بياضة وبنو زريق وبنو عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب . ومن يزيد بن جشم بنو سلمة بن سعد بن على بن راشد بن ساردة بن يزيد .

٥ — ومن الحارث بن الخزرج ، بنو خدرة وبنو حرام ابنى عوف بن الحارث بن الخزرج .

فلما فعلوا مافعلوا باليهود واعتزوا وكثروا تفرقوا فى عالية يثرب وسافلتها وملكوا أمرها فى حلفهم من جاورهم من قبائل مضر ثم قامت الفتن بين الحيين وكل منهم يستنصر بمن حالفه من مضر واليهود ورحل عمرو بن الإطنابة من الخزرج بن المنذر ملك الحيرة فملكه على الحيرة واتصلت الرياسة فى الخزرج والحرب بينهم وبين الأوس

المداوة بين الأوس والخزرج

كانت أول فتنة وقعت بين الأوس والخزرج « حرب سمير » وذلك أن رجلا حليفاً يقال له كعب فاخر الأوس بشىء فغضب منهم رجل يقال له سمير وشتمه ثم رصده حتى خلا به فقتله فغضب مالك بن عجلان وطلب الرجل من عشيرته فأ نكروا معرفته وعرضوا عليه الدية فقبلها فأرسلوا إليه نصف دية لأن الرجل حليف لانسيب فأبى إلا دية كاملة فامتنعوا ولج الأمر حتى أفضى إلى المحاربة فاقتتلوا مرتين كانت النصرة فى الثانية منهما الأوس فلما افترقوا . أرسلت الأوس إلى مالك أن حكم بيننا المنذر بن حرام النجارى الخزرجى وهو جد حسان بن ثابت فأجابهم إلى ذلك فحكم بأن يؤدى الأوس إلى مالك دية الصريح ثم يعودون إلى سنتهم القديمة فرضوا بذلك وافترقوا وقد شبت البغضاء فى قلوبهم وتمكنت العداوة بين القبيلتين .

ثم إن كعب بن عمرو المازنى الخزرجى تزوج امرأة من بنى سالم فأمر أحيحة بن جلاح رئيس بنى جحجبا من الأوس جماعة أن يرصدوه ويقتلوه ففعلو فدعا أخوه عاصم قبيلته للنصرة فاستعدوا والتقوا هم والأوس واقتتلوا قتالا شديداً فانهزمت بنو جحجبا وانهزم أحيحة فركض وراءه عاصم فأدركه وقد دخل الحصن وأغلقه فرماه بسهم فلم يصبه فقتل أخاً له فعزم أحيحة أن يكبس بنى النجار وكان متزوجاً بامرأة منهم فلم يرضها ذلك وخافت على قومها فسارت إليهم ليلا وقد نام أحيحة بعد سهر طويل وأنذرتهم فلما هم أحيحة إذا هم على سلاحهم فلم يقدر عليهم فضرب امرأته حتى كسر يدها لما بلغه ما فعلت وطلقها .

ثم كانت حرب بين بنى وائل بن زيد من الأوس وبنى مازن بن النجار من الخزرج . وذلك أن الحصين بن الأسلت الأوسى نازع رجلا من بنى مازن وقتله فتبعه قوم من بنى مازن فقتلوه فبلغ ذلك أخاه أبا قيس بن الأسلت فجمع قومه وانضمت الأوس والخزرج كلها فاقتتلوا قتالا شديداً فانهزمت الأوس .

ثم كانت حرب بين بنى ظفر من الأوس وبنى مالك بن النجار من الخزرج ، وذلك أن رجلا من ظفر كان يمر إلى أرضه فى أرض رجل من بنى النجار فمنعه فلم يمتنع فنازعه فقتله الظفرى فاجتمع قومهما واقتتلا فانهزم بنو مالك بن النجار .

ثم إن رجلا من بنى النجار أصاب غلاماً من قضاعة وقتله وكان عم الغلام جاراً لمعاذ بن النعمان الأوسى فطلب معاذ ديته من بنى النجار فامتنعوا فلقيهم بقومه عند فارع أطم[1] حسان بن ثابت ولم يزل القتال بينهم حتى حمل الدية إليه عامر بن الإطنابة فاصطلحوا حالا .

ثم كانت الوقعة المعروفة بحاطب وهو حاطب بن قيس من بنى أمية بن زيد بن مالك بن عوف الأوسى وبينها وبين حرب سمير نحو مائة سنة وكان سبب هذه الحروب أن حاطباً كان رجلا شريفاً سيداً فأتاه رجل من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان فنزل عليه ثم إنه غدا يوماً إلى سوق قينقاع فرآه يزيد بن الحارث المعروف بابن فسحم وهى أمه وهو من بنى الحارث بن الخزرج فقال يزيد لرجل يهودى لك ردائى إن كسعت هذا الثعلبى فأخذ رداءه وكسعه[2] كسعة سمعها من بالسوق فنادى الثعلبى ياحاطب كسع ضيفك وفضح . وأخبر حاطب بذلك فجاء إليه فسأله من كسعه فأشار إلى اليهودى فضربه حاطب بالسيف ففلق هامته فأخبر ابن فسحم الخبر وقيل له قتل اليهودى قتله حاطب ، فأسرع خلف حاطب فأدركه وقد دخل بيوت أهله فلقى رجلا من بنى معاوية فقتله (ولا ندرى السبب الذى دعا ابن فسحم أن يحرض ذلك اليهودى على ضرب الثعلبى فى دبره) فثارت الحرب بين الأوس والخزرج وكان الظفر فيها للخزرج وهذا اليوم من أشهر أيامهم ، وكان بعده عدة وقائع كلها من حرب حاطب فمنها يوم الربيع ، ويوم البقيع ، والفجار ، الأول والثانى ، ويوم بعاث وهو آخر الأيام بينهم .

وفى يوم الفجار الثانى حالفت قريظة والنضير الأوس على الخزرج وجرى بينهم قتال سمى ذلك اليوم يوم الفجار الثانى ، وسبب حرب يوم بعاث هو أن قريظة والنضير جددا العهود مع الأوس على المؤازرة والتناصر واستحكم أمرهم وجدوا فى حربهم ودخل معهم قبائل من اليهود غير من ذكرنا فلما سمعت بذلك الخزرج جمعت وحشدت وأرسلت حلفاءها من أشجع وجهينة وأرسلت الأوس حلفاءها من مزينة ومكثوا أربعين يوما يتجهزون للحرب والتقوا (ببعاث) وهى من أعمال قريظة . وعلى الأوس حضير الكتائب والد أسيد بن حضير وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى وتخلف عبد الله بن أبى ابن سلول فيمن تبعه عن الخزرج . وتخلف بنو حارثة بن الحارث

(١) الأطم : الحصن . (٢) كسعه : ضرب دبره بيده .

عن الأوس . فلما التقوا اقتتلوا قتالا شديداً وصبروا جميعا ، ثم إن الأوس وجدت من السلاح ، فولوا منهزمين نحو العريض فلما رأى حضير هزيمتهم برك وطعن قدمه بسنان رمحه وصاح واعقراه كعقر الجمل والله لا أعود حتى أقتل فإن شئتم يامعشر الأوس أن تسلموني فافعلوا ، فعطفوا عليه وقاتل عنه غلامان من بني عبد الأشهل يقال لهما محمود ويزيد ابنا خليفة حتى قتلا وأقبل سهم لايدرى من رمى به فأصاب عمرو بن النعمان البياضي رئيس الخزرج فقتله فبينا عبد الله بن أبي ابن سلول يتردد راكبا قريبا من بعاث يتجسس الأخبار إذ طلع عليه بعمرو بن النعمان قتيلا فى عباءة يحمله أربعة رجال كما كان قال له . فلما رآه قال ذق وبال البغى . وانهزمت الخزرج ووضعت فيهم الأوس السلاح فصاح صائح يامعشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم وإنما سلبهم قريظة والنضير وحملت الأوس حضيرا مجروحاً فمات وأحرقت الأوس دور الخزرج ونخيلهم فأجار سعد بن معاذ الأشهلي أموال بنى سلمة ونخيلهم ودورهم جزاء بما فعلوا له فى الرعل ، ونجّى يومئذ الزبير بن إياس بن باطا ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي أخذه فجز ناصيته وأطلقه ، وهى اليد التى جازاه بها ثابت فى الإسلام يوم بنى قريظة .

الخلاصة

تبين لنا من تاريخ الخزرج والأوس أنهما ابنا حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء الذى خرج من اليمن بعد تفرق أهل سبأ بسيل العرم وأن هذا السيل ليس خرافة بل حدث مراراً وخرب السد فتفرقت البلاد .

وقد لبثت الخزرج والأوس حيناً من الدهر مع اليهود يحيون الأرض الموات ويزرعونها وهم فى عسر شديد وكان اليهود هم أرباب الأموال فحدث نزاع وشجار بينهم وبين اليهود وهو أشبه شىء بالثورات التى حدثت بين المزارعين أو العمال والمتمولين فى القرون الأخيرة .

ثم نشبت حروب بين الأوس والخزرج فتارة كان النصر فيها للخزرج وأخرى للأوس وكان الظفر فى أكثرها للخزرج . وأخيراً حالفت قريظة والنضير الأوس على الخزرج وانضم بنو قينقاع إلى الخزرج على أن تلك الحروب الطاحنة بين القبيلتين الأختين كان سببها ـ بناء على ما وصل إلينا من تاريخها ـ حزازات شخصية كان فى الإمكان ملافاتها . لكن العداء اشتد بينهما لما فى طبيعة العرب من التمسك بالأخذ بالثأر . وقد بلغت العداوة بين الخزرج والأوس مبلغاً عظيما قبل هجرة النبى ﷺ إلى المدينة . وآخر الحروب بينهم يوم بعاث الذى هزم فيه الخزرج وكان حوالى سنة ٦١٦ م فلما سئموا القتال أجمعوا على تتويج عبد الله بن أبى ابن[1] سلول ملكا عليهم وابن سلول هذا هو الملقب برأس المنافقين وكان رئيس الخزرج ولما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصراً على النفاق والضغن فكان رأس المنافقين وإليه يجتمعون . وقد حسد النبى لأن الإسلام منع تتويجه وأخذته

(١) يقال عبد الله بن أبى ابن سلول بتنوين أبى ، وكتابة ابن سلول بالألف ، ويعرب إعراب عبد الله لأنه صفة له لا لأبى .

العزة فأضمر الشر وهو الذى قال فى غزوة المصطلق ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ فقال ابنه عبد الله للنبى هو والله الذليل وأنت العزيز يارسول الله إن أنت أذنت لى فى قتله قتلته فوالله لقدعلمت الخزرج ما كان بها أحد أبر بوالده منى . ولكنى أخشى أن تأمر به رجلا مسلماً فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى على الأرض حياً حتى أقتله . فقال صلى الله عليه وسلم : بل نحسن صحبته ونترفق به ما صحبنا ولا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولكن بر أباك وأحسن صحبته .

ولما أنعم الله على الخزرج والأوس بنعمة الإسلام اتفقت الكلمة واجتمع الشمل وتآخى الفريقان فوحد رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمهما ولقبهما بالأنصار لأنهم نصروه . وتوحيد الاسمين تحت راية الإسلام كان له أعظم أثرفى النفوس ؛ إذبذلك امتنع الشقاق وتصافت النفوس وساروا جميعاً نحو غرض واحد ومبدأ واحد وهو نشر الإسلام

جاء فى دائرة المعارف الإسلامية فى مادة أنصار (Ansar) : « لكن أن محمداً أراد أن يشابه بين كلمة الأنصار والنصارى المطلقة على المسيحيين » وهذا خطأ واضح لأن كلمة أنصار جمع نصير أما نصارى فنسبة إلى قرية بالشام تسمى ناصرة أو نصران وفوق ذلك فإن سبب تسمية الخزرج والأوس بالأنصار معروف وهو لأنهم نصروه صلى الله عليه وسلم وقد جل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التشبه والتقليد .

مدينة يثرب

سميت يثرب بعد الإسلام بالمدينة ، مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى عبارة عن جملة قرى تقع فى سهل خصب وبينها وبين مكة ٢٠٠ ميل وهى فى شمالها . جاء فى معجم البلدان لياقوت « إن لهذه المدينة تسعة وعشرين اسماً » ثم سردها . وكذا أحصى المجد الشيرازى اللغوى نحو ثلاثين اسما وذكر السمهودى فى كتاب (وفاء الوفا) أربعة وتسعين اسماً وقال إن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ونقل ابن زبالة أن عبد العزيز بن محمد الدراوردى قال : بلغنى أن للمدينة فى التوراة أربعين اسماً .

فمن أسمائها أثرب كمسجد ويثرب : قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ والبلد . قال تعالى ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ ودار الهجرة والسنة وطيبة وطابة وقرية الأنصار ومدينة الرسول ومضجع الرسول وأكالة البلدان والمباركة والمسكينة والعذراء والبارة والفاضحة[1] .

أما قدرها فهى فى مقدار نصف مكة وهى فى حرة سبخة ولها نخيل كثير ومياه ، ونخيلهم وزروعهم تسقى من الآبار عليها العبيد وللمدينة سور والمسجد فى نحو وسطها وقبر النبى ﷺ فى شرق المسجد وهو بيت مرتفع وليس بينه

---

(١) لأن من أضمر فيها شيئا من السوء أظهر الله ما أضمره وافتضح به .

وبين سقف المسجد إلا فرجة وهو مسدود لا باب له وفيه قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبر أبي بكر وقبر عمر والمنبر الذى كان يخطب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غشى بمنبر آخر والروضة أمام المنبر بينه وبين القبر ومصلاه صلى الله عليه وسلم الذى كان يصلى فيه الأعياد فى غربى المدينة داخل الباب .

و (بقيع الغرقد) خارج المدينة من شرقيها وهو مدفن أكثر أمواتها [1] و (قُباء) خارج المدينة على نحو ميلين إلى مايلى القبلة وهى شبيهة بالقرية و (أُحد) جبل فى شمال المدينة وهو أقرب الجبال إليها مقدار فرسخين وبقربها مزارع ونخيل وضياع لأهل المدينة (وادى العقيق) فيما بينها وبين الفرع و (الفُرع) من المدينة على أربعة أيام فى جنوبها. وبها مسجد جامع غير أن أكثر هذه الضياع خراب وكذلك حوالى المدينة ضياع كثيرة أكثرها خراب . وأعذب مياه تلك الناحية آبار العقيق .

وحرم رسول الله ﷺ شجر المدينة بريداً فى بريد من كل ناحية ورخص فى الهش وفى متاع الناضح ونهى عن الخبط (ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها) وأن يعضد ويهصر . ولم تكن المدينة بلداً خصباً مثمراً ، إنما كان بها بعض النخيل والماشية ومن خصائص المدينة أنها طيبة الريح وللعطر فيها فضل رائحة لا توجد فى غيرها و تمرها الصيحانى لا يوجد فى بلد من البلدان مثله ولهم حب اللبان ومنها يحمل إلى سائر البلدان . وجبلها أحد قد فضله رسول الله ﷺ فقال « أحد جبل يحبنا ونحبه وهو على باب من أبواب الجنة » وحجارة أحد من الجرانيت .

المسافات . من المدينة إلى مكة نحو عشر مراحل [2] ومن الكوفة إلى المدينة نحو عشرين مرحلة وطريق البصرة إلى المدينة نحو من ثمانى عشرة مرحلة ويلتقى مع طريق الكوفة بقرب معدن النقرة ومن الرقة إلى المدينة نحو من عشرين مرحلة . ومن البحرين إلى المدينة عن طريق الساحل .

ولما قدم رسول الله المدينة وجد أهلها من أخبث الناس كيلا فأنزل الله تعالى « ويل للمطففين الآية » فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

مرض المهاجرين بحمى المدينة

حاول رؤساء قريش منع المسلمين من الهجرة إلى المدينة لكنهم استطاعوا الهجرة بعد بضعة أسابيع وقد اعتاد المهاجرون جو مكة الجاف فلما قدموا المدينة أصيب أكثرهم بالحمى وربما كانت انفلونزا أو ملاريا لأن صيفها رطب وشتاءها قارس والمطر دائم تقريباً . قالت عائشة « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وهى أول أرض أصاب أصحابه منها بلاء وسقم . وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ وأصابت الحمى أبا بكر وبلالاً وعامر بن فهيرة . فاستأذنت

(١) وبه قبر إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم وقبر الحسن بن على بن أبي طالب وإلى جانبه قبر العباس وقبر عثمان وقبر مالك بن أنس إمام المذهب المعروف . (٢) تبلغ الرحلة عشرين ميلا .

رسول الله ﷺ فى عيادتهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب من شدة الحمى فأذن لى فدخلت عليهم وهم فى بيت واحد فوجدتهم يهذون من شدة الحمى فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت فنظر إلى السماء وقال : « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ،اللهم بارك لنافى صاعنا ومدنا وصححها لنا وانقل حماها إلى الجحفة»[1] فاستجاب الله له فطيب هواءها وترابها وسكنها والعيش بها ، وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى أنشد :

كل امرئ مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

وهذا من شعر حنظلة بن يسار وليس من شعر أبى بكر . وحمى المدينة كانت الملاريا لما كان يحيط بها من البرك والآبار حتى إن الجمال كانت تمرض من الشرب منها وكانت قريش تعيب على أهل يثرب ما يعتريهم من الحمى وتسلط اليهود عليهم وتسمى الحمى (أم ملدم) قال رسول الله لزيد الخيل وكان قد أتى مع وفد طيئ وأسلم « يازيد تقتلك أم ملدم » يعنى الحمى فأصيب بها أثناء الطريق عند عودته ومات بها .

مسجد رسول الله ﷺ

قال ابن عمر كان بناء المسجد على عهد رسول الله ﷺ وسقفه جريد وعمده خشب النخل فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً فزاد فيه عمر وبناه على ما كان من بنائه ثم غيره عثمان وبناه بالحجارة المنقوشة والفضة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه ساجا وزاد فيه .

وفى الصحيح فى ذكر بناء المسجد : وكنا نحمل لبنة لبنة وعمار[2] لبنتين لبنتين فرآه النبى ﷺ فجعل ينفض التراب عنه ويقول « ويح عمار تقتله الفئة الباغية » .

وروى البيهقى فى الدلائل عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال لما بنى النبى ﷺ المسجد وضع حجراً ثم قال ليضع أبو بكر حجره إلى حجرى ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبى بكر ثم ليضع عثمان حجره إلى جنب حجر عمر . فقال رسول الله ﷺ هؤلاء الخلفاء من بعدى .

وعن مكحول قال : لما كثر أصحاب رسول الله ﷺ قالوا اجعل لنا مسجداً فقال خشبات وثمامات عريش كعريش أخى موسى صلوات الله عليه . الأمر أعجل من ذلك . ورواه رزين وزاد فيه : فطفقوا ينقلون اللبن وما يحتاجون إليه ورسول الله ﷺ ينقل معهم الخ (الثمامات مايبس من الأغصان) .

وكان الذين أسسوا المسجد جعلوا طوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع وجعل قبلته إلى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب ، باب فى مؤخره وهو فى جهة القبلة إلى اليوم وباب عاتكة الذى يدعى باب عاتكة ويقال له

---

(١) الجحفة قرية قريبة من رابغ محل إحرام من يجيء من جهة مصر حاجا وكان سكانها إذ ذاك من اليهود .

(٢) هو عمار بن ياسر وقد قتل يوم صفين وكان يحارب مع على بن أبى طالب وقد جاوز التسعين .

باب الرحمة . والباب الذى كان يدخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو باب آل عثمان اليوم وهذان البابان لم يغيرا بعد أن صرفت القبلة ، ولما صرفت القبلة سد رسول الله صلى الله عليه وسلم الباب الذى كان خلفه وفتح هذا الباب ومحاذيه هذا الباب الذى سد .

ولما بنى رسول الله مسجده ، بنى بيتين لزوجتيه عائشة وسودة رضى الله عنهما على نعت بناء المسجد من اللبن وجريد النخل ، وكان لبيت عائشة مصراع واحد من عرعر (شجر السرو) أو ساج . ولما تزوج رسول الله نساءه بنى لهن حجراً وهى تسعة أبيات وذلك فى أوقات مختلفة . وحجر أزواج النبى ﷺ ليست من المسجد ولكن أبوابها شارعة فى المسجد .

وكان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع يتكىء عليه فقالت امرأة من الأنصار أو رجل يارسول الله ألا نجعل لك منبراً ؟ قال إن شئتم ، فجعلوا له منبراً . ولما فارق رسول الله الجذع وصعد المنبر ، حنّ الجذع وسمع له صوت كصوت العشار فقال النبى ﷺ ألا تعجبون من حنين هذه الخشبة ؟ فأقبل الناس عليها فسمعوا من حنينها حتى كثر بكاؤهم فنزل إليه رسول الله ﷺ فضمه فسكن .

وفى صحيح البخارى عن ابن عمر . قال كان النبى ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه فحنّ الجذع فأتاه فمسح بيده عليه .

ولا شك أن حنين الجذع من معجزاته ﷺ وحديث الجذع مشهور رواه من الصحابة بضعة عشر . وكان المنبر من خشب الأثل ومن درجتين وله مجلس .

وذكر ابن بطوطة فى رحلته « الجذع » فقال :

« دخلنا الحرم الشريف وانتهينا إلى المسجد الكريم فوقفنا بباب السلام مسلمين وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذى حنّ إلى رسول الله ﷺ وهى ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة » وقال عند ذكر القبر الكريم :

« وفى الحديث أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع نخلة بالمسجد فلما صنع له المنبر وتحول إليه ، حن الجذع حنين الناقة إلى حوارها . وروى أن رسول الله ﷺ نزل إليه فالتزمه فسكن وقال لو لم ألتزمه لحن إلى يوم القيامة . واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم فروى أن تميما الدارى رضى الله عنه هو الذى صنعه . وقيل إن غلاما للعباس رضى الله عنه صنعه . وقيل غلام لامرأة من الأنصار وورد ذلك فى الحديث الصحيح وصنع من طرفاء الغابة وقيل من الأثل وكان له ثلاث درجات فكان رسول الله ﷺ يقعد على علياهن ويضع رجليه الكريمتين فى وسطاهن . فلما ولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، قعد على وسطاهن ووضع رجليه على أولاهن . فلما ولى عمر رضى الله عنه جلس على أولاهن ووضع رجليه على الأرض . وفعل ذلك عثمان رضى الله عنه

صدراً من خلافته ثم ترقى إلى الثالثة ولما أن صار الأمر إلى معاوية رضى الله عنه أراد نقل المنبر إلى الشام فضج المسلمون فلما رأى ذلك معاوية ، تركه وزاد فيه ست درجات من أسفله فبلغ تسع درجات » .

ولما حج المهدى بن المنصور العباسى سنة ٢٦١ أراد أن يعيده إلى ما كان عليه فأشار عليه الإمام مالك بتركه خشية التهافت فتركه . ويقال إن المنبر الذى صنعه معاوية ورفع منبر النبى ﷺ عليه ، تهافت على طول الزمان وجدده بعض خلفاء بنى العباس واتخذ من بقايا أعواد منبر النبى ﷺ أمشاطاً للتبرك ثم احترق هذا المنبر لما احترق المسجد فى مستهل رمضان سنة ٦٥٤ أيام المستعصم بالله واشتغل المستعصم عن عمارته بقتال التتار فعمل المظفر صاحب اليمن المنبر وبعث به إلى المدينة سنة ٦٥٦ فنصب فى موضع منبر النبى ﷺ فبقى إلى سنة ٦٦٦ (١) .

تزويج النبى ﷺ
بعائشة رضى الله عنهـــا

عائشة رضى الله عنها هى بنت أبى بكر الصديق وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر . ولدت فى السنة الثامنة أو التاسعة قبل الهجرة (٦١٣ ـ ٦١٤ م) أسلمت صغيرة وتزوجهـــا رسول الله ﷺ بمكة فى شهر شوال قبل الهجرة ودخل بها فى المدينة فى منزل أبى بكر بالسنح بعد الهجرة بثمانية أشهر فى شهر شوال وكان صداقها أربعمائة درهم وكانت أحب نسائه إليه وكنيتها أم عبد الله . كنيت بابن أختها أسماء وهى أم عبد الله بن الزبير وكان يدعوها أمًّا لأنه تربى فى حجرها وروت عن النبى ﷺ أكثر من ألف حديث وكانت من أكبر النساء عقلا . فصيحة الكلام صحيحة المنطق ، تحفظ كثيراً من القصائد ، كريمة لا تدخر شيئا . أحفظ أهل زمانها للحديث وقد روت عنها الرواة من الرجال والنساء .

وأثبت بعض المؤرخين أن عائشة كان لديها نسخة من القرآن (٢) ، وقبض رسول الله وهى بنت ثمانى عشرة ولم يتزوج بكراً غيرها وقبض رسول الله ورأسه فى حجرها ودفن فى بيتها وتوفيت سنة سبع وخمسين للهجرة ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان (١٣ يوليه سنة ٦٧٨ م) وقد قاربت سبعاً وستين سنة وصلى عليها أبو هريرة بالبقيع ودفنت ليلا وذلك زمن ولاية مروان بن الحكم على المدينة فى خلافة معاوية وكان مروان استخلف أبا هريرة لما ذهب إلى العمرة فى تلك السنة .

روى القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : فضلت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بعشر خصال : تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكراً دون غيرى . وأبواى مهاجران . وجاء جبريل عليه السلام

(١) صبح الأعشى الجزء الرابع ص ٢٨٨ .

(٢) راجع دائرة المعارف الإسلامية تحت اسم عائشة (Aisha) .

بصورتى فى حريرة . وأمره أن يتزوج بى . وكنت أغتسل معه فى إناء واحد . وجبريل عليه السلام ينزل عليه بالوحى وأنا معه فى لحاف واحد . وتزوجنى فى شوال وبنى بى فى ذلك الشهر . وقبض بين سحرى ونحرى وأنزل الله تعالى عذرى من السماء ودفن فى بيتى ، وكل ذلك لم يساونى غيرى فيه[١] .

صرف القبـــــلة

عن بيت المقدس إلى الـكعبة

١٥ شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة (نوفمبر سنة ٦٢٣)

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً وكان تحب أن يصرف إلى الـكعبة لما بلغه أن اليهود قالوا : يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا فقال ياجبريل : وددت أن الله صرف وجهى عن قبلة يهود . فقال جبريل إنما أنا عبد فادع ربك وسله ، وجعل إذا صلى إلى بيت المقدس يرفع رأسه إلى السماء ينتظر أمر الله لأن السماء قبلة الدعاء ، فنزلت عليه : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ فوجه إلى الـكعبة إلى الميزاب . ويقال صلى رسول الله ﷺ ركعتين من الظهر فى مسجده بالمسلمين ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام فاستدار إليه ودار معه المسلمون . ويقال بل زار رسول الله ﷺ أم بشر بن البراء بن معرور فى بنى سلمة فصنعت له طعاماً وحانت الظهر فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتين ثم أمر أن يتوجه إلى الـكعبة فاستدار إلى الـكعبة واستقبل الميزاب فسمى المسجد مسجد القبلتين وذلك يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس ثمانية عشر شهراً[٢] قال الجمهور الأعظم ، إنما صرفت فى النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة . وفى البخارى بينا الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه قرآن وقد أمر أن يستقبل الـكعبة فاستقبلوها فاستداروا إلى الـكعبة .

قال تعالى : ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهذا رد على اليهود والمنافقين الذين ساءهم ذلك . وعن يزيد النحوى عن عكرمة والحسن البصرى قال : أول ما نسخ من القرآن ، القبلة

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى الجزء الرابع صفحة ٦٥٦ .
(٢) راجع طبقات ابن سعد . .

الأذان

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أراد أن يجعل شيئاً يجمع به النـاس للصلاة فذكر عنده البوق وأهله وذكر الناقوسُ وأهله ، فكره حتى أرى رجل من الأنصار يقال له (عبد الله بن زيد [1]) الأذان وأريه عمر بن الخطاب تلك الليلة فأما عمر فقال إذا أصبحت أخبرت رسول الله ﷺ وأما الأنصارى ـ فطرق رسول الله ﷺ فى الليلة فأخبره وأمر رسول الله ﷺ « بلالا » فأذن بالصلاة وذكر أذان الناس اليوم . قال : فزاد بلال فى الصبح « الصلاة خير من النوم » فأقرها ـ رسول الله ﷺ وليست فيما رأى الأنصارى وله ﷺ من المؤذنين بلال وابن أم مكتوم بالمدينة ، وبلال أول من أذن فى الإسلام وأذن فى جامع عمر بن الخطاب بالقدس ومات بدمشق . وكان الأذان فى السنة الأولى من الهجرة بعد مابنى رسول الله مسجده . أما تخصيص الأذان برؤيا رجل ولم يكن بوحى فلما فيه من التنويه بالنبى صلى الله عليه وسلم والرفع لذكره إذا كان على لسان غيره كان أرفع لذكره . ويقال إن الوحى قد سبق الرؤيا .

والأذان لغـة : الإعـلام وهو مصدر أذن تأذيناً . وشرعاً ، إعلام مخصوص على وجه مخصوص بألفاظ مخصوصة . وهو سنة مؤكدة للرجال فى مكان عال . للفرائض الخمس فى وقتها ولو قضاء لالغيرها ، والمؤذنون الآن يتنغمون فى الأذان وليس ذلك من السنة ولا المستحب . والمطلوب تحسين الصوت بمـا لا تخرج ألفاظه عن المشروع . كذلك زادوا فيه ماليس منه !

فرض صيام شهر رمضان

وزكاة الفطـر

لما نقل العرب أسماء الشهور عن اللغة القديمة ، سموها بالأزمنة التى هى فيها . فوافق رمضان. أيام رمض الحر أى شـدته وقد نزل فرض صيام شهر رمضان بعد ماصرفت القبلة فى شعبان على رأس ثمـانية عشر شهراً من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعـالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ الآية وقال عز وجل ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ فأثبت صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر وأثبت الإطعام للـكبير الذى لايستطع الصيام .

---

(١) عبد الله بن زيد بن ثعلبة يكنى أبا محمد . شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . أتى عبد الله بن زيد رسول الله فقال يارسول الله إنه طاف بى طائف فى هذه الليلة . مر بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً فى يده ، فقلت ياعبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ فقال وما تصنع به قلت ندعو به إلى الصلاة قال ، ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت وما هو ؟ قال تقول : « الله أكبر . الله أكبر . أشهد أن لاإله إلا الله . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . أشهد أن محمداً رسول الله . حى على الصلاة . حى على الصلاة . حى على الفلاح . حى على الفلاح . الله أكبر الله أكبر . لاإله إلا الله » .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان عاشوراء يوماً تصومه قريش فى الجاهلية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه موافقة لهم ولم يأمر أحدا من أصحابه بصيامه ، فلما قدم المدينة [1] صامه وأمر بصيامه فلما فرض رمضان كان رمضان هو الفريضة وترك عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه » وكان يهود المدينة يصومونه ويعظمونه لأن الله أنجى فيه موسى وقومه من الغرق وأغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكراً لله وصامه رسول الله وأمر بصيامه قائلا : نحن أحق بموسى منكم ، وفى رواية أنا أولى بموسى . ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من المحرم .

وركن الصيام الإمساك عن المفطرات وأمر فى هذه السنة بزكاة الفطر وذلك قبل أن تفرض الزكاة فى الأموال وكان يخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الفطر بيومين فيأمر بإخراجها قبل أن يذهب إلى المصلى وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة عشر سنين يضحى فى كل عام . وكان يضحى بكبشين سمينين أقرنين أملحين أحدهما عن أمته والآخر عن نفسه وآله ، فيأكل هو وأهله منهما ويطعم المساكين .

فريضة الزكاة

الزكاة ركن من أركان الإسلام الخمس وقد فرضت فى السنة الثانية من الهجرة : قال رسول الله ﷺ « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وإقام الصلاة . وإيتاء الزكاة وصوم رمضان . وحج البيت من استطاع إليه سبيلا » .

وقال تعالى : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وقال : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ وقال ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقال عليه الصلاة والسلام : (أدوا زكاة أموالكم) .

وإيجاب الزكاة علاج لإزالة مرض حب الدنيا عن القلب . ومانع من طغيان الأغنياء . قال تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾

وإخراج الزكاة يحبب الأغنياء إلى الفقراء والمساكين فيزول عنهم الحقد والحسد والسخط . والمال الفاضل إذا أمسكه الإنسان صار معطلا : فيجب صرف طائفة منه إلى الفقير لإصلاح شأنه . وهذا من أعظم نعم الإسلام ومحاسنه. وقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ يثبت للإمام حق الأخذ من كل مال وكذلك كان رسول الله ﷺ

(١) من سفرة سافرها من المدينة بعد الهجرة .

والخليفتان بعده يأخذون الزكاة من الناس ويوزعونها على المحتاجين إلى أن فوض عثمان بن عفان رضى الله عنه فى خلافته أداء الزكاة من الأموال الباطنة إلى ملاكها . إلا أن هذا لا يسقط طلب الإمام أصلا . ولذا لو علم أن بلدة لا يؤدون زكاتهم طالبهم بها . والسواد الأعظم من الأغنياء لا يؤدون الزكاة من تلقاء أنفسهم ، فاشتدت حالة الفقراء كرباً وحرجاً وحنقوا على الأغنياء وامتدت إليهم أيديهم بالقتل والسرقة . لذلك نرى الخير كل الخير فى أن تجبى الحكومة الزكاة المفروضة وتنفقها فيما يصلح شأن الفقراء من إيوائهم وإطعامهم وكسوتهم وعلاجهم وتعليمهم بدلا من تركهم يعانون آلام الفاقة من جوع وعرى ومرض وتشريد واعتناق للمبادئ الاشتراكية المتطرفة التى نشأت من الخلاف القائم بين الأغنياء والفقراء .

فعلى الحكومات الإسلامية الرجوع إلى نظام الزكاة وجبايتها لمصلحة المعوزين ولاستتباب الأمن ، أما ترك الأغنياء لضمائرهم فى إخراج الزكاة فهو تعطيل لها وإبطال لحكمتها .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه قبل هجرته بالهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسالا فكان أولهم قدوماً إليها أبو سلمة بن عبد الأسد وعامر بن ربيعة وعبد الله بن جحش وبعد قدومه صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بخمسة أشهر آخى بين المهاجرين والأنصار لتذهب عنهم وحشة الغربة وليؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد بعضهم أزر بعض . وقد آخى بينهم على الحق والمواساة ويتوارثون بعد الممات دون ذوى الأرحام وكانوا تسعين رجلا خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار ، ويقال كانوا مائة وخمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار وكان ذلك قبل بدر فلما كانت وقعة بدر وأنزل الله تعالى ﴿ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ نسخت هذه الآية ما كان قبلها وانقطعت المؤاخاة فى الميراث ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه . وإنا لنذكر هنا بعض من آخى بينهم :

أخذ رسول الله بيد علىّ بن أبى طالب فقال هذا أخى .

أبو بكر الصديق وخارجة بن زيد بن أبى زهير الأنصارى[1] . عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الأنصارى . جعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل الأنصارى . حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة . أبو عبيدة الجراح وسعد ابن معاذ الأنصارى . عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصارى . الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة الأنصارى . طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك الأنصارى . عثمان بن عفان وأوس بن ثابت الأنصارى . سعيد بن زيد

(١) كان خارجة بن زيد صهراً لأبى بكر وكانت ابنته حبيبة تحت أبى بكر وقتل خارجة يوم أحد شهيداً .

وأبى بن كعب الأنصارى . مصعب بن عمير وأبو أيوب الأنصارى . أبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر الأنصارى . عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان العنسى الأنصارى . حاطب بن أبى بلتعة وعويم بن ساعدة الأنصارى . سلمان الفارسى وأبو الدرداء الأنصارى . أبو ذر الغفارى والمنذر بن عمرو الأنصارى . أبو سبرة بن أبى رهم وسلامة بن وقش الأنصارى . خباب بن الأرت وتميم مولى خراش بن الصمة . صفوان بن وهب ورابع بن العجلان . صهيب بن سنان والحارث بن الصمة . عن الله بن مخرمة وفروة بن عمرو بن ورقة . مسعود بن ربيعة وعبيد بن التيهان . معمر بن الحارث بن معمر ومعاذ بن عفراء ، واقد بن عبد الله بن عبد مناف وبشر بن البراء . زيد بن الخطاب ومعن بن عدى . الأرقم بن أبى الأرقم وطلحة بن زيد .

قال المهاجرون يارسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلا فى كثير . كفونا المؤونة وأشركونا فى المهنة حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال لا ، ما أثنيتم عليهم ودعوتم لهم ، أى فإن ثناءكم عليهم ودعاءكم لهم حصل منكم به نوع مكافأة . قال تعالى يثنى على الأنصار فى سورة الحشر : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

المراد من الدار فى هذه الآية ، المدينة وهى دار الهجرة تبوأها الأنصار قبل المهاجرين .

ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا أى حسداً وحزازة وغيظاً مما أوتى المهاجرون دونهم .

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . يقال آثره بكذا إذا خصه به . ومفعول الإيثار محذوف والتقدير ، ويؤثرون بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم .

عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للأنصار ، إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم ، وإن شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم ، فقالوا : لا . بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم فى الغنيمة . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

فالأنصار أكرموا المهاجرين إكراماً عظيما ليدفعوا عنهم غوائل الحاجة فكانوا يحرمون أنفسهم لمساعدة إخوانهم فى الإسلام على حداثة عهدهم به حتى صاروا مثلا يضرب للتعاون وحسن الخلق .

إسلام عبد الله بن سلام بن الحارث

الإسرائيلى

كان عبد الله بن سلام كما قال بعض أهله عنه حبراً عالماً . قال سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف له فكنت مسراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فلما نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت . فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيبك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً مازدت ، قال قلت لها أى عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به . فقالت أى ابن أخى أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ قلت لها نعم . قالت فذاك إذن . قال ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا وكتمت إسلامى من يهود . ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله إن يهود قوم بهت[1] وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك فتغيبنى عنهم ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى بإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى . فأدخلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض بيوته ودخلوا عليه فكلموه وسألوه ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا . قال فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم يامعشر يهود اتقوا الله واقبلوا ماجاءكم به فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة باسمه وصفته فإنى أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه . قالوا كذبت ثم وقعوا بى فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألم أخبرك يانبى الله أنهم بهت أهل غدر وكذب ؟ قال فأظهرت إسلامى وسلام أهل بيتى وأسلمت عمتى خالدة ابنة الحارث فحسن إسلامها[2] .

***

وذكرت دائرة المعارف الإسلامية أنه كان من يهود المدينة واسمه الحصين وسماه النبى ﷺ عبد الله لما أسلم وأنه توفى سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ — ٦٦٤ م) .

وقد كان عبد الله بن سلام حليفاً لبنى الخزرج كنيته أبو يوسف كنى بابنه وهو من قينقاع وكان اسمه فى الجاهلية حصينا ونزل فى فضله قوله تعالى ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ وقول الله تعالى ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾[3]

(١) قال ابن الأثير هو جمع بهوت من بناء المبالغة فى البهت مثل صبور وصبر ثم يسكن تخفيفا . والبهت التحير . قال أبو إسحاق البهتان الباطل الذى يتحير من بطلانه وهو من البهت : التحير ، والألف والنون زائدتان .

(٢) راجع الجزء الثانى من السيرة النبوية لابن هشام . (٣) راجع كتاب تهذيب الأسماء ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ طبع أوربا

وفى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه . فقال : إنى أسألك عن ثلاث لايعلمهن إلا نبى . قال : ماأول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ومن أى شىء ينزع الولد إلى أبيه ومن أى شىء ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله ﷺ خبرنى بهن آنفاً جبريل . قال : فقال عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة فقال رسول الله ﷺ . أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت[1] . وأما الشبه فى الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها . قال أشهد أنك رسول الله . الحديث .

قال الطابرى مات (عبد الله بن سلام) فى قول جميعهم بالمدينة سنة ثلاث وأربعين .

عداء اليهود ومناقشاتهم

عُرف بعض اليهود بالمدينة بشدة عداوتهم لرسول الله ﷺ مع أن علماءهم كانوا يعرفون أنه سيبعث نبى وكانوا يعرفون صفاته من التوراة ، فمن أعدائه الذين انتصبوا لعداوته حُيى وأبو ياسر . وسلام بن مشكم . وكنانة بن الربيع وكعب بن الأشراف . وعبد الله بن صوريا وابن صلوبا ، ومخيريق الذى أسلم بعد ، ولبيد بن الأعصم الذى حرضه اليهود وسحر النبى ﷺ ثم جاء جبريل وأخبر بذلك السحر وبمكانه وعفا عنه رسول الله ﷺ ، وقال أما أنا فقد عافانى الله وكرهت أن أثير على الناس شراً (يعنى بقتله) .

ومنهم مالك بن الصلت . وقد كان من أحبار اليهود ورئيساً فإنه قال ما أنزل الله على بشر من شىء ، فانظر كيف أدى به عداوه لرسول الله ﷺ إلى الكفر بنبينا وبموسى عليهما السلام وبما أنزل عليهما . فقالت اليهود له ما هذا الذى بلغنا عنك ؟ فقال إنه أغضبنى فقلت ذلك فنزعوه من الرياسة وجعلوا مكانه كعب بن الأشراف .

وممن كان من أحبار اليهود حريصاً على رد الناس عن الإسلام شاس بن قيس اليهودى . كان شديد الطعن على المسلمين ، شديد الحسد لهم . مرَّ يوماً على الأنصار : الأوس والخزرج وهم مجتمعون يتحدثون فغاظه ما رأى من ألفتهم بعد ما كان بينهم من العداوة . فقال : قد اجتمع بنو قيلة والله مالنا معهم إذا اجتمعوا من قرار . فأمر فتى شابا من اليهود فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث : أى الحرب التى كانت بينهم وما كان فيه وأنشدهم ما كانوا يتقاولون به من الأشعار ، ففعل فتكلم القوم عند ذلك وذكر كل أقوال شاعرهم وتنازعوا وتواعدوا على المقاتلة فنادى هؤلاء : ياآل الأوس ونادى هؤلاء : ياآل الخزرج ثم خرجوا للحرب وقد أخذوا السلاح واصطفوا للقتال .

---

(١) هى قطعة متعلقة بالكبد وهى أطيبه . قيل هى أهنأ طعام وأمرؤه .

فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ خرج إليهم فيمن كان معه من المهاجرين فقال يامعشر المسلمين الله الله اتقوا الله . أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس الرجال من الخزرج ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين . وأنزل الله فى شاس بن قيس ﴿ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ وأنزل الله فى الأنصار ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ . (سورة آل عمران)

وقد كان اليهود يسألون النبى صلى الله عليه وسلم عن أشياء تعنتاً وحسداً وبغياً ليلبسوا الحق بالباطل . فجاءه رجلان يهوديان إلى رسول الله فسألاه عن قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ ﴾ . فقال لهما : لاتشركوا بالله شيئاً . ولا تزنوا . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ولا تسرقوا ولا تسحروا . ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان . ولا تأكلوا الربا . ولا تقذفوا المحصنة ، وعليكم يايهود خاصة ألا تعدوا فى السبت . فقبلا يديه ورجليه . وقالا نشهد أنك نبى . قال مايمنعكما أن تسلما ؟ فقالا : نخاف إن أسلمنا تقتلنا اليهود .

وسألوه صلى الله عليه وسلم مرة . فقالوا : أخبرنا عن علامة النبى . فقال : « تنام عيناه ولا ينام قلبه » .

وسألوه أى طعام حرمه إسرائيل على نفسه قبل أن تنزل التوراة . قال : أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر لئن شفاه الله تعالى من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه . فكان أحب الطعام إليه لحم الإبل ، وأحب الشراب إلينا ألبانها . قالوا اللهم نعم .

وقالوا مرة إغاظة له صلى الله عليه وسلم مايرى لهذا الرجل همة إلا فى النساء والنكاح فلو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ فقد جاء أن سليمان عليه السلام كان له مائة امرأة وتسعمائة سرية .

وقد انضم إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج منافقون على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث إلا أنهم دخلوا فى دين الإسلام خشية القتل لما قهرهم الإسلام بظهوره واجتماع قومهم عليه فكان هواهم مع اليهود فى السر وفى الظاهر مع المسلمين وهؤلاء هم المنافقون. وقد ذكر بعضهم أن المنافقين الذين كانوا على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة . منهم عبد الله بن أبى بن سلول وهو رأس المنافقين ولاشتهاره بالنفاق لم يعد فى الصحابة . وكان من أعظم أشراف أهل المدينة وكانوا قبل مجيئه صلى الله عليه وسلم قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه. وكان عبد الله بن أبى جميل الصورة ممتلىء الجسم فصيح اللسان وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ .

مثال من نفاق ابن أبى .

من نفاقه ما أخرجه الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال نزلت : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية فى عبد الله بن أبى وأصحابه وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من الصحابة . فقال ابن أبى انظروا كيف أرد عنكم هؤلاء السفهاء فأخذ بيد أبى بكر رضى الله عنه ، فقال : مرحباً بالصديق سيد بنى تيم وشيخ الإسلام وثانى رسول الله فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ثم أخذ بيد عمر رضى الله عنه وقال : مرحباً بسيد بنى عدى الفاروق والقوى فى دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله . ثم أخذ بيد على رضى الله عنه فقال : مرحباً بابن عم رسول الله وختنه وسيد بنى هاشم ، ماخلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له على رضى الله عنه : اتق الله ياعبد الله. ولا تنافق فإن المنافقين شر خليقة الله . فقال له عبد الله مهلا ياأبا الحسن أتقول لى هذا والله إن إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم ، ثم افترقوا . فقال لأصحابه : كيف رأيتمونى فعلت فأثنوا عليه خيراً فرجع المسلمون إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبروه بذلك فنزلت الآية : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إلى آخر الآيات التى فى المنافقين كلها فيه وفى أصحابه .

وبالجملة قد لاقى النبى صلى الله عليه وسلم من شدة الأذى من المنافقين واليهود بالمدينة شيئاً كثيراً ولكنه بالنسبة لأذى أهل مكة كالعدم فإنه كان بالمدينة فى غاية العزة والمنعة والقوة من أول يوم . وأذى اليهود غايته المجادلة والتعنت فى السؤال. ولما قويت شوكة الإسلام واشتد الجناح أذن له صلى الله عليه وسلم بالقتال .

أهل الصفة[1]

أهل الصفة هم فقراء المهاجرين إلى المدينة ومن لم يكن له منزل يسكنه ولا عشائر وكانوا نحو ٤٠٠ فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه ويتعلمون القرآن ويصومون ويخرجون فى كل غزوة . وكان رسول الله يدعوهم بالليل إذا تعشى فيفرقهم على أصحابه وتتعشى طائفة منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء الله بالغنى وكان أبو هريرة من أهل الصفة وكان رسول الله إذا أتته صدقة بعث بها إليهم .

(١) الصفة : موضع مظلل فى مؤخر مسجد النبى صلى الله عليه وسلم يأوى إليه المساكين .

عن أبى هريرة قال : خرج النبى ﷺ ليلة فقال : ادع لى أصحابى ـ يعنى أهل الصفة ـ فجعلت أتبعهم رجلا رجلا فأوقظهم حتى جمعتهم فجئنا باب رسول الله ﷺ فاستأذنا فأذن لنا فوضع لنا صحفة فيها صنيع من شعير ووضع عليها يده . وقال : خذوا باسم الله فأكلنا ماشئنا . قال ثم رفعنا أيدينا . وقد قال رسول الله ﷺ حين وضعت الصحفة والذى نفس محمد بيده ماأمسى فى آل محمد طعام ليس شيئاً ترونه . فقلنا لأبى هريرة قدر كم هى حين فرغتم ؟ قال : مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع وكان رسول الله يؤثر على نفسه وأولاده فيعطى ما بيده للمحتاجين (ومنهم أهل الصحفة) حتى إن ابنته فاطمة رضى الله عنها جاءته تشكو ماتلقى من الرحى وخدمة البيت وكانت سمعت بسبى جاءه فطلبت منه خادماً . فقال : لاأعطيك وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع وأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول «آلله الذى لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذى يخرجون منه فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعنى فمر ولم يفعل . ثم مر بى عمر فسألته عن آية من كتاب الله تعالى ما سألته إلا ليشبعنى فمر فلم يفعل . ثم مر بى أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآنى وعرف ما فى نفسى ومافى وجهى ثم قال أباهر . قلت لبيك يارسول الله . قال الحق ومضى فتبعته فدخل فاستأذن لى فدخل فوجد لبناً فى قدح فقال من أين هذا اللبن ؟ قالوا أهدى لك فلان أو فلانة قال أباهر . قلت لبيك رسول الله ، قال الحق إلى أهل الصفة فادعهم لى . قال وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد . إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها فساءنى ذلك فقلت وما هذا اللبن فى أهل الصفة ؟ كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها ، فإذا جاءوا أمرنى فكنت أنا أعطيهم وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بد فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت . فقال ياأبا هر قلت لبيك يارسول الله . قال خذ فأعطهم . فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح حتى انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقد روى القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلى فتبسم . فقال أبا هر قلت : لبيك يارسول الله . قال بقيت أنا وأنت . قلت صدقت يارسول الله . قال اقعد فاشرب فقعدت فشربت . فقال اشرب فشربت فما زال يقول اشرب حتى قلت لا والذى بعثك بالحق ما أجد مسلكا . قال فأرنى فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة » ـ رواه البخارى فى كتاب الاستئذان .

قال الله تعالى يذكر أهل الصفة : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

عن ابن عباس وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحاب الصفة فرأى فقرهم وجهدهم ، فطيب قلوبهم . فقال : أبشروا ياأصحاب الصفة ، فمن لقينى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه راضيا بما فيه فإنه من رفاقى .

وقد ترك أغلب المهاجرين أملاكهم وأموالهم بمكة عدا عثمان فإنه تمكن من أخذ جميع أمواله معه . وقد كان غنيًّا واشتغل المهاجرون بالزراعة . أعطاهم أهل المدينة أرضاً يستثمرونها .

عن أبى سعيد الخدرى . قال : كنا مقدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة إذا حضر منا الميت أتيناه فخبرناه فحضره واستغفر له حتى إذا قبض انصرف ومن معه؛ وربما قعد حتى يدفن وربما طال ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم من حبسه . فلما خشينا مشقة ذلك عليه قال بعض القوم لبعض والله لو كنا لا نؤذن النبى صلى الله عليه وسلم بأحد حتى يقبض فإذا قبض آذناه فلم تكن لذلك مشقة عليه ولا حبس قال ففعلنا ذلك . قال فكنا نؤذنه بالميت بعد أن يموت فيأتيه فيصلى عليه ويستغفر له فربما انصرف عند ذلك وربما مكث حتى يدفن الميت فكنا على ذلك أيضاً حيناً ؛ ثم قالوا والله لو أنا لم نشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملنا الميت إلى منزله حتى نرسل إليه فيصلى عليه عند بيته لكان ذلك أرفق به وأيسر عليه . قال ففعلنا ذلك . قال محمد بن عمر : فمن هناك سمى ذلك الموضع موضع الجنائز حملت إليه . ثم جرى ذلك من فعل الناس من حمل جنائزهم والصلاة عليهم فى ذلك الموضع إلى اليوم .

الإذن بالقتـــال

أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى القتال لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر صفر فى السنة الثانية من الهجرة وقد مكث النبى صلى الله عليه وسلم يدعو كفار قريش ثلاث عشرة سنة إلى نبذ الأصنام وعبادة الله الواحد بغير قتال صابراً على شدة أذى العرب فلم يزدادوا إلا تعنتاً وتعسفاً واضطهدوا النبى وأصحابه اضطهاداً شـديداً وألجأوهم إلى هجر بلادهم وترك أموالهم ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يأتون إليه ما بين مضروب ومشجوج فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أومر بقتالهم . وقال جماعة من الصحابة منهم عبد الرحمن بن عوف والمقداد بن الأسود وقدامة بن مظعون (وهو أخو عثمان بن مظعون) وسعد بن أبى وقاص : يارسول الله كنا فى عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة فائذن لنا فى قتال هؤلاء . فقال كفوا أيديكم عنهم فإنى لم أومر بقتالهم .

لم يبق بعد ذلك غير استعمال السلاح للدفاع عن كيانهم والتغلب على عبدة الأصنام، فالمسألة صارت مسألة حياة أو موت ، فإما انتصار يحقق نشر الدين أو انكسار لاتقوم للمسلمين بعده قائمة ، ولو تمكنت قريش من مهاجمة المدينة والانتصار على المسلمين لكان فى ذلك القضاء على الإسلام ، وكان المسيحيون فى الإمبراطورية الرومانية فى ذلك الوقت يقاتلون الفرس وينتصرون عليهم .

لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وكثر أتباعه وقام الأنصار بنصره صلى الله عليه وسلم وأصر المشركون على الكفر والتكذيب أذن لهم بالقتال فبعث عليه السلام البعوث وغزا بنفسه .

وأول ما أنزل في أمر القتال قوله تعالى في سورة الحج :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

هذا أول ما أنزل في الإذن بالقتال بعد مانهي عنه في نيف وسبعين آية .

بعث حمزة

كان أول بعوثه ﷺ أن بعث عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة (٦٢٣ م) في ثلاثين راكباً من المهاجرين . قال بعضهم كانوا شطرين من المهاجرين والأنصار، والجمع عليه أنهم كانوا جميعاً من المهاجرين ولم يبعث رسول الله ﷺ أحداً من الأنصار مبعثاً حتى غزا بهم بدراً. وذلك أنهم شرطوا له أنهم يمنعونه في دارهم . خرج حمزة ومن معه يعترضون عيراً لقريش جاءت من الشام تريد مكة وكان فيها أبو جهل في ثلاثمائة راكب ولما بلغوا ساحل البحر من ناحية العيص من بلاد جهينة التقوا وتصافوا للقتال ثم حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني وكان مصالحاً للفريقين فانصرف القوم بغير قتال ولم يكن صلى الله عليه وسلم معهم ، وكان يحمل اللواء أبو مرثد كناز بن الحصين الغنوي وهو أول لواء عقده رسول الله وكان لواء أبيض .

سرية عبيدة بن الحارث

وفي شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة (٦٢٣ م) بعث عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف إلى بطن رابغ وعقد لواء أبيض وكان الذي حمله مسطح بن أثاثة بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانوا ستين رجلا من المهاجرين ليس فيهم أنصاري ، فلقي أبا سفيان بن حرب[1] وهو في مائتين من أصحابه وهو على ماء يقال له أحياء من بطن رابغ على عشرة أميال من الجحفة وأنت تريد قديداً عن يسار الطريق ، وإنما نكبوا عن الطريق

(٣) أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي والد معاوية ولد قبل الفيل بعشر سنين وكان من أشراف قريش وكان تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش إلى الشام وغيرها من أرض العجم وكان يخرج أحيانا بنفسه وكانت إليه راية الرؤساء التي تسمى العقاب وهو الذي قاد قريشا كلها يوم أحد . أسلم ليلة الفتح .

ليرعوا ركا بهم فكان بينهم الرمى ولم يسلوا السيوف ولم يصطفوا للقتال وإنما كانت بينهم المناوشة إلا أن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذ بسهم فكان أول سهم رمى به فى الإسلام ثم انصرف الفريقان على حاميتهم .

سرية سعد بن أبى وقاص

ثم سرية سعد بن أبى وقاص إلى الخرار وهو واد فى الحجاز يصب فى الجحفة وذلك فى ذى القعدة على رأس تسعة أشهر من الهجرة ، عقد له لواء أبيض حمله المقداد بن عمرو البهرواني ، وبعثه فى عشرين رجلا من المهاجرين يعترض لعير قريش تمر به وعهد إليه ألا يجاوز الخرار . قال سعد فخرجنا على أقدامنا فكنا نكمن النهار ونسير الليل حتى صبحناها صبح خمس فنجد العير قد مرت بالأمس فانصرفنا إلى المدينة .

غزوة ودان أو غزوة الأبواء

أول مغازيه التى خرج فيها بنفسه ﷺ غزوة ودان . قال زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم « كنا نعلم مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلم السور من القرآن » وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه كان أبى يعلمنا المغازى والسرايا ويقول : يا بنىّ إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها .

فأول غزوة خرج فيها ﷺ (ودان) وهى قرية جامعة من أعمال الفرع . وبعضهم يسميها غزوة الأبواء ، فمنهم من أضافها إلى ودان ومنهم من أضافها إلى الأبواء لأنهما متقاربان فى وادى الفرع بينهما ستة أميال . خرج رسول الله إليها فى صفر على رأس اثنى عشر شهراً من الهجرة (يونيه سنة ٦٢٣ م) يريد عيراً لقريش وبنى ضمرة وقيل لم يكن صلى الله عليه وسلم مريداً لهم بل مريداً للعير التى لقريش فلما لقى بنى ضمرة عقد بينه وبينهم صلحاً وكان خروجه فى ستين راكباً ليس فيهم أنصارى فلم يدرك العير التى أراد . وكانت المصالحة بينه وبين بنى ضمرة على أنهم لا يغزونه ولا يكثرون عليه جمعاً ولا يعينون عليه عدواً وأن لهم النصر على من رامهم بسوء وأنه إذا دعاهم لنصر أجابوه وعقد ذلك معهم سيدهم مخشى بن عمرو الضمرى وكتب بينهم كتاباً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من رامهم بسوء بشرط أن يحاربوا فى دين الله مابل بحر صوفة وأن النبى صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصر أجابوه . عليهم بذلك ذمة الله ورسوله » .

وكان لواؤه أبيض وكان مع عمه حمزة رضى الله عنه واستخلف على المدينة سعد بن عبادة . وكانت غيبته خمس عشرة ليلة .

غـــزوة بواط [1]

ثم غزوة بواط فى شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة (يوليه ٦٢٣ م) وكان يحمل لواءه سعد بن أبى وقاص وكان اللواء أبيض واستخلف على المدينة سعد بن معاذ . خرج رسول الله ﷺ فى مائتين من أصحابه من المهاجرين خاصة حتى بلغ بواط يعترض لعير قريش فيها أمية بن خلف الجمحى ومائة رجل من قريش و (٢٥٠٠) بعير ففاتته ورجع ولم يلق حرباً .

غزوة بدر الأولى

أو غزوة سفوان

وفى شهر ربيع الأول أيضاً خرج رسول الله لطلب كرز بن جابر الفهرى وكان لواؤه أبيض وكان بيد على بن أبى طالب ، واستخلف على المدينة مولاه زيد بن حارثة . وكان كرز بن جابر قد أغار على سرح المدينة فاستاقه وكان يرعى بالجماء [2] فطلبه رسول الله حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر وفاته كرز بن جابر فلم يلحقه فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة . وهذه الغزوة هى غزوة بدر الأولى .

أما كرز فإنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وولاه رسول الله الجيش الذى بعثه فى أثر العرنيين الذى قتلوا راعية وقتل كرز يوم الفتح وذلك سنة ثمان من الهجرة .

وقد ذكر ابن إسحاق هذه الغزوة بعد العُشيرة . قال ابن حزم بعشرة أيام .

غزوة العُشيرة

كانت غزوة العشيرة فى جمادى الأولى وقيل الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة (اكتوبر سنة ٦٢٣ م) وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب وكان لواؤه أبيض واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى وخرج فى خمسين ومائة ويقال فى مائتين من المهاجرين ممن انتدب ولم يكره أحداً على الخروج وخرجوا على ثلاثين بعيراً . خرج يعترض عير قريش حين أبدت إلى الشام وكان قد جاءه الخبر بقفولها من مكة فيها أموال قريش فبلغ العشيرة وهى لبنى مدلج بناحية ينبع وبين ينبع والمدينة تسعة برد فوجد العير التى خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيام وهى العير التى خرج لها أيضا يريدها حين رجعت من الشام فساحلت على البحر وبلغ قريشاً خبرها

(١) بواط : جبل من جبال جهينة بناحية رضوى .

(٢) السرح مارعوا من نعمهم . والجماء : جبل ناحية العقيق إلى الجرف بينه وبينه ثلاثة أميال .

فخرجوا يمنعونها فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر فواقعهم وقتل منهم من قتل، وبالعشيرة كنى رسول الله على بن أبى طالب أبا تراب وذلك أنه رآه نائماً متمرغاً فى البوغاء[1] فقال اجلس أبا تراب فجلس ، وفى هذه الغزوة وادع بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً .

كانت قريش قد جمعت أموالها فى تلك العير ويقال إن فيها خمسين ألف دينار وألف بعير وكان قائد تلك العير أبا سفيان بن حرب ومعه سبعة وعشرون وقيل تسعة وثلاثون رجلا ، منهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص .

سرية عبد الله بن جحش[2] الأسدى

أمر رسول الله أبا عبيدة بن الجراح أن يتجهز للغزو فتجهز فلما أراد المسير بكى صبابة إلى رسول الله فبعث مكانه عبد الله بن جحش الأسدى فى اثنى عشر رجلا من المهاجرين كل اثنين يعتقبان بعيراً إلى نخلة وهو بستان ابن عامر الذى كان قرب مكة ، وذلك فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة (نوفمبر سنة ٦٢٣ م) وكتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ولا يكره أحداً من أصحابه ففعل ذلك ، ثم قرأ الكتاب وفيه يأمره بنزول نخلة بين مكة والطائف فيرصد قريشاً ويعلم أخبارهم فأعلم أصحابه فساروا معه حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع أضل بعيراً ، وكان زميله عتبة بن غزوان فأقام يومين يبغيانه ومضى عبد الله وبقية أصحابه ، حتى نزل بنخلة فمرت به عير لقريش تحمل خمراً وأدماً وزبيبا جاءوا به من الطائف ، فيها عمرو بن الحضرمى وعثمان بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم وأشرف لهم عكاشة بن محصن الأسدى وقد حلق رأسه ، فلما رأوه وقالوا عمار لا بأس عليكم ، وذلك آخر يوم من رجب ، ثم إنهم تشاوروا فأجمعوا على القتال ، فرمى واقد بن عبد الله التيمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، وهو أول قتيل قتله المسلمون وشد المسلمون عليهم فاستأسر عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان وهرب نوفل وغنم المسلمون ما معهم . ويقال إن عبد الله بن جحش لما رجع من نخلة خمس ما غنم وقسم بين أصحابه سائر الغنائم فكان أول خمس خمس فى الإسلام وذلك قبل أن يفرض وكانت أول غنيمة غنمها المسلمون . وعمرو بن الحضرمى أول من قتل المسلمون وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون ، وكان الذى أسر الحكم المقداد بن عمرو فدعاه رسول الله إلى الإسلام فأسلم وقتل ببئر معونة شهيداً[3] .

أما سعد بن أبى وقاص وزميله عتبة بن غزوان ، فلم يشهدا هذه الغزوة وقدما المدينة بعد عودة السرية بأيام .

---

(١) البوغاء : ما ثار من الغبار ودقاق التراب .

(١) الجحش لغة ، السيد .

(٣) الحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة والد أبى جهل . كان إسلامه فى السنة الأولى من الهجرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسرى إلى المدينة فلما قدموا قال لهم رسول الله ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، فوقف العير والأسيرين فسقط فى أيديهم وعنفهم المسلمون وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

فلما نزل القرآن وفرج الله عن المسلمين قبض رسول الله العير وفدى الأسيرين .

وفى هذه السرية سمى عبد الله بن جحش « أمير المؤمنين » .

غزوة بدر الثانية

أو غزوة بدر الكبرى

١٧ رمضان فى السنة الثانية من الهجرة — يناير سنة ٦٢٤ م

بدر بلدة بالحجاز إلى الجنوب الشرقى من الجار ، وهو ساحل البحر بينهما نحو مرحلة ويسمونها بدر حنين ، وهى فى سهل يليه من الشمال إلى الشرق جبال وعرة ومن الجنوب آكام صخرية ومن الغرب كثبان رملية .

كانت غزوة بدر الكبرى يوم الجمعة فى شهر رمضان فى السابع عشر على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة (يناير سنة ٦٢٤ م) وكان سببها قتل عمرو الحضرمى الذى قتل فى سرية عبد الله بن جحش وإقبال أبى سفيان بن حرب من الشام فى عير لقريش عظيمة وفيها أموال كثيرة تبلغ (٢٠٫٠٠٠ جنيه تقريباً) ومعها ثلاثون أو أربعون رجلا من قريش منهم مخرمة بن نوفل الزهرى بن العاص .

فلما سمع بهم رسول الله ندب المسلمين إليهم وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها ، فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم لأنهم ظنوا أن الرسول لا يلقى حرباً .

وكان أبو سفيان قد سمع أن رسول الله ﷺ يريده لحذره ، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى بعشرين مثقالا وبعثه إلى مكة يستنفر قريشاً ويخبرهم الخبر ، فسار وألقى فيهم النفير فخرجوا مسرعين ومن تخلف أرسل مكانه آخر . ولم يتخلف أحد من أشراف مكة إلا أبو لهب[1] وبعث مكانه العاص بن هشام[2] نظير أجر قدره ٤٠٠٠ درهم ؛ وكان السبب فى خروجهم حماية العير وإنقاذها .

(١) تخلف أبو لهب خوفاً من رؤيا كانت رأتها عاتكة بنت عبد المطلب عمة النبى صلى الله عليه وسلم أفزعتها وقصتها للعباس ثم تحدث بها الناس (٢) قتله عمر بن الخطاب فى هذه الغزوة .

قوة قريش

كان الذين خرجوا من قريش نحو ١٠٠٠ منهم ٦٠٠ دارع ومعهم ١٠٠ فرس عليها ١٠٠ درع سوى دروع المشاة .

وكان حامل لوائهم السائب بن يزيد ثم أسلم رضى الله عنه وهو الأب الخامس للإمام الشافعى رضى الله عنه. وكان معهم أيضاً ٧٠٠ بعير . وخرجوا ومعهم القيان — وهن الإماء المغنيات — يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين وهم فى غاية البطر والخيلاء حين خروجهم اعتماداً على كثرة عددهم وعُددهم ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

وكان المطعمون لهذا الجيش اثنى عشر رجلا . وكان كل واحد منهم ينحر كل يوم عشرة جزر ، وهؤلاء الاثنا عشر هم : أبو جهل . وعتبة وشيبة ابنا ربيعة . وحكيم بن حزام . والعباس بن عبد المطلب. وأبو البَختري . وزمعة بن الأسود . وأبىّ بن خلف . وأمية بن خلف . والنضر بن الحارث . ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وفيهم أنزل الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ .

قوة المسلمين

كان عدة الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ ٣١٣[1] . وقيل لما عد ﷺ أصحابه فوجدهم ثلاثمائة وثلاثة عشر فرح وقال : عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر . وخرجت الأنصار ولم تكن قبل ذلك خرجت معه . وكان عددهم ٢٠٧ وسائرهم من المهاجرين وكانت الإبل ٧٠ والأفراس خمسة . ولما أراد رسول الله ﷺ الخروج لبس درعه ذات الفضول وتقلد سيفه العضب ورد رسول الله من استصغر فكان ممن رده أسامة بن زيد ورافع بن خديج والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت ورد عمير بن أبى وقاص فبكى فأجازه .

وتخلف ثمانية من أصحابه ﷺ بسهامهم وأجورهم : ثلاثة من المهاجرين : عثمان بن عفان خلفه رسول الله ﷺ على امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ. وكانت مريضة فأقام عليها حتى ماتت . وطلحة بن عبيد الله . وسعيد بن زيد

(١) هذا قول عامة السلف كما قاله ابن جرير الطبرى .

بعثهما يتجسسان خبر العير وخرجا فى طريق الشام . وكان أبو أمامة بن ثعلبة الأنصارى أجمع الخروج إلى بدر . وكانت أمه مريضة فأمره ﷺ بالمقام على أمه .

وخمسة من الأنصار : أبو لبابة بن عبد المنذر الأوسى خلفه على المدينة وعاصم بن عدى العجلانى خلفه على أهل العالية . والحارث بن حاطب العمرى رده من الروحاء إلى بنى عمرو بن عوف لشئ بلغه عنهم . والحارث بن الصمة كسر بالروحاء . وخوات بن جبير كسر أيضاً . وهؤلاء ثمانية لا اختلاف فيهم .

وكانت الإبل سبعين بعيراً يتعاقب النفر البعير وكانت الخيل فرسين : فرس للمقداد بن عمرو ، وفرس لمرثد بن أبى مرثد الغنوى . وكان اللواء مع مصعب بن عمير . وكان أمام رسول ﷺ رايتان سوداوان إحداهما مع على بن أبى طالب يقال لهـا العقاب وكانت من مرط عائشة أى ثوبها وكان عمر علىّ يومئذ عشرين سنة والأخرى مع بعض الأنصار ، وجعل على الساقة (المؤخرة) قيس بن أبى صعصعة الأنصارى فكانت قوة المسلمين قليلة بالنسبة لقوة عدوهم .

واستعمل ﷺ أبا لبابة والياً على المدينة ورده ، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس بالمدينة .

رسول الله ﷺ يستشير أصحابه

كان رسول الله ﷺ بعث رجلين يتجسسان أخبـار عير أبى سفيان وهما بَسبَس بن عمرو وعدى بن أبى الزغباء فمضيا حتى نزلا بدراً فأناخا إلى تل قريب من الماء وأخذا يستقيان من الماء فسمعا جاريتين تقول إحداهما لصاحبتها إن أتانى العير غداً أو بعد غد أعمل لهم . أى أخدمهم ، ثم أقضيك الذى لك . فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا .

فاستشار النبى ﷺ أصحابه فى طلب العير وفى حرب النفير ، يعنى أن النبى ﷺ خير أصحابه بين أن يذهبوا للعير أو إلى محـاربة النفير وأخبرهم بمسير قريش . وقال لهم : إن الله وعدكم إحدى الطائفتين : إما العير وإما قريش . وكانت العير أحب إليهم ليستعينوا بمـا فيها من الأموال على شراء الخيل والسلاح . وقال بعضهم هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنا خرجنا للعير . وفى رواية يارسول الله عليك بالعير ودع العدو ، فتغير وجه رسول الله ﷺ .

وتـكلم المهاجرون فأحسنوا ثم استشارهم فقام أبو بكر فقال فأحسن ، ثم قام عمر، فقال فأحسن .

وكان ﷺ يخشى أن تـكون الأنصار لاترى وجوب نصرته عليها إلا ممن دهمه فجأة من العدو بالمدينة فقط وأن ليس عليهم أن يسير بهم من بلادهم إلى عدو . فلما قال لهم أشيروا على ، قال له سعد بن معاذ رضى الله عنه ، وهو سيد الأوس ، بل هو سيد الأنصار . وكان فيهم كالصديق رضى الله عنه فى المهاجرين . قال والله لـكأنك

تريدنا يارسول الله . قال : أجل . قال قد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهوداً ومواثيق على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء لعل الله يريك فينا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ لقوله ونشطه ذلك للقاء الكفار . ثم قال رسول الله سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير .

الخلاف بين أبى سفيان وأبى جهل

كان أبو سفيان قد ساحل وترك بدراً يساراً ثم أسرع فنجا فلما رأى أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش وهم بالجحفة أن الله قد نجى عيركم وأموالكم فارجعوا .

فقال أبو جهل والله لانرجع حتى نرد بدراً (وكانت بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم بها سوق كل عام) فنقيم بها ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر فتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا ، ويقال كان أبو جهل وقتئذ يبلغ من العمر سبعين سنة ولكنه كان لايزال قوى الجسم .

فلما بلغ أبا سفيان كلام أبى جهل قال : هذا بغى والبغى منقصة وشؤم لأن القوم إنما خرجوا لنجاة أموالهم وقد نجاها الله . ولما قال أبو جهل ماقال رجع من قريش بنو زهرة وكانوا نحو المائة وقيل ثلاثمائة فلذا قيل لم يقتل أحد منهم ببدر . وكان قائد بنى زهرة الأخنس بن شريق الثقفى وكان حليفاً لهم . فقال لهم : يابنى زهرة قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل فإنه كان فى العير وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فارجعوا فإنه لاحاجة لكم أن تخرجوا فى غير منفعة . دعوا مايقول هذا ، يعنى أبا جهل ، وكذلك لم يخرج من قريش بنو عدى ابن كعب فلم يشهد بدراً من هاتين القبيلتين أحد . لكن هذا الخلاف لم يمنع نشوب الحرب .

مسير الجيشين ونزول المطر

مضت قريش حتى نزلت بالعدوة[1] القصوى من الوادى .

ونزل المسلمون على كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب . وسبقهم المشركون إلى ماء بدر فأحرزوه وحفروا القلب لأنفسهم ليجعلوا فيها الماء من الآبار المعينة فيشربوا منها ويسقوا دوابهم .

---

(١) العدوة : جانب الوادى . والقصوى : البعدى .

وأدرك المسلمين النعاس وأصبحوا لا يصلون إلى الماء للشرب والغسل والوضوء . فأرسل الله عليهم مطراً سال منه الوادى فشرب المسلمون واتخذوا الحياض على عدوة الوادى واغتسلوا وتوضأوا وسقوا الركاب وملأوا الأسقية وأطفأ المطر الغبار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام والحوافر وضر ذلك بالمشركين لكون أرضهم كانت سهلة لينة وأصابهم مالا يقدرون معه على الارتحال وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ .

وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه . يصلى تحت شجرة ويكثر فى سجوده « ياحى ياقيوم » يكرر ذلك حتى أصبح .

قال على رضى الله عنه فلما أن طلع الفجر نادى رسول الله ﷺ للصلاة ـ عبادة الله ـ فجاء الناس من تحت الشجر والحجف فصلى بنا رسول الله ﷺ ثم خطب وحضّ على القتال .

بناء حوض على القليب

قال ابن إسحاق : خرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به فقال الحباب ابن المنذر بن الجموح رضى الله عنه يارسول الله هذا منزل أنزلكه الله تعالى لا تتقدمه ولا تتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال بل الرأى والحرب والمكيدة . قال فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فإنى أعرف غزارة مائه فننزل به ثم نغور ماوراءه من القلب ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون . فقال ﷺ أشرت بالرأى . فنهض ﷺ ومن معه من الناس حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضاً على القليب الذى نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية وقد كان الحباب خبيراً بالآبار فى تلك الجهة ، وقد قبل رسول الله ﷺ مشورته وهى فكرة سديدة لها أهمية حربية فإن الجيش يكون على اتصال دائم بالماء الذى لا غنى عنه . ومن يومئذ قيل للحباب « ذو الرأى » .

بناء العريش

وبعد ذلك قال سعد بن معاذ رضى الله عنه يارسول الله ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله مانحن بأشد لك حباً منهم ولو ظنوا أنك تلقى حرباً لما تخلفوا

عنك إنما ظنوا أنها العير يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك فأثنى عليه ﷺ خيراً ودعا له بخير وقال يقضي الله خيرا من ذلك ياسعد . ثم بنى له العريش فوق تل مشرف على المركة فدخله النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق وقام سعد بن معاذ متوشحاً بالسيف .

وعن عليّ رضى الله عنه أنه قال : أخبرونى من أشجع الناس ؟ قالوا : أنت . قال : أشجعُ الناس أبو بكر رضى الله عنه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً فقلنا من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوى إليه أحد من المشركين ؟ فكان أبو بكر رضى الله عنه مع رسول الله ﷺ فو الله ما دنا منه أحد إلا وأبو بكر رضى الله عنه شاهر بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوى أحد إليه إلا أهوى إليه أبو بكر رضى الله عنه. وجاء أنه لما التحم القتال وقف أيضاً على باب العريش سعد بن معاذ رضى الله عنه وجماعة من الأنصار. والعريش شيء يشبه الخيمة يستظل به وكان من جريد . قال السيد السمهودى ومكانه (العريش) عند مسجد بدر وهو معروف عند النخيل والعين قريبة منه .

عتبة بن ربيعة ينصح قريشا بالرجوع

تقدم قبل ذلك أن أبا سفيان كان من رأيه الرجوع لنجاة عير قريش وأموالها وأن أبا جهل كان مصمماً على الحرب . فلما اطمأنت قريش بالجهة التى نزلوا فيها أرسلوا عمير بن وهب الجمحى[1] يستطلع ، فجال بفرسه حول عسكر النبي صلى الله عليه وسلم فوجد أنهم يبلغون ثلاثمائة رجل يزيدون أو ينقصون وقال لهم لقد رأيت يامعشر قريش البلايا تحمل المنايا . رجال يثرب تحمل الموت الناقع ، ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الأفاعى لا يريدون أن يقبلوا إلى أهليهم ، زرق العيون كأنهم الحصى تحت الحجف[2] قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم والله ما نرى أن نقتل منهم رجلا حتى يقتل رجل منكم فإذا أصابوا منكم عدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم . فلما سمع حكيم بن حزام ذلك[3] مشى فى الناس فأتى عتبة بن ربيعة . فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش والمطاع فيها هل لك أن تذكر بخير إلى آخر الدهر ؟ فقال : وما ذاك ياحكيم ؟ قال : ترجع بالناس . فقام عتبة خطيباً . فقال : يامعشر قريش والله ماتصنعون شيئاً أن تلقوا محمدا وأصحابه والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه قد قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته . فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابه غيركم فذاك إذا أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعدموا منه ماتريدون . ياقوم اعصبوها اليوم برأسى (أى اجعلوها عاراً متعلقا بى) وقولوا جبن عتبة وأنتم تعلمون أنى لست بأجبنكم .

(١) أسلم عمير بعد ذلك وحسن إسلامه وشهد أحداً مع رسول الله .
(٢) يعنى الأنصار . (٣) هو ابن أخى خديجة بنت خويلد وابن عم الزبير بن العوام ، ولد فى الكعبة وهو من مسلمة الفتح وكان من أشراف قريش ووجوهها فى الجاهلية والإسلام .

فلما بلغ أبا جهل هذا الكلام عن عتبة رماه بالجبن . وقال : (والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد) فأفسد أبو جهل على الناس رأى عتبة وتشبث بضرورة قتال المسلمين .

تعديل صفوف المسلمين ودعاء رسول الله ﷺ

لما أصبح المسلمون ، عدل النبي ﷺ صفوف أصحابه وأقبلت قريش ورآها ﷺ فقال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى » .

اقتحام الحوض

خرج الأسود المخزومى وكان شرساً سيئ الخلق . فقال أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه . فلما أقبل قصده حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه فضربه دون الحوض فوقع على ظهره تشخب (تسيل) رجله دماً ثم اقتحم الحوض زاعماً أن تبر يمينه فقتله حمزة فى الحوض . والأسود هذا هو الأسود بن عبد الأسد المخزومى أخو عبد الله بن عبد الأسد المخزومى رضى الله عنه زوج أم سلمة رضى الله عنها . وهو أول قتيل قتل يوم بدر من المشركين وهو أول من يأخذ كتابه بشماله يوم القيامة . وأما أخوه عبد الله بن عبد الأسد فهو أول من يأخذ كتابه بيمينه كما جاء ذلك فى أحاديث متعددة .

المبارزة

التمس عتبة بن ربيعة بيضة أى خوذة يدخلها فى رأسه فما وجد فى الجيش بيضة تسع رأسه لعظمها فتعمم ببرد له[1] وخرج بعد أن تعمم بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة حتى انفصل من الصف ودعا إلى المبارزة فخرج إليه فتية من الأنصار وهم عوف ومعاذ ابنا الحارث الأنصاريان وعبد الله بن رواحة الأنصارى . فقالوا لهم من أنتم ؟ قالوا رهط من الأنصار . قالوا : مالنا بكم من حاجة إنما نريد قومنا ونادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا فناداهم أن ارجعوا إلى مصافكم وليقم إليهم بنو عمهم . ثم قال ﷺ قم يا عبيدة بن الحارث . قم يا حمزة . قم يا على ، فبارز عبيدة ـ وكان أسن المسلمين ـ عتبة وكان أسن الثلاثة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز على الوليد بن عتبة ، فقتل حمزة شيبة وعلى الوليد واختلف عبيدة وعتبة ضربتين كلاهما أثبت صاحبه ؛ وكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة فحاذياه إلى أصحابه . وكانت الضربة التى أصابت عبيدة فى ركبته فمات منها لما رجعوا بالصفراء . قيل وهذه المبارزة أول مبارزة وقعت فى الإسلام .

(١) قد كان المشركون مجهزين بأسلحة تفوق أسلحة المسلمين ، فدروع المسلمين كانت قليلة والظاهر أنه لم تكن لديهم خوذ فى حين أن المشركين كانوا يضعون خوذا على رءوسهم تقيهم النبال والسيوف .

تعديل صفوف المسلمين والحث على الجهاد

قال ابن اسحاق : لما قتل المبارزون خرج ﷺ من العريش لتعديل الصفوف فعدلهم بقدح [١] فى يده فمر ﷺ بسواد بن غزية حليف النجار وهو خارج من الصف فطعنه رسول الله ﷺ فى بطنه بالقدح وقال : « استو ياسواد » فقال : يارسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى من نفسك [٢] فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال : « استقد » فاعتنق سواد النبىّ ﷺ وقبل بطنه . فقال ما حملك على هذا ياسواد ؟ فقال : يارسول الله حضر ماترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير [٣] ثم لما عدل الصفوف قال لهم : « إن دنا القوم منكم فانضحوهم واستبقوا نبلكم ولاتسلوا السيوف حتى يغشوكم » وخطبهم خطبة حثهم فيها على الجهاد والمصابرة ثم عاد إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه غيره وسعد بن معاذ قائم على باب العريش موشح بسيفه مع نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ويخافون عليه كرة العدو .

ألوية المسلمين والمشركين

كان لواء رسول الله الأعظم ـ لواء المهاجرين ـ مع مصعب بن عمير ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر ولواء الأوس مع سعد بن معاذ وجعل رسول الله ﷺ شعار المهاجرين « يابنى عبد الرحمن » وشعار الخزرج « يابنى عبد الله » وشعار الأوس « يابنى عبيد الله » . ويقال بل كان شعار المسلمين جميعاً يومئذ « يامنصور أمت »

وكان مع المشركين ثلاثة ألوية : لواء مع أبى عزيز بن عمير ، ولواء مع النضر بن الحارث، ولواء مع طلحة بن أبى طلحة وكلهم من بنى عبد الله .

تزاحم الناس والتحام القتال

بعد أن عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض وأقبل نفر من قريش حتى وردوا حوضه صلى الله عليه وسلم فقال دعوهم فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل إلا حكيم بن حزام فإنه أسلم وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يحملوا على المشركين حتى يأمرهم وكان صلى الله عليه وسلم قد أخذته سنة من النوم فاستيقظ وقد أراه الله إياهم فى منامه قليلا فأخبر أصحابه فكان تثبيتا لهم ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين وأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا وقال: شاهت الوجوه (أى قبحت الوجوه) ونفحهم بها ثم أمر أصحابه فقال شدوا فكانت الهزيمة .

(١) سهم لانصل فيه ولا ريش (٢) أى مكنى من القود أى القصاص
(٣) قال صاحب أسد الغابة . « رويت هذه القصة لسواد بن عمرو لا لسواد بن غزية » .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو فى العريش يوم بدر : اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم فلا تعبد . وفى رواية إن تهلك هذه العصابة من أهل الإيمان اليوم فلا تعبد فى الأرض .

وروى النسائى والحاكم عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قاتلت يوم بدر شيئا من قتال ، ثم جئت لاستكشاف حال النبى ﷺ فإذا رسول الله ﷺ يقول فى سجوده « ياحى ياقيوم » لايزيد على ذلك فرجعت فقاتلت ثم جئته فوجدته كذلك . فعل ذلك أربع مرات وقال فى الرابعة ففتح عليه.وهذا يدل على عظم هذا الاسم .

لما رمى رسول الله المشركين بالحصا ، لم يبق من المشركين رجل إلا امتلأت عينه وأنفه وفمه لايدرى أين يتوجه يعالج التراب لينزعه من عينيه فانهزموا وردفهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ . وهذه إحدى معجزات رسول الله ﷺ .

خرج رسول الله ﷺ وهو يقول ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ . وقال والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة . فقال عمير بن الحمام الأنصارى – وبيده تمرات يأكلهن – « بخ بخ ما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء » . ثم ألقى التمرات من يده وقاتل حتى قتل . ورمى مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل فكان أول قتيل . ثم رمى حارثة بن سراقة الأنصارى فقتل . وقاتل عوف بن عفراء حتى قتل . واقتتل الناس اقتتالا شديداً فانهزم المشركون فقتل من قتل منهم وأسر من أسر . كان بدء القتال فى الصباح ، وكانت الهزيمة فى الظهر . وبلغ عدد القتلى من المشركين سبعين والأسرى أربعة وسبعين وعدد القتلى من المسلمين أربعة عشر : ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

وفى يوم بدر دعا أبو بكر الصديق ابنه عبد الرحمن إلى المبارزة وكان أسن أولاده فقال له النبى ﷺ « متعنا بنفسك أما علمت أنك منى بمنزلة سمعى وبصرى » . ثم أسلم عبد الرحمن فى هدنة الحديبية وكان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبة وقيل عبد العزى فسماه رسول الله عبد الرحمن وكان من أشجع قريش وأرماهم .

وقتل أبو عبيدة بن الجراح أباه وكان مشركا .

قتل بلالٌ أميّة بن خلف الجمحى صديق عبد الرحمن بن عوف فى الجاهلية لأنه كان يعذبه بمكة على أن يترك الإسلام [1] وكان ابن عفراء ضرب أبا جهل حتى أثبته وقطع ابن الجموح رجله . فلما أمر رسول الله ﷺ الناس بأن يلتمسوا أبا جهل فى القتلى خرج معهم عبد الله بن مسعود فوجده وهو بآخر رمق ، فوضع رجله على عنقه وحز رأسه وحمل رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم بعد إلقاء الرأس بين

---

(١) راجع تعذيب المسلمين فى هذا الكتاب .

يديه خرج يمشى مع ابن مسعود حتى أوقفه على أبى جهل . فقال : الحمد لله الذى أخزاك ياعدو رسول الله . هذا كان فرعون هذه الأمة ورأس قاعدة الكفر . قال ابن مسعود : ونفلنى سيفه وكان قصيراً عريضاً فيه قبائع فضة وحلق فضة .

إمداد المسلمين بالملائكة يوم بدر

وردت الآيات والأحاديث على أن الله تعالى أمد المسلمين بالملائكة يوم بدر فقاتلوا معهم . فلما انقضى أمر بدر أنزل الله عز وجل فيه من القرآن سورة الأنفال فيما أنزل خاصًا بالملائكة قوله تعالى :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ ٱللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ .

وقال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ ٱللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ .

وجاء فى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر : هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب .

إن إمداد المسلمين بالملائكة من معجزات رسول الله التى نص عليها القرآن الكريم ولاسبيل إلى إنكارها روى عن سهل بن حنيف عن أبيه رضى الله عنه قال : لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف .

سيما الملائكة يوم بدر

كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضا قد أرسلوها خلف ظهورهم إلا جبريل عليه السلام فإنه كان عليه عمامة صفراء ، وقيل حمراء ، وقيل بعض الملائكة كانوا بعمائم صفر ، وبعضهم بعمائم بيض ، وبعضهم بعمائم سود ، وبعضهم بعمائم حمر .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم قد أرخوها بين أكتافهم خضراً وصفراً وحمراً .

وكان الزبير بن العوام رضى الله عنه يوم بدر متعمماً بعمامة صفراء ، وكانت خيل الملائكة بلقاً مسومة[١] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الغمام الذى ظلل بنى إسرائيل فى التيه هو الذى جاءت فيه الملائكة يوم بدر .

إلقاء القتلى فى القليب

أمر رسول الله ﷺ بالقتلى من المشركين أن ينقلوا من مصارعهم وأن يطرحوا فى القليب فطرحوا فيه إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ فى درعه فملأه فذهبوا ليحركوه فتقطعت أوصاله فألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة . والسبب فى إلقاء قتلى المشركين فى القليب كثرة جيفهم . فكان جرهم إلى القليب أيسر من دفنهم .

ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف على شفير القليب بعد ثلاثة أيام من إلقائهم فيه وكان ذلك ليلا ومعه أصحابه وقال : ياأهل القليب بئس عشيرة النبى كنتم ، أمنتكم فكذبتمونى وصدقنى الناس . ثم قال : ياعتبة ، يا شيبة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام (وعدد من كان فى القليب) هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً فإنى وجدت ماوعدنى ربى حقاً . فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله كيف تكلم أجساداً لاأرواح فيها ؟ فقال : ماأنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى .

الأسرى وفداؤهم

كان فداء الأسرى أربعة آلاف إلى مادون ذلك . فكان يفادى بهم على قدر أموالهم . وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم فإذا حذقوا فهو فداؤه . فكان زيد بن ثابت ممن علم[٢] .

وكان من بين الأسرى العباس عم النبى ﷺ وصنو أبيه يكنى أبا الفضل بابنه الفضل ، وكان أسن من رسول بسنتين . وقيل بثلاث سنين . وكان فى الجاهلية رئيساً فى قريش وإليه كانت عمارة المسجد الحرام والسقاية فى الجاهلية . خرج مع المشركين يوم بدر فأسر وشد وثاقه فسهر النبى ﷺ تلك الليلة ولم ينم . فقال له بعض أصحابه : ما يسهرك يانبى الله ؟ فقال أسهر لأنين العباس فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه فقال له رسول الله ﷺ مالى

---

(١) البلق جمع أبلق وبلقاء : أى فيها سواد وبياض ، ومسومة : معلمة من السومة وهى العلامة ، ولها معنى آخر يبعد هنا اهـ .

(٢) راجع طبقات ابن سعد .

لا أسمع أنين العباس . فقال الرجل أنا أرخيت من وثاقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فافعل ذلك بالأسرى كلهم . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم افد نفسك ياعباس وابنى أخويك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عتبة بن عمرو بمائة أوقية وكل واحد بأربعين أوقية . فقال للنبى صلى الله عليه وسلم تركتنى فقير قريش ما بقيت . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأين المال الذى دفعته لأم الفضل[1] وقلت لها إن أصبت فهذا لبنى : الفضل وعبد الله وقثم ؟ فقال والله إنى أشهد أنك رسول الله ، إن هذا شيء ماعلمه إلا أنا وأم الفضل . أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله .

وفى رواية قال للنبى صلى الله عليه وسلم لقد تركتنى فقير قريش ما بقيت . فقال له كيف تكون فقير قريش وقد استودعت بنادق الذهب أم الفضل (زوجته) وقلت لها إن قتلت فقد تركتك غنية ما بقيت ، فقال أشهد أن الذى تقوله قد كان وما اطلع عليه إلا الله . ونطق بالشهادتين . بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قيل إن العباس كان قد أسلم . وكان يكتم إسلامه لديون له كانت متفرقة فى قريش،وكان يخشى إن أظهر إسلامه ضاعت عندهم . وقد جاء فى بعض الروايات أن العباس رضى الله عنه قال علام يؤخذ منا الفداء وكنا مسلمين ؟ وفى رواية وكنت مسلما ولكن القوم استكرهونى .فقال النبى صلى الله عليه وسلم:الله أعلم بما تقول إن يك حقًّا فإن الله يجزيك . ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا . وقد أنزل الله تعالى فى العباس رضى الله عنه : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[2] وعند نزول هذه الآية قال العباس للنبى صلى الله عليه وسلم : وددت أنك كنت أخذت منى أضعاف ما أخذت . وقد صدق الله وعده له فأعطاه الله مالا عظيما حتى كان عنده مائة عبد فى يد كل عبد مال يتجر فيه . وبلغ مادفعته قريش فداء للأسرى أكثر من ٢٠ر٠٠٠ درهم .

وكان من الأسرى : النضر بن الحارث العبدرى وكان من أشد الناس عداوة للنبى صلى الله عليه وسلم .وكان يقول فى القرآن إنه أساطير الأولين . ويقول : لو نشاء لقلنا مثل هذا وغير ذلك من الأقاويل . فأمر النبى صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فضرب عنقه . فلما بلغ الخبر أخته قتيلة ، وقيل إنما هى بنته، رثته بأبيات ثم أسلمت . وفى أسد الغابة أن قتيلة بنت النضر . قال الواقدى هى التى قالت الأبيات التالية فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قتل أباها النضر بن الحارث يوم بدر وهى :

ياراكباً إن الأثيل مظنة	من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتاً بأن تحيــة	ما إن تزالُ بها النجائب تخفقُ
منى إليك وعبرة مسفوحة	جادت بواكفها وأخرى تخنق

---

(١) يعنى زوجته . (٢) سورة الأنفال .

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق
قسراً يقاد إلى المنية متعباً ... رسف المقيَّد وهو عان موثق
أمحمد أو لست صنوَ نجيبة ... من قومها والفحلُ فحلٌ معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق

وحين سمع ذلك صلى الله عليه وسلم بكى وقال . لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه(١) .

وكان من الأسرى أيضاً عقبة بن أبى معيط بن ذكوان المكنى بأبى عمرو بن أمية بن عبد شمس وكان من أشد الناس عداوة للنبى صلى الله عليه وسلم ومن المستهزئين به . جاء عن ابن عباس أن عقبة لما قدم للقتل نادى يامعشر قريش مالى أقتل بينكم صبراً ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : بكفرك واجترائك على الله ورسوله . وعقبة هذا هو الذى وضع سلا الجزور على ظهر النبى صلى الله عليه وسلم وهو ساجد بمكة .

فالنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط هما الأسيران اللذان أمر صلى الله عليه وسلم بقتلهما، أماسائر الأسرى فقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرهم ، فاستشار أبا بكر وعمر وعليّاً رضى الله عنهم فيما هو الأصلح من الأمرين القتل أو أخذ الفداء .

رأى أبى بكر رضى الله عنه

فى الأسرى

قال أبو بكر « يارسول الله .أهلك وقومك . وفى رواية هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان قد أعطاك الله الظفر بهم ونصرك عليهم أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لنا عضداً » وقد وافق الصحابة أبا بكر على أخذ الفداء .

رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه

قتل الأسرى

قال يارسول الله قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، ما أرى ما رأى أبو بكر .ولكنى أرى أن تمكننى من (فلان) قريب لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل أخيه فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخيه العباس فيضرب عنقه حتى يُعلم أنه ليس فى قلوبنا مودة للمشركين ، ما أرى أن تكون لك أسرى فاضرب أعناقهم . هؤلاء صناديدهم

(١) أى يقبل شفاعتها عنده .

وأئمتهم وقادتهم . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال سعد بن معاذ « الإثخان فى القتل أحب إلىّ من إبقاء الرجال » .

أما على رضى الله عنه فلم يذكر عنه جواب مع أنه أحد الثلاثة المستشارين . قال العلامة الزرقانى لأنه لما رأى تغيّر المصطفى صلى الله عليه وسلم حين اختلف الشيخان ، لم يجب أو لم تظهر له مصلحة حتى يذكرها .

وكان رأى عبد الله بن رواحة إحراقهم فى واد كثير الحطب .

لكن رسول الله أخذ برأى أبى بكر رضى الله عنه . وقال لا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق . وأنزل الله تعالى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فبكى النبى ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن كاد ليمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب . ولم يقل ابن رواحة لأنه أشار بإضرام النار وليس بشرع .

وهذه الآية موافقة لرأى عمر رضى الله عنه . وهى من المواضع التى جاء القرآن فيها موافقاً لقول عمر رضى الله عنه ، وهى كثيرة نحو بضعة وثلاثين أفردت بالتأليف .

ولما استقر الأمر على الفداء فرق رسول الله ﷺ الأسرى فى أصحابه . وكان أول أسير فدى أبو وداعة الحارث فداه ابنه المطلب (وكان كيسا تاجراً) بأربعة آلاف درهم ثم أسلم وقد عده بعضهم من الصحابة . وعند ذلك بعثت قريش فى فداء الأسارى وكان الفداء فيهم على قدر أموالهم وكان من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة إلى ألفين إلى ألف . ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن الكتابة دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم الكتابة فإذا تعلموا كان ذلك فداءه كما تقدم .

وكان من الأسرى أبو العاص بن الربيع فإنه أسلم بعد ذلك وهو زوج زينب بنت النبى ﷺ ورضى عنها وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد أخت خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها . ولم يكن فى ذلك الوقت تزوّج الكافر بالمسلمة محرما ، وإنما حرم ذلك بعد لأن الأحكام إنما شرعت بالتدريج .

وقدمت زينب المدينة بعد شهر من بدر . وقد جاء بها زيد بن حارثة بأمر رسول الله ﷺ ثم أسلم زوجها وهاجر وردها إليه ﷺ بغير عقد بل بالنكاح الأول . وقيل عقد عليها عقداً آخر وولدت له (أمامة) التى كان يحملها صلى الله عليه وسلم على ظهره وهو يصلى . ثم لما كبرت تزوجها علىّ رضى الله عنه بعد خالتها فاطمة رضى الله عنها بوصية من فاطمة لعلى بذلك .

وكان فى الأسارى وهب بن عمير رضى الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك وأسره رفاعة بن رافع . وكان أبوه عمير شيطاناً من شياطين قريش وكان ممن يؤذى رسول الله وأصحابه بمكة فجلس يوماً مع صفوان بن أمية وكان جلوسه معه

فى الحجر فتذاكر أصحاب القليب ومصابهم . فقال صفوان : ما فى العيش خير بعدهم . فقال عمير والله صدقت، أما والله لولا دين علىّ ليس له عندى قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، كنت آتى محمداً حتى أقتله فإن لى فيهم علة ، ابنى أسير فى أيديهم . فاغتنمها صفوان وقال له ، علىّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا قال عمير ، فاكتم عنى شأنى وشأنك . قال : أفعل . ثم إن عميراً أخذ سيفه وشحذه وسمه ثم انطلق حتى قدم المدينة فبينا عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، إذ نظر إلى عمير حين أناخ راحلته على باب المسجد متوشحاً السيف . فقال هذا الكلب عدو الله عمير . ما جاء إلا بشر . فدخل عمر على رسول الله . فقال : يانبى الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه . قال رسول الله ، فأدخله علىّ . فأقبل عمر رضى الله عنه حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فأمسكه بها وقال لرجال ممن كانو معه من الأنصار ادخلوا على رسول الله فاجلسوا عنده . فإن هذا الخبيث غير مأمون .

ثم دخل به على رسول الله . فلما رآه وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه ، قال أرسله ياعمر . ادن ياعمير فدنا . ثم قال عمير : أنعموا صباحاً ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم ، فقال رسول الله : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك ياعمير، بالسلام تحية أهل الجنة . ما جاء بك ياعمير ؟ قال ، جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم (يعنى ولده وهباً) فأحسنوا فيه . قال ، فما بال السيف ؟ قال ، قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال رسول الله ، اصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال ، ما جئت إلا لذلك . قال ﷺ ، بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت لولا دَين علىّ وعيالى لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له . والله حائل بينك وبين ذلك . قال عمير :

« أشهد أنك رسول الله . قد كنا يارسول الله نكذبك بما تأتى به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى . وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان . فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله تعالى ، فالحمد لله الذى هدانا للإسلام وساقنى هذا المساق .

ثم شهد شهادة الحق .

ثم قال رسول الله فقهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا أسيره ففعلوا ذلك .

ومر رسول الله ﷺ على نفر من الأسرى بغير فداء منهم أبو عزة عمرو الجمحى الشاعر . وقد كان يؤذى النبى ﷺ والمسلمين بشعره . فقال : يارسول الله إنى فقير وذو عيال وحاجة قد عرفتها فامنن على فمنّ عليه رسول الله ﷺ وأطلقه وأخذ عليه عهداً أن لا يظاهر عليه أحداً . ولما وصل إلى مكة قال سحرت محمداً ورجع لما كان عليه من الإيذاء بشعره . ولما كان يومُ أحد خرج مع المشركين يحرض على قتال المسلمين بشعره فأسر فأمر النبى ﷺ بضرب عنقه . فقال : أعتقنى وأطلقنى فإنى تائب . فقال ﷺ « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » فضربت عنقه وحمل رأسه إلى المدينة وأنزل الله فيه ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ .

تأثير الانتصار في المدينة

كان لنبأ الانتصار تأثير عظيم في النفوس نخاف رسول الله ﷺ كلُّ عدو بالمدينة وما حولها وأسلم كثير من اليهود منهم عبد الله بن أبي ، لكنه لم يكن مخلصاً في إسلامه بل ظل منافقاً إلى أن مات ومع انتصار المسلمين في بدر ، لم تنقطع معارضة اليهود ودسائسهم فكان لابد من القضاء عليهم واستئصال شأفتهم . وقد كان المنافقون من الرجال ثلاثمائة ومن النساء سبعين ، وكانوا يؤذونه ﷺ إذا غاب ويملقونه إذا حضر .

ثم أرسل رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة بشيراً لأهل العالية[1] وزيد بن حارثة بشيراً لأهل السافلة بما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين .

رجوعه ﷺ إلى المدينة

وتقسيم الغنيمة

لما قارب رسول الله ﷺ المدينة خرج المسلمون للقائه بما فتح الله عليه فتلاقوا معه بالروحاء وتلقته الولائد عند دخوله المدينة بالدفوف . والولائد جمع وليدة وهي الصبية تقلن :

طلع البدر علينـــــا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينـا مادعـا لله داع

وقسم رسول الله ﷺ النفل وكانت ١٥٠ من الإبل وعشرة أفراس ، ومتاعاً وسلاحاً وأنطاعاً، وثياباً وأدماً كثيراً حمله المشركون للتجارة ونادى منادى رسول الله . من قتل قتيلاً فله سلبه ، ومن أسر أسيراً فهو له ، وتنفل رسول الله زيادة على سهمه سيفه ذا الفقار وجمل أبي جهل .

وقع خبر الانتصار على قريش

سمعت قريش خبر انتصار رسول الله ﷺ ممن رجع منهم من ساحة القتال[2] وقص أبو سفيان بن الحارث ماراًى على أبي لهب فقد رشده وضرب أبا رافع ضرباً مبرحاً ، ولم يعش بعدها أبو لهب إلا سبع ليال ومات مصاباً بالجدري وبقي بعد موته ثلاثة أيام لايقرب أحد منه خوفا من العدوى حتى أنتن[3] ولما تحققت قريش خبر الهزيمة وما أصابهم من قتل وأسر ، ناحت على قتلاها شهراً ، وجز النساء شعورهن . ثم اتفقوا على عدم الاسترسال في الجزع لئلا يشمت بهم المسلمون وتواصوا على الأخذ بالثأر .

---

(١) هو موضع قريب من المدينة .
(٢) قال الكلبي أن الحيسمان بن إياس هو الذي جاء بخبر قتل أهل بدر إلى مكة ، وكان شهد بدرا مع المشركين ثم أسلم
(٣) كانت قريش تتقي الجدري كما تتقي الطاعون وتخشى عدواها .

أسباب انتصار المسلمين
فى وقعـــــة بدر

كانت وقعة بدر أول انتصار للمسلمين فى حروبهم ولم تكن من الوقائع الكبيرة من حيث عدد جيوش المتحاربين واستعدادهم الحربى فإن عـدد المسلمين كان نحو ٣١٣ يقابلهم نحو ألف من أهل مكة ولكنها وقعة مهمة لأنها كانت بمثابة الحجر الأساسى فى انتصار الرسول فى الوقائع المقبلة وهى بدء تحول خطير فى تاريخ الإسلام وتاريخ العالم . فى هذه الوقعة انهزم أهل مكة وظهر ضعفهم فى القتال على كثرة عددهم وفرسانهم وقد أبدى بعض المؤرخين استغرابه لما أصاب أعداء المسلمين من الفشل مع أنهم كانوا أكثر منهم عدداً وكان معهم مئة فرس وسبعمائة بعير ومع ذلك لم يكتسحوهم أمامهم بفرسانهم وركبانهم بل ولوا هاربين . والظاهر أن المسلمين كانوا أحسن نظاما فقد عـدل صفوفهم النبى ﷺ وخطب فيهم مستنهضا هممهم وكان يشرف على الوقعة من ذلك العريش العالى ويصدر الأوامر فكان قائداً عاما ، ولم يصدر من أصحابه أية مخالفة لأوامره. أما أبو سفيان فلم يكن قائداً ماهراً . وقد ساعد بناء الحوض وتوفر الماء على النصر ، والقرآن الكريم والأحاديث النبوية تنص صراحة على أن الله سبحانه وتعالى أمد نبيه بمدد باطنى فحاربت الملائكة مع المسلمين ونصروهم على أعدائهم وقد رآهم بعض الصحابة وبعض أهل مكة فى ميدان القتال وذكروهم بنسيماهم . فقيل كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم قد أرخوها بين أكتافهم خضراً وصفراً وحمراً وكان الزبير بن العوام متعمماً بعمامة صفراء فقال ﷺ نزلت الملائكة - أى بعضهم - بسيما أبى عبد الله ، يعنى الزبير . وكانت خيل الملائكة بلقاً مسومة - مزينة - وعن على كرم الله وجهه قال هبت ريح شديدة يوم بدر ما رأيت مثلها قط ثم جاءت أخرى كذلك ثم جاءت أخرى كذلك ، فنزل فى الأولى جبريل فى ألف من الملائكة أمام النبى ﷺ ونزل فى الثانية ميكائيل فى ألف من الملائكة عن يمين رسول الله ﷺ ونزل فى الثالثة إسرافيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله ﷺ . هذا وقد جئ بالعباس يوم بدر ، أسره أبو اليَسَر وكان مجموعاً وكان العباس جسيما فقيل لأبى اليسر كيف أسرته ؟ قال أعاننى عليه رجل ما رأيته من قبل ذلك بهيئة كذا وكذا فقال رسول الله ﷺ لقد أعانك عليه ملك كريم [1].

وقد كان رسول الله ﷺ قال لأصحابه قد رأيت جبريل وعلى ثناياه النقع . فقال رجل من بنى غفار أقبلت أنا وابن عم لى فصعدنا جبلا يشرف بنا على بدر ونحن مشركان ننظر لمن تكون الدائرة فننتهب فدنت منا سحابة فسمعت فيها حمحمة الخيل وسمعت قائلا يقول أقدم حيزوم . قال فأما ابن عمى فمات مكانه وأما أنا فكدت أهلك فتماسكت . وقال أبو داود المازنى إنى لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل سيفى إليه

---

(١) راجع تاريخ ابن الأثير .

فعرفت أنه قتله غيرى . وقال سهل بن حنيف كان أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف [١] فكيف بعد هذا كله نكذب إمداد الله رسوله بالملائكة فى وقعة بدر ! ! إن الله قد اختص نبيه بمعجزات وهذه إحداها ولا سبيل لإنكارها وإن أنكرها المستشرقون الذين كتبوا سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فقد وردت فى القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة .

وروى الصحابة رضى الله عنهم الذين شهدوا بدراً أنهم رأوا الملائكة بسيماهم وهم يحاربون . قال حويطب بن عبد العزى شهدت بدراً مع المشركين فرأيت عبراً ، رأيت الملائكة تقتل وتأسر بين السماء والأرض ولم أذكر ذلك لأحد [٢]

ومن أسباب انتصار المسلمين قوة العقيدة فإن لها تأثيرا عظيما فى الحروب ، فشتان بين من يحارب بعقيدة راسخة لينصر الله ورسوله فإن قتل فاز بنعمة الشهادة وتنعم فى دار الخلد وبين من يحارب وهو لا يشعر بقوة العقيدة التى تدفع خصمه إلى القتال من غير مبالاة . فالمسلمون كانوا يتوقون إلى الموت فى سبيل الله . فمن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من العريش يوم بدر وهو يقول ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ وحرض المسلمين وقال « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » فقال عمير بن الحمام الأنصارى وبيده تمرات يأكلهن : بخ بخ ما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ثم ألقى التمرات من يده وقاتل حتى قتل [٣] .

ويؤكد سير وليام موير William Muir أن الخوف الذى كان مستولياً على أهل مكة من إراقة دماء أقاربهم مع ما يقابل ذلك من رغبة المسلمين فى القتال . كان هو العامل المهم فى انتصار المسلمين فى وقعة بدر .

فضل أهل بدر

جاء بعض الصحابة إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله إن ابن عمى نافق أتأذن لى أن أضرب عنقه ؟ فقال ﷺ : إنه شهد بدراً وعسى أن يكفر عنه . وفى رواية وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر وقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : اطلع الله على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم أو قال فقد وجبت لكم الجنة . وعن الإمام أحمد عن حفصة رضى الله عنها ، قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنى لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله تعالى أحد شهد بدرا أو الحديبية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر ويقدمهم على غيرهم . وفى الخصائص الصغرى : وخص أهل بدر من أصحابه صلى الله عليه وسلم بأن يزادوا فى صلاة الجنازة على أربع تكبيرات تمييزاً لفضلهم .

(١) راجع تاريخ ابن الأثير (٢) راجع ابن الأثير .
(٣) راجع أسد الغابة الجزء الثانى تحت اسم حويطب بن عبد العزى .

وفاة رقية

ابنـة رسول الله

تزوجت رقية ابنة رسول الله عثمان بن عفان بمكة وهاجرت معه إلى الحبشة وولدت له هناك ولداً سماه عبدالله وكان عثمان يكنى به . فبلغ الغلام ست سنين فنقر عينه ديك فورم فى وجهه ومرض ومات . وكان موته فى جمادى الأولى سنة أربع .

ولما سار رسول الله إلى بدر ، كانت ابنته رقية مريضة فتخلف عليها عثمان بأمر رسول الله له بذلك فتوفيت يوم وصول زيد بن حارثة مبشراً بظفر رسول الله وكانت قد أصابتها حصبة .

زواج فاطمة بنت رسول الله

سنـة ٢ هـ

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم هى سيدة نساء العالمين ماعدا مريم ابنة عمران صلى الله عليهما . أمها خديجة بنت خويلد . وكانت تكنى أم أبيها وكانت أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

زوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم من علىّ بعد أن ابتنى بعائشة بأربعة أشهر ونصف ، وابتنى بها بعد تزويجه إياها بسبعة أشهر ونصف وكانت سنها يوم تزويجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر . وانقطع نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا منها فإن الذكور من أولاده ماتوا صغاراً .

خطب أبو بكر وعمر فاطمة إلى رسول الله فأبى عليهما فقال عمر أنت لها ياعلىّ فقال مالى من شىء إلا درعى أرهنها ، فزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة . فلما بلغ ذلك فاطمة بكت . فدخل عليها رسول الله فقال : مالك تبكين يافاطمة ؟ فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلماً وأولهم سلماً .

وعن علىّ رضى الله عنه قال : خُطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ فقالت لى مولاة لى : هل علمت أن فاطمة خطبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت لا . قالت فقد خطبت فما يمنعك أن تأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيزوجك قلت : وهل عندى شىء أتزوج به ؟ فقالت إنك إن جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجك . فوالله مازالت ترجينى حتى دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جلالته وهيبته فلما قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما أستطيع أن أتكلم . فقال ما جاء بك ؟ فسكت . فقال : لعلك جئت تخطب فاطمة ؟ قلت نعم . قال وهل عندك من شىء تستحلها به ؟ فقلت لا والله يارسول الله . فقال ما فعلت بالدرع التى

ساحتكها ؟ فقلت عندى ، والذى نفس علىّ بيده إنها لحطمية[1] ما ثمنها أربعمائة درهم . قال قد زوجتك فابعث بها فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ ليلة البناء بفاطمة : لا تحدثن شيئاً حتى تلقانى . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء فتوضأ منه ثم أفرغه على علىّ وقال « اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما فى نسلهما » .

قال ابن إسحاق وحدثنى من لا أتهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يغار لبناته غيرة شديدة . كان لا يُنكح بناته على ضرة .

وعن المسور بن مخرمة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم علىّ بن أبى طالب فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن إلا أن يريد علىّ بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم فإنها بضعة منى . يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها .

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجهزوا فاطمة . فجعل لها سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف! وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء بنت عميس فهيأت البيت فصلى العشاء وأرسل إلى فاطمة رضى الله عنها فجاءت مع أم أيمن بركة الحبشية مولاته صلى الله عليه وسلم حتى قعدت فى جانب البيت وعلىّ رضى الله عنه فى جانب آخر ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما صلى العشاء الآخرة فقال : أهاهنا أخى ؟ قالت أم أيمن : أخوك وقد زوجته ابنتك ؟ قال نعم . إى هو كأخى فى المنزلة والمؤاخاة فلا يمتنع علىّ تزويجى إياه بنتى . ودخل صلى الله عليه وسلم وقال لفاطمة رضى الله عنها : ائتنى بماء . فقامت تعثر فى ثوبها من الحياء إلى قعب فى البيت . فأتت فيه بماء فأخذه ومج فيه (أى وضعه فى فمه ورمى فى القعب والقعب إناء ضخم كالقصعة) ثم قال لها تقدمى فتقدمت ، فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال : اللهم إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . ثم قال : أدبرى فأدبرت فصب بين كتفيها ، ثم فعل مثل ذلك بعلىّ ، ثم قال له : ادخل بأهلك باسم الله والبركة ، وكان مهرها رضى الله عنها ٤٠٠ درهم فضة . وخرّ على رضى الله عنه ساجداً شكراً لله تعالى .

وكانت وليمة علىّ رضى الله عنه آصعاً من شعير وتمر وحَيْس (وهو تمر يخلط بسمن) وقيل أولم بكبش من سعد وآصع من ذرة من عند جماعة من الأنصار . وكان فرشهما ليلة عرسهما جلد كبش . وكانت سن علىّ يومئذ ٢١ سنة وخمسة أشهر .

وتلقب فاطمة بالبتول لانقطاعها الدنيا . ولدت لعلىّ الحسن والحسين وزينب . أم كلثوم . وكانت مشيتها مشية رسول الله كما قالت عائشة وتوفيت فاطمة بعد رسول الله بستة أشهر وهذا أصح ماقيل . ومارئيت ضاحكة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم حتى لحقت بالله تعالى وكانت أول أهله لحوقاً به وهى أول من غُطى نعشها فى الإسلام

(١) حطمية : دروع نسبت إلى بطن من عبد قيس يقال لهم حطمة بن محارب كانو يعملون الدروع .

وأوصت أن تدفن ليلا . قيل توفيت لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة وكان عمرها ٢٩ سنة وقيل ٣٠ رحمها الله تعالى .

غزوة بنى سليم

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة من بدر لم يقم إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنى سُليم واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ـ وهو من مشاهير الصحابة ـ وعلى الصلاة ابن أم مكتوم [١] وكان لواؤه أبيض حمله على بن أبى طالب رضى الله عنه . فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ماء من مياههم يقال له (الكُدْر [٢]) فأقام صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال . ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً وارتفع القوم وهربوا وبقيت نعمهم ، فظفر بها صلى الله عليه وسلم وانحدر بها إلى المدينة وقسمها بصرار ، وهو مكان على ثلاثة أميال من المدينة وكانت خمسمائة بعير . وكانت مدة غيبته خمس عشرة ليلة .

غزوة بنى قينقاع

سنة ٢ هـ — ٦٢٤ م

قَينقاع اسم لشعب من اليهود الذين كانوا بالمدينة ، أضيف إليهم سوق كانت بها ، ويقال سوق بنى قينقاع وهم من موالى الخزرج وحلفاء عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبىّ ابن سَلول ، وكان عددهم قليلا وصناعتهم الصياغة وهم أغنى سكان المدينة، وكانت بينهم وبين بنى النضير وبنى قريظة عدواة قديمة فى الجاهلية سببها اشتراكهم مع الخزرج فى يوم بعاث . كما ذكرنا سابقاً .

---

(١) ابن أم مكتوم هو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم . مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم . أمه أم مكتوم اسمها عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة بن عامر بن مخزوم وهو ابن خال خديجة بنت خويلد فإن أم خديجة رضى الله عنها فاطمة بنت زائده بن الأصم هاجر إلى المدينة واستخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة ثلاث عشرة مرة فى غزواته على الصلاة فقط لأنه كان أعمى وقضاء الأعمى غير صحيح . وشهد ابن أم مكتوم فتح القادسية ومعه اللواء . قيل إنه قتل بالقادسية شهيداً وقيل إنه رجع إلى المدينة فات بهـا .

وهو الأعمى الذى ذكره الله سبحانه وتعالى فى كتابه فى قوله (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) وأجمع المفسرون على أن الذى عبس وتولى هو الرسول عليه الصلاة والسلام وأجمعوا على أن الأعمى هو ابن أم مكتوم . أتى رسول الله ابن أم مكتوم وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم فقال للنبى صلى الله عليه وسلم أقرئنى وعلمنى مما علمك الله وكرر ذلك فكره رسول الله قطعه لكلامه وأعرض عنه فنزلت هذه الآية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رآه يقول مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى ويقول هل لك من حاجة ، ولاشك أن فى استخلافه على المدينة إكراما له .

(٢) الكدر جمع أكدر . وقرقرة الكدر . قال الواقدى : بناحية المعدن قريبة من الأرحضية بينها وبين المدينة ثمانية برد . وقال غيره ماء ابنى سليم وقيل لهذا الماء الكدر لأن به طيراً فى ألوانها كدرة .

كانت غزوة بنى قينقاع فى شوال من السنة الثالثة من الهجرة (فبراير سنة ٦٢٤ م) قال ابن إسحاق : كان من أمر بنى قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق بنى قينقاع ثم قال : « يامعشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وفى عهد الله إليكم » .

قالوا يامحمد إنك ترى أنا كقومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إناوالله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس . أى أنهم بذلك دعوه للقتال .

دعا رسول الله بنى قينقاع إلى الإسلام ، وإلى الاعتراف بنبوته لأنهم يجدون ذلك فى كتابهم ، لكنهم مع ذلك وعلى قلة عددهم وإقامتهم مع المسلمين فى المدينة نفسها أغاظوا له فى الجواب ولم يقفوا عند حدود الأدب وادعو الشجاعة .

قال الدكتور ولفنسون فى كتابه تاريخ اليهود فى صدد ماردوا به على رسول الله : «إنهم أجابوه بكل جرأة وتبجح - ص ١٢٩ » وقال « يظهر من هذا الرد أن بنى قينقاع كانوا يعتمدون على معاضدة حلفائهم من الخزرج فى نزاعهم مع الرسول قبل كل شىء ، إذ لا يتصور أن بطناً صغيراً كبطن بنى قينقاع يجرؤ على إعلان الحرب ضد أغلب بطون يثرب ، ولكن بنى الخزرج خذلوهم ولم يتحركوا لنجدتهم رغم أنهم من مواليهم ص ١٢٩-١٣٠ » .

وقد كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوا فيما بين بدر وأحد .

قال ابن هشام : وذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة عن أبى عون قال :

كان من أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ بها فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله . وكان يهوديًّا فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع !

ولم يرو هذه الحادثة ابن إسحاق وكذا لم يذكرها الطبرى فى تاريخه ولا ابن سعد فى طبقاته . وليس فى هذه القصة ذكر لاسم المرأة ولا اسم الصائغ الذى قتل ولا اسم المسلم القاتل له ، ولذلك نشك فى صحة هذه القصة لا لأن ابن إسحاق لم يروها بل لأن روايتها بهذه الصفة تحملنا على الشك إذ ليس فيها ما يساعدنا على البحث والتحقيق . لذلك لا نعتمد عليها .

وقد حاصرهم رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يطلع منهم أحد حتى نزلوا على حكمه فكتفوا وهو يريد قتلهم ويبلغ عددهم ٤٠٠ - فقام إليه عبد الله بن أبى ابن سلول حين أمكنه الله منهم (وكانوا حلفاءه وحلفاء عبادة بن الصامت) فقال يامحمد أحسن فى موالى ! فأبطأ عليه النبى ﷺ فقال يامحمد ، أحسن فى موالى . فأعرض عنه النبى

صلى الله عليه وسلم فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرسلنى وغضب ﷺ حتى رأوا فى وجهه ظلالا[1] ثم قال: ويحك أرسلنى. قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن إلى موالى، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع منعونى من الأسود والأحمر تحصدهم فى غداة واحدة وإنى والله لا آمن وأخشى الدوائر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم لك لا بارك الله لك فيهم. وعن عمر بن قتادة أنه قال: خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم فأرسلوهم، ثم أمر بإجلائهم وغنّم الله عز وجل رسوله والمسلمين ما كان لهم من مال ولم تكن لهم أرضون إنما كانوا صاغة فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم سلاحاً كثيراً وآلة صياغتهم. وكان الذى ولى إخراجهم من المدينة بذراريهم، عبادة بن الصامت فمضى بهم حتى بلغ ذباب[2] وهو يقول الشرف الأبعد الأقصى فالأقصى. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر.

وقد استغرق خروجهم ثلاثة أيام وذهبوا إلى أذرعات[3] ولم يدر الحول عليهم حتى هلكوا بدعوته صلى الله عليه وسلم فى قوله لابن أبى: لا بارك الله لك فيهم. وكان عددهم ٤٠٠ حاسر و٣٠٠ دارع فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخلى سبيلهم وأن يجلوا من المدينة وأن لهم النساء والذرية ويجعلوا بقية الأموال للنبىّ صلى الله عليه وسلم ومنها الحلقة التى هى السلاح، ولم يكن لهم نخيل ولا أراض تزرع فصالحهم على ذلك فنزلوا فخمست أموالهم. جعل منها أربعة أخماس للمؤمنين المجاهدين وخمساً له صلى الله عليه وسلم فكان أول خمس قبضه رسول الله، وقد وجد فى منازلهم سلاح كثير فأخذ رسول الله ﷺ من سلاحهم ثلاث قسى قوسا تدعى (الكتوم) لا يسمع لها صوت إذا رمى بها كسرت بأحد، وقوساً تدعى (الروحاء) وقوساً تدعى (البيضاء) وأخذ درعين، درعاً يقال لها (السغدية) يقال إنها درع داود التى لبسها حين قتل جالوت والأخرى يقال لها (فضة) وثلاثة أرماح وثلاثة أسياف. ووهب ﷺ درعاً لمحمد بن مسلمة ودرعاً لسعد بن معاذ. وكان لواء رسول ﷺ يوم بنى قينقاع لواء أبيض مع حمزة بن عبد المطلب.

غزوة السويق

غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق فى ذى الحجة من السنة الثانية من الهجرة (إبريل ٦٢٤ م) وولى تلك الحجة المشركون من تلك السنة. وكان أبو سفيان حين رجع إلى مكة نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة أى لا يأتى النساء حتى يغزو محمداً ﷺ فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبر بيمينه[4] فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نيب من المدينة على بريد أو نحوه. ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير ليلا،

---

(١) يعنى تلونا. (٢) جبل بالمدينة (٣) بلدة بالشام.

(٤) الغسل من الجنابة كان معمولا به فى الجاهلية بقيه دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما بقى فيهم الحج والنكاح، فكان الحدث الأكبر معروفاً عندهم، وأما الحدث الأصغر، فلم يكن معروفاً عندهم قبل الإسلام.

فاتى حُيى بن أخطب وهو من رؤساء بنى النضير ، وهو أبو صفية أم المؤمنين ، فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له وخافه فانصرف عنه إلى سلّام بن مِشكم وكان سيد بنى النضير فى زمانه وصاحب كنزهم فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه خمراً وبطن له من خبر الناس ثم خرج فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالا منْ قريش إلى المدينة فأتوا ناحية منها يقال لها العريض فحرقوا أصواراً[1] من نخل بها ووجدوا بها معبد بن عمرو الأنصارى وحليفاً له فى حرث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبهم فى ٢٠٠ من المهاجرين والأنصار واستعمل على المدينة بشير ابن عبد المنذر (وهو أبو لبابة) حتى بلغ قرقرة الكُدر . ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان وأصحابه وقد رأوا أزواداً من أزواد القوم قد طرحوها فى الحرث يتخففون منها للنجاة . فقال المسلمون حين رجع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسول الله أتطمع لنا أن تكون غزوة ؟ قال نعم .

وإنما سميت « غزوة السَّويق » لأن أكثر ما طرح القوم من أزوادهم « السويق » فرجع المسلمون بسويق كثير فسميت (غزوة السويق[2]) .

والظاهر أن أبا سفيان أراد بهذه الغزوة أن يبر بيمينه فقط ، لأنه لا يُتصور أنه كان يريد بهذه القوة الصغيرة (٢٠٠ راكب) الانتصار على المسلمين فى هذه الغزوة بعد أن شاهد قوتهم فى غزوة بدر . لذلك كانت هذه مناوشة لا قيمة لها .

غزوة ذى أمر

وهى غزوة غَطَفَان

لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة السويق ، أقام بالمدينة بقية ذى الحجة أو قريباً منها ثم غزا نجداً يريد غطفان وهى غزوة ذى أَمَر لأن جمعاً من بنى ثعلبة ومحاربة تجمعوا بذى أَمَر يريدون الإغارة ، جمعهم دُعْثُور بن الحارث المحاربى ، فخرج رسول الله ﷺ فى ٤٥٠ رجلا واستعمل على المدينة عثمان بن عفان فلما سمعوا بمجيئه هربوا فى رءوس الجبال فرجع رسول الله ﷺ ولم يلق كيداً وأقام بنجد صفراً كله أو قريباً من ذلك . وأصاب المسلمون رجلا منهم يقال له جبار الثعلبى فدعاه رسول الله إلى الإسلام فأسلم وضمه إلى بلال ليعلمه الشريعة الإسلامية كما هو دأبه من العناية بتعليم المسلمين وفى هذه الغزوة أسلم دعثور بمعجزة من النبى ﷺ مع أنه هو الذى جمع قومه لمحاربته ﷺ وكان سيداً شجاعاً وبعد أن أسلم ذهب إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام فاهتدى به خلق كثير .

(١) جمع صور وهو النخل الصغير .

(٢) السويق هو قمح أو شعير يقلى ثم يطحن ليسف تارة بالماء وتارة بسمن وتارة بعسل وسمن .

زواج أم كلثوم

ابنة رسول الله ﷺ

أم كلثوم ، ابنة رسول الله من خديجة رضى الله عنها وهى أصغر سنًا من رقية لأن رسول الله زوّج رقية من عثمان فلما توفيت زوّجه أم كلثوم وما كان ليزوج الصغرى ويترك الكبرى ، وكان رسول الله زوّج رقية وأم كلثوم من عتبة وعتيبة ابنى أبى لهب فلما أنزل الله عز وجل : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ قال أبو لهب لابنيه: رأسى من رءوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد وقالت أم جميل أمهما « حمالة الحطب » بنت حرب بن أمية لابنيها ، إن رقية وأم كلثوم قد صبأتا فطلقاها . ففعلا فطلقاهما قبل الدخول بهما . فزوج النبى صلى الله عليه وسلم رقية من عثمان ، فلما توفيت زوّجه أم كلثوم رضى الله عنهم ، وكان نكاحه إياها فى ربيع الأول من سنة ثلاث وبنى بها فى جمادى الآخرة من السنة ولم تلد منه ولداً و توفيت سنة أربع وصلى عليها رسول الله .

زواج حفصة

فى شعبان من هذه السنة تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بعد أن انقضت عدتها من زوجها خُنيْس بن حذافة[1] ، قال عمر رضى الله عنه : ولدت حفصة وقريش تبنى البيت قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بخمس سنين .

وقد كان عمر رضى الله عنه عرض حفصة على أبى بكر فلم يجبه بشىء ، وعرضها على عثمان فلم يجبه بشىء فقال عمر يارسول الله قد عرضت حفصة على عثمان فأعرض عنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد زوج عثمان خيراً من ابنتك وزوّج ابنتك خيرا من عثمان ، فتزوج عثمان أم كلثوم وتزوج رسول الله حفصة وكان عمرها ٢٠ عاماً .

وتزوج رسول الله حفصة سنة ٣ بعد عائشة وطلقها تطليقة فبلغ ذلك عمر فحثا التراب على رأسه وقال : مايعبأ الله بعمر وابنته ثم ارتجعها رسول الله . وتوفيت سنة ٤١ هـ فى زمن معاوية .

سرية زيد بن حارثة

سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدْ ـ ماء من مياه نجد[2] ـ وسببها أن قريشاً خافوا من طريقهم التى يسلكونها

---

(١) هو أخو عبد الله بن حذافة . كان من السابقين إلى الإسلام وهاجر إلى أرض الحبشه وعاد إلى المدينة فشهد بدراً . وأحداً وأصابته بأحد جراحة فات منها .

(٢) نجد معناه الأرض المرتفعة وهو بين اليمامة واليمن والحجاز ويحده من الشرق العراق .

إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان فسلكوا طريق العراق فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب وصفوان ابن أمية وحويطب بن عبد العزى وكلهم أسلموا عام الفتح ومعهم فضة كثيرة . فبعث رسول الله زيد بن حارثة رضى الله عنه فى ١٠٠ راكب فلقيهم على ذلك الماء فأصاب العير وما فيها وهرب الرجال ، فقدم بالعير على رسول الله فخمسها فبلغت قيمة الخمس ، عشرين ألف درهم . وكانت هذه السرية فى جمادى الآخرة من السنة الثالثة من الهجرة (سبتمبر سنة ٦٢٤ م) .

قتل كعب بن الأشرف

كعب بن الأشرف اليهودى كان أبوه عربيا من بنى نبهان . أصاب دماً فى الجاهلية فأتى المدينة فحالف بنى النضير فشرف فيهم وتزوج عقيلة بنت أبى الحقيق فولدت له كعباً . وكان طويلاً جسيماً ذا بطن وهامة ، شاعراً مجيداً ، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله فكان يعطى أحبار يهود ويصلهم . وكان يهجو رسول الله ﷺ فى أشعاره ويحرض كفار قريش على قتاله . وكان من عداوته أنه لما أصيب أصحاب بدر ، قدم زيد بن حارثة إلى أهل السافلة وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية ، بشيرين بعثهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بالمدينة من المسلمين يخبرانهم بفتح الله عز وجل عليه وقتل من قتل وأسر من أسر من المشركين ، كبر عليه ذلك وقال : أحق هذا ؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذا الرجلان (البشيران) وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظهرها . فلما تيقن الخبر ورأى الأسرى خرج إلى قريش يبكى قتلاهم ويحرّض بأشعاره على قتال النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان ينتقل من قوم إلى قوم وأخباره تصل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيذكره لحسان فيهجوه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت » ، ثم رجع إلى المدينة فتغزل فى نساء المسلمين وذكرهن بسوء وأبى أن ينزع عن أذاه ، وكان يرمى إلى إحداث ثورة فى المدينة ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغضب رسول الله ﷺ وقال : من لى بابن الأشرف ؟ فقال محمد بن مسلمة أخو بنى عبد الأشهل : أنا لك به يارسول الله هو خالى ، أنا أقتله . قال فافعل إن قدرت على ذلك ، فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا مايعاق به نفسه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه فقال له : لم تركت الطعام والشراب ؟ فقال يارسول الله قلت لك قولاً لا أدرى أأفين لك به أم لا ؟ قال إنما عليك الجهد .

ثم أتى أبا نائلة ، وكان أخاً لكعب بن الأشرف من الرضاعة وكان شاعراً وعباد بن بشر والحارث بن أوس وأخبرهم بما وعد به رسول الله من قتل ابن الأشرف ، فأجابوه وقالوا كلنا نقتله ، ثم أتوا رسول الله وقالوا يارسول الله لابد لنا أن نقول . قال : قولوا مابدا لكم فأنتم فى حِلّ من ذلك . ومعنى ذلك أنهم استأذنوه أن يقولوا قولا غير مطابق للواقع يسر كعباً ليتوصلوا به إلى قتله وكان لابد لهم من التماس الحيلة لأنه كان يقيم فى حصن

منيع خارج المدينة ، فأباح لهم الكذب لأنه من خدع الحرب ، فجاء محمد بن مَسلمة ، كعبَ بن الأشرف فقال : إن هذا الرجل — يعني النبي ﷺ — قد سألنا صدقة ونحن ما نجد ما نأكل وإنه قد عنّانا[1] وإني قد أتيتك أستسلفك . قال كعب وأيضاً والله لتَمَلُّنَّهُ[2] . قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين . قال : ألم يأن لكم أن تعرفوا ما أنتم عليه من الباطل ؟ ثم أجابهم بأنه يسلفهم ، وقال : ارهنوني ، قالوا أي شيء تريد ؟ قال : ارهنوني نساءكم !! قالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قال فارهنوني أبناءكم ، قال وكيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن وسق أو وسقين ؟ هذا عار علينا ولكن نرهنك اللأمة يعني السلاح مع علمك بحاجتنا إليه قال نعم وإنما قالوا ذلك لئلا ينكر عليهم مجيئهم إليه بالسلاح فواعده أن يأتيه وجاءه أيضاً أبو نائلة وقال له : ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد أن أذكرها لك فاكتم عني . فقال : أفعل . قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء عادتنا العرب ورمينا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتى جاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا . فقال كعب : أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول . فقال : إني أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك وإن معي أصحاباً على مثل رأيي وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن إليهم ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء . فقال : إن في الحلقة لوفاء ، وكان أبو نائلة أخاً لكعب من الرضاعة ومحمد بن مسلمة ابن أخيه من الرضاعة ، فجاءه محمد بن مسلمة وأبو نائلة ومعهما عباد بن بشر والحارث بن أوس بن معاذ وأبو عبس بن جبر وكلهم من الأوس . ولما فارقوا النبي صلى الله عليه وسلم ، مشى معهم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال انطلقوا على اسم الله اللهم أعنهم . ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى بيته وكان ذلك بالليل وكانت الليلة مقمرة ، فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه وكان حديث عهد بعرس فناداه أبو نائلة ثم بقية أصحابه فعرفهم ووثب في ملحفته فأخذته امرأته بناحيتها وقالت إنك امرؤ محارب وإن أصحاب الحروب لا ينزلون في مثل هذه الساعة . قال لها إنه لأبو نائلة لو وجدني نائماً ما أيقظني ، فقالت : والله إني لأعرف في صوته الشر . فقال لها كعب لو يدعى الفتى لطعنة لأجاب ، فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قالوا : هل لك يا ابن الأشرف أن تمشي إلى شعب العجوز[3] نتحدث به بقية ليلتنا ؟ فقال : إن شئتم . فخرجوا يتماشون فمشوا ساعة ، ثم إن أبا نائلة أدخل يده في باطن رأسه ثم شم يده وقال : ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط ! ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها وأمسكه من شعره وقال : اضربوا عدوا الله فضربوه بأسيافهم فوقع على الأرض فجزوا رأسه فحملوه في مخلاة

(١) عنانا : أي أتعبنا بما كلفنا به من الأوامر والنواهي التي فيها تعب ، لكنه في مرضاة الله ، وهذا من التعريض الجائز .

(٢) أي تزيد ملالتكم وتتضجرون منه أكثر وأزيد من ذلك .

(٣) اسم موضع كان قريبا منهم .

كانت معهم إلى رسول الله ، وكان ذلك فى السنة الثالثة من الهجرة شهر ربيع الأول (يوليه سنة ٦٢٤ م) .

هذه الحادثة قد أوقعت الرعب فى نفوس اليهود جميعاً ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه . فلم يخرج من عظمائهم أحد من شدة خوفهم .

قتل ابن سُنَيْنَة

ولما سمع مُحيِّصة بن مسعود ذلك من رسول الله وثب على ابن سُنَيْنَة اليهودى وهو من تجار يهود فقتله . فقال له أخوه حُوَيِّصه وهو مشرك ياعدو الله قتلته أما والله لرب شحم فى بطنك من ماله وضربه. فقال محيِّصة: لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لقتلتك ، قال فوالله لئن كان لأول إسلام حويصة فقال إن ديناً قد بلغ بك ما أرى لعجب ثم أسلم .

***

هذه قصة مقتل كعب بن الأشرف ذكرنا ملخصها من أوثق المصادر التاريخية . وقد استنكر بعض الافرنج الذين كتبوا سيرة الرسول صلى الله عليه اغتيال كعب بأمر رسول الله لكن كعباً هو الذى أساء إلى نفسه إذ قد ساقه الغرور إلى ارتكاب متن الشطط بعداء النبى معتمداً على ثروته وجاهه وشعره ، فإنه بعد أن عاهد النبىَّ مع من عاهده من اليهود نقض العهد ونشط يهجو رسول الله والمسلمين بأشعاره ، ورحل إلى مكة يبث الدعوة للقتال فإذا ما عاد إلى المدينة تغزل بنساء المسلمين ولاريب أن ذلك كله يوغر الصدور. والعرب لا يغفرون لمن يرمى نساءهم بسوء . ومن هذا نرى أنه كان عرضة للقتل بيد كل من يغار على حريمه ودينه من المسلمين .

ذكرنا مقتل كعب بن الأشرف قبل موقعة أحد لأن سرية محمد بن مسلمة كانت فى شهر ربيع الأول من السنة الثالثة ، وغزوة أحد فى شوال من هذه السنة . ذلك أن كعباً لما جاء البشيران اللذان أرسلهما رسول الله ليزفا إلى المسلمين خبر انتصارهم فى بدر وقتل من قُتل وأسر من أسر من أشراف قريش لم يصدقهما . فلما سأل الناس وتثبت من صحة الخبر رحل إلى مكة وأخذ يحرض قريشاً على قتال المسلمين بأشعاره طارقاً أبوابهم ثم رجع إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين فأمر رسول الله بقتله فقتل وقد حدث ذلك بعد وقعة بدر وقبل أُحد إذ الذى دفعه إلى الرحيل إلى مكة وإظهار عدائه شدة تغيظه من انهزام المشركين وانتصار المسلمين ذلك الانتصار المبين وقد ذكر ابن هشام وابن الأثير وابن سعد فى طبقاته وفى كتاب السير للإمام أبى العباس مقتل كعب قبل أحد وكذلك أورده الطبرى قبل أحد مع حوادث السنة الثالثة للهجرة وقد نقل عن الواقدى أن النبى وجه من وجه إليه (أى كعب) فى شهر ربيع الأول من هذه السنة (الثالثة) وأرخ مستر موير هذه الحادثة يوليه سنة ٦٢٤ (السنة الثالثة من الهجرة) .

ومن الغريب أن الأستاذ ولفنسون يغمض عينيه عن هذه المراجع المهمة فى رسالته (تاريخ اليهود) ويتشبث برأى اليعقوبى ويعتبره صحيحاً لأن اليعقوبى يقول إن النبى أمر بقتل كعب بن الأشرف بعد يوم أحد أى فى ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة . لكن ما الذى ألجأ الأستاذ إلى ذلك ؟ إن الذى ألجأه إلى ذلك نفى التهمة عن كعب بن الأشرف وهى تحريضه قريشاً على قتال المسلمين وتشبيبه بنسائهم فاضطر إلى تكذيب رواية ابن هشام وغيره من كبار المؤرخين .

فلماذا قتل كعب إذن ؟

قال الأستاذ : إنه قتل فى السنة الرابعة قبيل محاصرة النبى لبنى النضير وكان قتله بمثابة إعلان حرب عليهم فإنه كان زعيماً من زعمائهم .

وبذلك نفى الأستاذ ولفنسون التهمة عن كعب وجوز على النبى قتل زعيم من زعماء بنى النضير لا لشئ غير إعلان الحرب عليهم .

غزوة أحد

يوم السبت ١٥ شوال سنة ٣ هـ (يناير سنة ٦٢٥ م)

أحد جبل مشهور بالمدينة فى شماليها الغربى بينه وبين المدينة ثلاثة أميال . سُمى بذلك لتوحده وانفراده عن غيره من الجبال التى هناك وهو الموضع الذى دفن فيه هارون أخو موسى عليهما السلام .

وسببها أن قريشاً لما أصابهم يوم بدر ما أصابهم مشى عبد الله بن أبى ربيعة . وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية[1] . ومشى معهم رجال آخرون من أشراف قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم . فكلموا أبا سفيان وكل من له تجارة فى تلك العير التى كانت سبباً فى وقعة بدر ، وكانت تلك العير موقوفة بدار الندوة ولم تعط لأربابها . فقالوا إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً عمن أصاب منا ونحن طيبو النفس أن تجهزوا بربح هذه العير جيشنا إلى محمد .

فقال أبو سيفان : وأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معى فجعلوا لذلك ربح المال فسلم لأهل العير رءوس أموالهم وكانت ٥٠٫٠٠٠ دينار وأخرجوا أرباحها وكان الربح ديناراً لكل دينار . وتجهزت قريش ومن والاهم من قبائل كنانة وتهامة . وقال صفوان بن أمية لأبى عزة الجمحى : ياأبا عزة إنك رجل شاعر فأعنا بلسانك ولك علىّ إن رجعت أن أغنيك . وأن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى يصيبهن ماأصابهن من عسر ويسر . فقال: إن محمداً قد من علىّ وأطلقنى وأنا أسير فى أسارى بدر فلا أريد أن أظاهر عليه . قال بلى فأعنا بلسانك .

(١) أسلم هؤلاء بعد ذلك .

خرج أبو عزة ومسافع يستفزان الناس بأشعارهما . ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقذف بالحربة قلما يخطىء بها ، فقال له اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة بن عبد المطلب بعمّى طعيمة بن عدى فأنت حر . لأن حمزة هو الذى قتل طعيمة يوم بدر ، وقيل إن ابنة سيده طعيمة قالت له إن قتلت محمداً أو حمزة أو علياً فى أبى فإنى لا أرى فى القوم كفءا له غيرهم ، فأنت عتيق .

وكان أبو سفيان بن حرب قائدهم وكانت عدتهم ٣٠٠٠ فيهم ٧٠٠ دارع ومعهم ٢٠٠ فرس . وجملة النساء ١٧ امرأة معن الدفوف والمعازف أى آلات الملاهى والخمور والبغايا وخرجت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان التى قتل أبوها فى غزوة بدر لتنتقم لأبيها وقالت « نحن بنات طارق * نمشى على النمارق * إن تقبلوا نعانق * أو تدبروا نفارق * فراق غير وامق » وخرجت أم حكيم بنت طارق مع زوجها عكرمة وريطة بنت منبه السهمية مع زوجها عمرو بن العاص وغيرهن يبكين قتلى بدر (إذ البكاء دأب النساء) وينحن عليهم ويحرضن على القتال وعدم الهزيمة والفرار .

وكان خروجهم من مكة لخمس مضين من شوال . وكتب العباس للنبى ﷺ وأخبره بجمعهم وخروجهم وأرادوه على الخروج معهم فأبى واعتذر بما لحقه يوم بدر ولم يساعدهم بشىء من المال . فجاء كتابه للنبى ﷺ وهو بقباء وكان العباس أرسل الكتاب مع رجل من بنى غفار ، استأجره وشرط عليه أن يأتى المدينة فى ثلاثة أيام بلياليها ففعل ذلك . فلما جاء الكتاب فك ختمه ودفعه لأبى بن كعب فقرأه عليه .

وهذا مما يؤيد أن النبى ﷺ كان أمياً بمعنى أنه ما كان يعرف القراءة والكتابة وإلا لكان قرأ الكتاب بنفسه وكتم سره بدلا من أن يطلب من أبى بن كعب تلاوته ثم يستكتمه .

ثم نزل ﷺ على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس فقال : والله إنى لأرجو أن يكون خيراً فاستكتمه إياه . ولما خرج رسول الله ﷺ من عنده ، قالت له امرأته : ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ فقال لها : يأم محمد ما أنت وذاك ! فقالت قد سمعت ماقال وأخبرته بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاسترجع وأخذ بيدها ولحق النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره خبرها . وقال يارسول الله : إنى خفت أن يفشو الخبر فترى أنى أنا المفشى له ، وقد استكتمتنى إياه . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خل عنها .

سارت قريش وهم ٣٠٠٠ رجل ومعهم الأحابيش[1] الذين حالفوا قريشا وهم بنو المصطلق وبنو الهون بن خزيمة وخرج معهم أبو عامر الراهب فى ٧٠ فارساً . . وسماه رسول الله ، الفاسق بدلا عن الراهب ، وابنه حنظلة من فضلاء الصحابة وهو من المستشهدين بأحد . اجتمع الأحابيش عند حبيش وهو جبل بأسفل مكة وتحالفوا على أنهم مع قريش يداً واحدة ما سجا ليل ووضح نهار ورسا حبيش مكانه .

(١) قيل سموا أحابيش باسم جبل بأسفل مكة : يقال له « حبيش » وقيل سموا بذلك لتحبشهم أى تجمعهم .

سارت قريش حتى نزلوا ببطن الوادى من قبل أحد مقابل المدينة بذى الحليفة . وكان وصولهم يوم الأربعاء ثانى عشر شوال فأقاموا به الأربعاء والخميس والجمعة ، وتشاور المسلمون فى الخروج من المدينة . وكان رأى عبد الله ابن أبىّ ابن سلول رأى النبى ﷺ فإنه كان يرى عدم الخروج منها . ولكن ألحّ عليه ﷺ بعضُ الصحابة فخرج فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال .

وقد رأى النبى ﷺ رؤيا قبل خروجه ، وكانت ليلة الجمعة . فلما أصبح قال : والله إنى قد رأيت خيراً رأيت بَقَراً تُذبح ورأيت ذباب سيفى (طرفه) ثلماً ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة وكأنى مردف كبشاً. فأما البقر فناس من أصحابى يقتلون . وأما الثّلم الذى رأيت فى سيفى فهو رجل من أهل بيتى يقتل .وأولت الدرع الحصينة المدينة ، وأولت الكبش بأنى أقتل صاحب الكتيبة . وقد صدق الله رؤياه ﷺ . فكان الرجل الذى من أهل بيته « حمزة » سيد الشهداء . وقتل علىّ رضى الله عنه « طلحة بن عثمان العبدرى » صاحب لواء المشركين . فهو صاحب الكتيبة وكبش القوم سيدهم وكان الذى بسيفه ما أصاب وجهه الشريف فى الغزوة كما سيأتى ذكره .

قال رسول الله ﷺ لأصحابه : امكثوا بالمدينة ، فإن دخل القوم المدينة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فهى كالحصن . وكان ذلك رأى أكابر المهاجرين والأنصار وأرسل إلى عبد الله بن أبىّ ابن سلول يستشيره تألفاً له ولم يستشره قبل ذلك . فكان رأى عبد الله مع رأيه ﷺ . فقال رجال من المسلمين لم يحضروا بدراً وأسفوا على مافاتهم من مشهدها : يارسول الله ، إنا كنا نتمنى هذا اليوم ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جبنّا عنهم ووافقهم حمزة بن عبد المطلب .

فقال ابن أبىّ : يارسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم . فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا . ولا دخلها علينا إلا أصبنا منهم . فدعهم يارسول الله فإن أقاموا ، أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا ، رجعوا خائبين كما جاءوا .

وقال حمزة بن عبد المطلب وسعد بن عبادة والنعمان بن مالك وطائفة من الأنصار إنا نخشى يارسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج جبناً عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا . وزاد حمزة فقال : والذى أنزل عليك الكتاب ، لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة . وقال النعمان : يارسول الله لا تحرمنا الجنة . فو الذى نفسى بيده لأدخلنها .

فترجح عنده ﷺ موافقة رأيهم وإن كرهه ابتداء ليقضى الله أمراً كان مفعولا ولم يكن قد أوحى إليه فى شأن البقاء أو الخروج فأنفذ مشورتهم .

صلى رسول الله ﷺ بالناس الجمعة ثم وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد وأخبرهم بأن النصر لهم ماصبروا وأمرهم

بالتهيؤ لعدوهم ثم صلى بالناس العصر . ثم دخل بيته ومعه صاحباه فعمماه وألبساه وتقلد السيف وخرج وقد لبس لأمته (درعه وقيل سلاحه) وألقى الترس فى ظهره وأخذ قناته بيده .

اصطف الناس ينتظرون خروجه صلى الله عليه وسلم فقال لهم سعد بن مُعاذ رضى الله عنه وأسيد بن حضير : استكرهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج فردوا الأمر إليه . وكان سعد بن معاذ سيد الأوس وهو فى الأنصار كالصديق فى المهاجرين .

ولما خرج رسول الله متقلداً سيفه ، ندم الطالبون لخروجه على ما صنعوا وقالوا ما كان ينبغى لنا أن نخالفك ، فاصنع ماشئت . وفى رواية فإن شئت فاقعد . فقال ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه فخرج يوم الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال ومشى على رجليه ولما خالف رسول الله رأى ابن أبىّ بخروجه إلى القتال ، شق عليه ذلك ، وقال ، أطاع الولدان وعصانى .

واستعمل على المدينة « ابن أم مكتوم » رضى الله عنه . وعقد ثلاثة ألوية ، لواء للأوس جعله بيد أسيد بن حضير . . ولواء للخزرج وجعله بيد الحباب بن المنذر ولواء للمهاجرين وجعله بيد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم .

وكان فى المسلمين مائة دارع (الدارع ، لابس الدرع) وركب ﷺ فرسه وقيل خرج ماشياً وخرج السعدان أمامه يعدوان ـ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ـ وكانا دارعين . ورد ﷺ جماعة من المسلمين نحو سبعة عشر لصغر سنهم منهم : أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى والنعمان بن بشير ورافع ابن خديج وسمرة بن جندب . ثم أجاز رافع بن خديج لما قيل إنه رام . فخرج وأصيب بسهم فى ترقوته فنزع السهم وبقى النصل إلى أن مات .

ورأى صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود مع عبد الله بن أبىّ يريدون الخروج فقال أوقد أسلموا ؟ قالوا : لا يارسول الله . قال : مروهم فليرجعوا ، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين وكان المسلمون الخارجون معه ﷺ ١٠٠٠ ثم انخذل عبد الله بن أبىّ ورجع هو ومن معه من المنافقين وكانوا ٣٠٠ فبقى المسلمون ٧٠٠ وكان عدد المشركين ٣٠٠٠ ولم يكن مع المسلمين يومئذ إلا فرسان : فرس لرسول الله وفرس لأبى بردة .

وقال ابن أبىّ حين أراد الرجوع : عصانى وأطاع الولدان ومن لا رأى له . علام نقتل أنفسنا ؟ ارجعوا أيها الناس .

لما انخذل ابن أبى ومن معه سقط فى أيدى طائفتين من المسلمين وهمتا أن تفشلا وهما : بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس .

ثم مضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى فى الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وصلى الصبح بأصحابه صفوفاً . ثم اصطف المسلمون بالسبخة وكان على ميمنة خيل المشركين خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل وعلى المشاة صفوان بن أمية وقيل عمرو بن العاص .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم للزبير بن العوام : استقبل خالداً وكن بإزائه ، وأمر جماعة آخرين أن يكونوا بإزاء خيل أخرى للمشركين ولم يكن مع المسلمين إلا فرس أو فرسان . وجعل النبى صلى الله عليه وسلم على الرماة عبد الله بن جبير بن النعمان الأوسى وهو أخو خوات بن جبير . وكان الرماة خمسين رجلا . فأقامهم النبى ﷺ على جبل صغير مرتفع . وقال لهم :

« احموا ظهورنا . لا يأتونا من خلفنا ، وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لاتقوم على النبل . إنا لانزال غالبين ما ثبتم مكانكم . اللهم إنى أشهدك عليهم » .

وفى رواية قال لهم رسول الله :

« إن رأيتمونا تخطفنا الطير ، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم . وإن رأيتمونا هزمنا القوم أو ظاهرناهم وهم قتلى فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » .

ثم عرض رسول الله ﷺ سيفاً وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام رجال وبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول : أنا يارسول الله ، منهم أبو بكر الصديق وعمر وعلى والزبير . فأمسكه عنهم ولم يعطه لهم حتى قام إليه « أبو دجانة » فقال : وما حقه يارسول الله ؟ قال : أن تضرب فى وجه العدو حتى ينحني . قال : أنا آخذه يارسول الله . قال : لعلك إن أعطيتكه تقاتل فى الكيول (مؤخر الصفوف) قال : لا يارسول الله . فأعطاه إياه وكان رجلًا شجاعاً يختال عند الحرب . فلما رآه ﷺ يتبختر قال : إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا فى مثل هذا الموطن فحمل أبو دجانة لا يلقى أحداً من المشركين إلاقتله . وكان إذا كلّ السيف شحذه بالحجارة ثم يضرب به العدو.

ولما اصطف القوم نادى أبو سفيان : يامعشر الأوس والخزرج خلوا بيننا وبين بنى عمنا وننصرف عنكم فشتموه أقبح شتم ولعنوه أشد اللعن .

وخرج طلحة بن أبى طلحة وكان بيده لواء المشركين فطلب المبارزة مراراً فلم يخرج إليه أحد فخرج إليه علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه فضربه فقطع رجليه فوقع على الأرض وبدت عورته فرجع عنه ولم يجهز عليه . فأخذ لواء المشركين أخو طلحة وهو عثمان بن أبى طلحة فحمل عليه حمزة فقطع يده وكتفه . فأخذه أخو عثمان وأخو طلحة وهو أبو سعيد بن أبى طلحة فرماه سعد بن أبى وقاص فأصاب حنجرته فقتله . فحمله مسافع بن طلحة ابن أبى طلحة الذى قتله علىّ رضى الله عنه فرماه عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح فقتله . ثم حمله أخو مسافع وهو الحارث بن طلحة فرماه عاصم أيضاً فقتله . ثم حمل اللواء كلاب بن طلحة فقتله الزبير فحمله جلاس بن طلحة فقتله طلحة بن عبيد الله ثم حمله أرطاة بن شرحبيل فقتله علىّ رضى الله عنه ثم حمله أبو زيد بن عمرو فقتله قزمان. فحمله ولد لشرحبيل بن هاشم فقتله قزمان أيضاً . ثم حمله صواب غلامهم وكان عبداً حبشياً فقتله علىّ . ثم لم يزل اللواء طريحاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فاستداروا حوله .

وقد كان لواء المشركين شؤماً عليهم ، فكلما حمله أحد قتل وهكذا قُتل أحد عشر رجلا حملوا اللواء بالتوالى وكان اهتمام المسلمين موجهاً إلى حامل العلم بنوع خاص لأنه كبش الكتيبة . ونكب بحمل العلم كل من مسافع والحارث وكلاب وجلاس. وهؤلاء الأربعة أولاد طلحة بن أبى طلحة فكلهم قُتلوا كأبيهم وعمهم وهما عثمان وأبو سعيد .

ولما قتل أصحاب اللواء صاروا كتائب متفرقة فجاش المسلمون فيهم ضرباً حتى أجهضوهم وأزالوهم عن أمكنتهم وكان شعار المسلمين يومئذ (أمت ! أمت !) وشعار الكفار (يا للعزى !) (يا لهبل) .

الكرّة على المسلمين

انهزم المشركون ووقع المسلمون ينتهبون المعسكر ويأخذون ما فيه من الغنائم واشتغلوا عن الحرب . فقال أصحاب عبد الله بن جبير وهم الرماة الذين أمرهم النبى ﷺ بالبقاء بمكانهم « الغنيمة ! أى قوم قد غلب أصحابكم ، فما تنتظرون ؟ » ومعنى ذلك أن الرماة طمعوا فى الغنيمة ناسين أمر القائد العام وهو رسول الله فإنه أمرهم بالثبات فى مراكزهم إذ قال لهم : إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم . فقال لهم قائدهم عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ يعنى قوله لا تبرحوا . فأبوا أن يطيعوه ، وقالوا : والله لنأتين الناس ولنصيبن من الغنيمة فإن المشركين قد انهزموا فما مقامنا هاهنا ؟ وقد ظن هؤلاء أن الحرب قد انتهت وأن قريشاً قد هُزمت وقد ثبت عبد الله ابن جبير فى مكانه وثبت معه دون العشرة .

فلما توجه الرماة إلى محل الغنيمة كرّ المشركون راجعين . ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل الذى كان فيه الرماة وقلة أهله فكرّ بالخيل وتبعه عكرمة بن أبى جهل فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله ابن جبير ومثلوا به ووقعت الهزيمة فى المسلمين بعد مدة وجيزة لأنهم خالفوا ما نهاهم عنه رسول الله فعوقبوا لمخالفته.

ووقع الاختلاط فى جيش المسلمين وارتبكوا وصار يضرب بعضهم بعضاً !

ثبات رسول الله ﷺ

ثبت رسول الله ولم يفارق مكانه الذى وصل إليه وقت انهزام المشركين ولم تزل قدمه شبراً واحداً عن موقفه مع أن الاختلاط كان شديداً حتى فقد المسلمون التمييز بينهم وبين أعدائهم وترك المسلمون شعارهم الذى يتعارفون به وهو (أمت ! أمت !) فوقع القتل فى المسلمين بعضهم فى بعض ، وحافظ المشركون على شعارهم . ومما زاد فى ارتباك المسلمين أن رجلًا اسمه ابنُ قميئة الليثى قتل مصعب بن عمير وكان يشبه النبى ﷺ إذا لبس لأمته فظن أنه قتل رسول الله فأذاع ذلك وكان مصعب يذب عن رسول الله وكان عدة الشهداء من المسلمين ٧٠ رجلا وعدة

القتلى من المشركين ٢٣ رجلا . وكان بين القتلى حنظلة بن أبى سفيان . ووصل العدو إلى رسول الله وأصابته حجارتهم حتى وقع وأغمى عليه وخدشت ركبتاه، فأخذ علىّ بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما ، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى وشُج فى وجهه وكلمت شفته السفلى وكُسرت الخوذة على رأسه . وامتصّ مالك بن سنان الخدرى دم رسول الله ثم ازدرده .

ثم أراد رسول الله أن يعلو الصخرة التى فى الشعب ، فلما ذهب لينهض لم يستطع لأنه ضعف لكثرة ماخرج من دم رأسه الشريف ووجهه مع كونه عليه درعان فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها. وعطش ﷺ عطشاً شديداً ، فخرج محمد بن مسلمة رضى الله عنه يطلب له ماء فلم يجد ، فذهب إلى مياه فأتى منها بماء عذب فشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير .

وفى بعض الروايات أن نساء المدينة خرجن وفيهن فاطمة بنت رسول الله، فلما لقيت رسول الله اعتنقته وجعلت تغسل جراحاته وعلىّ رضى الله عنه يسكب الماء فتزايد الدم . فلما رأت ذلك أخذت شيئاً من حصير مصنوع من البَردى فأحرقته بالنار حتى صار رماداً . فأخذت ذلك الرماد وكمدته حتى لصق بالجرح فاستمسك الدم .

المنهزمون من المسلمين

وصار المسلمون ثلاث فرق : فرقة استمروا فى الهزيمة إلى قرب المدينة فما رجعوا حتى انفض القتال ،وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾

وفرقة صاروا حيارى لما سمعوا أن النبى صلى الله عليه وسلم قد قتل . فصارت غاية الواحد منهم أن يدافع عن نفسه أو يواصل القتال إلى أن يقتل وهم أكثر الصحابة .

وفرقة ثبتت مع النبى ﷺ ثم تراجعت إليه الفرقة الثانية شيئا فشيئا لما عرفوا أنه حىّ . وكان فى جملة من انهزم عثمان بن عفان ، والوليد بن عقبة ، وخارجة بن زيد ، ورفاعة بن معلى ، فأقاموا ثلاثة أيام ثم رجعوا إلى رسول الله

قال موسى بن عقبة : لما غاب النبى ﷺ عن أعين بعض القوم واختلط بعضهم ببعض وسمعوا الصارخ ،قال رجال من المنافقين : لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا ههنا ، وقال بعض منهم لوكان نبيًا ماقُتل فارجعوا إلى دينكم الأول ، وفى ذلك أنزل الله ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ وقال رجل منهم ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبى ليستأمن لنا من أبى سفيان . ياقوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم ليؤمنوكم قبل أن يأتيكم الكفار فيقتلوكم فإنهم يدخلون البيوت . فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنهما : ياقوم إن كان محمد قد قُتل فإن رب محمد لم يقتل . فقاتلوا عليه . وشهدله بهذه

المقالة عند النبي ﷺ سعد معاذ رضى الله عنه ووافق أنس بن النضر جماعة كثيرون على هذه المقالة وهم المؤمنون أهل الصدق واليقين الذين تمكن الإيمان من قلوبهم .

وروى ابن إسحاق أن أنس بن النضر ، عم أنس بن مالك رضى الله عنهما جاء إلى عمر بن الخطاب وطلحة ابن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم ، فقال إن كان قد قُتل (يعنى محمداً) فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل العدو فقاتل حتى قُتل رضى الله عنه قال أنس : ولقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين ضربة . فما عرفه إلا أخته ، عرفته ببنانه (أى بأصابعه) .

وفى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يارسول الله غبتُ عن أول قتال ليرين الله ما أصنع . فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون ، قال اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعنى المشركين) ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ . فقال : ياسعد الجنة ورب النضر إنى أجد ريحها دون أحد . قال سعد فما أستطيع أن أصف ما صنع .

وقد مثل به المشركون . وما أفظع التمثيل بالقتلى لكن هؤلاء قد أعماهم حب الانتقام !!

وممن قال مثل مقالة أنس بن النضر ، ثابت بن الدحداح رضى الله عنه فإنه قال : يامعشر الأنصار إن كان محمد قد قُتل فإن الله حىٌّ لايموت قاتلوا عن دينكم فإن الله مظفركم وناصركم . فنهض إليه نفر من الأنصار فحمل بهم على كتيبة فيها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب. فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فقتله وقتل من كان معه من الأنصار .

رسول الله ومن ثبت معه

ذكرنا أن رسول الله قد ثبت ولم يتزحزح عن موقفه عندما انهزم المسلمون واختلطوا وقتلوا وفر من فر منهم قال ابن سعد : ما زال ﷺ يرمى عن قوسه حتى صارت شظايا ويرمى بالحجر ، وكان أقرب الناس إلى القوم. وهذا مايؤيد أنه ﷺ كان أشجعهم وأثبتهم . وجاء عن على رضى الله عنه وغيره : كنا إذا اشتد البأس (أى حمى القتال) اتقينا برسول الله ﷺ . أى فيجعلونه فى وجه القوم ويكونون خلفه .

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : لما جال الناس عن رسول الله ﷺ تلك الجولة يوم أحد ، قلت أذود عن نفسى . فإما أن أستشهد وإما أن ألحق حتى ألقى رسول الله ﷺ فبينما أنا كذلك إذا برجل محمر وجهه ما أدرى من هو ، فأقبل المشركون حتى قلت قد ركبوه فملأ يده من الحصى ثم رمى به فى وجوههم فتنكبوا على أعقابهم القهقرى حتى أتوا الجبل. ففعل ذلك مراراً ولا أدرى من هو ، وبينى وبينه المقداد ، فبينما أنا أريد أن أسأل المقداد عنه إذ قال المقداد ياسعد هذا هو رسول الله ﷺ يدعوك فقلت وأين هو ؟ فأشار إليه فقمت وكأنه

لم يصبنى شىء من الأذى وأجلسنى أمامه وأقول : اللهم سهمك فارم به عدوك ورسول الله ﷺ يقول : اللهم استجب لسعد . اللهم سدد رميته وأجب دعوته (فكان سعد مجاب الدعوة) حتى إذا فرغ النبل من كنانتى، نثر صلى الله عليه وسلم لى ما كان فى كنانته وانكشف الناس عنه ﷺ .

وعن سعد رضى الله عنه قال : لقد رأيتنى والنبى ﷺ يناولنى النبل ويقول : ارم فداك أبى وأمى حتى إنه ليناولنى السهم ماله نصل فيقول : ارم به وجاء أن سعداً رمى يوم أحد ألف سهم ما فيها سهم إلاورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ارم فداك أبى وأمى،ففداه ذلك اليوم ألف مرة . وعن على رضى الله عنه قال : ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فداك أبى وأمى إلا لسعد رضى الله عنه (يعنى يوم أحد فلا ينافى أن النبى ﷺ قال مثل ذلك للزبير رضى الله عنه يوم الخندق) .

وثبت معه ﷺ أربعة عشر : سبعة من المهاجرين وهم :

(١) أبو بكر الصديق (٢) عمر بن الخطاب (٣) عبد الرحمن بن عوف (٤) سعد بن أبى وقاص (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام (٧) أبو عبيدة بن الجراح .

أما على بن أبى طالب رضى الله عنه فقد صحت الأحاديث بأنه ممن ثبت ، وبعض الرواة لم يذكره لأنه كان حامل اللواء بعد مصعب .

وسبعة من الأنصار وهم :

(١) أبو دجانة (٢) الحباب بن المنذر (٣) عاصم بن ثابت (٤) الحارث بن الصمة (٥) سهل بن حنيف (٦) سعد بن معاذ (٧) أسيد بن حضير .

وما زال النبى ﷺ يرمى عن قوسه حتى اندقت سِيَتُها (والسية ما انعطف من طرفى القوس اللذين هما محل الوتر) وفى رواية حتى تقطع الوتر وبقى فى يده قطعة قدر شبر .

شجاعة امرأة

وثباتها مع رسول الله ﷺ

لما انكشف المسلمون واختلط أمرهم ، ثبتت أم عمارة المازنية واسمها نسيبة وهى زوج زيد بن عاصم قالت : خرجت يوم أحد لأنظر مايصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء أسقى به الجرحى فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أصحابه والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون، انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمت أباشر القتال دونه وأذب عنه بالسيف وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراحة إلى . روى أنه كان على عاتقها جرح أجوف له غور فقيل لها من أصابك بهذا ؟ قالت ابن قميئة لما ولى الناس عن رسول الله صل الله عليه وسلم ، أقبل ابن قميئة

يقول دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير رضى الله عنه فضربنى هذه الضربة وضربته ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان .

وجاء فى رواية : خرجت نسيبة يوم أحد وزوجها زيد بن عاصم وابناها حبيب وعبدالله وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله عليكم أهل بيت . فقالت له نسيبة رضى الله عنها : ادع الله أن نرافقك فى الجنة . فقال اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة . وعند ذلك قالت رضى الله عنها : ما أبالى ما أصابنى من أمر الدنيا .

وقال ﷺ فى حقها : ما التفت يميناً وشمالاً يوم أحد إلا ورأيتها تقاتل دونى . وقد جرحت رضى الله عنها اثنى عشر جرحاً ما بين طعنة برمح وضربة بسيف .

فهذه حقاً شجاعة مدهشة لامرأة وقد تحملت ما أصابها من الجراح فى سبيل الجهاد ، وهو ما يعجز عن تحمله الرجال فضلاً عن النساء ، مع العلم بأن كثيراً قد فروا من القتال ، لما أصابهم من الفزع والاختلاط . ويلاحظ أن المسلمين فى قتالهم المشركين كانوا يرجون الاستشهاد كى يفوزوا بجنة الخلد، فما كانوا يبالون بحياتهم الدنيوية لأنها زائلة مشوبة بالأحزان والآلام . أما الآخرة فإنها دار بقاء ينعم فيها أهل الشهادة والصالحون . وكان النساء يحاربن مع الرجال ويضمدن الجراح .

وجاء فى أسد الغابة أن أم عمارة شهدت بيعة العقبة وشهدت أحداً مع زوجها وابنيها وشهدت بيعة الرضوان وشهدت اليمامة فقالت حتى أصيبت يدها وجرحت يومئذ اثنى عشرة جراحة . روى عنها عكرمة مولى ابن عباس أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : أرى كل شىء للرجال . ما أرى النساء يذكرن بشىء . فنزل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وبمثل هذه الروح انتصر المسلمون فى جميع حروبهم وانتشر الإسلام .

إحدى معجزات رسول الله ﷺ

لرسول الله صلى الله عليه وسلم معجزات كثيرة سيأتى ذكرها فى كتابنا هذا، ومن هذه المعجزات المعجزة الآتية:

أصيبت عين قتادة بن النعمان من بنى ظفر وقد تدلت على وجنته فردها عليه رسول الله فصحت وكانت أحسن عينيه (الطبرى) وقال ابن إسحاق : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى عن قوسه حتى اندقت سيتها فأخذها قتادة بن النعمان فكانت عنده وأصيبت يومئذ عين قتادة حتى وقعت على وجنته .

قال ابن إسحاق فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردها بيده فكانت أحسن عينيه وأحدّهما وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى .

قتل أبيّ بن خلف

أقبل أبيّ بن خلف يوم أحد نحو النبي ﷺ وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا ، فاستقبله مصعب بن عمير رضي الله عنه فقتل مصعباً فاستقبله رجال من المسلمين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يخلوا طريقه فأقبل وهو يقول: يا كذاب أين تفر ! فتناول النبي ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة أو من الزبير بن العوّام رضي الله عنه فرماه ﷺ بها فأصابت عنقه وخدشته خدشاً غير كبير واحتقن الدم بذلك الخدش . فرجع وهو يقول : قتلني والله محمد . فقالوا له : ذهب والله فؤادك . إنا لنأخذ السهام من أضلاعنا فنرمي بها . فما بك والله من بأس . ما أجزعك ! إنما هو خدش . ولو كان هذا الذي بك بعين أحدنا ما ضره . فقال واللات والعزى . لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز (سوق من أسواق الجاهلية عند عرفة) لماتوا أجمعون . إنه قال لي بمكة أنا أقتلك . فوالله لو بصق على لقتلني . وكان أبيّ يقول بمكة للنبي ﷺ : يا محمد إن عندي العود (يعني فرساً له) أعلفه كل يوم فرقاً (مكيال) من ذرة أقتلك عليها . فيقول رسول الله ﷺ : أنا أقتلك إن شاء الله .

ولم يقتل رسول الله بيده الشريف أحداً إلا أبيّ بن خلف لا قبل و لا بعد . ثم مات أبيّ وهم راجعون إلى مكة بسَرِف وقيل ببطن رابغ .

إصابة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وصل العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قدمنا فأصابته حجارتهم حتى وقع وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى وشج في وجهه وكلمت شفته السفلى وكان الذي أصاب رسول الله عتبة بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص والدم يسيل على وجهه وهو يقول :

« كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم » فنزل في ذلك قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

ودخلت حلقتان من المغفر[1] في وجنته ﷺ وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم وجهه ورموه بالحجارة حتى سقط لشقه في حفرة واحتضنه طلحة بن عبيد الله ، حتى استوى قائماً . وانتزع أبو عبيدة عامر بن الجراح الحلقتين اللتين كانتا غاصتا في وجنته ﷺ وعض عليهما حتى سقطت ثنيتاه فكان ساقط الثنيتين . وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الدم من وجنته صلى الله عليه وسلم ثم ازدرده فقال عليه الصلاة والسلام (من مس دمه دمي لم تصبه النار) فاستشهد في هذه الغزوة .

(١) المغفر : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

وكان سبب وقوع رسول الله ﷺ أن ابن قميئة علاه بالسيف فلم يؤثر السيف فيه إلا أن ثقل السيف أثرق عاتقه فشكا ﷺ منه شهراً وقذف رسول الله بالحجارة حتى وقع لشقه .

ولما أصيب رسول الله قالوا لو دعوت عليهم فقال : « إنى لم أبعث لعاناً ولكن بعثت داعياً ورحمة اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » فاعتذر عنهم وتضرع إلى الله أن يمهلهم حتى يكون منهم أو من ذريتهم من يؤمن وهذا غاية الحلم .

المثلة بالمسلمين

وبحمزة رضى الله عنه

اشتغل المشركون ذكوراً وإناثاً بقتلى المسلمين يمثلون بهم يقطعون الآذان والأنوف والفروج ويبقرون البطون وهم يظنون أنهم أصابوا رسول الله ﷺ وأشراف أصحابه .

واتخذت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان من آذان الرجال وأنوفهم خدما (أى خلاخل) وقلائد وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحشياً غلام جبير وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها (مضغتها) فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها لأنها كانت نذرت إن قدرت على حمزة لتأكلن من كبده . وهند هذه هى زوج أبى سفيان وأم معاوية وقد أسلمت فى فتح مكة بعد زوجها كما سيأتى وممن مُثِّل به عبد الله بن جحش ودفن هو وخاله حمزة فى قبر واحد . ونهى الإسلام عن المثلة لأنها تدل على الوحشية وتنافى الإنسانية وقد قاتل حمزة ذلك اليوم قتالا شديداً وكان يقاتل بسيفين وآخر قتيل قتله رضى الله عنه سباع بن عبد العزى الخزاعى . فلما أكب عليه ليأخذ درعه قتله وحشى غلام جبير بن مطعم ثم أسلم بعد ذلك وكان قد استأجرته هند لقتل حمزة .

والتمس رسول الله عمه حمزة فوجده مبقور البطن ومجدوع الأنف والأذنين فساءه التمثيل به . فقال : لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم . ولما رأى المسلمون حزن رسول الله وغيظه على من فعل بعمه مافعل ، قالوا والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً فى الدهر لنمثلنّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب . فالمثلة كانت تقترفها العرب فى الجاهلية فى الحرب انتقاما من أعدائهم إذا بلغ منهم الغيظ مبلغه . لكن الإسلام حرمها لشناعتها . فعن ابن عباس : إن الله عز وجل أنزل فى قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَاصَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عن المثلة وقال : « أصبر وأحتسب » .

هـذا مانهى عنه الدين الإسلامى الحنيف ونهى عنه قواد الجيوش الإسلامية جيوشهم . لكنا نرى بعض جيوش الدول المتمدنة فى القرن العشرين تقترف المثلة بأعدائها وهم يزعمون أن الدين الإسلامى دين همجية ووحشية ! ! . وتلك الوحشية ترتكب فى زمن المدنية .

وبينا رسول الله فى الشعب مع أصحابه إذا علت طائفة من قريش الجبل معهم خالد بن الوليد . فقال رسول الله : « اللهم إنهم لاينبغى لهم أن يعلونا . اللهم لاقوة لنا إلا بك » فقاتلهم عمر بن الخطاب وجماعة من المهاجرين حتى أهبطوا من الجبل .

أسباب انهزام المسلمين

فى واقعة أحد

كان أبو سفيان بن حرب هو الذى قاد قريشاً كلها يوم أحد ولم يكن بأعلم من رسول الله بقيادة الجيش وتنظيمه بل كان رجلا تاجراً لكنه استطاع أن يجند عددا كبيراً من قريش فكانت عدتهم ٣٠٠٠ فيهم ٧٠٠ دارع ومعهم ٢٠٠ فرس . ومجموع الذين خرجوا للقتال مع رسول الله ٧٠٠ منهم ١٠٠ دارع ولم يكن فيهم سوى فرسين لأن عبد الله بن أبى انخذل عن رسول الله بثلث الناس وعاد بهم إلى المدينة .

ثم إن رسول الله ﷺ بعد أن صف المسلمين بأصل أحد وجعل الرماة على جبل صغير وأمرهم بألا يبرحوا مكانهم قائلا لهم « احموا ظهورنا حتى لا يأتونا من خلفنا » طمعوا فى الغنيمة وهبطوا تاركين مركزهم . وبذلك تمكن خالد بن الوليد من الكر على المسلمين بالخيل من الخلف فانكشفوا ووقع الاختلاط بينهم وذاع فى الجيش أن محمداً قُتل فازداد ارتباك المسلمين وفروا منهزمين وفر بعضهم إلى المدينة .

نعم إن رسول الله ﷺ لم يتزحزح عن مركزه وشاهده بعض الصحابة فالتفوا حوله وثبتوا معه وقاتلوا قتالا شديداً حتى إن سعد بن أبى وقاص وحده رمى يومئذ بألف سهم ورمى رسول الله عن قوسه حتى اندقت سيتها واستطاع عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يهبط الطائفة التى علت الجبل من قريش ، لكن هذا كله كان بعد أن وقعت الهزيمة بالمسلمين بسبب مخالفتهم أمر رسول الله فقد كانوا منتصرين فى بدء الموقعة . وقد قُتل فى هذه الموقعة ٧٤ من المسلمين و ٢٠ من المشركين .

نداء أبى سفيان

أشرف أبو سفيان على القوم بعد الواقعة فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتجيبوه مرتين ، ثم قال أفى القوم ابن أبى قحافة ثلاثاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتجيبوه ، ثم قال أفى القوم

ابن الخطاب ، ثلاثاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجيبوه . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قُتلوا ، لو كانوا فى الأحياء لأجابوا فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه أن قال : كذبت ياعدو الله فقد أبقى الله لك مايخزيك. فقال اعل هُبَل . اعل هُبَل . وقيل إنه صرخ بأعلى صوته وقال : « أنعمت فعال إن الحرب سجال[1] يوم أحد بيوم بدر اعل هُبَل » . وسببُ ذلك أنه حين أراد الخروج كتب على سهم « نعم » وعلى الآخر « لا » وأجالهما عند هُبَل فخرج بهم « نعم » فتوجه إلى أحد فقال اعل هبل أى زد علواً ، فقال رسول الله ﷺ أجيبوه فقالوا : مانقول ؟ قال قولوا : الله أعلى وأجل . فقال أبو سفيان : ألا لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله أجيبوه . قالوا ما نقول ؟ قال قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم »

ولما أجاب عمر أبا سفيان قال له أبو سفيان : هلم ياعمر . فقال رسول الله ائته فانظر ماشأنه ، فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك ياعمر أقتلنا محمدا ؟ فقال عمر « اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن » فقال أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر لقول ابن قمئة له إنى قتلت محمداً .

ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان فى قتلاكم مُثُل ، والله مارضيت وما سخطت وما نهيت وماأمرت، وقد كان الحليس بن زبان أخو بنى الحارث بن عبد مناة وهو يومئذ سيد الأحابيش قد مرّ بأبى سفيان بن حرب وهو يضرب شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول : ذق عقق . فقال الحليس يابنى كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون ، فقال : ويحك اكتمها عنى فإنها كانت زلة . وهذا اعتراف منه بأنه ارتكب شططاً وأتى أمراً منكراً.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر للعام القابل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : قل نعم هو بيننا وبينك موعد .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب . فقال : اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون . فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة . وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة . والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم . قال على : « فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة » بعد أن تشاوروا فى نهب المدينة . فأشار عليهم صفوان بن أمية ألا تفعلوا .

من هذا يتضح أن أبا سفيان قد خشى عاقبة مافعله من ضرب شدق حمزة . فقال للحليس اكتمها عنى فإنها كانت زلة وبرأ نفسه فى ندائه قائلا والله مارضيت وماسخطت وما نهيت وما أمرت . أما نداؤه « إن موعدكم بدر للعام القابل » فخطأ منه لأن هذا الإنذار يعطى المسلمين مهلة للاستعداد لمحاربته والتغلب عليه ومع أن جيش مكة تغلبوا على

(١) معنى سجال ، مرة لنا ومرة علينا . وقول أبى سفيان : اعل هبل ، أى أظهر دينك أو ازدد علواً . وهبل هذا صنم تقدم الكلام عليه .

المسلمين فى هذه الواقعة فإنهم اكتفوا بذلك ولم يجنوا ثمار انتصارهم ، فلم يحاولوا الهجوم على المدينة بل قفلوا راجعين إلى مكة . والظاهر أن أبا سفيان تخوّف أن يقتفى أثر المسلمين إلى المدينة .

استشهاد سعد بن الربيع الأنصارى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ لأن النبى صلى الله عليه وسلم رأى الأسنة قد أشرعت إليه .

فقال رجل من الأنصار هو أبى بن كعب رضى الله عنه : أنا أنظر إليك يارسول الله ما فعل سعد فنظر فوجده جريحاً فى القتلى وبه رمق وقد طعن اثنتى عشرة طعنة ! فقال له إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات . قال أنا فى الأموات . فأبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته . وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم إنه لاعذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم ﷺ [(١)] وفيكم عين تطرف . قال ثم لم أبرح أن مات فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره . فقال رسول الله ﷺ : رحمه الله ، نصح لله والرسول حيًا وميتا . وخلف سعد بنتين فأعطاهما رسول الله من ميراثه الثلثين .

كان سعد بن الربيع كاتبا فى الجاهلية ومن النقباء يوم العقبة وشهد بدراً واستشهد يوم أحد . إن سؤال رسول الله عن سعد بن الربيع فى مثل هذا المأزق الحرج هو من شدة عطفه ومحبته لأصحابه وهذا خلق عظيم فقد كان يسأل عنهم فى الحرب وفى السلم ويهتم بشئونهم وكانوا يحبونه حبًا شديداً يفوق كل حب ويدافعون عنه إلى آخر رمق من حياتهم ويخشون أن يصل إليه أى أذى وإن نصيحة سعد بن الربيع لقومه بالمحافظة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلفظ النفس الأخير من أبلغ الأدلة على فرط محبة أصحابه صلى الله عليه وسلم له لسمو مكانته فى نفوسهم وقد كان قتادة بن النعمان يتقى السهام بوجهه دون وجه رسول الله ﷺ فكان آخرها سهما ندرت منه حدقته فأخذها بيده وسعى بها إلى رسول الله ﷺ فردها ﷺ وكانت أحسن عينيه فانظر كيف بلغت محبة الصحابة لرسول الله ﷺ .

قتل مُخيريق

قال ابن إسحاق وكان ممن قتل يوم أحد مخيريق ، وكان أحد بنى ثعلبة بن الفيطون . قال لما كان يوم أحد قال يامعشر يهود والله لقد علمتم إن نصر محمد عليكم لحق . قالوا إن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم فأخذ

(١) أى يصل إليه شىء من الأذى .

سيفه وعدته وقال إن أصبت فمالى لمحمد يصنع فيه ما شاء ثم غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتل معه حتى قُتل . فقال رسول الله ﷺ فيما بلغنا « مخيريق خير يهود » .

وكان مخيريق أحد بنى النضير ، حبراً عالماً غنياً كثير الأموال من النخل وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد فى علمه . وخالف قومه اليهود واشترك فى موقعة أحد التى لم يشترك فيها أحد من اليهود غيره فلما قتل قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله وتصدق بها . وقيل لما حضرته الوفاة . قال : أموالى إلى محمد يضعها حيث شاء . وكان ذا مال كثير ففرقها رسول الله .

انتحار قزمان

قال ابن إسحاق وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة : قال كان فينا رجل أتى لا يُدرى من أين هو يقال له قزمان وكان رسول الله ﷺ يقول ـ إذا ذكر له ـ إنه لمن أهل النار . فلما كان يوم أحد قاتل قتالا شديدا فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة فاحتمل إلى دار بنى ظفر . فجعل رجال من المسلمين يقولون له والله لقد أبليت اليوم ياقزمان فأبشر . قال بماذا أبشر فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى ولولا ذلك ما قاتلت . فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهما من كنانته فقطع رواهشه فنزفه الدم فمات فأخبر به رسول الله ﷺ فقال « أشهد أنى رسول الله حقاً » وذلك لأنه مات منتحراً .

دفن قتلى أحد

كثرت القتلى يوم أحد فكان الرجل والرجلان والثلاثة يكفنون فى الثوب الواحد ثم يدفنون فى القبر الواحد بدمائهم وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بدفن شهداء أحد ولم يصلِّ على أحد منهم ولم يغسلهم[١] وحمل أناس موتاهم ليدفنوهم بالمدينة فجاءهم منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ردوا القتلى إلى مضاجعهم . فأدرك المنادى واحداً وهو شماس بن عثمان المخزومى فإنه قتل وحمل إلى المدينة وبه رمق فقال رسول الله احملوه إلى أم سلمة فحمل إليها فمات عندها فأمر رسول الله أن يرد إلى أحد فيدفن هناك ولم يكن قد دفن بالمدينة أما من دفن فأبقوه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو بن حرام فإنهما كانا متصافيين فى الدنيا فاجعلوهما فى قبر واحد .

---

(١) وبهذا استدل الأئمة على أن الشهيد لايغسل ولو كان جنباً .

رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة

لما أراد رسول الله الرجوع إلى المدينة ركب فرسه وخرج والمسلمون حوله وعامتهم جرحى ومعه أربع عشرة امرأة، فلما كانوا بأصل أحد قال، اصطفوا حتى أثنى على ربى عز وجل (فكان عليه الصلاة والسلام يحب النظام) فاصطف الرجال خلفه صفوفاً وخلفهم النساء فقال :

« اللهم لك الحمد كله ، لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادى لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطى لما منعت ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما أبعدت ولا مبعد لما قربت » الحديث . ثم عاد إلى المدينة يهدئ روع نساء القتلى ويدعو لهن وقد نهاهن عن اللطم وحلق الرءوس وتخميش الوجوه وشق الجيوب .

ولم يخاطب رسول الله الذين انهزموا وعادوا إلى المدينة بالتغليظ والتشديد وإنما خاطبهم بالكلام اللين وعفا عنهم افزد فى الفضل والإحسان . قال تعالى (فبما رحمة من الله لنتَ لهم ولو كنت فظًا غليظ القلبِ لانفضوا من حولكَ) وهذا اللين والعفو من حسن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم .

وباتت وجوه الأوس والخزرج تلك الليلة على بابه صلى الله عليه وسلم بالمسجد يحرسونه خوفاً من قريش أن تعود إلى المدينة . لكنهم لم يعودوا .

شماتة اليهود والمنافقين

لما وصل صلى الله عليه وسلم المدينة ، أظهر المنافقون واليهود الشماتة والسرور وصاروا يظهرون أقبح القول ومنه ما محمد إلا طالب ملك ، ماأصيب بمثل هذا نبيّ قط، أصيب فى بدنه وأصيب فى أصحابه ويقولون ، لو كان من قتل منكم عندنا ماقتل وصار ابن أبيّ يوبخ ابنه عبدالله الذى جرح فى موقعة أحد . فقال له ابنه : الذى صنع الله لرسوله خير . وهكذا كان اليهود ينتهزون الفرص لتخذيل المسلمين وتثبيط هممهم !

(نزول الملائكة يوم أحد)

قال عبيد بن عمير، لم تقاتل الملائكة يوم أحد. وقال الواقدى وحدثنى ابن أبى سبرة عن عبد المجيد بن سهيل عن عمر بن الحكم ، قال لم يمد رسول الله ﷺ يوم أحد بملك واحد وإنما كانوا يوم بدر. قال ومثله عن عكرمة. قال وقال مجاهد حضرت الملائكة يوم أحد ولم تقاتل وإنما قاتلت يوم بدر. قال وروى عن أبى هريرة أنه قال: وعدهم الله أن يمدهم لو صبروا فلما انكشفوا لم تقاتل الملائكة يومئذ إنما الثابت بنص القرآن ورواية الصحابة أنهم نزلوا وقاتلوا فى غزوة بدر .

ذكر غزوة أحد

فى القرآن

أنزل الله تعالى من القرآن فى غزوة أحد ستين آية فى سورة آل عمران : قال تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

قال أكثر العلماء بالمغازى إن هذه الآية نزلت فى وقعة أحد . وقد كان المسلمون يومئذ كثيرين فلما انشقوا وخالفوا أمر الرسول انهزموا . وقال جل شأنه .

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ : إنه تعالى لما ذكر قصة أحد أتبعها بذكر قصة بدر لأن المسلمين كانوا فى غاية الضعف والكفار فى غاية القوة ، ولكن لما كان الله ناصراً لهم قهروا خصومهم . ثم قال تعالى :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴾ إن هذا الوعد كان يوم بدر وهو قول أكثر المفسرين وقد قالوا إن الملائكة حاربوا يوم بدر ولم يقاتلوا فى سائر الأيام وهذا المدد من المعجزات .

﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾

فجعل مجىء خمسة آلاف من الملائكة مشروطاً بثلاثة أمور : الصبر ، والتقوى ، ومجىء الكفار على الفور . فلما لم توجد هذه الشرائط لا جرم لم يوجد المشروط .

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ والمراد بالكبت الإخزاء والإهلاك والهزيمة والغيظ والإذلال . فكل ذلك ذكره المفسرون فى تفسير الكبت .

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

نزلت هذه الآية فى قصة أحد لأن النبى ﷺ لما شجه عتبة بن أبى وقاص وكسرت رباعيته جعل يمسح الدم عن وجهه وهو يقول « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم » فنزلت هذه الآية وقيل إنه لعن أقواماً فنزلت هذه الآية .

إلى أن قال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

لما وقع الصراخ بأن محمداً قتل كما تقدم ذكره فى غزوة أحد ، قال بعضهم لو كان نبيًا لما قتل . ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم . فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك « ياقوم إن كان قد قتل محمد فإن رب محمد حيٌّ لا يموت . وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ . قاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه . ثم قال : « اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء » ثم سلّ سيفه فقاتل حتى قتل . ولما شج وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته احتمله طلحة بن عبيد الله ودافع عنه أبو بكر وعلى رضى الله عنهم ونفر آخرون معهم . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل ينادى ويقوله « إلىّ عباد الله » حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هزيمتهم . فقالوا يارسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا خبر قتلك فاستولى الرعب على قلوبنا فولينا مدبرين .

وقد ذكر الله تعالى الحكمة فى ما أصاب المؤمنين بمخالفتهم أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم وعرفهم سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب المخالفة بما وقع من ترك الرماة موقفهم الذى أمرهم رسول الله ﷺ ألا يبرحوا عنه بقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ . ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال تعالى تعزية لأصحاب رسول الله على ما أصابهم من الجراح والقتل بأحد : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ يعنى لا تضعفوا بالذى نالكم من عدوكم بأحد من القتل والقروح عن جهاد عدوكم وحربهم ولا تحزنوا ولا تأسوا فتجزعوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذ فأنتم الأعلون ، أى الظاهرون عليهم ولكم العقبى فى الظفر والنصرة عليهم إن كنتم مؤمنين .

غزوة حمراء الأسد

حمراء الأسد موضع على ثمانية أميال من المدينة . وكانت الغزوة صبيحة أحد . إذ وقعة أحد يوم السبت والغزوة المذكورة يوم الأحد لست عشرة مضت من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة وكانت لطلب العدو الذين كانوا بالأمس .

قال الواقدى باتت وجوه الأنصار على بابه ﷺ فلما طلع الفجر وأذن بلال بالصلاة جاء عبد الله بن عمرو

المزنى فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه أقبل من عند أهله بملل - اسم موضع قرب المدينة - إذا قريش قد نزلوا ، فسمعهم يقولون ما صنعتم شيئاً . أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبيدوهم . قد بقى منهم رءوس يجمعون لكم فارجعوا نستأصل من بقى ، وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول لاتفعلوا فإن القوم قد غضبوا وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلف من الخزرج . فارجعوا والدولة لكم فإنى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم. فقال صلى الله عليه وسلم أرشدهم صفوان وما كان برشيد . والذى نفسى بيده لقد سوّمت لهم الحجارة ولو رجعوا لكانوا كالأمس الذاهب .

ولما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح ندب الناس وأذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج أى أمر بلالا أن ينادى أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب العدو وألا يخرج معنا أحد إلا من خرج معنا أمس يعنى من شهد أحدا وأراد بذلك إظهار الشدة بالعدو والزيادة فى تعظيم من شهد أحدا ومع بذلك اختلاط المنافقين ولم يشهد هذه الغزوة إلا من شهد أحداً عدا جابر بن عبد الله فإنه قال لرسول الله ﷺ إن أبى خلفنى يوم أحد على أخوات لى سبع فلم أشهد الحرب فائذن لى أن أسير معك ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال غيره.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة نفر من أسلم طليعة فى آثار القوم فلحق اثنان منهم القوم بحمراء الأسد فبصروا بالرجلين فقتلوهما . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليله ثابت بن الضحاك بن ثعلبة بن الخزرج حتى عسكر بحمراء الأسد فوجد الرجلين فدفنهما . وكان رسول الله ﷺ مجروحاً وفى وجهه أثر الحلقتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لطلحة : ياطلحة لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله علينا مكة وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : ياابن الخطاب إن قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا حتى نستلم الركن .

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد الاثنين والثلاثاء والأربعاء وكان المسلمون يوقدون تلك الليالى خمسمائة نار حتى ترُى من المكان البعيد وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم فى كل وجه فكبت الله بذلك عدوهم .

وكان اللواء بيد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه واستعمل صلى الله عليه وسلم على المدينة ابن أم مكتوم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن الله قذف فى قلب أبى سفيان الرعب بعد الذى كان منه يوم أحد فرجع إلى مكة .

وظفر صلى الله عليه وسلم فى حمراء الأسد بأبى عزة الشاعر الذى منّ عليه وقد أسر ببدر من غير فداء لأجل بناته وأخذ عليه عهداً ألا يقاتله ولا يكثر عليه جمعاً ولا يظاهر عليه أحداً فنقض العهد وخرج مع قريش لأحد وصار يستنفر الناس ويحرضهم على قتاله صلى الله عليه وسلم بأشعاره . فدعا رسول الله ألا يفلت فأسر فقال : يامحمد أقلنى وامنن علىّ ودعنى لبناتى وأعطيك عهداً ألا أعود لمثل ما فعلت فقال رسول الله لا والله لا تمسح

عارضيك بمكة تجلس بالحجر تقول خدعت محمداً . اضرب يازيد عنقه . « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .
فضرب عنقه وحمل رأسه إلى المدينة وهذا المثل الذى ضرب به رسول الله لم يسمع من غيره .

ثم رجع رسول الله ﷺ بأصحابه ووصلوا المدينة يوم الجمعة وقد غاب خمساً وظفر صلى الله عليه وسلم عند رجوعه إلى المدينة بمعاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن عبد شمس وهو جد عبد الملك بن مراون فأمر بقتله .

قال الطبرى : « وفيها — أى فى السنة الثالثة من الهجرة — علقت فاطمة بالحسين صلوات الله عليهما وقيل لم يكن بين ولادتها الحسن وحملها بالحسين إلا خمسون ليلة (وفيها) حملت — فيما قيل — جميلة بنت عبد الله بن أبى بعبد الله بن حنظلة بن أبى عامر فى شوال » .

بعث الرّجيع

صفر . سنة ٤ هـ — مايو سنة ٦٢٥ م .

الرجيع ماء لهذيل . وقال ابن إسحاق والواقدى : الرجيع ماء لهذيل قرب الهدأة بين مكة والطائف .
وإنما أضيف البعث إلى اسم ذلك الماء لأن الوقعة كانت بالقرب منه .

وبعث الرجيع هى سرية عاصم بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه . وكان بعثه فى صفر من السنة الرابعة (مايو سنة ٦٢٥ م) .

وسبب هذا أن بنى لحيان من هذيل مشوا إلى عضل والقارة وهما قبيلتان من بنى الهون بن خزيمة بن مدركة فجعلوا لهم إبلاً على أن يكلموا رسول الله ﷺ أن يخرج إليهم نفراً من أصحابه فقدم سبعة نفر مظهرين الإسلام ، فقالوا يارسول الله إن فينا إسلاما فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا فى الدين ويقرئونا القرآن ويعلمونا شرائع الإسلام . وقيل إنه ﷺ أراد أن يبعث عيوناً إلى مكة ليأتوه بخبر قريش . فلما جاء هؤلاء النفر يطلبون من يفقههم ، بعث معهم ستة من أصحابه للأمرين جميعاً وهذه البعثة مؤلفة من : عاصم بن ثابت . ومرثد بن أبى مرثد الغنوى . وخبيب بن عدى الأوسى البدرى . وزيد بن الدّثنة . . وعبد الله بن طارق . وخالد بن البكير .

خرج هؤلاء حتى أتوا الرجيع فغدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلا ليعينوهم على قتلهم ، فلم يرع القوم وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف ، فأخذ عاصم ومن معه أسيافهم ليقاتلوا القوم. فقالوا إنا والله لانريد قتلكم ولكن عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم . وقالوا ذلك لأنهم يريدون أن يسلموهم لكفار قريش ويأخذوا فى مقابلهم أجراً لعلمهم أنه لاشىء أحب إلى قريش من أن يأتوا بأحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يمثلون به ويقتلونه بمن قتل منهم ببدر وأحد ، فأبوا أن يقبلوا منهم .

فأما مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت فقالوا والله لانقبل من مشرك عهداً ، وقاتلوا حتى قتلوا . وأما زيد وخبيب وعبد الله بن طارق فلانوا ورقوا ورغبوا فى الحياة فأعطوا بأيديهم فأسروهم ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القران ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه ، فقبره بالظهران . وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فقدموا بهمامكة فباعوهما فابتاع خبيباً حُجير بن أبى إهاب التميمى حليف بنى نوفل لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل وكان حجير أخا الحارث بن عامر لأمه ليقتله بأبيه . وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف وكان شراؤهما فى ذى القعدة فحبسوهما حتى خرجت الأشهر الحرم فقتلوا زيداً . وأما خبيب فقد مكث أسيراً حتى خرجت الأشهر الحرم ثم أجمعوا على قتله ، وكانوا فى أول الأمر أساءوا إليه فى حبسه فقال لهم : ما يصنع القوم الكرام هكذا بأسيرهم ، فأحسنوا إليه بعد ذلك وجعلوه عند امرأة تحرسه وهى ماوية مولاة حجير وقد قالت ماوية كان خبيب يتهجد بالقرآن فإذا سمعه النساء بكين ورققن عليه . فقالت له هل لك من حاجة ؟ قال لا إلا أن تسقينى العذب ولا تطعمينى ماذُبح على النصب وتخبرينى إذا أرادوا قتلى . فلما أرادوا ذلك أخبرته فو الله ما اكترث بذلك ولما خرجوا بخبيب من الحرم ليقتلوه قال ذرونى أصلِّ ركعتين فتركوه فصلى سجدتين فجرت سُنَّةً لمن قُتل صبراً أن يصلى ركعتين ثم قال خبيب لولا أن يقولوا جزعَ لزدت وما أبالى على أى شِقٍّ كان لله مصرعى ثم قال :

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

« اللهم أحصهم عدداً وخذهم بدداً » . ثم خرج به أبو سروعة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبدمناف فضربه فقتله . رحمه الله تعالى .

وعن عروة بن الزبير رضى الله عنه قال : لما أرادوا قتل خبيب ووضعوا فيه السلاح والرماح والحراب وهو مصلوب نادوه وناشدوه أتحب أن محمداً مكانك ؟ قال والله ما أحب أن يفدينى بشوكة فى قدمه . وقيل إن زيد ابن الدثنة قالوا له ذلك أيضاً عند قتله فأجابهم بمثل ذلك فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً . وقد قتل زيداً نسطاس .

وقد كانت هذيل حين قتل عاصم بن ثابت قد أرادوا رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فى قحفه الخمر فمنعه الدبر (الزنابير) فلما حالت بينهم وبينه قالوا دعوه حتى يمسى فتذهب عنه فنأخذه فبعث الله سيلا فاحتمل عاصما فذهب به وكان عاصم قد أعطى الله عهدا ألا يمسه مشرك أبداً ولا يمس مشركا أبداً تنجساً منه . فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدبر منعته : « عجباً لحفظ الله العبد المؤمن ! كان عاصم نذر ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا فى حياته فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه فى حياته » .

ولما قتل مَن وجَّهه النبي ﷺ إلى عضل والقارة من أهل الرجيع وبلغ خبرهم رسول الله ﷺ بعث عمرو بن أمية الضمرى إلى مكة مع رجل من الأنصار وأمرها بقتل أبي سفيان بن حرب . وكان عمرو بن أمية الضمرى عالماً بمكة جريئاً : فلما وصلا مكة طافا بالبيت أسبوعاً فعرف عمراً رجل منهم فصاح بأعلى صوته هـذا عمرو بن أمية ففر هو وصاحبه ووصلا إلى المدينة ناجيين .

سرية بئر معونة

صفر سنة ٤ هـ — مايو سنة ٦٢٥ م

تسمى هذه السرية سرية المنذر بن عمرو الخزرجي ، وتسمى أيضا بسرية القراء وكانت هذه السرية فى شهر صفر فى السنة الرابعة من الهجرة (مايو سنة ٦٢٥ م) على رأس أربعة أشهر من أحد . وكان من أمرها كما قاله ابن إسحاق عن شيوخه أنه قدم على رسول الله ﷺ أبو براء عامر بن مالك بن جعفر العامرى . ويعرف بمُلَاعِب الاسِنَّة ، فعرض النبي صلى الله عليه وسلم عليه الإسلام فلم يسلم ولم يبعد وقال له : يامحمد إنى أرى أمرك هذا حسناً شريفاً وقومى خلفى ، فلو أنك بعثت معى نفراً من أصحابك لرجوت أن يتبعوا أمرك فإن هم اتبعوك فما أعز أمرك . فقال إنى أخشى أهل نجد عليهم فقال أنا لهم جار فبعث صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو ومعه القراء وهم سبعون . فلما وصلوا إلى بئر معونة بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم خال أنس بن مالك رضى الله عنه بكتابه صلى الله عليه وسلم إلى عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر الكلابى العامرى وهو ابن أخى أبى براء فلم ينظر فى الكتاب بل وثب على حرام فقتله واستصرخ بنى عامر قومه فأبوا وقالوا لايخفر بجوار أبى براء[1] فاستصرخ عليهم قبائل من سليم عصية ورعلا وذكوان،فنفروا معه ورأسوه واستبطأ المسلمون حراماً فأقبلوا فى أثره فلقيهم القوم فأحاطوا بهم فكاثروهم فتقاتلوا فقتلوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر أهل بئر معونة فقال هذا سببه عمل أبى براء حيث أخذهم فى جواره . قد كنت لهذا كارها متخوفاً . فبلغ ذلك أبا براء فمات عقب ذلك أسفاً على ماصنع ابن أخيه عامر بن الطفيل . ومات عامر بن الطفيل .

قال حسان بن ثابت يرثى قتلى معونة :

على قتلى معونة فاستهلى ‏ ‏ ‏ بدمع العين سحًّا غير نزر
على خيل الرسول غداة لاقوا ‏ ‏ ‏ ولاقتهم مناياهم بقـــدر

ولم يجد رسول الله ﷺ على قتلى ماوجد على قتلى بئر معونة لكونه لم يرسلهم لقتال إنما هم مبلغون رسالته وقد جرت عادة العرب قديماً بأن الرسل لاتقتل لكنهم مع ذلك غدروا بهم .

قال العلامة الزرقانى : وإنما لم يخبره سبحانه وتعالى بما ترتب على ذهاب القراء وأهل الرجيع قبل خروجهم كما أخبره بنظير ذلك من الأشياء لأنه سبق فى علمه تعالى إكرامهم بالشهادة وأراد حصول ذلك بمجىء أبى براء ومن جاء فى طلب أصحاب الرجيع .

وكان مع هذه السرية عمرو بن أمية الضمرى وقد قتلوا جميعاً غيره وقد كان أسيراً فى أيديهم فقال له عامر بن الطفيل : قد كان على أمى نسمة فأنت حر عنها وجز ناصيته [1] فأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبت من بينهم ؟ وكان عمرو لما خرج إلى المدينة صادف بمحل يسمى القرقرة رجلين من بنى عامر ثم من بنى كلاب فنزل معه فى ظل كان هو فيه وكان معهما عقد وعهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به عمرو فقال لهما عمرو : ومن أنتما فذكرا له أنهما من بنى عامر فتركهما حتى ناما فقتلهما وظن أنه ظفر بثأر بعض أصحابه الذين قتلوا ببئر معونة وجاء وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : بئس ماصنعت قد كان لهما منى أمان وجوار ، لأدِيَنَّهما فبعث بديتهما إلى قومهما .

ومن جملة القراء الذين قتلوا ببئر معونة عامر بن فهيرة مولى أبى بكر رضى الله عنه وهو الذى عُذِّبَ فى الله فاشتراه أبو بكر فأعتقه ، واستشهد فى هذه الموقعة وهو ابن أربعين سنة .

غزوة بنى النضير

ربيع الأول سنة ٤ هـ — يونيه سنة ٦٢٥ م

النضير اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة وكانوا هم وقريظة نازلين بظاهر المدينة فى حدائق وآطام لهم [2]

قال غير واحد من أهل السير لما قدم اليهود المدينة نزلوا السافلة فاستوخموها فأتوا العالية فنزل بنو النضير بُطحان ونزل بنو قريظة مهزوراً وهما واديان يهبطان من حرة هناك تنصب منها مياه عذبة ، فاتخذ بنو النضير الحدائق والآطام وأقاموا بها [3] وكان بينهم وبين المدينة نحو ميلين أو ثلاثة وكانوا يمتلكون نخيلا بجوار المدينة

كانت هذه الغزوة فى شهر ربيع الأول سنة أربع على رأس سبعة وثلاثين شهراً من الهجرة (يونيه سنة ٦٢٥ م) .

خرج رسول الله ﷺ يوم السبت فصلى فى مسجد قُباء ومعه نفر من أصحابه ، المهاجرين والأنصار . ثم أتى

(١) أى الشعر المجاور لها . (٢) آطام : حصون ، مفردها أطم . (٣) راجع معجم البلدان .

بنى النضير فكلمهم أن يعينوه فى دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى . فقالوا نفعل ياأبا القاسم ماأحببت . وكان رسول الله جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم فخلا بعضهم ببعض وهموا بالغدر به . وقال عمرو ابن جحاش بن كعب بن بَسيل النضرى أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة . فقال سلام بن مشكم : لاتفعلوا والله ليخبرنّ بما هممتم به وإنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه . وجاء رسول الله ﷺ الخبر بما هموا فنهض سريعاً كأنه يريد حاجة فتوجه إلى المدينة ولحقه أصحابه .

ثم بعث إليهم رسول الله ﷺ محمد بن مَسلمة أن اخرجوا من بلدى (يعنى المدينة) فلا تساكنونى بها وقد هممتم بما هممتم به من الغدر وقد أجلتكم عشراً فمن رُئى بعد ذلك ضربت عنقه . فمكثوا على ذلك أياماً يتجهزون وأرسلوا إلى ظَهر لهم بذى الجدر وتكاروا من ناس من أشجع إبلا فأرسل إليهم ابن أبى، لاتخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم فيموتون عن آخرهم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غَطَفَان فطمع حيّ فيما قال ابن أبىّ فأرسل إلى رسول الله ﷺ إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع مابدا لك . فأظهر رسول الله ﷺ التكبير وكبّر المسلمون لتكبيره . وقد حاربت يهود فسار إليهم النبى ﷺ فى أصحابه فصلى العصر بفضاء بنى النضير وعلى رضى الله عنه يحمل رايته واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم . فلما رأوا رسول الله ﷺ قاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة واعتزلتهم قريظة فلم تُعنهم وخذلهم ابن أبىّ وحلفاؤهم من غطفان فأيسوا من نصرهم . فحاصرهم رسول ﷺ وقطع نخلهم وعند ذلك قالوا ياأبا القاسم قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ هل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد فى الأرض! ثم قالوا نخرج عن بلادك فقال لا أقبله اليوم . ثم قال لهم اخرجوا منها ـ ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة[1] فرضوا بذلك ونزلوا عليه . وكان حصارهم خمسة عشر يوماً .

احتمل بنو النضير من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عما استحسن من خشبه كبابه وكنجاف به أى أسكفته فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام. فكان من سار من أشرافهم إلى خيبر ، سلام بن أبى الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب فلما نزلوها دان لهم أهلها .

ولما أيقن بنو النضير بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم فجعلوا يخربونها من داخل وقد كانوا ينظرون إلى الخشبة فى منازلهم مما يستحسنونه أو الباب فيهدمون بيوتهم وينزعونها ويحملونها على الإبل .

لكن الدكتور إسرائيل ولفنسون يقول فى رسالته : (تاريخ اليهود فى بلاد العرب) ، « إن هدم البيوت لم يكن القصد منه التخريب وأخذ الأخشاب بل إن هدم نجاف البيوت يتعلق بعقيدة تلمودية معروفة وهى أن كل يهودى يعلق على نجاف بيته صحيفة تشتمل على وصية موسى لبنى إسرائيل أن يحتفظوا بالإيمان بإله واحد ولا يبدلوه

(١) وهى الدروع والسلاح أى آلة الحرب .

ولو عذبوا وقتلوا . فاليهود حين ينزحون من منازلهم يأخذونها معهم وهى عادة متبعة عند اليهود إلى يومنا هذا.
قال : ويظهر أن يهود بلاد العرب كانوا يضعون تلك الصحيفة فى داخل النجاف خوفاً من إتلاف الهواء أو مس الأيدى فلما رحلوا عن ديارهم هدموا نجاف البيوت وأخذوها » .

وإنا نسلم أن هذه عادة اليهود ولا ننازعه فى أنهم أخذوا تلك الصحائف المقدسة مع ما أخذوا لكن أخذ الصحائف فقط لا يستدعى هدم البيوت وإلا كان الواحد منهم إذا انتقل من بيت إلى آخر هدم البيت الأول لاستخراج صحيفته وهذا محال . وعبارة ابن إسحاق صريحة فى أن الرجل منهم كان يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق . والنجاف الذى يقال له الدوارة وهو الذى يستقبل الباب من أعلى الأسكفة . وفى السيرة الحلبية صاروا ينقضون العُمُد والسقوف وينزعون الخشب حتى الأوتاد . وينقضون الجدران حتى لا يسكنها المسلمون حسداً وبغضاً .

قال ابن إسحاق حدثنى عبد الله بن أبى بكر أنه حدث أنهم استقلوا بالنساء والأبناء والأموال معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم وإن فيهم لأم عمرو صاحبة عروة بن ورد العبسى التى ابتاعوا منه . وكانت إحدى نساء بنى غفار ، بزهاء وفخر ما رئى مثله من حى من الناس فى زمانهم .

وقد حملوا أمتعتهم على ستمائة بعير . وحزن المنافقون عليهم حزناً شديداً لكونهم إخوانهم. وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تركوه من الأموال والدروع والسلاح . فوجد خمسين درعاً وخمسين بيضة وهى الخوذة وثلاثمائة وأربعين سيفاً . فكانت أموال بنى النضير مختاراً لرسول الله ﷺ . فكان ينفق منها على أهله ويدخر قوت سنة من الشعير والتمر لأزواجه وبنى عبد المطلب وما فضل جعله فى السلاح والكراع[1] ، هذا ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه .

وذهب الشافعى رضى الله عنه إلى أنه ﷺ قسمها بين المهاجرين ليرفع بذلك مئونتهم عن الأنصار ، وهذا يتفق مع ما رواه ابن إسحاق فإنه قال : وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك بن خرشة ذكرا فقراً فأعطاهما رسول الله ﷺ وأعطى رسول الله سعد بن معاذ سيف ابن أبى الحقيق ، أحد سادات بنى النضير وكان سيفاً له ذكر عندهم .

ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عمير بن كعب بن عمرو بن جحاش ، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها .

---

(١) الخيل .

وقتل فى هذه الغزوة عزوك . وكان شجاعاً رامياً من بنى النضير قتله على رضى الله عنه . ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا دجانة وسهل بن حنيف فى عشرة ليدركوا الذين فروا من على رضى الله عنه فقتلوهم وطرحوا رءوسهم فى بعض الآبار .

قال ابن إسحاق : ونزل فى أمر بنى النضير سورة الحشر بأسرها يذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته وما سلط عليهم به رسول الله ﷺ وما عمل به فيهم .

وفى البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضى الله عنهما سورة الحشر قال : قل سورة النضير .

﴿ ملحوظة ﴾ لم أعثر فى المراجع التى اطلعت عليها على عدد بنى النضير الذى أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة .

وقد رحل بعض بنى النضير إلى خيبر على بعد مائة ميل من المدينة ، وبعضهم إلى جُرَش بجنوب الشام . لذلك كان ابن عباس يسمى سورة الحشر سورة بنى النضير كما فى البخارى .

تحريم الخمر

الإصلاح الاجتماعىّ العظيم

قال جماعة من الصحابة يارسول الله ، أفتنا فى الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال فنزل فيها قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ سورة البقرة ، فشربها قوم لوجود النفع وتركها آخرون لوجود الإثم . ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً فشربوا وسكروا فقام بعضهم يصلى المغرب وهو سكران فقرأ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ فخلط فى القراءة ، فنزل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ سورة النساء . فقلّ شاربوها . ثم اجتمع قوم من الأنصار وفيهم سعد بن أبى وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا الأشعار حتى أنشد سعد شعراً فيه هجاء للأنصار فضربه أنصارى بلحى[1] بعير فشجه شجة موضحة فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال عمر اللهم بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً فإنها تذهب بالعقل والمال فنزل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ سورة المائدة . فقال عمر : انتهينا يارب . وكفّ الناس عن شربها . وحرمت الخمر بالمدينة .

والحكمة فى تحريم الخمر تدريجاً على الترتيب أن القوم كانوا ألفوا شربها وكان انتفاعهم بذلك عظيما فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق ذلك عليهم .

---

(١) اللحى : عظم الحنك وهو الذى عليه الأسنان .

روى أبو داود فى سننه عن الشعبى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : نزل تحريم الخمر يوم نزل وهى من خمسة: من العنب والتمر والحنطة والشعير والذرة . قال الخطابى : وتخصيص الخمر بهذه الأشياء الخمسة ليس لأجل أن الخمر لا يكون إلا من هذه الخمسة بأعيانها وإنما جرى ذكرها خصوصاً لكونها معهودة فى ذلك الزمان . والخمر التى حرمها الشارع هى ما خامر العقل أو ستره . عن ابن عمر قال : سمعت عمر رضى الله عنه على منبر النبى ﷺ يقول : أما بعد أيها الناس ، إنه نزل تحريم الخمر وهى من خمسة : من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير . والخمر ما خامر العقل (البخارى) .

روى أبو داود عن جابر بن عبد الله . قال : قال رسول الله ﷺ « ما أسكر كثيره فقليله حرام » . وقالت عائشة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل مسكر حرام ، وما أسكر منه الفرق[1] ؛ فلء الكف منه حرام » . ونهى رسول الله عن كل مسكر ومفتر . والمفتر كل شراب يورث الفتور والتخدير فى الأعضاء .

عن ديلم الحميرى قال : سألت النبى ﷺ فقلت يارسول الله إنا بأرض باردة نعالج فيها عملا شديداً وإنا نتخذ شراباً من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا . قال ، هل يسكر قلت نعم . قال فاجتنبوه . قلت فإن الناس غير تاركيه . قال فإن لم يتركوه فقاتلوهم .

***

فالشريعة الإسلامية أول شريعة حرّمت الخمر تحريماً باتاً لما فى شربها من شرور وآثام ومضرات خلقية وجسمانية ومالية وقد حدّ رسول الله والخلفاء بعده شاربيها . لكنها مع ذلك منتشرة فى بلادنا الإسلامية . وتجبى الحكومات رسوماً على الخمر كسائر التجارات ! !

حـــد الخمر

عن أنس رضى الله عنه ، قال : ضرب النبى صلى الله عليه وسلم فى الخمر بالجريد والنعال وجلد أبو بكر رضى الله عنه أربعين . وفى رواية للترمذى : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل قد شرب الخمر فجلده بجريدة نحو أربعين وفعله أبو بكر .

وقد حرمت الخمر فى السنة الرابعة من الهجرة أثناء غزوة بنى النضير .

وحرم بعض الناس الخمر فى الجاهلية ، وقيل إن أول من حرمها الوليد بن المغيرة ، وقيل قيس بن عاصم السعدى ومنهم مقيس بن صبابة السهمىّ وعبد المطلب وأبو طالب وقصى بن كلاب وورقة بن نوفل وشيبة بن ربيعة وغيرهم .

---

(١) الفرق بفتحتين : مكيال يقال إنه يسع ستة عشر رطلا .

وقد انتشرت المسكرات فى بلاد المسلمين وراجت تجارتها حتى دخلت القرى . وضعف رجال الدين عن إبطالها واقتصروا على الوعظ والإرشاد ولم نر منهم حركة اجتماعية قوية لحمل الحكومات على سن قانون التحريم حتى تعجّب الغربيون من إباحة المسكرات فى بلاد يدين أهلها بالإسلام الذى يعتبر الخمر رجساً من عمل الشيطان !! فاللهم هبنا شجاعة وقوة وإقداماً ووفق الحكومات الإسلامية إلى العمل بتعاليم دينهم القويم .

غزوة ذات الرّقاع

اختلف فى سبب تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع . قيل هى اسم شجرة فى موضع الغزوة سميت بها . وقيل لأن أقدامهم نقبت من المشى فلفوا عليها الخرق . وقيل بل سُميت برقاع كانت فى ألويتهم . وقيل ذات الرقاع جبل فيه سواد وبياض وحمرة فكأنها رقاع فى الجبل فسميت الغزوة بذلك الجبل ، والأصح أنه موضع لقول دُعثور :

* حتى إذا كنا بذات الرقاع *

وتسمى هذه الغزوة غزوة محارب ، وغزوة بنى ثعلبة ، وغزوة بنى أنمار ، وغزوة صلاة الخوف، لوقوعها فيها.
قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد غزوة بنى النضير شهرى ربيع وبعض شهر جمادى ثم غزا نجداً يريد بنى محارب وبنى ثعلبة من غَطَفان نخل وهى ذات الرقاع فلقى بها جمعاً من غطفان فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب وقد خاف الناس بعضهم بعضا حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف ثم انصرف المسلمون . وكانت أول صلاة للخوف صلاها رسول الله .

صلاة الخوف — جاء فى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبَل نجد فوازينا العدوة فصافقنا لهم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى لنا فقامت طائفة معه وأقبلت طائفة على العدو وركع رسول الله ﷺ بمن معه وسجد سجدتين ثم انصرفوا مكان الطائفة التى لم تصل فجاءوا فركع رسول الله ﷺ بهم ركعة وسجد سجدتين ثم سلم فقام كل واحد منهم فركع لنفسه ركعة وسجد سجدتين

وسبب خروجه ﷺ إلى هذه الغزوة أنه بلغه أنهم جمعوا جموعاً لمحاربته صلى الله عليه وسلم فأخبر أصحابه وأمرهم بالتجهز ثم خرج فى أربعمائة من أصحابه وقيل أكثر من ذلك واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى رضى الله عنه وقيل عثمان بن عفان رضى الله عنه وسار إلى أن وصل إلى موضع يسمى وادى الشقرة وبث السرايا فرجعوا إليه من الليل وأخبروه أنهم لم يروا أحداً فسار حتى نزل نخلا وهو موضع من نجد من أراضى غَطَفان فلم يجد فى مجالسهم إلا نسوة فأخذهن ، فبلغ الخبر القوم فخافوا وتفرقوا فى رءوس الجبال ثم اجتمع جمع منهم وجاءوا لمحاربة جيش رسول الله ﷺ وأخاف الناس بعضهم بعضاً ولم يكن بينه وبين القوم حرب .

غزوة بدر الأخيرة

وتسمى غزوة بدر الصغرى وبدر الموعد للمواعدة عليها مع أبي سفيان يوم أحد وتسمى بدراً الثالثة وتسمى أيضاً غزوة السويق .

خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه وعشرة أفراس وذلك في شهر شعبان سنة أربع لميعاد أبي سفيان . واستعمل على المدينة عبد الله بن رواحة الخزرجي رضي الله عنه وحمل اللواء علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وخرج أبو سفيان في قريش وهم ألفان ومعهم خمسون فرساً حتى نزل موضعا قريبا من مر الظهران ثم بدا له الرجوع فقال يامعشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيها اللبن وإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا فرجع ورجع الناس فسماهم أهل مكة جيش السويق . يقولون إنما خرجتم تشربون السويق . وهو الناعم من دقيق الحنطة والشعير وهذه حيلة دبَّرها أبو سفيان لأنه لم يكن يريد حرباً بل خرج لئلا يقال أخلف وعده ولم يخرج ، على أنه لم يعارضه أحد من قريش في الرجوع فكان الجيش كذلك لا يريد الحرب

وكان أبو سفيان قد بعث إلى المدينة شخصا اسمه نعيم ليرجف أصحاب رسول الله ﷺ بكثرة العدو ليحملهم على عدم الخروج وذلك ليكون له عذر في الرجوع إلى مكة ولكن رسول الله ﷺ لم يبال بما سمع من كثرة عدد الجيش وتثبيط همة الناس ، فقال والذي نفسي بيده لو لم يخرج معي أحد لخرجت وحدي

وأقام ﷺ ببدر ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان وفي هذه المدة باع المسلمون ما معهم من التجارة فربحوا كثيراً .

وفي سنة أربع هذه تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بنت أبي أمية . وفيها أمر رسول الله زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب يهود فتعلمها وفي جمادى الأولى من هذه السنة توفي عبد الله بن عثمان بن عفان وكان عمره ست سنين وهو ابن بنت رسول الله رقية وفيها ولد الحسين رضي الله عنه .

غزوة دومة الجندل

وهي أول غزوات الشام

دُومَة الجندَل مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة وهي أقرب بلاد الشام إلى المدينة وبقرب تبوك

وكانت هذه الغزوة فى ربيع الأول سنة خمس (يوليه سنة ٦٢٦ م) واستعمل النبى صلى الله عليه وسلم على المدينة سباع بن عُرفُطة الغفارى . وسببها أنه بلغه أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مر بهم وأنهم يريدون الدنو من المدينة فخرج صلى الله عليه وسلم فى ألف من أصحابه ومعه دليل له من عذرة يقال له مذكور فأصاب أهل دومة الجندل الرعب وتفرقوا ثم عاد إلى المدينة . قال ابن الأثير وغنم المسلمون إبلاً لهم . وقال ابن إسحاق ثم رجع رسول الله قبل أن يصل إليها ولم يلق كيداً فأقام بالمدينة بقية سنته .

تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم

زينب بنت جحش

تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية فى شهر صفر من السنة الخامسة (يونيه سنة ٦٢٦ م) وهى أخت عبد الله بن جحش وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ وكانت قديمة فى الإسلام . تزوج رسول الله ﷺ بعد أن طلقها زوجها زيد بن حارثة .

كان زيد بن حارثة مولى خديجة وهبته لرسول الله ﷺ قبل البعثة وهو ابن ثمانى سنوات فأعتقه وتبناه . وكانوا يدعونه زيد بن محمد . وقد زوجه رسول الله ﷺ بنت عمته « زينب بنت جحش » ولما خطبها رسول الله على زيد امتنعت من إنكاحه نفسها فقال لها رسول الله أنكحيه فقالت يارسول الله أؤامر (أى أشاور) نفسى وبينما هما يتحدثان أنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً ﴾ وعند ذلك قالت زينب رضيته لى يارسول الله منكحا ، قال : نعم . قالت إذن لا أعصى رسول الله قد أنكحته نفسى . والسبب فى إبائها بادئ الأمر أنها كانت ترى أن زيداً غير كفء لها وقالت إنها خير منه حسباً ونسباً وكانت امرأة فيها حدة فلما نزلت الآية رضيت .

ثم إن زيداً كان يشكوها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها تؤذيه وتتكبر عليه بسبب النسب وعدم الكفاءة ، فكان يقول له « أمسك عليك زوجك » : أى لاتطلقها . لكنه لم يطق معاشرتها وطلقها . وهذا طبيعى فإن الإنسان لا يستطيع معاشرة زوجة تتكبر عليه وترى نفسها أرق منه . وبعد أن انقضت عدتها تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم لإبطال عادة التبنى بفعله ، فإن المشرع يستفاد من فعله كما يستفاد من قوله . وذلك أن الله أراد نسخ تحريم زوجة المتبنى . قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ وقال ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ ٱللَّهِ ﴾ فكان يدعى بعد ذلك زيد بن حارثة . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا

وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

وقد كان الله أوحى إلى رسوله أن زيداً سيطلق زوجته وتتزوجها بعده إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم بالغ فى الكتمان لزيد « أمسك عليك زوجك » فعاتبه الله على ذلك حيث قال ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ وهو عتاب على ترك الأولى ، وكان الأولى فى مثل ذلك أن يصمت عليه الصلاة والسلام أو يفوّض الأمر إلى رأى زيد رضى الله عنه . ولم يخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما أوحى إليه من تطليق زيد لزينب وتزوجه إياها مخافة طعن الأعداء والمنافقين فموتب عليه ولأنه أيضاً لم يؤمر بالإخبار به بل كان مجرد إعلام له خاصة . وللقصّاص فى هذه القصة كلام لاينبغى أن يجعل فى حيز القبول ويجب صيانة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثله .

وكانت زينب بنت جحش تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم وتقول زوجنى الله من السماء . وأولم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبز ولحم . وكانت امرأة صالحة صوامة قوامة كثيرة الخير تعمل بيدها وتتصدق به . وكان اسمها برة فسماها رسول الله زينب ، وهى وقتئذ بنت خمس وثلاثين سنة وبسبب زينب نزل الحجاب :

وتوفيت سنة عشرين وهى بنت ثلاث وخمسين سنة وهى أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم موتا بعده . أرسل إليها عمر بن الخطاب اثنى عشر ألف درهم كما فرض لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فأخذتها وفرّقتها فى ذوى قرابتها وأيتامها ثم قالت : « اللهم لايدركنى عطاء لعمر بن الخطاب بعد هذا » فماتت وصلى عليها عمر بن الخطاب ودخل قبرها أسامة بن زيد ومحمد بن عبد الله بن جحش . وعبد الله بن أبى أحمد بن جحش . قيل هى أول امرأة صنع لها النعش أشارت به أسماء بنت عميس كانت رأته فى الحبشة ، ودفنت بالبقيع فيما بين دار عقيل ودار ابن الحنفية .

وعن عائشة قالت يرحم الله زينب بنت جحش لقد نالت فى هذه الدنيا الشرف الذى لايبلغه شرف إن الله عز وجل زوّجها نبيه صلى الله عليه وسلم فى الدنيا ونطق به فى القرآن . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا ونحن حوله « أسرعكن بى لحوقا أطولكن باعاً » فبشرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرعة لحوقها به عليه السلام وهى زوجته فى الجنة .

غزوة المريسيع

أو غزوة بنى المصطلق

المُرَيْسيع : ماء لبنى خزاعة وتسمى هذه الغزوة غزوة بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة . وكانت فى شعبان سنة خمس من الهجرة (ديسمبر سنة ٦٢٦ م) وسببها أن الحارث بن أبى ضرار الخزاعى كان قد جمع الجموع لمحاربة النبى ﷺ فخرج رسول الله ﷺ وخرج معه كثير من المنافقين لم يخرجوا فى غزوة قط مثلها وكان معه ثلاثون من الخيل ، عشرة للمهاجرين وعشرون للأنصار واستعمل على المدينة زيد بن حارثة مولاه وقيل أبا ذر الغفارى. وخرجت معه عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما . وقَتَل رسول الله ﷺ جاسوسا للمشركين وبلغ عليه السلام المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل وصف أصحابه للقتال ودفع راية المهاجرين لأبى بكر رضى الله عنه وراية الأنصار لسعد بن عبادة وحمل المسلمون على المشركين فقتلوا عشرة وأسروا باقيهم وكانوا أكثر من سبعمائة ، وسبوا الرجال والنساء والذرية وساقوا النعم والشاء ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد وهو هشام بن صبابة وقد قتل خطأ ، أصابه رجل من الأنصار من رهط عبادة بن الصامت وهو يرى أنه من العدو .

وكان من جملة السبى جُوَيْرية بنت الحارث بن أبى ضرار رئيس بنى المصطلق ، وكانت تحت مسافع ابن صفوان فقتل فى هذه الغزوة وكان اسمها برة فسماها رسول الله جويرية وعن عائشة قالت لما قَسَم رسول الله ﷺ سبايا بنى المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة مُلّاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها . قالت عائشة فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهتها وقلت يرى منها ما قد رأيت فلما دخلت على رسول الله ﷺ قالت يارسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، وقد كاتبت على نفسى فأعنى على كتابتى فقال رسول الله ﷺ أو خير من ذلك أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك فقالت نعم . ففعل رسول الله ﷺ فبلغ الناس أنه تزوجها فقالوا أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما كان فى أيديهم من بنى المصطلق ، فلقد أعتق بها مائة من أهل بيت بنى المصطلق فما أعلم امرأة أعظم بركة منها على قومها . ولما تزوجها رسول الله ﷺ حجبها وقَسَم لها . وكانت حين تزوجها رسول الله ﷺ بنت عشرين سنة وتوفيت سنة خمسين وهى بنت خمس وستين سنة ، وبسبب زواجها هدى الله أكثر بنى المصطلق إلى الإسلام ، ثم أسلم الحارث . ومن هنا تظهر حكمة رسول الله ﷺ فى زواجها .

قتل هشام بن صبابة

قلنا إن هشام بن صبابة قُتل خطأ أصابه رجل من الأنصار . فبينا الناس على ذلك الماء (المريسيع) وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له جهجاه بن سعيد يقود فرسه فازدحم جهجاه وسنان الجهنى حليف بنى عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهنى يامعشر الأنصار وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين فغضب عبد الله بن أبىّ ابن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حديث السن فقال أقد فعلوها قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا والله ما عدّونا وجلابيب قريش ما قال القائل : سمّن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها منها الأذلّ . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير بلادكم . فسمع ذلك زيد بن أرقم وكان غلاماً فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب . فقال يارسول الله مر به عباد بن بشر بن وقش فليقتله . فقال رسول الله ﷺ (فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ولكن أذن بالرحيل) وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها فارتحل الناس وقد مشى عبد الله بن أبى ابن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان عبد الله بن أبى فى قومه شريفا عظيما فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه من الأنصار - يارسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل ، حَدَبا على عبد الله بن أبى ودفعا عنه ، فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه تحية النبوة وسلم عليه . ثم قال يارسول الله لقد رحت فى ساعة مبكرة ما كنت تروح فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال وأى صاحب يارسول الله ؟ قال عبد الله بن أبى . قال: وما قال ؟ قال زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل . قال أسيد فأنت والله يارسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال يارسول الله ارفق به فو الله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا .

ثم متن رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس ، فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض وقعوا نياما . وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبى . ثم راح بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فُوَيقَ النقيع يقال له نقعاء فلما راح رسول الله صلى الله عليه وسلم هبّت على الناس ريح شديدة آذتهم وتخوفوها فقال رسول الله ﷺ لاتخافو فإنما هبّت لموت عظيم من عظماء الكفار . فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن ثابت

ابن التابوت أحد بنى قينقاع وكان من عظماء يهود وكهفا للمنافقين قد مات فى ذلك اليوم ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين فى عبد الله بن أبى ابن سلول ومن كان على مثل أمره فقال﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ فبعث رسول الله إلى زيد بن أرقم وقرأ الآية عليه ثم قال له إن الله قد صدقك .

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى الذى كان من أمر أبيه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ؟ فإن كنت فاعلا فرنى به فأنا أحمل إليك رأسه فو الله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده منى وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا .

وقدم مقيس بن صبابة من مكة مسلماً فيما يظهر فقال يارسول الله جئتك مسلماً وجئت أطلب دية أخى قتل خطأ . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدية أخيه هشام بن صبابة فأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم غير كثير ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ثم خرج إلى مكة مرتداً .

آية التيمم

نزلت آية التيمم فى هذه الغزوة وذلك بسبب أن عائشة رضى الله عنه انقطع عقدها فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام الناس معه على التماسه حتى ابتعدوا عن الماء ونام رسول الله ﷺ واضعاً رأسه على فخذ عائشة رضى الله عنها فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فكان ضياع العقد سبباً فى نزول هذه الآية . وقال أبو بكر لابنته بعد أن كان يعاتبها « والله يابنتى إنك كما علمت مباركة » وآية التيمم مذكورة فى سورة النساء والمائدة .

عائشة وحديث الإفك

كان حديث الإفك فى غزوة بنى المصطلق ولا خلاف فى ذلك ولكن علماء السير اختلفوا هل قصة آية التيمم أسبق أو قصة الإفك . وخلاصة حديث الإفك أن عائشة رضى الله عنها بعد غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحين آذنوا بالرحيل ابتعدت عن الجيش لقضاء شأنها ، وبينما هى مقبلة إلى رحلها وجدت أن عقدها قد انقطع فعادت تبحث عنه فوجدته . لكنها لما رجعت وجدت أن الجيش قد رحل فجلست وغلبها النوم فنامت فرآها صفوان المعطل السلمى وكان وراء الجيش فاستيقظت باسترجاعه (١) . فأناخ راحلته وأركبها وانطلق

(١) أى بقوله إنا لله وإنا إليه راجعون .

حتى أتى الجيش فى نحر الظهيرة وهم نزول فأشاع عبد الله بن أبيّ فى المعسكر حديث الإفك[١] وانتشر بعد دخولهم المدينة لشدة عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومرضت عائشة رضى الله عنها شهراً واستاء رسول الله ﷺ استياء شديداً ثم ذهبت عائشة إلى بيت أبيها . وقد علمت بحديث الناس . وقالت لأمها ماذا يتحدث الناس ؟ فقالت يابنية هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة[٢] عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أ كثرن عليها . فبكت بكاء شديداً مما يتحدث الناس . وكانت لا تنام الليل من شدة الحزن والبكاء .

قلق رسول الله ﷺ واشتد قلقه واستبطأ الوحى ، فلم ير غير استشارة أصحابه فدعا علىّ بن أبى طالب وأسامة ابن زيد واستشارهما فى فراق أهله . فأما أسامة فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يعلم من براءة أهله . وأما على رضى الله عنه فقال يارسول الله « لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير » وهذا القول بلغ عائشة فلم تنسه طول حياتها ثم قال علىّ سل الجارية التى كانت تخدم عائشة تصدقك فدعا رسول الله ﷺ بريرة وسألها فأقسمت أنها لم تر عليها شيئاً . وكانت عائشة رضى الله عنها ترجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئها الله بهـا . وما كانت تظن أن الله تعالى ينزل فى شأنها وحياً . وبينا رسول ﷺ فى حيرة إذ نزل الوحى عليه ببراءة عائشة رضى الله عنها . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[٣] .

وعصبة الإفك حسان بن ثابت رضى الله عنه ومسْطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش[٤] . وعبد الله بن أبى المنافق فلما نزلتْ براءة عائشة جلدهم رسول الله كل واحد ثمانين جلدة إلا عبد الله بن أبى فإنه لم يجلده بل أمهله . وفى ذلك يقول عبد الله بن رواحة :

لقد ذاق حسـان الذى هو أهله وحمنـةُ إذ قالوا هجيراً ومسطح
تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم وسخطة ذى العرش الكريم فأبرحوا[٥]

قال السهيلى إن من نسب عائشة رضى الله عنها إلى الزنا كان كافراً لأن ذلك تكذيب للنصوص القرآنية ومكذبها كافر .

وقال عروة مارأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة ، ولو لم يكن لعائشة من الفضائل إلا قصة الإفك لكفى بها فضلا وعلو مجد ، فإنها نزل فيها من القرآن مايتلى إلى يوم القيامة .

---

(١) وفى حديث ابن عمر فقال عبد الله بن أبى فجر بها ورب الكعبة .
(٢) من الوضاءة وهى الحسن والجمال وكانت عائشة كذلك .
(٣) سورة النور (٤) حمنة بنت جحش هى بنت عمته صلى الله عليه وسلم أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين رضى الله عنها وزوجها مصعب بن عمير الذى استشهد بغزوة أحد (٥) أى بالغوا فى الكذب .

جاء فى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه . فأقرع بيننا فى غزاة غزاها فخرج سهمى فخرجت معه بعد ماأنزل الحجاب فأنا أحمل فى هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل دنونا من المدينة فآذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى فإذا عِقْدٌ لى من جزع [(١)] ظَفَار [(٢)] قد انقطع فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه فأقبل الذين يُرَحِّلون لى [(٣)] فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء إذ ذاك خفافاًلم يثقلن ولم يغشهن اللحم [(٤)] وإنما يأكلن العُلْقَةَ من الطعام [(٥)] فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدى بعد مااستمر الجيش فجئت منزلهم وليس فيه أحد فأممت الموضع الذى كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلىّ. فبينا أنا جالسة غلبتنى عيناى فنمت وكان صفوان بن المعطّل السُّلَمى ثم الذكوانى من وراء الجيش فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم فأتانى وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته فوطئ يدها . فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد مانزلوا موغرين فى نحر الظهيرة فهلك من هلك وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبىّ ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهراً والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ويريبنى فى وجعى أنى لاأرى من النبى ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أمرض إنما يدخل فيسلم فيقول كيف تِيكُم لاأشعر بشىء من ذلك حتى نقهت فخرجت أنا وأم مِسْطح قِبَل المناصع [(٦)] مُتَبَرَّزنا [(٧)] لانخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية أو فى التنزه فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبى رُهم نمشى فَعَثَرَتْ فى مِرطها [(٨)] فقالت تعس مسطح فقلت لها بئسما قلت أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت ياهَنْتَاهُ [(٩)] ألم تسمعى ماقالوا ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضى . فلما رجعت إلى بيتى دخل علىّ رسول الله ﷺ فسلم . فقال كيف تِيكُم فقلت ائذن لى إلى أبَوَىّ . قالت وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت أبوىّ . فقلت لأمى مايتحدث الناس به ؟ فقالت : يابنية هوِّنى على نفسك الشأن فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . فقلت سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت فبت تلك الليلة حتى أصبحتُ لايرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . ثم أصبحت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ ابن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله . فأما أسامة فأشار عليه بالذى يعلم فى

(١) هو خرز معروف فى سواده بياض . (٢) مدينة باليمن . (٣) أى يضعون الرحل على بعيرى .
(٤) وفى رواية : والنساء يومئذ لم يهبلهن اللحم ، وهبله اللحم تهبيلا إذا كثر عليه وركب بعضه بعضاً . يقال رجل مهبل .
(٥) القليل من الطعام . (٦) موضع خارج المدينة . (٧) موضع قضاء حاجتنا . (٨) كسائها .
(٩) أى ياهذه .

نفسه من الودلم . فقال أسامة أهلك يارسول الله ولا نعلم إلا خيراً . وأما على فقال يارسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تَصدقك ، فدعا رسول الله ﷺ بَرِيرَةَ . فقال يابريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟ فقالت بريرة : لاوالذى بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً أغمصه [1] عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام على العجين فتأتى الداجن فتأكله . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبىّ ابن سلول . فقال رسول الله ﷺ : من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى أهلى فوالله ماعلمت على أهلى إلا خيراً وقد ذكروا رجلا ماعلمت عليه إلا خيراً . وما كان يدخل على أهلى إلا معى . فقام سعد بن معاذ فقال يارسول الله أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه . وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك . فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلا صالحا ، ولكن احتملته الحمية فقال : كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على ذلك . فقام أسيد بن الحضير فقال كذبت لعمر الله والله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فثار الحيّان الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله على المنبر فخفضهم حتى سكتوا وسكت ، وبكيت يومى لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح عندى أبواى . وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى أظن أن البكاء فالق كبدى . قالت فبينا هما جالسان عندى وأنا أبكى إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ولم يجلس عندى من يوم قيل لى ما قيل قبلها . وقد مكث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى بشىء . قالت فتشهد ثم قال : ياعائشة لقد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه . فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دَمعى حتى ما أحس منه قطرة ، وقلت لأبى أجب عنى رسول الله ﷺ . قال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت لأمى أجيبى عنى رسول الله ﷺ فيما قال . قالت والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ قالت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن . فقلت : والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر فى أنفسكم وصدقتم به ولئن قلت لكم إنى بريئة، والله يعلم إنى لبريئة لا تصدقونى ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إنى لبريئة لتصدقنى ، والله ما أجد لى ولكم مثلًا إلا أبا يوسف إذ قال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ثم تحولت على فراشى وأنا أرجو أن يبرئنى الله . ولكن والله ما ظننت أن ينزل الله فى شأنى وحياً يتلى ولأنا أحقر فى نفسى من أن يتكلم بالقرآن فى أمرى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها ، فو الله مارام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله عليه الوحى . فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان [2] من العرق فى يوم شات فلما سُرّى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم

(١) أى أعيبه . (٢) اللؤلؤ .

بهـا أن قال لى . ياعائشة احمدى الله فقد برأك الله فقالت لى أمى : قومى إلى رسول الله ﷺ فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله فأنزل الله عزّ وجل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ الآيات . فلما أنزل الله عز وجل هذا فى براءتى قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه ـ والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قال لعائشة . فأنزل الله عز وجل ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ ﴾ إلى قوله ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فقال أبو بكر : بلى والله ، إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح الذى كان يجرى عليه . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمرى فقال يازينب ما علمت مارأيت ؟ فقالت يارسول الله أحمى سمعى وبصرى . والله ما علمت عليها إلا خيراً . قالت وهى التى كانت تُساميني فعصمها الله بالورع اهـ .

هذه قصة الإفك وقد ظهر أن المنافقين قد افتروها وعلى رأسهم عبد الله بن أبىّ لشدة حقدهم على رسول الله فنسبوا إلى عائشة ، وهى من أشرف بيت ماهى بريئة منه ليلوثوا سمعتها الطاهرة النقية ، ولكن الحق تعالى برأها من كل سوء وأعلى قدرها فاطمأن زوجها رسول الله وأبوها وأمها وجميع المسلمين ، وإن كان هذا شأن الحاسدين فى كل زمان فإن الله عز شأنه لابد أن يكلأ عباده الصالحين ويرعاهم وينصرهم على القوم الظالمين .

غزوة الخندق

وهى الأحزاب

كانت غزوة الخندق فى شوال من السنة الخامسة (فبراير سنة ٦٢٧ م) باتفاق المؤرخين لكن ابن خلدون يقول فى تاريخه (والصحيح أنها فى الرابعة ويقويه ابن عمر يقول ردنى رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة ثم أجازنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فليس بينهما إلا سنة واحدة وهو الصحيح فهى قبل دومة الجندل بلا شك) (١)

تحزب الأحزاب

لما وقع إجلاء بنى النضير ، سار منهم جمع من كبرائهم ومنهم سلام بن مشكم ورئيسهم كنانة بن أبى الحقيق النضرى وحيىّ بن أخطب وهوذة بن قيس الوائلى وأبو عامر الفاسق إلى أن قدموا مكة على قريش يدعونهم ويحرضونهم على حرب رسول الله .

---

(١) راجع سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى والواقدى وطبقات ابن سعد وحياة محمد لمستر موير .

قال الأستاذ ولفنسون : « لما نزل أشراف بنى النضير فى خيبر أخذوا يفكرون فى الثأر من الأنصار وجعلوا يفكرون فى الوسائل التى توصلهم إلى آطامهم وتردهم إلى مزارعهم فى منطقة يثرب فعزم نفر من اليهود فيهم سلام ابن أبى الحقيق وحيى بن أخطب وكنانة بن الربيع أن يحزبوا الأحزاب على المسلمين » .

أى الدينين خير ؟

لما دعت اليهود قريشاً لمحاربة النبى ﷺ وقالوا لهم سنكون معكم حتى نستأصله ارتابوا فى أمرهم لأن دين اليهود قريب فى جوهره من الإسلام وبعيد عن عبادة الأصنام كل البعد وقريش عباد أصنام . ولذلك قالوا لهم : يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد . أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه . فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا واستعدوا للحرب . ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غَطَفَان ودعوهم إلى مشاركتهم فى الحرب وذكروا لهم استعداد قريش فأجابوهم .

إن اليهود أجابوا قريشاً بأن دين قريش (الوثنى) خير من دين محمد مخالفين بذلك دينهم الداعى إلى عبادة الله الواحد توصلا إلى غرضهم وهو محاربة المسلمين وطردهم من المدينة وإعادة إخوانهم إلى ديارهم وكان خيراً لهم أن يعيشوا مع المسلمين فى وفاق ويكفوا عن الدسائس والفتن والانضمام إلى الأعداء . فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَٱلطَّاغُوتِ ﴾ الآيات . . .

وقد أدرك الأستاذ ولفنسون أنهم أخطأوا فى تفضيلهم دين قريش على الإسلام فقال فى كتابه تاريخ اليهود صفحة ١٤٢ مانصه :

« والذى يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء ، إنما هو تلك الحادثة التى جرت بين نفر من اليهود وبين قريش الوثنيين حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية » .

ولا يخفى أن الذين أدلوا بهذا الحديث ليسوا من عامة اليهود حتى يقال إنهم لايعلمون ما يقولون أو إنهم لايمثلون اليهود بل هم من رؤسائهم وأصحاب النفوذ فيهم . فهل هؤلاء لا يستحقون التأديب ؟

خروج الأحزاب وقوادهم

خرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب . وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة فى بنى فزارة . والحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى فى بنى مرة . ومسعود بن رُخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع .

حفر الخنـــــدق

فلما سمع رسول الله ﷺ بتحزبهم وخروجهم لمحاربته أمر بحفر الخندق حول المدينة فى الجهات التى لم تكن حصينة لتعوق العدو المهاجم ، والذى أشار عليه ﷺ بحفره سلمان الفارسى رضى الله عنه ، وقد كان الفرس يحفرون الخنادق للدفاع فى الحرب . قال سلمان يارسول الله كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ، وعلى كل حال فإن كلمة خندق فارسية الأصل .

اشتغل رسول الله ﷺ بحفر الخنـدق بنفسه ليقتدى به المسلمون ، وليشجعهم على العمل فاشتغل المسلمون معه . أما المنافقون فكانوا يتوانون وينصرفون بدون إذن رسول الله ﷺ ويستثقلون العمل ويثبطون العزائم . وتباطأ رجال من المنافقين وصار الواحد منهم ينصرف إلى أهله من غير استئذان .

سلمان منا أهل البيت

خط رسول الله ﷺ الخندق ثم قطعه أربعين ذراعاً بين كل عشرة فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً . فقالت الأنصـار سلمان منا . وقالت المهاجرون سلمان منا فقال رسول الله ﷺ « سلمان منا أهل البيت » .

اعتراض صخرة بيضاء ومعجزة الرسول

بينما جماعة من المسلمين يعملون فى حفر الخندق فى الجزء المخصص لهم ومعهم سلمان الفارسى إذ ظهرت صخرة بيضاء مَرْوَة فكسرت حديد معاولهم وشقت عليهم . فقالوا ياسلمان ارق إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر هذه الصخرة فإما أن نعدل عنها فإن المعدل قريب وإما أن يأمرنا فيها بأمره فإنا لا نحب أن نجاوز خطه[1] فرقى سلمان حتى أتى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية فقال يارسول الله بأبينا أنت وأمنا خرجت صخرة بيضاء من الخندق مروة فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى مانحيك فيها قليلا ولا كثيراً . فمرنا فيها بأمرك فإنا لانحب أن نجاوز خطك . فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان فى الخندق وأخذ المعول من سلمان رضى الله عنه فقال باسم الله ثم ضربها فنثر ثلثها وخرج منها نور أضاء مابين لابتيها يعنى لابتى المدينة . فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إنى لأبصر قصورها الحمر الساعة من مكانى . ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر فبرقت برقة من جهة فارس أضاءت ما بين لابتيها . فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن فأبشروا

(١) أى الخط الذى رسمه لهم الرسول .

بالنصر فسر المسلمون . ثم ضرب الثالثة وقال باسم الله فقطع بقية الحجر وخرج نور من قبل اليمن فأضاءما بين لا بتى المدينة حتى كأنه مصباح فى جوف ليل مظلم . فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة .

وجاء فى صحيح البخارى عن جابر رضى الله عنه قال :

« إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة[1] فجاءوا النبى ﷺ فقالوا هذه كدية عرضت فى الخندق فقال أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر[2] ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا[3] فأخذ النبى ﷺ المعول فضرب فى الكدية فعادت كثيبا أهيل[4] ».

عدد الجيشين

كان أهل الخندق ثلاثة آلاف . ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من دومة بين الجرف والغابة فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من كنانة وأهل تهامة وأقبلت غَطَفَان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمَى بجانب أحد .

نقض العهد

كان كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة قد وادع النبى ﷺ على قومه وعاقده على ذلك فذهب إليه حُيىّ ابن أخطب النضرى وهو أحد الذين حزبوا الأحزاب فلما سمع كعب حُيىّ بن أخطب أغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فألح عليه ابن أخطب ففتح له وما زال يستميله ويغريه حتى نقض كعب عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ وصار هو وقومه بنو قريظة مع الأحزاب على رسول الله ﷺ وعلم بذلك رسول الله ﷺ وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف .

اشتداد الحصار

اشتد الخوف من تحزب الأحزاب ولا سيما بعد أن نقض بنو قريظة العهد وانضموا إلى الأعداء وظن المؤمنون كل الظن وانتهز المنافقون هذه الفرصة لتثبيط العزائم وهمّ بالفشل بنو حارثة وبنو سلمة معتذرين بأن بيوتهم عورة خارج المدينة ثم ثبتهم الله ودام الحصار على المسلمين قريباً من شهر ولم يكن بينهم غير الرمى بالنبال ، وكان لدى المسلمين من المؤونة مايكفيهم أكثر من عام ..

---

(١) أى قطعة من الأرض لا تعمل فيها المعاول . (٢) أى من ألم الجوع أو خشية انحناء صلبه . (٣) أى من جنس ما يطعم أو يشرب . (٤) أى رملا سائلا .

اقتحام الخندق

خرجت فوارس من قريش على خيلهم بعد أن تهيأوا للقتال حتى وقفوا خارج الخندق فلما رأوه قالوا والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. ثم يمموا مكاناً من الخندق ضيقاً فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم السبخة بين الخندق وسلع وخرج علىّ بن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التى اقتحموها وخرج عمرو بن عبد ود وطلب المبارزة وكان عمره تسعين سنة فبارزه على بن أبى طالب فقتله. وذكر ابن إسحاق أن للمشركين بعثوا إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفة عمرو بعشرة آلاف. فقال رسول الله: هو لكم ولا نأكل ثمن الموتى، وخرجت خيلهم منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار أصابه سهم فمات منه بمكة. ومن بنى مخزوم نوفل بن عبد الله بن المغيرة وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة فقال يامعشر العرب قتلة أحسن من هذه فنزل إليه علىّ فقتله. ومن الذين كانوا يناوشون المسلمين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وذلك قبل إسلامهما.

ورُمِى سعد بن معاذ يومئذ بسهم رماه رجل يقال له ابن العَرِقة العامرى [1] فقال خذها وأنا ابن العرقة. فقال سعد عرق الله وجهك فى النار فأصاب الأكحل منه فقطعه. فقال سعد اللهم لا تمتنى حتى تقر عينى فى (بنى قريظة) وكانوا حلفاءه ومواليه فى الجاهلية. ونقل سعد وهو مجروح إلى خيمة رُفيدة وقد كانت امرأة تداوى الجرحى فى المسجد.

حسّان بن ثابت يخشى القتال

كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع ــ حصن حسّان بن ثابت ــ قالت وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان. قالت صفية فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إن أتانا آت. قالت فقلت ياحسان إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَن وراءنا من يهود وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله، فقال يغفر الله لك يابنت عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قالت، فلما قال ذلك لى ولم أر عنده شيئاً احتجزت ثم أخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته. فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت ياحسان انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل. قال: مالى بسلبه من حاجة يابنت عبد المطلب [2]. فكانت صفية أشجع من حسان.

(١) العرقة ــ بفتح العين وكسر الراء ــ وهى أمه واسمها قلابة بنت سعيد بن سعد بن سهم وتكنى أم فاطمة. سميت العرقة لطيب ريحها، وهى جدة خديجة رضى الله عنها أم أبيها. وابن العرقة هذا اسمه حبان بن عبد مناف.

(٢) راجع تاريخ الطبرى ــ غزوة الخندق.

استمرار القتال وفوات الصلاة

استمر القتال فى يوم من أيام الخندق من سائر جوانب الخندق إلى الليل ولم يصل ﷺ ولا أحد من المسلمين صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وصار المسلمون يقولون ماصلينا فيقول رسول الله ﷺ ولا أنا فلما انكشف القتال وجاء ﷺ إلى قبته أمر بلالا فأذن وأقام للظهر فصلى ، ثم أقام لكل صلاة وصلى هو وأصحابه .

وجاء فى رواية جابر رضى الله عنه أنه أذن وأقام لكل صلاة . وجمع النووى بأنهما قضيتان جرتا فى أيام الخندق فإنها كانت خمسة عشر يوماً . وفى رواية أن التى فاتت صلاة العصر ويحمل ذلك على أنه وقع فى بعض تلك الأيام وجاء فى بعض الروايات : « شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر حتى غابت الشمس ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً » .

إن الحرب خدعة

جاء نُعيم بن مسعود بن عامر بن أُنيف بن ثعلبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنى قد أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فرنى بما شئتَ . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعتَ فإن الحرب خدعة[1] ، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديما فى الجاهلية فقال لهم : يابنى قريظة قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم . قالوا صدقت لست عندنا بمتهم فقال لهم إن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وقد ظاهرتموهم عليه ، وإن قريشا وغطفان ليسوا كهيئتكم . البلد بلدكم ، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لاتقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم وبلدهم بغيره فليسوا كهيئتكم إن رأوا نُهزَة وغنيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى تناجزوه ، فقالوا لقد أشرت برأى ونصح . ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : يامعشر قريش قد عرفتم ودى إياكم وفراق محمداً وقد بلغنى أمر رأيت حقًّا علىّ أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا علىّ . قالوا نفعل ذلك . قال فاعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه أن قد ندمنا على مافعلنا فهل يرضيك عنا أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالًا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم : فإن بعث إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحداً . ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يامعشر غطفان أنتم أصلى وعشيرتى وأحب الناس إلىّ ولا أراكم

(١) قال النووى : اتفقوا على جواز خداع الكفار فى الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز .

تتهمونني . قالوا صدقت . قال فاكتموا على . قالوا نفعل ، ثم قال لهم مثل ماقال لقريش وحذرهم ماحذرهم .

فلما كانت ليلة السبت فى شوال سنة خمس ، وكان مما صنع الله عزوجل لرسوله أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم ولسنا مع ذلك بالذى نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلادنا ، ولا طاقة لنا بذلك من محمد . فلما رجعت إليهم الرسل بالذى قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : تعلمون والله إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق . فأرسلوا إلى بنى قريظة أنا والله لاندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا ، فإن أنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ، مايريد القوم إلا أن يقاتلوا ، فإن وجدوا فرصة انتهزوها وإن كانوا غير ذلك تشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلادكم . فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً . فأبوا عليهم وخذل الله بينهم . وبذلك نجحت الخدعة .

وفى طبقات ابن سعد : حُصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بضع عشرة ليلة حتى خلص إلى كل امرىء منهم الكرب فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعالج غطفان على أن يعطيهم ثلث الثمر ويخذلوا بين الناس وينصرفوا عنه فأبت ذلك الأنصار فترك ما كان أراد من ذلك . وقد تبيّن لنا أن نعيم بن مسعود قد قام بذلك خير قيام .

حرب الطبيعة

نجح نعيم بن مسعود فى خدعته وأوقع الفشل بين بنى قريظة وقريش . ثم جاءتهم الريح فى ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم وأصيبوا بالبرد وماتت مواشيهم ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ مااختلف من أمرهم وما فرق الله من جماعتهم ، دعا حذيفة فبعثه إليهم لينظر مافعل القوم ليلا . وكان حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنافقين لم يعلمهم أحد إلا حذيفة . أعلمه بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال حذيفة فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ماتفعل لاتقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء قال تعالى ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ .

خطبة أبي سفيان

قام أبو سفيان بن حرب . فقال « يامعشر قريش لينظر امرؤ جليسه » قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى . فقلت من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان . ثم قال أبو سفيان : « يامعشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإنى مرتحل » ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم .

هذه خطبة أبى سفيان فى الجيش . وكان قائدهم ولا بقاء للجند بعد رجوع القائد ونصيحته لهم بالعودة ، ولا شك أنهم سئموا الإقامة ولم يروا فائدة من الانتظار أكثر مما انتظروا . وقد ساءت حالهم بسبب اشتداد البرد وهبوب الريح وعدم رغبة بنى قريظة فى القتال . وقد كانوا يؤملون دخول المدينة . فكان الخندق عقبة فى سبيلهم بالرغم من كثرة عددهم . ولما سمعت غطفان بما فعلت قريش تشمروا راجعين إلى بلادهم تاركين ما استثقلوا من متاعهم فغنمه المسلمون . وانصرف المسلمون عن الخندق ورجعوا إلى المدينة ووضعوا السلاح بعد أن حاصرهم المشركون خمسة عشر يوماً . وانصرف صلى الله عليه وسلم من غزوة الخندق يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة .

قال ﷺ بعد انصراف الأحزاب لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا . وقد كان كما أخبر ﷺ . وكانت هذه الغزوة آخر محاولة من جانب أشراف مكة للقضاء على الدين الجديد ألا وهو الإسلام .

خسائر المسلمين

ذكر ابن إسحاق أنه استشهد من المسلمين يوم الخندق ستة لا غير : ثلاثة من الأوس وهم :
سعد بن معاذ ، وأنس بن أوس ، وعبد الله بن سهيل . وثلاثة من الخزرج وهم : الطفيل بن النعمان ، وثعلبة ابن غنمة ، وكعب بن زيد .

خسائر المشركين

أما عدد قتلى المشركين فثلاثة : منبه بن عبد العبدرى أصابه سهم فمات منه بمكة ، ونوفل بن عبد الله المخزومى ، وعمرو بن عبد وُدّ .

غزوة بنى قريظة

ذو القعدة سنة خمس — إبريل سنة ٦٢٧ م

بنو قُرَيْظَةَ قوم من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس . وسيد الأوس حينئذ سعد بن معاذ

ذكرنا أن بنى قريظة نقضوا العهد وحاربوا رسول الله مع الأحزاب واشتد البلاء على المسلمين ثم كفوا عن القتال لما أوقعه نعيم من الفشل بينهم وبين قريش فكان تأديبهم أمراً لا مناص عنه لأن وجودهم بالمدينة فتنة تهدد المسلمين ، ولأنهم هم الذين حزبوا الأحزاب ، وانضموا إلى الأعداء ، فى غزوة الخندق .

لما انصرف رسول الله ﷺ من الخندق ودخل المدينة لسبع بقين من ذى القعدة سنة خمس هو وأصحابه ووضعوا السلاح وكان قد صلى الصبح ودخل بيت عائشة رضى الله عنها . فلما كان وقت الظهيرة أتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ معتجراً بعمامة [1] من إستبرق على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج فقال أو قد وضعت السلاح يارسول الله ؟ قال نعم . فقال جبريل فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، ومارجعت الآن إلا من طلب القوم إن الله عز وجل يأمرك يامحمد بالمسير إلى بنى قريظة فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم . وروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ لما رجع يوم الخندق ووضع السلاح واغتسل فأتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار فقال وضعت السلاح فوالله ماوضعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين ؟ قال : هاهنا وأومأ إلى بنى قريظة . قالت فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا فأذن فى الناس من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فيما قال ابن هشام .

وقدّم رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب برايته إلى بنى قريظة وابتدرها الناس . وكان عدد من خرج إلى القتال ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثين فرساً .

دنا على كرم الله وجهه من الحصن [2] ، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار وغرز اللواء عند أصل الحصن ، فسمع من بنى قريظة مقالة قبيحة فى حقه ﷺ وحق أزواجه فرجع حتى لقى رسول الله ﷺ بالطريق فقال يارسول الله لاعليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث . قال لم ؟ أظنك سمعت لى منهم أذى . قال نعم يارسول الله قال لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا . فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال ياإخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ قالوا ياأبا القاسم ماكنت جهولا .

---

(١) اعتجر عمامته : لفها على رأسه (٢) حصن بنى قريظة يبعد عن المدينة بنحو ميلين أو ثلاثة إلى الجنوب الشرقى .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من أصحابه بالصورين [١] قبل أن يصل إلى بنى قريظة فقال هل مرّ بكم أحد ؟ قالوا يارسول الله قد مرّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة . عليها قطيفة ديباج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك جبريل بُعث إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم [٢] .

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة كما قال ابن إسحاق وقال الواقدى إحدى وعشرين ليلة . حتى جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وكان طعام الصحابة التمر يرسل به إليهم سعد بن عبادة .

وقد كان حيي بن أخطب دخل على بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب ابن أسد بما كان عاهده عليه . فلما أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم (يقاتلهم) قال كعب بن أسد لهم :

يامعشر اليهود إنه قد نزل بكم من الأمر ماترون وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثاً فخذوا أيها شئتم . قالوا وماهن ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه فو الله لقد كان تبين لكم أنه لنبي مرسل وإنه الذى كنتم تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره .

قال فإذا أبيتم علىّ هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مُصْلتين بالسيوف [٣] ولم نترك وراءنا ثقلا يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك ، نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه وإن نظفر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء .

قالوا نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم ؟

قال فإذا أبيتم هذه علىّ فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غِرّة (غفلة) .

قالوا نفسد سبتنا ونحدث فيه مالم يكن أحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه من المسخ مالم يخف عليك .

قال مابات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما .

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ : أن ابعث إلينا أبا لُبابة وهو رفاعة بن عبد المنذر أخو بنى عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس نستشيره فى أمرنا . فأرسله رسول الله ﷺ إليهم فلما رأوه ، قام إليه الرجال وجهش إليه

---

(١) الصورين : موضع بالمدينة بالبقيع . (٢) سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق وكذا فى تاريخ الطبرى عن ابن إسحاق .
(٣) مجردين السيوف :

النساء والصبيان (أى أسرعوا إليه) يبكون فى وجهه من شدة المحاصرة فرق لهم وقالوا له : ياأبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال نعم . وأشار بيده إلى حلقه « إنه الذبح » قال أبو لبابة : فوالله مازالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خُنْتُ الله ورسوله (بإذاعة سره) ومن هذا يتبين أن أبا لبابة كان يعلم أنهم سيقتلون قبل أن يحكم فيهم سعد .

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده [1] وقال : لا أبرح مكانى هذا حتى أموت أو يتوب الله علىّ مما صنعت وعاهد الله أن لا يطأ بنى قريظة أبداً . وقال لا يرانى الله فى بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً . فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وأبطأ عليه وكان قد استبطأه قال : أما لو جاءنى لاستغفرت له . فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه .

ثم إن توبة أبى لبابة أنزلت على رسول الله ﷺ وهو فى بيت أم سلمة فبشرت أبا لبابة بذلك ثم أطلقه رسول الله ﷺ .

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ . فتواثبت الأوس فقالوا يارسول الله إنهم موالينا دون الخزرج وقد فعلت فى موالى الخزرج بالأمس ماقد علمت وقد كان رسول الله ﷺ قبل بنى قريظة حاصر بنى قينقاع . وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه . فسأله إياهم عبدالله بن أبى ابن سلول فوهبهم له . فلما كلمه الأوس قال رسول الله ﷺ : ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى قال فذاك إلى سعد بن معاذ وكان سعد ابن معاذ قد جعله رسول الله ﷺ فى خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رُفَيدة فى مسجده كانت تداوى الجرحى وتحتسب نفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وقد قال رسول الله ﷺ لقومه حين أصابه السهم . بالخندق : اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب [2] .

حكم سعد بن معاذ

كان أبو لبابة بن عبد المنذر قد عرف حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظة لأنه لما ذهب إليهم أشار بيده إلى حلقه « إنه الذبح » ثم ندم على هذه الإشارة واعتبرها خيانة لله ورسوله ﷺ وكان ما كان منه . أما سعد بن معاذ فقد كان حكمه فى بنى قريظة معروفا أيضا لأنه لما أصيب فى غزوة الخندق قال : « اللهم لا تمتنى حتى تقر عينى فى بنى قريظة » وقد بقى مجروحاً إلى أن استدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم فى بنى قريظة .

---

(١) وتعرف باسطوانة أبى لبابة ، وهى السارية التى كانت عند باب أم سلمة زوجة رسول الله .

(٢) راجع غزوة الخندق فى هذا الكتاب

فأتاه قومه فاحتملوه على حمار وكان رجلا جسيماً وأقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : يا أبا عمرو أحسن فى مواليك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتُحسن فيهم . فلما أكثروا عليه . قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم . فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التى سمع منه .

فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى سيدكم فأنزلوه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احكم فيهم قال : فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وأن تُسبى ذراريُّهم وأن تقسم أموالهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله . فأمر رسول الله ﷺ أن تكون النساء والذرية فى دار ابنة الحارث امرأة من بنى النجار وأمر بالأسارى أن يكونوا فى دار أسامة بن زيد . ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ثم أمر بقتل كل من أنبت . فبعث إليهم فجاءوا إليه أرسالا تضرب أعناقهم ويلقون فى تلك الخنادق وكان فيهم عدو الله حيى بن أخطب ، وكعب بن أسد رأس القوم وهم ٦٠٠ أو ٧٠٠ وقيل إنهم كانوا من ٨٠٠ إلى ٩٠٠ .

وقد قالوا لكعب بن أسيد وهم يُذهب بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا : يا كعب ما ترى ما يُصنع بنا ؟ فقال كعب : فى كل موطن لا تعقلون . ألا ترون الداعى لا ينزع وأنه من ذهب به منكم لا يرجع ، هو والله القتل .

فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ ثم رد عليهم التراب وأُتى بحيىّ بن أخطب وعليه حلة له فقاحية (على لون الورد) قد شققها عليه من كل ناحية كوضع الأنملة أنملة أنملة لئلا يسلبها . مجموعة يداه إلى عنقه بحبل . فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال : أما والله مالمتُ نفسى فى عداوتك . ولكنه من يَخذل الله يُخذل ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس لا بأس بأمر الله . كتاب الله وقدره وملحمة (قتال) قد كتبتْ على بنى إسرائيل . ثم جلس فضربت عنقه وضربت عنق كعب بن أسد سيد بنى قريظة . وكان المتولى قتل بنى قريظة على ابن أبى طالب والزبير بن العوام . وعند قتلهم الرجال صاحت نساؤهم وشقت جيوبها ونشرت شعورها وضربت خدودها وملأت المدينة نواحاً .

عن عائشة رضى الله عنها قالت :

« لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة . قالت والله إنها لعندى تحدث معى وتضحك ظهراً وبطناً ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالهم بالسوق إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة ؟ قالت أنا والله : قلت ويلك مالك ؟ قالت : أُقتل . قلت ولم ؟ قالت حدث أحدثته . قالت فانطلق بها فضربت عنقها فكانت عائشة تقول : ما أنسى عجباً منها طيب نفس وكثرة ضحك وقد عرفت أنها تُقتل » .

نقول : أشفقت عائشة رضى الله عنها على بنانة لطيب نفسها ومرحها حتى آخر لحظة من حياتها وكانت مع ذلك تعلم أنها ستقتل لأنها قتلت أحد المسلمين بإلقاء الرحى عليه وهو خلاد بن سويد إذ لم تستطع أن تعيش بعد زوجها فنالت جزاءها . ولم يقتل من نساء بنى قريظة غيرها .

وكانت تدعى هذه المرأة بنانة [1] امرأة الحكم القرظى كانت طرحت رحى على خلاد بن سويد فقتلته بإرشاد زوجها لأنه أحب ألا تبقى بعده فيتزوجها غيره ولم يقتل أحد من المسلمين فى هذه الغزوة غير خلاد ، وشهد خلاد العقبة وبدراً وأحداً .

غنائم المسلمين

أمر رسول الله ﷺ أن يجمع ما فى حصونهم من الحلقة والسلاح وغير ذلك فجمع فوجد فيها ١٥٠٠ سيف و٣٠٠ درع و٢٠٠٠ رمح و٥٠٠ تُرْس وحَجَفَة [2] ووجد أثاث كثير وآنية كثيرة وجمال نواضح أى يستقى عليها الماء وماشية وشياه كثيرة . فخمس ذلك مع النخل والسبى ثم قسم الباقى على الغانمين وكانت أسهم القسمة ٣٠٧٢ سهماً لأن المسلمين ٣٠٠٠ والخيل ٣٦ للفرس سهمان ولصاحبه سهم . ثم بعث رسول الله سعد بن زيد الأنصارى أخا بنى عبد الأشهل بسبايا من سبايا بنى قريظة إلى نجد فابتاع لهم منها خيلا وسلاحاً واصطفى لنفسه من نسائهم (ريحانة) بنت عمرو بن جنافة فكانت عند رسول الله حتى توفى عنها وهى فى ملكه وعرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يارسول الله بل تتركنى فى ملكك فهو أخف علىّ وعليك . فتركها ثم أسلمت .

وفاة سعد

لما انقضى شأن بنى قريظة انفجر جُرح سعد بن معاذ فمات منه شهيداً . قال ابن إسحاق حدثنى معاذ بن رفاعة الزرقى قال من شئت من رجال قومى إن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ حين قبض سعد بن معاذ فى جوف الليل معتجراً بعمامة من إستبرق فقال يامحمد من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش ؟ قال فقام رسول الله ﷺ سريعاً يجر ثوبه إلى سعد فوجده قد مات . وعن الحسن البصرى قال : كان سعد رجلا بادناً فلما حمله الناس وجدوا له خفة فقال رجال من المسلمين والله إن كان لبادنا وما حملنا من جنازة أخف منه . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : إن له حملة غيركم والذى نفسى بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد واهتز له العرش . وعن جابر بن عبد الله قال : لما دفن سعد ونحن مع رسول الله ﷺ

---

(١) وفى السيرة الحلبية نباتة وقيل مزنة . وفى الطبرى أن اسمها بنانة وكذا فى أسد الغابة .

(٢) الحجفة : ضرب من التروس . وقيل هى من الجلود خاصة . وقيل هى من جلود الإبل مقورة .

سبّح رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبح الناس معه ثم كبر فكبر الناس معه . فقالوا يارسول الله مم سبحت قال لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه وقد دفن سعد ببقيع الغرقد . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ » وأم سعد كبيشة بنت رافع بن معاوية بن عبيد بن ثعلبة بن عبد بن الأبجر . وهى أول من بايع النبى صلى الله عليه وسلم من نساء الأنصار .

خسائر المسلمين فى غزوة بنى قريظة

خَلاد بن سُوَيد ـ طرحت عليه رحى . أما أبو سنان بن محصن فمات ورسول الله صلى الله عليه وسلم محاصر بنى قريظة فدفن فى مقبرة بنى قريظة التى يدفنون فيها إلى اليوم وإليه دفنوا أمواتهم فى الإسلام .

وقد استفظع بعض المؤرخين الأجانب قتل بنى قريظة بهذه الصورة . لكنهم نقضوا عهد رسول الله مع أنه حالفهم وأمنهم ومنحهم حرية الدين والعبادة ومع هذا اتفقوا مع العدو فى أحرج الساعات وحاربوا المسلمين فكان جزاؤهم الحكم بالإعدام . وإنا نجد فى التاريخ الحديث مايماثل ذلك فقد قضى محمد على باشا الكبير على المماليك فى القلعة لأنهم كانوا يتآمرون عليه وبذلك تخلص من عدوانهم وأمن شرهم .

مانزل من القرآن

فى أمر الخندق وبنى قريظة

قال ابن إسحاق وأنزل الله تعالى فى أمر الخندق وأمر بنى قريظة من القرآن القصة فى سورة الأحزاب يذكر فيها مانزل من البلاء ونعمته عليهم وكفايته إياهم حين فرج الله ذلك عنهم بعد مقالة من قال من أهل النفاق ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ والجنود قريش وغطفان وبنو قريظة وكانت الجنود التى أرسل الله عليهم مع الريح الملائكة . يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ فالذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة والذين جاءوهم من أسفل منهم قريش وغطفان يقول الله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ لقول معتب بن قشير إذ يقول ما قال ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ لقول أوس بن قيظى ومن كان على مثل رأيه من قومه ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ

مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ فهم بنو حارثة وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أحد مع بنى سلمة حين هموا بالفشل إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ ظاهروهم أى عاونوهم من أهل الكتاب وهم بنو قريظة . من صياصيهم من الحصون والآطام التى كانوا فيها .

يهود المدينة

وما آل إليه أمرهم

كان بين الأوس والخزرج حروب قديمة. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لقبهم بالأنصار لأنهم هم الذين نصروه فتآخى الفريقان وانمحى ما كان بينهما من العداوة وصاروا بنعمة الإسلام إخواناً وآخى عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار . أما يهود المدينة فقد كانت بنو قريظة والنضير حلفاء الأوس وبنو قينقاع حلفاء الخزرج وقد عاهدهم رسول الله ﷺ وأقرهم على دينهم وأموالهم لكنهم ثاروا ونقضوا عهده وتعنتوا فى مناقشته وحسدوه على انتصاراته وكادوا له وعادوا ينكرون عليه نبوته . فلما رأى رسول الله ﷺ منهم الغدر وشدة العناد ودس الدسائس، أراد التخلص منهم متحيناً الفرص فدعا بنى قينقاع إلى الإسلام بعد غزوة بدر وكانوا يسكنون بالمدينة ، فلما أبوا وأجابوه بكل جرأة غزاهم وأجلاهم إلى أذرعات بالشام فى السنة الثانية من الهجرة وأرسل من قتل كعب ابن الأشرف الشاعر الذى كان يهجو رسول الله ﷺ بأشعاره ويحض كفار قريش على قتاله وذلك فى السنة الثالثة من الهجرة . وغزا فى السنة الرابعة بنى النضير . وقد تقدم سبب هذه الغزوة . وأجلاهم عن المدينة فنهم من سار إلى الشام ومنهم من ذهب إلى خيبر . ثم غزا بنى قريظة فى السنة الخامسة لأنهم هم الذين حزبوا الأحزاب عليه فى غزوة الخندق وانضموا إلى الأعداء فى أحرج المواقف . وبعد غزوة بنى قريظة لم تقم لليهود قائمة بالمدينة وخضع المنافقون كل الخضوع وقد كانوا فئة قليلة أما المدينة فلم تعد ملجأ للمضطهدين بل صارت مركزاً لسلطة دينية عظيمة واستطاعت إخضاع جزيرة العرب بعد سنين قليلة .

سرية القرطا (١)

وإسلام ثمامة بن أثال الحنفي

كانت هذه السرية لعشر خلون من المحرم سنة ست من الهجرة .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصارى فى ثلاثين راكباً إبلا وخيلا . وأمره أن يسير الليل ويكمن النهار وأن يشن الغارة عليهم ففعل ما أمر به فلما أغار عليهم هرب باقيهم بعد من قتل وكان المقتول منهم عشرة وقيل نحو العشرين واستاق ١٥٠ بعيراً و ٣٠٠٠ شاة فعدلوا الجزور بعشرة من الغنم .

وقدم المدينة لليلة بقيت من المحرم وغاب تسع عشرة ليلة وأسر ثمامة بن أثال

روى ابن إسحاق عن أبى هريرة رضى الله عنه أن خيلا لرسول الله ﷺ أخذت رجلا ولا يشعرون من هو حتى أتوا به رسول الله . فقال أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفى فربطوه بسارية من سوارى المسجد بأمره ﷺ لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم عليها فيرق قلبه فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال ماذا عندك يا ثمامة ؟ قال عندى خير يامحمد إن تقتل تقتل ذادم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فتركه حتى كان الغد ثم قال له ماعندك يا ثمامة ؟ قال ماقلت لك : إن تنعم تنعم على شاكر . فتركه حتى كان بعد الغد فقال : ماعندك ياثمامة ؟ قال عندى ماقلت لك فقال : أطلقوا ثمامة فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) ثم قال والله يامحمد ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك وقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلىّ والله ما كان من دين أبغض إلىّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلىّ . والله ما كان من بلد أبغض إلىّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلىّ . وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره النبى صلى الله عليه وسلم بخير الدنيا والآخرة وأمره أن يعتمر . فلما قدم مكة يلبى وينفى الشريك عن الله قال له قائل صبوت ؟ قال لا . ولكن أسلمت لله رب العالمين مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى صلى الله عليه وسلم وقيل إنه منع عن مكة الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز (٢) .

ثم صار ثمامة رضى الله عنه من فضلاء الصحابة وهدى الله به خلقاً كثيراً من قومه ولم يرتد مع من ارتد من أهل اليمامة ولا خرج عن الطاعة قط وقام مقاماً حميداً بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم حين ارتدت اليمامة مع مسيلمة فقال : (بسم الله الرحمن الرحيم حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ) ثم قال : فأين هذا من هذيان مسيلمة ؟ فأطاعه ثلاثة آلاف وانحازوا إلى المسلمين .

---

(١) القرطا من بنى بكر وكانوا ينزلون بناحية ضرية وهى قرية لبنى كلاب على طريق البصرة إلى مكة وهى إلى مكة أقرب وبها جبل يسمى البكرات وبين ضرية والمدينة سبع ليال . (٢) الوبر والدم .

غزوة بنى لحيان

كانت فى أول شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة (يونية - يولية سنة ٦٢٧ م) وسببها أن رسول الله ﷺ حزن على عاصم بن ثابت وأصحابه القراء الذين قتلوا ببئر معونة فى شهر صفر من السنة الرابعة . فأظهر ﷺ أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة فخرج من المدينة فسلك على غُراب [1] على طريقه إلى الشام ثم على مخيض ثم على البتراء ثم صفق ذات اليسار فخرج على بين ثم على صخيرات اليمام ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة ثم أسرع السير حتى نزل على غُران وهى منازل بنى لحيان [2] إلى بلد يقال لها ساية . وكان معه ٢٠٠ رجل ومعه ٢٠ فرساً واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

وقد وجد رسول الله ﷺ أن القوم قد حذروا وتمنعوا فى رءوس الجبال . فأقام يوماً أو يومين يبعث السرايا من كل ناحية من نواحيهم . ثم خرج حتى أتى عسفان فبعث أبا بكر رضى الله عنه فى عشرة فوارس لتسمع بهم قريش فيذعرهم ثم رجع رسول الله ﷺ ولم يلق كيداً . وكانت غيبته ﷺ عن المدينة أربع عشرة ليلة .

إغارة عُيَيْنَةَ بن حصن

ثم قدم رسول الله ﷺ المدينة فلم يقم إلا ليالى قلائل حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى فى خيل لغطفان [3] على لقاح رسول الله ﷺ بالغابة وكانت عشرين لقحة وفيها رجل من بنى غفار وامرأته فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فى اللقاح .

والرجل الذى قتلوه هو ابن أبى ذر رضى الله عنه واسمه ذر وكان يرعى الإبل وامرأته التى أسروها اسمها ليلى وقد نجت لأنهم أوثقوها وكانوا يريحون نعمهم بين يدى بيوتهم فانطلقت وركبت ناقة للنبى ﷺ ليلا على حين غفلتهم . ويقال إن الناقة اسمها العضباء . فانطلقت ولما علموا بها طلبوها فأعجزتهم ونذرت لئن نجت لتنحرنها . فلما قدمت على النبى ﷺ وأخبرته بذلك . وقالت : يارسول الله إنى نذرت لله تعالى أن أنحرها إن نجانى الله عليها . فقال : بئسما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك أن تنحريها . إنه لا نذر لأحد فى معصية ولا لأحد فيما لا يملك إنما هى ناقة من إبلى . ارجعى إلى أهلك على بركة الله .

---

(١) جبل بناحية المدينة . (٢) غران واد بين أمج وعسفان (٣) ٤٠ فارساً .

غزوة ذى قرد

وهى غزوة الغابة

ذو قَرَد ماء على نحو بريد من المدينة مما يلى بلاد غطفان . وكانت فى ربيع الأول سنة ست (يوليه ٦٢٧ م) وفى البخارى أنها كانت قبل خيبر بثلاثة أيام وبعد الحديبية بعشرين يوماً .

وسببها إغارة عيينة بن حصن الفزارى على لقاح رسول ﷺ كما تقدم .

لما أغاروا على اللقاح فى يومهم ذلك جاء الصريخ فنادى : الفزع الفزع ، ونودى : ياخيل الله اركبى . وأول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى .

ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خمسمائة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم كعادته . وخلف سعد بن عبادة رضى الله عنه فى ٣٠٠ رجل يحرسون المدينة . وعقد لواء للمقداد رضى الله عنه فى رمحه . وقال امض حتى تلحقك الخيول وأنا على إثرك .

وكانت نتيجة هذه الغزوة أنهم أدركوا العدو فهزموه وقتلوا رؤساءه واستنقذوا اللقاح . وقيل بعضها ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد وهو محرز بن نضلة . وسار رسول الله ﷺ حتى بلغ ذاقرد فى اتجاه خيبر فالتجأ العدو إلى بنى غطفان . وقد أبلى فى هذه الغزوة سلمة بن الأكوع بلاء حسناً وكان رامياً .

قتل أبو قتادة مسعدة بن حكمة الفزارى فأعطاه رسول الله ﷺ فرسه وسلاحه ولقى عكاشة بن محصن رضى الله عنه فى طريقه أبان بن عمرو وابنه عمراً على بعير فانتظمهما بالرمح فقتلهما جميعاً .

وكانت مدة غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة أيام وصلى بذى قرد صلاة الخوف .

سرية الغمر

أو سرية عكاشة بن محصن الأسدي

الغمر ماء لبنى أسد على ليلتين من فَيد - قلعة بطريق مكة - وكانت فى شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة .

خرج عكاشة رضى الله عنه فى أربعين رجلا فنذر به القوم فهربوا فنزلوا على بلادهم فوجدوا ديارهم خالية لهربهم . فبعث المسلمون طليعة فرأوا أثر النعم قريباً فقصدوها فأصابوا رجلا منهم فأمنوه فدلهم على نعم لبنى عم لهم

فأغاروا عليها فاستاقوا ٢٠٠ بعـير وأطلقوا الرجل وقدموا بالإبل على رسول الله صلى الله عليـه وسلم ولم يلقوا حرباً .

سرية محمد بن مسلمة الأنصارى

إلى ذى القصة[1]

كانت فى شهر ربيع الثانى (الموافق شهر أغسطس سنة ٦٢٧ م)

خرج محمد بن مسلمة ومعه عشرة إلى بنى ثعلبة فورد عليهم ليـلا بمن معه . وقد كمن لهم المشركون لشعورهم بمجيئهم إليهم. فتركوا محمد بن مسلمة حتى نام هو وأصحابه ، ثم أحدقوا بهم فما شعر المسلمون إلا بالنبل قد خالطهم فوثب محمد بن مسلمة ومعه قوس فصاح فى أصحابه . السلاح فوثبوا فتراموا بالنبل ساعة من الليل ثم انحاز أصحاب محمد إليه وقد قتلوا من القوم رجلا . ثم حمل القوم عليهم بالرماح فقتلوهم إلا محمد بن مسلمة فوقع جريحاً فحمله رجل من المسلمين حتى ورد به المدينة جريحاً .

فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح فى ربيع الآخر فى أربعين رجـلا إلى منازلهم فأغار عليهم فلم يجد أحداً ووجد نعما وشاء فساقه وأصاب رجلا واحداً فأسلم فتركه وأخذ نعماً من نعمهم فاستاقه وشيئاً من متاعهم وقدم به المدينة

وظاهر من إرسال محمد بن مسلمة فى عشرة رجال أن السبب هو مابلغهم من أن بنى ثعلبة وأنمار أجمعوا على أن يغيروا على سرح المدينة وهى ترعى بهيفاء[2] وكانت الماشية قد ازدادت بسبب ماغنمه المسلمون . فلما قتل محمد ابن مسلمة بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة طلباً لثأر المقتولين .

سرية زيد بن حارثة

وفى شهر ربيع الآخر أيضاً كانت سرية زيد بن حارثة إلى بنى سليم بالجمـوم [3] فأصابوا نعماوشاء ووجدوا جماعة منهم فأسروهم .

ثم سرية زيد بن حارثة أيضاً إلى العيص وكانت فى جمادى الأولى سنة ست (سبتمبر سنة ٦٢٧ م) .

وسببها أنه عليه الصلاة والسلام بلغه أن عيراً قد أقبلت من الشام فبعث زيد بن حارثة ومعه سبعون راكباً

(١) موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلا فى طريق الربذة (الواقدى) .

(٢) موضع على سبعة أميال من المدينة . (٣) ناحية ببطن نخل على أربعة أميال من المدينة .

ليتعرض لهـا فأدركها وأخذها وما فيها وأخذ يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية بن خاف وأسر منهم ناساً منهم أبو العاص بن الربيع . وأم هالة بنت خويلد أخت خديجة . وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين تجارة ومالا وأمانة . وهو زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم : فدخلت زينب على رسول الله ﷺ فسألته أن يرد عليه ما أخذ منه فقبل . وقال لهـا أكرمى مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له . ثم ذهب أبو العاص إلى مكة فأدى إلى كل ذى مال ماله ثم أسلم وخرج فقدم المدينة .

وكانت زينب هاجرت قبله إلى المدينة وتركته على شركه ثم بعد أن أسلم وهاجر ردها ﷺ إليه .

وكان صلى الله عليه وسلم يصلى وهو حامل أمامة بنت زينب من أبى العاص .

سرية أخرى لزيد بن حارثة

هذه السرية إلى حِسْمَى أرض ينزلها جذام وراء وادى القرى وذلك من جهة الشام وكانت فى جمادى الآخرة سنة ست (أكتوبر سنة ٦٢٧ م) .

وسببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أوفد دحية بن خليفة الكلبى[1] بكتاب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام فأعطاه جائزة وكساه . فلقيه المنيد بن عارض فى الطريق وهو عائد فقطعوا عليه الطريق وأصابوا كل شىء كان معه عند حسمى فسمع بذلك نفر من بنى الضبيب رهط رفاعة بن زيد الجذامى ممن كان أسلم فاستنقذوا ما كان فى أيديهم وردوه على دحية .

قدم دحية على رسول الله صلى الله علية وسلم فأخبره بذلك ، فبعث زيد بن حارثة فى ٥٠٠ رجل ، فكان زيد يسير بالليل ويكمن بالنهار ، ومعه دليل من بنى عـذرة فأقبل بهم حتى هجموا على القوم ، فأغاروا عليهم ، وأكثروا فيهم القتل وقتلوا المنيد وابنه ، وأخذوا ماشيتهم ونساءهم فأخذوا من الإبل ١٠٠٠ بعير ومن الشاء ٥٠٠٠ ومن السبى مائة من النساء والصبيان . ولاشك أن هذا الإحصاء تقريبى كما يستدل عليه من الأرقام

ثم رحل رفاعة بن زيد الجـذامى فى نفر من قومه فدفع لرسول الله ﷺ كتابه الذى كان كتبه له ولقومه حين قدم عليه فأسلم . فلما قرئ الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كيف أصنع بالقتلى ؟ فقال رفاعة أنت أعلم يارسول الله لا تحرّم عليك حلالا ولا تحل لك حراماً فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً إلى زيد فرد عليهم كل ما أخذ منهم .

---

(١) كان دحية من أجمل الناس وجهاً وكان جبريل يأتى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورته . أسلم قديماً وشهد المشاهد التى بعد بدر مع رسول الله وبقى إلى خلافة معاوية وشهد اليرموك .

سرية عبد الرحمن بن عوف

إلى دومة الجندل

إسلام الأصبغ بن عمرو الكلبي

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا دومة الجندل فى ربيع الأول سنة خمس (يولية سنة ٦٢٦ م) وقد تقدم ذكرها .

أما هذه السرية فكانت فى شعبان سنة ست (نوفبر سنة ٦٢٧) أمر رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف أن يتجهز لهذه السرية وقد أصبح وقد اعتم بعمامة من كرابيس سوداء فأدناه رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأقعده بين يديه وعممه بيده . ثم أمر بلالا أن يدفع إليه اللواء ، ثم حمد الله وصلى على نفسه صلى الله عليه وسلم ثم قال : « خُذْه يابن عَوْف اغزُوا جميعاً فى سَبيل الله فقَاتلوا مَن كَفرَ بِالله وَلا تَغُلُّوا وَلَا تَغدِرُوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقتُلوا وَليداً فهذَا عَهْدُ الله وَسِيرَةُ نَبيِّه فيكُمْ » فأخذ عبد الرحمن اللواء . وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كلب بدومة الجندل وقال إن استجابوا لك فاسلموا فتزوج ابنة ملكهم . فسار عبد الرحمن بجيشه وكانوا ٧٠٠ رجل حتى قدم دومة الجندل فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام وقد كانوا أبوا أول ماقدم عليهم أن يعطوا إلا السيف . ثم أسلم فى اليوم الثالث (الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانياً) وكان ملكهم ورئيسهم وأسلم معه ناس كثير من قومه وأقام عبد الرحمن بقيتهم بالجزية وتزوج تماضر بنت الأصبغ وقدم بها المدينة وفازت بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى أم ابنة أبى سلمة .

سرية على بن أبى طالب

إلى بنى سعد بن بكر

خرج علىٌ رضى الله عنه ومعه (١٠٠) رجل إلى بنى سعد بن بكر ، فى شعبان سنة ست . وكان قد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم ساعون فى جمع الناس لإمداد يهود خيبر فأغاروا على نعم وشاء كثيرة وهرب الرعاء وساقوا النعم والشاء معهم وكانت ٥٠٠ بعير و ٢٠٠ شاة وقدم على رضى الله عنه ومن معه المدينة .

سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة

كانت هذه السرية فى رمضان سنة ست من الهجرة . وسببها أن زيد بن حارثة رضى الله عنه خرج فى تجارة

إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (وهذه أول مرة خرج فيها أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تجارة إلى الشام) . فلما كان بوادى القرى لقيه ناس من فزارة من بنى بدر فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم . وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فبعثه إليهم فى جيش فأحاطوا بمن وجدوه من بنى فزارة فقتلوهم وأخذوا (أم قرفة) وهى بنت ربيعة بن بدر الفزارى . وكانت ملكة رئيسة وذات شرف فى قومها وكانت عجوزاً كبيرة فأسرها قيس بن المحسّر وقيل ابن سحل فقتلها قتلاً فظيعاً ، ربط رجليها بحبلين ثم ربطها إلى بعيرين حتى شقها . وإنما قتلها كذلك لسبها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لأنها جهزت ثلاثين راكباً من ولدها وولد ولدها . وقالت لهم اغزوا المدينة واقتلوا محمداً . وقدم زيد بن حارثة من وجهه ذلك فقرع باب النبى صلى الله عليه وسلم فقام رسول الله ﷺ إليه وهو يجر ثوبه حتى اعتنقه وقبله وسأله فأخبره بما ظفر به .

ذكر هذه الغزوة الواقدى وذكرها السيد دحلان فى الجزء الثانى من كتاب السيرة النبوية . وإنى أشك فى تفاصيل القصة بهذه الصفة . أشك فى اسم قيس هذا الذى أسر أم قرفة فقد قيل : إنه ابن الحسر وقيل ابن سخل وقيل ابن المحسن [1] وأشك فى أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثل بامرأة ويقتلها هذا القتل الشنيع مع العلم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المثلة ، وأوصى عبد الرحمن بن عوف حين أرسله إلى دومة الجندل فقال : « اُغْزُوا جَمِيعاً فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً فَهَذَا عَهْدُ اللهِ وَسِيرَةُ نَبِيِّهِ فِيكُمْ » .

وليس بين سرية عبد الرحمن بن عوف وسرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة غير شهر واحد .

وسيأتى فى سرية عبد الله بن عتيك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة .

وعلى كل حال لا يمكن أن يبلغ النبى قتل أم قرفة على هذه الصورة الشنعاء من غير أن يبدى استياء ، لذلك كان ماروى من التمثيل بأم قرفة . مردوداً

سرية عبد الله بن عتيك

لقتل سلام بن أبى الحقيق .

رمضان سنة ٦ هـ ـ ديسمبر سنة ٦٢٧ م

كانت هذه السرية لقتل أبى رافع عبد الله أو سلام بن أبى الحقيق اليهودى وهو من أعداء رسول الله ﷺ

---

(١) جاء فى أسد الغابة « قيس بن المحسر الكنانى الشاعر » واختلف فى اسمه فقيل أيضاً قيس بن مسحل وسماه ابن إسحاق مسجراً . وقد أخرج أبو عمر قيس بن المحسر وذكر فيه أنه غزا مع زيد بن حارثة أم قرفة وقتلها ولم يذكر أنه مثل بها .

الذين حزبوا الأحزاب يوم الخندق وأعان المشركين بالمال الكثير .

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ هذه الغزوة ، فقد قيل إنها كانت فى ذى الحجة سنة خمس بعد الخندق . وفى البخارى قال الزهرى بعد قتل كعب بن الأشرف الواقع سنة ثلاث ، وذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى السنة الثالثة فى النصف من جمادى الآخرة . أما الواقدى فإنه زعم أن هذه السرية التى وجهها رسول الله ﷺ إلى أبى رافع أو سلام بن أبى الحقيق ، إنما وجهها إليه فى ذى الحجة من سنة أربع من الهجرة . والثابت أن سلام بن أبى الحقيق كان من الذين حزبوا الأحزاب فى غزوة الخندق ، وغزوة الخندق كانت فى السنة الخامسة وكان سلام هذا ممن ذهب إلى خيبر بعد إجلاء بنى النضير ثم إنه بعد الخندق أخذ يحرض بنى فزارة والقبائل الأخرى،ولذلك نرجح أن هذه السرية كانت فى السنة السادسة كما ذكرها السيد دحلان فقد قال : « إنها كانت فى رمضان سنة ست » (شهر ديسمبر سنة ٦٢٧ م) .

خرج إلى رسول الله ﷺ خمسة من الخزرج وهم :

(١) عبد الله بن عتيك (٢) عبد الله بن أنيس (٣) أبو قتادة (٤) الأسود بن خزاعى (٥) مسعود ابن سنان الأسلمى . واستأذنوه فى قتل سلام بن أبى الحقيق ، وهو بخيبر لأن الأوس كانوا قد أصابوا كعب بن الأشرف فأراد الخزرج أن لا يكون للأوس فضل عليهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأمرهم صلى الله عليه وسلم بقتله ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة [1] وأمر عليهم عبد الله بن عتيك .فذهبوا إلى خيبر فكمنوا فلما هدأت الرجل والحركة جاءوا إلى منزله وكان فى حصن مرتفع فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم ، قال عبد الله بن عتيك اجلسوا مكانكم فإنى منطلق ومتلطف للبواب لعلى أدخل الحصن ، فأقبل حتى دنا من البواب ثم تقنع بثوبه ليخفى شخصه ، كأنه يقضى حاجته مخافة أن يعرف فدخل واختبأ عند باب الحصن ، ثم صعد إليــــه وكان عبد الله بن عتيك يتكلم اليهودية ، فقدمه أصحابه ليتكلم بكلام أبى رافع ، فاستفتح باب غرفته فرأته امرأته . فقالت : من أنت ؟ قال : جئت أبا رافع بهدية. ففتحت له وقالت ذاك صاحبك . فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح ، فأشار إليها بالسيف فسكتت . قال فقلت أبا رافع .لأعرف موضعه فقال من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فضربته ضربة وأنا دهش فما أغنت شيئاً ، ولم أقتله وصاح أبو رافع. فخرجت من البيت وكنت غير بعيد فقالت امرأته : يا أبا رافع هذا صوت عبد الله بن عتيك . قال : ثكلتك أمك وأين عبد الله بن عتيك ؟ قال ثم دخلت عليه كأنى أغيثه وغيرت صوتى فقلت : ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ قال لأمك الويل ! إن رجلا فى البيت ضربنى قبل بالسيف فضربته ضربة أثخنته ولم أقتله فصاح وقام أهله وصاحت امرأته ثم وضعت ظبة السيف فى بطنه حتى دخل فى ظهره وسمعت صوت العظم فعرفت أنى قتلته .

---

(١) راجع الطبرى .

وفى الطبرى : « ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها السيف ثم يذكر نهى رسول الله ﷺ فيكف يده » .

قال ابن عتيك : فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلى درجة فوضعت رجلى وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض فوقعت فى ليلة مقمرة فانكسرت ساق فعصبتها بعمامة ؛ وكان عبد الله بن عتيك سيء البصر ولما علم ابن عتيك أنه قتل أبا رافع أخبر رسول الله ﷺ .

ووقع فى بعض الروايات أن الذى قتل أبا رافع عبد الله بن أنيس والصواب ما فى صحيح البخارى أن الذى قتله هو عبد الله بن عتيك وفى أسد الغابة « وهو الذى ولى قتل أبى رافع بن أبى الحقيق بيده وكان فى بصره ضعف الخ » .

سرية عبد الله بن رواحة

إلى أسير بن رِزَام

كانت سرية عبد الله بن رواحة الأنصارى الخزرجى إلى أُسير بن رِزَام[1] اليهودى بخيبر فى شوال سنة ست من الهجرة (يناير سنة ٦٢٨ م) وسببها أنه لما قتل أبو رافع سلام بن أبى الحقيق أَمَّرت يهود عليها أسيراً فاقترح عليهم طريقة للانتقام من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقروه عليها ؛ وحاصلها أن يذهب إلى غَطَفان ويجمعهم ويسير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عقر داره . فسار إلى غطفان فلما بلغه ﷺ وجه عبد الله بن رواحة فى ثلاثة نفر فى شهر رمضان سرًّا ليستكشف له الخبر فذهب إلى ناحية خيبر ثم عاد فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سمع ورأى ، وقدم عليه أيضا خارجة بن حسيل وقال له تركت أسير بن رزام يسير إليك فى كتائب يهود فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس له فانتدب له ثلاثون رجلا فبعث عليهم عبد الله بن رواحة فقدموا عليه فقالوا إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه يستعملك على خيبر ويحسن إليك فطمع فى ذلك فشاور يهود فخالفوه فى الخروج وقالوا ما كان محمد يستعمل رجلا من بنى إسرائيل قال بلى قد مللنا الحرب. فخرج أسير وخرج معه ثلاثون رجلا من اليهود مع كل رجل رديف من المسلمين فلما كانوا بقرقرة ندم أسير على مسيره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد الفتك بعبد الله بن رواحة ففطن له وهو يريد السيف فاقتحم به عبد الله ثم ضربه بالسيف فقطع رجله فضربه أسير بمخرش فى يده من شوحط فأمه. وفى رواية عن عبد الله بن رواحة رضى الله عنه وأهوى أسير بيده إلى سيفى ففطنت له (يتضح من ذلك أن أسيرا كان أعزل) فدفعت بعيرى وقلت غدراً أى عدو الله مرتين . فنزلت فسقت بالقوم حتى انفرد لى أسير فضربته بالسيف فأندرت عامة فخذه وساقه فسقط عن بعيره ومال أصحاب

---

(١) أسير بن رزام بهذا الضبط لكن مستر موير يقول إنه ابن زارم ويكتبه هكذا Osier Idn Zarim وهو تحريف .

النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقتلوهم ولم يفلت منهم غير رجل واحد ولم يصب من المسلمين أحد ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثوه الحديث فقال : « حقا قد نجاكم الله من القوم الظالمين » .

سرية كُرز بن جابر الفهرى

كان كرز بن جابر الفهرى رضى الله عنه أحد رؤساء قريش أسلم بعد الهجرة واستشهد عام الفتح وهو الذى خرج رسول الله لطلبه فى غزوة بدر الأولى وقد مرّ ذكرها .

كانت هذه السرية فى جمادى الأولى سنة ست وسببها أن أناساً من عكل وعُرَينة[1] يبلغ عددهم نحو ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام وتلفظوا بكلمة التوحيد وكانوا حين قدموا المدينة سقاماً مصفرة ألوانهم عظيمة بطونهم (قال مستر موير إنهم كانوا مصابين بداء الطحال) .

فقالوا يارسول الله إنا كنا أهل ضرع (أى ماشية وإبل) ولم نكن أهل ريف وكرهنا الإقامة بالمدينة فلو أذنت لنا فخرجنا إلى الإبل فأمر لهم بذود من الإبل[2] ومعها راع وأمرهم باللحوق بها ليشربوا من ألبانها وأبوالها فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة وصحت أجسامهم باتباعهم إشارة رسول الله ﷺ كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعى رسول الله ﷺ وكان عبداً له ، اسمه يسار . وحين قتلوه مثلوا به فقطعوا يدهُ ورجله وجعلوا الشوك فى عينيه واستاقوا الذود وحُمل يسار ميتا إلى قباء فدفن هناك . فهؤلاء أعراب قساة غلاظ القلوب يقابلون الإحسان بالإساءة يكرمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهب لهم الماشية ويرسل معهم الراعى رأفة بهم ويصف لهم الدواء الشافى لدائهم فيأخذون الإبل ويشربون ألبانها وتصح أجسامهم ثم يجحدون النعمة ويكفرون بعد إسلامهم ويقتلون ذلك الراعى الأمين المسكين ويمثلون به أشنع تمثيل ويسرقون الإبل . جرائم متعددة يقترفونها : فهل هؤلاء يستحقون العفو والإحسان والمعاملة الحسنة ؟ كلا بل الحكمة تقضى بقطع دابرهم واستئصال شأفتهم ليكونوا عبرة لمن اعتبر ولئلا يجرؤ بعد ذلك أحد من أمثال هؤلاء اللصوص القتلة الخائنين أن يعبث بالإسلام والمسلمين . وهذا مافعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه عليه الصلاة والسلام لما جاءه الصريخ بما وقع منهم بعث فى آثارهم خيلا من المسلمين قريبا من العشرين وأمر عليهم كرز بن جابر الفهرى رضى الله عنه فلحقهم فجاءبهم فأمر النبي ﷺ بقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ولم يفلت منهم أحد وتركوا فى ناحية الحرة فى الشمس حتى ماتوا .

وأنزل الله فى هؤلاء ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية وهؤلاء كفروا وقتلوا ومثلوا وقطعوا الطريق وسرقوا .

---

(١) عكل : حى من قضاعة ، وعرينة حى من بجيلة (٢) هى من الثلاثة إلى العشرة

أمر الحديبيـــة

ذو القعدة ٦ هـ - (فبراير سنة ٦٢٨م)

الحدَيبية هى بئر سمى المكان باسمها ؛ وهى قرية متوسطة ليست بالكبيرة و بينها و بين مكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل و بعضها فى الحل و بعضها فى الحرم .

وسببها أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه أنه دخل البيت هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين .

فخرج رسول الله ﷺ من المدينة فى ذى القعدة من السنة السادسة (فبراير سنة ٦٢٨ م) معتمراً « زائراً البيت » لا يريد حرباً بعد أن مضى عليه ﷺ ست سنوات بعد الهجرة فى المدينة لم يزر فيها مكة ولم يعتمر ولم يحج فاشتاق إليها فخرج فى هذه السنة معتمراً واستنفر العرب من البوادى ومن حوله من الأعراب ممن أسلم ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يتعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب خشية من قريش أن يحاربوه فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب وساق معه الهدى (مايهدى إلى الحرم من النعم) وأحرم بالعمرة بذى الحليفة بعد أن صلى بالمسجد الذى بها ركعتين ليأمن الناس حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت ومعظما له وأخرج معه زوجته أم سلمة رضى الله عنها ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه للصلاة وأبا رُهم حافظاً للمدينة وجملة أصحابه الذين خرجوا معه من ١٤٠٠ إلى ١٦٠٠ وركب رسول الله راحلته القصواء .

أما مارواه ابن إسحاق من أنه ﷺ ساق معه الهدى ٧٠ بدنة[1] وكان الناس ٧٠٠ رجل فكانت كل بدنة عن عشرة نفر ، فلا بد أن يكون هذا العدد فى بدء خروجهم قبل أن ينضم إليه ﷺ من عداهم من الأعراب . ولم يخرج ﷺ معه بسلاح إلا سلاح المسافر ، السيوف فى القرُب[2] ، فلما كان بعُسْفان[3] لقيه بشر بن سفيان الكعبى ، فقال له يارسول الله هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فخرجوا ومعهم العوذ المطافيل[4] قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذى طوى يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم[5] قد قدموا إلى

---

(١) الهدى مايهدى إلى الحرم من النعم . والبدنة : ناقة أو بقرة تنحر بمكة . سميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها والجمع بدن .

(٢) جمع قراب وهو الغمد .

(٣) عسفان بضم العين بين الجحفة ومكة ، وهى من مكة على مرحلتين وهى حد تهامة .

(٤) العوذ : جمع عائذ ، وهى الناقة ذات اللبن . والمطافيل : الأمهات التى معها أطفالها والمراد أنهم خرجوا بها ذكر لإرادة طول المقام وعدم الفرار

(٥) لم يكن خالد بن الوليد قد أسلم خلافاً لما زعمه بعض المؤرخين من أنه كان مع المسلمين وكان مع خالد ٢٠٠ فارس لمنع تقدم المسلمين .

كراع الغميم [1] فقال رسول الله ﷺ « ياويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة . ثم قال من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فقال رجل من أسلم أنا يارسول الله . فسلك بهم طريقاً وعرا (واسم هذا الرجل حمزة بن عمرو الأسلمي) فخرجوا منه بعد أن شق عليهم وأفضوا إلى طريق سهلة عند منقطع الوادي. قال رسول الله ﷺ للناس قولوا نستغفر الله ونتوب إليه فقالوا ذلك . فقال والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها .

ثم أمر رسول الله ﷺ الناس فقال اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض في طريق على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة فسلك الجيش ذلك الطريق فلما رأت خيل قريش فترة الجيش قد خالفوا، رجعوا راكضين إلى قريش (ذكر أن فرسان قريش كانوا ٢٠٠ منهم عكرمة بن أبي جهل وكان قائدهم خالد بن الوليد) .

خرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته القصواء فقال الناس خلأت [2] فقال « ماخلأت وماهو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة لاتدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » .

ثم قال للناس انزلوا . فقالوا يارسول الله مابالوادي ماء ينزل عليه فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه فنزل به في قليب من تلك القلب فغرزه في جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن [3] واختلف في من نزل في القليب بسهم رسول الله ﷺ فقيل هو سائق بدنه ناجية بن جندب وقيل إنه البراء بن عازب وقيل عبادة بن خالد وفي البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أنه ﷺ جلس على البئر ثم دعا بإناء فمضمض ودعا ثم صبه فيها . ثم قال دعوها ساعة فأرووا أنفسهم وركابهم حتى ارتحلوا. وفي حديث جابر عند البخاري ومسلم قال عطش الناس يوم الحديبية وبين يدي رسول الله ﷺ ركوة يتوضأ منها فأقبل الناس نحوه فقال مابالكم ؟ قالوا يارسول الله ليس عندنا مانتوضأ به ولا نشرب إلا مافي ركوتك [4] فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا وهذه من معجزات رسول الله، وجمع ابن حيان بينهما بأن ذلك وقع في وقتين . وكانت قصة الركوة قبل قصة البئر .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة فكلموه وسألوه ما الذي جاء به فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائراً للبيت ومعظما لحرمته . ثم قال لهم نحوا مما قال لبشر بن سفيان. فرجعوا إلى قريش . فقالوا يامعشر قريش إنكم تعجلون على محمد إن محمداً لم يأت لقتال ، إنما جاء زائراً لهذا البيت ،

(١) موضع قريب من مكة (٢) بركت من غير علة (٣) أي حتى رووا ورويت إبلهم حتى بركت حول الماء لأن عطن الإبل، مباركها.
(٤) الركوة : دلو صغير .

فالهموهم وجبهوهم (أى قابلوهم بما يكرهون) وقالوا وإن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لايدخلها علينا عنوة أبدا ولا تحدث بذلك عنا العرب .

وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ مسلمها ومشركها لايخفون عنه شيئاً كان بمكة .

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص أخا بنى عامر فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا، قال هذا رجل غادر فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه قال له رسول الله ﷺ نحواً مما قال لبديل وأصحابه فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ .

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال إن هذا من قوم يتألهون [1] فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه ،فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاما لما رأى . فقال لهم ذلك .
فقالوا له اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك [2] . فغضب الحليس عند ذلك وقال : يامعشر قريش والله ماعلى هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم . أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له ، والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ماجاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا له : كف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به.
ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفى فقال يامعشر قريش إنى قد رأيت مايلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد ـ وكان عروة لسبيعة بنت عبد شمس ـ وقد سمعت بالذى نابكم فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى . قالوا : صدقت ماأنت عندنا بمتهم . فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال :

يامحمد أجمعت أوشاب الناس [3] ثم جئت بهم بيضتك (أى أصلك وعشيرتك) لتفضها بهم ؛ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لاتدخلها عليهم عنوة أبداً (تكرر هذا الكلام قد قاله « بشر بن سفيان ») وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً [4] .

وكان أبو بكر الصديق جالساً خلف رسول الله ﷺ فقال له (امصص بظر اللات [5] أنحن ننكشف عنه؟) يريد ، وهل نحن ننهزم عنه أى نتخلى عنه .

فقول أبى بكر « امصص بَظْر اللات » مبالغة منه فى سب عروة فإنه أقام معبود عروة وهو صنمه مقام امرأة تحقيرا لمعبوده وعادة العرب الشتم بذلك . وقد ساء أبا بكر قولُ عروة إن أصحابه ﷺ ينكشفون عنه غداً أى يفرون فقال له ماقال وأجابه بما فيه تحقير له ولمعبوده .

---

(١) أى يتعبدون ويعظمون الإله (٢) أى فما رأيت من محمد مكيدة .
(٣) بمعنى أخلاط الناس (٤) يريد أن أصحابه صلى الله عليه وسلم يفرون عنه غداً (٥) البظر فى قول أبى بكر رضى الله عنه: قطعة تبقى فى فرج المرأة بعد الختان . وقيل التى تقطعها الخاتنة . واللات : اسم صنم كانت تعبده ثقيف لأن عروة كان بالطائف فاللات كانت معبوده .

فقال عروة بعد أن سمع هذه الإهانة : من هذا يامحمد ؟ قال هذا ابن أبى قحافة . فقال أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها ولكن هذه بها .

قال الزهرى إن اليد المذكورة هى أن عروة كان يحمل دية فأعانه فيها أبو بكر رضى الله عنه بعون حسن .

ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديد فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ألا تصل إليك ، فيقول عروة ويحك ماأفظك وأغلظك ! فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عروة من هذا يامحمد ؟ قال هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة . قال أى غدر ! وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس .

ولشرح هذا الموقف : نقول : المغيرة بن شعبة هو ابن أخى عروة . وقد كان أثناء حديث عروة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما على رأس رسول الله ﷺ ومعه السيف بقصد الحراسة وعليه المغفر(١) فكان المغيرة كلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف(٢) ويقول اكفف يدك عنه ، وكانت عادة العرب أن يتناول الرجل لحية من يكلمه ولا سيما عند الملاطفة يريدون بذلك التحية والتواصل ، وفى الغالب إنما يصنع ذلك النظير بالنظير فربما رأى عروة لمكانته ورفعته فى قومه أنه نظير للنبى صلى الله عليه وسلم وما علم حينئذ أنه لا نظير له فاللائق منعه . لكن رسول الله لم يمنعه تأليفاً له .

قال ابن هشام : أراد عروة بقوله هذا (أى غدر وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس) أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك من ثقيف فتهايج الحيان من ثقيف بنو مالك رهط المقتولين والأحلاف رهط المغيرة فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح الأمر .

وبعد أن قال عروة ماقال كلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو مما كلم أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً .

فقام من عند رسول الله ﷺ ورجع إلى أصحابه بمكة وقد بهره مارأى من احترام أصحابه صلى الله عليه وسلم له . رأى أن رسول الله ﷺ لا يتوضأ إلا ابتدر أصحابه وضوءه ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه ، يدلك به من وقع فى يده وجهه وجلده ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ولا يحدون النظر إليه تعظيما له ﷺ فقال لقريش :

---

(١) زرد ينسج على قدر الرأس . (٢) وهو مايكون أسفل القراب من فضة أو غيرها .

« أى قوم ، فو الله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى . والله مارأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه مايعظم أصحاب محمد محمداً . والله مايتنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده إجلالا وتوقيراً وما يحدون النظر إليه تعظيما له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشئ أبداً فروا رأيكم » وقال : إنى أخاف أن لا تنصروا عليه .

فلم يسمع القوم ماقاله عروة بن مسعود وما رغبهم فيه من الصلح فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف ثم أسلم عروة بعد ذلك لما انصرف رسول الله عن ثقيف ثم قتل لما دعاهم إلى الإسلام .

قال ابن إسحاق وحدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعى فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له فعقروا به جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعثت قريش أربعين أو خمسين رجلا منهم ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً فأخذوا أخذاً فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعفا عنهم وخلى سبيلهم وقد كانوا رموا فى عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والنبل ، ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ماجاء له فقال : « يارسول الله إنى أخاف قريشاً على نفسى وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى . وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها . ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان ابن عفان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحربهم وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته . فرضى عثمان لأنه كان غائباً من مكة ولم يكن له أعداء بها ثم إنه من بنى أمية .

فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص (١) حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم .فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به . فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبسته قريش عندها .

فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل .

وقيل إن عثمان بن عفان دخل مكة ومعه عشرة من أصحابه بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزوروا أهاليهم ولم يذكروا أسماءهم . وقيل إن قريشاً احتبست عثمان عندها ثلاثة أيام وأشاع الناس أنهم قتلوه هو والعشرة

(١) أبان بن سعيد بن العاص هو ابن عم عثمان أسلم بعد ذلك .

الذين معه . وعلى كل حال أبطأ عثمان رضى الله عنه عن الرجوع فقلق عليه المسلمون ، فلما بلغ ذلك الخبر رسول الله ﷺ قال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، أى نقاتلهم .

بيعة الرضوان

دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة [1] وأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن ينادى الناس إلى البيعة .

قال سلمة بن الأكوع رضى الله عنه : بايعناه وبايعه الناس على عدم الفرار وأنه إما الفتح وإما الشهادة ، وفى رواية : بايعناه على الموت . ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بنى سلمة فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأنى أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس ، وقيل إنه كان يرمى بالنفاق . وكان أول من بايعه ﷺ أبو سنان الأسدى وهو أخو عكاشة بن محصن رضى الله عنهم .

ولما لم يكن عثمان رضى الله عنه حاضراً بايع عنه النبى ﷺ على تقدير حياته ، فوضع يده اليمنى على يده اليسرى وقال : اللهم هذه عن عثمان فإنه فى حاجتك وحاجة رسولك وفى ذلك إشارة منه إلى أن عثمان لم يقتل . وإنما بايع القوم أخذاً بثأر عثمان جرياً على ظاهر الإشاعة وتثبيتاً وتقوية لهم وقد بايع عثمان بعد رجوعه من مكة وكان عدد الذين بايعوا (١٤٠٠) .

قال تعالى يذكر هذه البيعة فى سورة الفتح ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾

تأثير البيعة فى قريش

لما علمت قريش بهذه البيعة خافوا وأشار أهل الرأى فيهم بالصلح على أن يرجع ويعود من قابل فيقيم ثلاثاً معه سلاح الراكب ، السيوف فى القُرُب والقوس .

الصلح

بعثت قريش سهيل بن عمرو [2] أخا بنى عامر بن لؤى إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : ائت محمداً فصالحه ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فو الله لا تحدث عنا العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً فلما أقبل سهيل

---

(١) شجرة هناك من أشجار السمر وهى شجرة الطلح . وقد بلغ عمر رضى الله عنه فى خلافته أن ناساً يصلون عند الشجرة التى كانت البيعة عندها ويطوفون بها فخاف رضى الله عنه من اتساع الأمر وظهور البدعة وأن تعبد كالأصنام فأمر بها فقطعت .

(٢) كان سهيل سياسياً قادراً وخطيباً مصقعا .

قال رسول الله ﷺ قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل وطالت المراجعة بينه وبين النبي ﷺ . فلما التأم الأمر بينهما على الصلح على ترك القتال ولم يبق إلا الكتاب وعند ذلك وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال : ياأبا بكر أليس برسول الله ؟ قال بلى . قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال بلى . قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى . قال : فعلام نعطى الدَّنِيَّة[1] فى ديننا . قال أبو بكر : الزم غَرْزَه[2] فإنى أشهد أنه رسول الله قال عمر وأنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله . ألست برسول الله ؟ قال بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى . أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى . قال فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى فكان عمر يقول : مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً .

ثم دعا رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب فقال اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل لا أعرف هذا أى الرحمن الرحيم ولكن اكتب باسمك اللهم . فكتبها وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا ماصالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك ولم أصدك عن البيت ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله سهيل ابن عمرو . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه وإن بيننا عيبة مكفوفة وإنه لا إسلال ولا إغلال وإنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه (وكان علىٌّ رضى الله عنه وبعض الحاضرين من المسلمين منهم أسيد بن حضير وسعد بن عبادة يعارضون فى محو كلمة رسول الله) وتواثبت خزاعة وقالوا نحن فى عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر فقالوا نحن فى عقد قريش وعهدهم وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب : السيوف فى القرب لا تدخلها بغيرها . وكتبت نسخة أخرى من هذا العقد لتبقى عند المسلمين لأن سهيلا قال يكون هذا الكتاب معى وقيل إن الذى كتب النسخة الأخرى محمد ابن مسلمة ولم يكن أحد فى القوم راضياً بجميع مارضى به النبى صلى الله عليه وسلم غير أبى بكر .

وقد جاء فى كتاب الصلح « وإن بيننا عيبة مكفوفة » أى أموراً مطوية فى صدور سليمة إشارة إلى ترك المؤاخذة بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها وأنه « لا إسلال ولا إغلال » أى لا سرقة ولا خيانة .

---

(١) أى الخصلة المذمومة .

(٢) أى ركابه . يريد اتبع قوله وفعله ولا تخالفه فاستعار له الغرز كالذى يمسك بركاب الراكب ويسير بسيره .

مزايا هـذا الصلح

نقل النووى عن العلماء « أن المصلحة المترتبة على هذا الصلح هى ماظهر من ثمراته الباهرة وفوائده المتظاهرة التى علمها النبى صلى الله عليه وسلم وخفيت عليهم فحمله ذلك على موافقتهم وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين ولا تظهر عندهم أمور النبى صلى الله عليه وسلم كما هى ولا يجتمعون بمن يعلمهم بها مفصلة . فلما حصل الصلح اختلطوا بالمسلمين وجاءوا إلى المدينة وجاء المسلمون إلى مكة وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونهم وسمعوا منهم أحوال النبى صلى الله عليه وسلم ومعجزاته الظاهرة وأعلام نبوته المتظاهرة وحسن سيرته وجميل طريقته وعاينوا بأنفسهم كثيرا من ذلك فمالت أنفسهم إلى الإيمان حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة فأسلموا فيما بين صلح الحديبية وفتح مكة كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما وازداد الذين لم يسلموا ميلا إلى الإسلام . فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم لما قد تم لهم من الميل » .

وإنا نضيف إلى ذلك أن مزايا هذا الصلح التى غابت عن أصحابه صلى الله عليه وسلم ولم تخف عنه عظيمة جداً فقد اعترف له صلى الله عليه وسلم فى هذه المعاهدة بأنه قوة مستقلة نظير قريش وأن المدنة توجد للمسلمين فرصة لنشر دينهم فى جزيرة العرب بلا معارضة ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم كان واثقاً من جهة أخرى من إخلاص أصحابه وحبهم له وشدة تمسكهم بالعقيدة الإسلامية فلا ينضمون إلى قريش بينما كان يتوقع إسلام بعض القبائل وفوق ذلك فقد سمح له بزيارة مكة لتأدية الفريضة الدينية مع المسلمين فى العام القابل والإقامة بها مدة ثلاثة أيام من غير أن يتعرضوا لهم بسوء وبسبب ماجاء فى هذه المعاهدة من المزايا ازداد عدد المسلمين زيادة عظيمة فبعد أن كان عدد جيش الحديبية (١٤٠٠) بلغ عددهم عند فتح مكة بعد عامين (١٠ر٠٠٠) وفى دائرة المعارف الإسلامية « أن محمداً فاز فى صلح الحديبية على قريش فوزاً سياسيًّا باهراً [1] » .

لما فرغ رسول الله ﷺ من الصلح وأشهد عليه رجالًا من المسلمين ، أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة ، ورجالا من قريش حويطبا ومكرزاً ، قام إلى هديه فنحره ثم جلس فحلق رأسه وقيل إن الذى حلقه فى ذلك اليوم خراش بن أمية بن الفضل الخزاعى وكان حجاماً . فلما رأى الناس أن رسول الله ﷺ قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرحم الله المحلقين . قالوا والمقصرين يارسول الله ؟ قال يرحم الله المحلقين . قالوا والمقصرين يارسول الله ؟ قال يرحم الله المحلقين . قالوا والمقصرين يارسول الله ؟ قال والمقصرين فقالوا فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين ؟ قال لم يشكوا .

(1) Encyclopaedia of Islam.

وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية فى هديه جملا لأبى جهل فى رأسه برة من فضة يغيظ بذلك المشركين وكانت بدنه صلى الله عليه وسلم التى نحرها بالحديبية ٧٠ وفرّق رسول الله لحم الهدى على الفقراء ، وكانت إقامته صلى الله عليه وسلم بالحديبية نحو عشرين يوماً .

قال الزهرى فى حديثه : ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجهه ذلك قافلا حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ ثم كانت القصة فيه وفى أصحابه حتى انتهى إلى ذكر البيعة فقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

واختلف الناس فى المراد من الفتح فقال ابن عباس وأنس والبراء بن عازب رضى الله عنهم : الفتح هنا فتح الحديبية . وقيل الفتح المراد هو فتح مكة فنزلت السورة عند مرجعه من الحديبية عدة له بفتحها وعبر فيه بالماضى لتحقق وقوعه .

ونرجح أن الفتح المقصود هو فتح الحديبية لأن هذه الآية نزلت بعد انصرافه منها وهذا الفتح مقدمة لفتح مكة وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم من حديث مجمع بن جارية الأنصارى الأوسى قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها وجدنا رسول الله ﷺ عند كُرَاع الغَمِيم [١] وقد جمع الناس وقرأ عليهم (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) فقال رجل يارسول الله أو فتح هو ؟ قال: إى والذى نفسى بيده إنه لفتح .وروى موسى بن عقبة والزهرى والبيهقى عن عروة بن الزبير قال أقبل النبى ﷺ راجعاً فقال رجل من أصحابه ماهذا بفتح .لقد صدونا عن البيت وصد هدينا ورد ﷺ رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه فبلغه ﷺ قول ذلك الرجل فقال بئس الكلام بل هو أعظم الفتح قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان ولقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح . أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم . أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ؟ فقال المسلمون صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله يانبى الله مافكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وأمره منا .

وصارت تلك الشجرة التى وقعت عندها البيعة يقال لها « شجرة الرضوان » وبلغ عمر بن الخطاب فى خلافته أن ناساً يصلون عندها فتوعدهم وأمر بها فقطعت خوف ظهور البدعة .

---

(١) هو موضع أمام عسفان ؛ بناحية الحجاز بين مكة والمدينة .

تنفيذ المعاهدة

قد راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفيذ هذه المعاهدة بدقة فكان فى مدة الصلح يرد الرجال المهاجرين ولا يرد النساء بعد الامتحان وكان الامتحان أن تستحلف المرأة المهاجرة أنها ماهاجرت ناشزاً ولا هاجرت إلا لله ورسوله . . قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ فلما هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط رضى الله عنها وكانت أسلمت بمكة وبايعت قبل أن يهاجر ﷺ ثم خرجت فى مدة الصلح مهاجرة ماشية على قدميها من مكة إلى المدينة وصحبت رجلا من خزاعة وهى أخت عثمان ابن عفان لأمه ـ لم يردها النبى صلى الله عليه وسلم لأن الشرط يقضى برجوع الرجال فقط . ولما خرج أخوها عمارة والوليد فى ردها بالعهد ، أخبرهما رسول الله بأن النساء المؤمنات لا يرجعن وأن الشرط فى الرجال فقط وأن النساء يمتحن فرجعا إلى مكة وأخبرا قريشاً بذلك فرضوا به .

ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بصير [1] فذهب ـ بعد أن قتل خنيساً الذى كان جاء فى طلبه ـ إلى محل فى طريق الشام يمر به ذوو الميرة واجتمع إليه جمع من المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة فكانوا يتسللون إليه وانفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذى رده صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وخرج من مكة فى سبعين راكبا أسلموا فلحقوا بأبى بصير وكرهوا أن يقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدة المدنة خوفا من أن يردهم إلى أهلهم وانضم إليهم ناس من غفار وأسلم وجهينة وطوائف من العرب ممن أسلم حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل فقطعوا مارة قريش لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم عير إلا أخذوها حتى كتبت قريش له صلى الله عليه وسلم تسأله بالأرحام إلا آواهم ولا حاجة لهم بهم فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى جندل وأبى بصير أن يقدما عليه وأن من معهم من المسلمين يلحق ببلادهم وأهليهم ولا يتعرضوا لأحد مر بهم من قريش ولا لعيرهم فقدم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما وأبو بصير مشرف على الموت لمرض حصل له فمات وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يده يقرأه فدفنه أبو جندل مكانه وجعل عند قبره مسجداً وقدم أبو جندل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ناس من أصحابه ورجع باقيهم إلى أهلهم وأمنت قريش على عيرهم وتحقق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية « سيجعل الله لأبى جندل وأصحابه فرجاً ومخرجاً » .

ولما أمن الكفار القتال اختلطوا بالمسلمين فأثر فيهم الإسلام فأسلم كثير منهم . وكان أبو بكر الصديق يقول ، ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه . والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

---

(١) أبو بصير ، اسمه عتبة بن أسيد بن جارية الثقفى ، حليف بنى زهرة .

رسل النبي ﷺ

إلى الملوك والأمراء

يدعوهم إلى الإسلام

قبل أن نذكر كتب النبي صلى الله عليه وسلّم إلى الملوك والأمراء يجدر بنا أن نلقي نظرة على حالة الإمبراطورية الرومانية ودولة الفرس .

كانت الحروب ناشبة بين الإمبراطورية الرومانيـة والفرس ففي سنة ٦٢١ م انتصرت جيوش الفرس واستولت على الشام ومصر وآسيا الصغرى وذلك قبل الهجرة بسنة . وكان الفرس وقتئذ يهددون القسطنطينية وأخيراً ظهر هرقل وأصر على إعادة مجد دولته وفي زمن الهجرة (سنة ٦٢٢ م) كان الإمبراطور الروماني يطارد المغيرين من آسيا الصغرى . وفي الوقعة الثانية من وقائعه سارت جيوشه إلى قلب بلاد الفرس نفسها . وفي أثناء السنوات الثلاث التي كان فيها يسترد هرقل مجد الإمبراطورية كان رسول الله ﷺ في نزاع مع قريش وأعقب ذلك حصار الفرس للقسطنطينية الذي كان قبل حصار المدينة في غزوة الأحزاب بنصف سنة (يوليو سنة ٦٢٦ م) وفي الوقعة الثالثة والى هرقل انتصاره السابق فانتصر انتصاراً تامًّا في أول ديسمبر سنة ٦٢٦ م في وقعة نينوى وبذلك انكسرت جيوش الفرس وتشتت شملهم وفي التاسع والعشرين من هذا الشهر فر كسرى إلى عاصمة ملكه . وفي فبراير سنة ٦٢٨ م قتله ابنه (شيرويه) واستولى على العرش وعقد معاهدة صلح مع الإمبراطور الروماني على أن تبقى حدود الدولتين على ما كانت عليه من قبل وفي حوالي هذا الوقت كان النبي صلى الله عليه وسلم يعقد صلح الحديبية مع رؤساء قريش وفي ربيع هذه السنة خرج هرقل لزيارة القدس .

فلما رجع رسول الله من صلح الحديبية ، ورأى سرعة إسلام الأفراد والقبائل ، وجد أنه قد آن الوقت لتعميم الدعوة إلى الإسلام في خارج جزيرة العرب . فاختار لذلك الغرض رسله من تجار المسلمين الذين سبق أن رحلوا إلى البلاد التي يريد دعوة ملوكها إلى الإسلام ممن يعرفون عاداتهم .

خاتم رسول الله ﷺ

قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أراد إرسال كتبه إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام إنهم لا يقرءون الكتاب إلا إذا كان مختوما فاتخذ صلى الله عليه وسلم خاتما من فضة وكان نقشه ثلاثة أسطر : (محمد) سطر (رسول) سطر (الله) سطر والأسطر الثلاثة تقرأ من أسفل إلى فوق فمحمد آخر الأسطر . ورسول في الوسط والله فوق . وكانت الكتابة مقلوبة لتكون على الاستواء إذا ختم به فكان ذلك الخاتم في يده صلى الله عليه وسلم

ثم فى يد أبى بكر ثم فى يد عمر ثم فى يد عثمان رضى الله عنهم حتى وقع فى بئر أريس فى السنة التى قتل فيها عثمان رضى الله عنه فالتمسوه ثلاثة أيام فلم يجدوه .

كتب رسول الله ﷺ

كان ﷺ يفتتح أكثر كتبه بلفظ « من محمد رسول الله إلى فلان » وربما افتتحها بلفظ « أما بعد » وربما افتتحها بلفظ « هذا كتاب » وربما افتتحها بلفظ « سلم أنت »

وكان يصرح فى الغالب باسم المكتوب إليه فى أول المكاتبات وربما اكتفى بشهرته فإن كان المكتوب إليه ملكا كتب بعد ذكره اسمه « عظيم القوم الفلانيين » وربما « كتب صاحب مملكة كذا » .

وكان يعبر عن نفسه ﷺ فى أثناء كتبه بلفظة الإفراد مثل « أنا » و « لى » و « جاءنى » و « وفد علىّ » وما أشبه ، وربما أتى بلفظ الجمع مثل « بلغنا » و« جاءنا » نحو ذلك .

وكان يخاطب المكتوب إليه عند الإفراد بكاف الخطاب . مثل « لك وعليك » وتاء المخاطب.مثل « أنت قلت كذا وفعلت كذا » وعند التثنية بلفظها مثل : « أنتما ولكما وعليكما » وعند الجمع بلفظه مثل « أنتم ولكم وعليكم » وما أشبه ذلك .

وكان يأتى فى صدور كتبه بالسلام ، فيقول فى خطاب المسلم « سلام عليك » وربما قال : « السلام على من آمن بالله ورسوله » وفى خطاب الكافر « سلام على من اتبع الهدى » وربما أسقط السلام من صدر الكتاب .

وكان يأتى فى صدور الكتب بالتحميد بعد السلام . فيقول : « فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو » وربما تركه . وقد يأتى بعد التحميد بالتشهد وقد لا يأتى به . وكان يتخلص من صدر الكتاب إلى المقصود تارة بأما بعد وتارة بغيرها .

وكان يختم كتبه بالسلام تارة ، فيقول فى خطاب المسلم « والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وربما اقتصر على السلام . ويقول فى خطاب الكافر « والسلام على من اتبع الهدى » وربما أسقط السلام من آخر كتبه .

١ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى هرقل (Heraclius)

كان إرسال الكتاب إلى هرقل سنة ست من الهجرة بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من الحديبية وكان وصوله إليه فى المحرم سنة سبع وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الكلبى أن يدفعه إلى عظيم بصرى وهو الحارث ملك غسان ليدفعه إلى هرقل وكان هرقل قد نذر أنه إذا ظهر على الفرس وأخرجهم من بلادهم زار القدس حاجًا ماشيًا على قدميه شكراً لله . فخرج فى خريف سنة ٦٢٨ م (السنة السابعة من الهجرة) وفاء بنذره . وفى أثناء سفره سلم إليه حاكم بصرى كتاب النبى صلى الله عليه وسلم وكان دحية لما انتهى إلى الحارث أرسل معه عدى بن حاتم ليوصله إلى هرقل .

وهذا نص الكتاب :

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتّبع الهدى أما بعد . أسلم تسلم . وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك [1]) عن عبد الله بن عباس قال [2] :

« حدثنى أبو سفيان بن حرب قال : كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن ألا نجد أمناً فخرجت فى نفر من قريش تجار إلى الشام وكان وجه متجرنا منها غزة فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الأعظم وكانوا قد استلبوه إياه فلما بلغ ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ له وكانت حمص منزله خرج منها يمشى على قدميه متشكراً لله حين رد عليه مارد ليصلى فى بيت المقدس وتبسط له البسط وتلقى عليها الرياحين . فلما انتهى إلى إيلياء وقضى فيها صلاته ومعه بطارقته وأشراف الروم . أصبح ذات غداة مهموماً يقلب طرفه إلى السماء ، فقال له بطارقته والله لقد أصبحت أيها الملك الغداة مهموماً . قال أجل . أريت فى هذه الليلة أن ملك الختان ظاهر . قالوا أيها الملك : مانعلم أمة تختتن إلا يهود وهم فى سلطانك وتحت يدك فابعث إلى كل من لك عليه سلطان فى بلادك فمره فليضرب أعناق كل من تحت يده من يهود واسترح من هذا الهم . فوالله إنهم لفى ذلك من رأيهم يدبرونه إذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادى الأخبار بينها فقال أيها الملك إن هذا الرجل من أهل العرب من أهل الشاء والإبل يحدث عن أمر عجب حدث ببلادهم فسله عنه فلما انتهى به رسول صاحب بصرى إلى هرقل قال هرقل لترجمانه: سله ما كان هذا الحدث الذى كان

(١) الأكار هو الفلاح . والمراد إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون لأمرك (٢) راجع الطبرى الجزء الثالث .

ببلاده ؟ فسأله : فقال خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس . وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك . قال فلما أخبره الخبر ، قال جردوه فجردوه فإذا هو مختون . فقال هرقل هذا والله الذي أريت لا ماتقولون . أعطوه ثوبه . ثم دعا صاحب شرطته فقال له قلب لى الشام ظهراً وبطناً حتى تأتيني برجل من قوم الرجل يعني النبي صلى الله عليه وسلم .

قال أبو سفيان : فوالله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال أنتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز ؟ قلنا نعم . قال انطلقوا بنا إلى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا إليه قال : أنتم من رهط هـذا الرجل ؟ قلنا نعم . قال فأيكم أمس به رحماً ؟ قلت أنا . قال أبو سفيان : وايم الله مارأيت من رجـل أرى أنه كان أنكر من ذلك الأغلف يعني هرقل . فقال : أدنه فأقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي . ثم قال : إني سأسأله فإن كذب فردوا عليه ، فوالله لو كذبت ماردوا عليّ ولكني كنت امرأ سيداً أتكرم عن الكذب وعرفت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك عليّ ثم يحدثوا به عني ، فلم أكذبه . فقال أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعي مايدعي . قال فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره . وأقول له أيها الملك مايهمك من أمره ؟ إن شأنه دون مايبلغك فجعل لا يلتفت إلى ذلك . ثم قال : أنبئني عما أسألك عنه من شأنه . قلت سل عما بدالك . قال كيف نسبه فيكم ؟ قلت محض أوسطنا نسباً . قال فأخبرني هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ماقال فهو يتشبه به ؟ قلت لا . قال : فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ قلت لا . قال : فأخبرني عن أتباعه منكم من هم ؟ قال قلت الضعفاء والمساكين والأحداث والغلمان والنساء . وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد . قال : أخبرني عمن تبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ؟ قال قلت ماتبعه رجل ففارقه . قال : أخبرني كيف الحرب بينكم وبينه ؟ قال قلت سجال يدال علينا وندال عليه . قال فأخبرني هل يغدر ؟ فلم أجد شيئاً مما سألني عنه أغمزه فيه غيرها . قلت لا ونحن منه في هدنة ولا نأمن غدره . قال فوالله ماالتفت إليها مني ثم كر على الحديث .

قال سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً . وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا . وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت أن لا . وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان . وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبا فتخرج منه . وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا . فلئن كنت صدقتني عنه ليغلبني على ماتحت قدميّ هاتين ولوددت أني عنده فأغسل قدميه . انطلق لشأنك . قال فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يديّ بالأخرى وأقول : أي عباد الله لقد أمِرَ أمْر ابن أبي

كبشة [(١)] أصبح ملوك بنى الأصفر يهابونه فى سلطانهم بالشام . قال وقدم عليه كتاب رسول الله ﷺ . فأخذ الكتاب فجعله بين فخذيه وخاصرته .

وفى البخارى أن قيصر لما صار إلى حمص أذن لعظماء الروم فى دسكرة له ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع فقال: يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبى فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت ، وقالوا أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيد الأعرابى ؟ فلما رأى نفرتهم وأيس من إيمانهم قال ردوهم على وقال: إنى قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت . فسجدوا له ورضوا عنه . اهـ فلم يسلم هرقل .

وجميع المصادر الأجنبية تنكر هذه المحاورات التى جرت بين هرقل وأبى سفيان مما يدل على ميله إلى الإسلام لأنه كان عريقاً فى المسيحية متمسكا بها فلا يتصور أن يقول لأبى سفيان « لئن كنت صدقتنى عنه ليغلبنى على ما تحت قدمىّ هاتين ولوددت أنى عنده أغسل قدميه » ولا يمكن أن يدعو قومه إلى اتباع النبى وترك النصرانية وهو رئيسها فى وقت كان يحتفل فيه باسترداد الصليب الأعظم من الفرس .

٢ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى وكان أميراً بدمشق من جهة قيصر ومعه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله فإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لاشريك له يبقى ملكك) وختم الكتاب .

قال شجاع فانتهيت فوجدته مشغولا بتهيئة الضيافة لقيصر وقد جاء من حمص إلى إيلياء حيث كشف الله عنه جنود فارس شكراً لله تعالى .

قال شجاع فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة فقلت لحاجبه : إنى رسولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حاجبه لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا وجعل حاجبه يسألنى عنه صلى الله عليه وسلم وما يدعو إليه فكنت أحدثه

---

(١) أمِر أمر ابن أبى كبشة : أى عظم أمره هذا . وفى رواية: ما زلت مرعوباً من محمد حتى أسلمت ، وقوله ابن أبى كبشة : قيل : إنه جد لآمنة بنت وهب أم النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يكنى أبا كبشة وكان خالف قريشا فى عبادة الأصنام فشبهوا به النبى صلى الله عليه وسلم لمخالفته إياهم فى عبادتها .

فيرق حتى يغلبه البكاء ويقول إنى قرأت فى الإنجيل وإنى أجد صفة هذا النبى بعينه وكنت أظنه يخرج بالشام فأراه خرج بأرض القرظ [1] فأنا أو من به وأصدقه وأنا أخاف من الحارث بن أبى شمر أن يقتلنى . وكان هذا الحاجب روميًا اسمه مرى .

قال شجاع وكان يكرمنى ويحسن ضيافتى ويخبرنى باليأس من الحارث ويقول وهو يخاف قيصر . قال فخرج الحارث يومًا فوضع التاج على رأسه فأذن لى عليه فدفعت إليه الكتاب فقرأه ثم رمى به وقال من ينتزع منى ملكى ؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته . علىّ بالناس . فلم يزل جالسًا حتى الليل وأمر بالخيل أن تنعل ثم قال أخبر صاحبك بما ترى . وكتب إلى قيصر يخبره بخبرى فصادف قيصر بإيلياء وعنده دحية رضى الله عنه وقد بعثه رسول الله ﷺ فلما قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه ألا تسر إليه واله عنه ووافنى بإيلياء [2] .

ولما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم خبره قال « باد ملكه » ويفهم من هذا أنه لم يسلم .

٣ — كتاب رسول الله ﷺ

إلى كسرى عظيم الفرس

(Cbosroes Eparw'z)

كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى أبرويز بن هرمز وبعث بالكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمى لأنه كان يتردد على كسرى كثيرًا وهذا نص الكتاب :

(بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيًا . أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس) أى إثم أتباعك .

فمزق كسرى كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله « مزق الله ملكه » .

ويلاحظ فى هذا الكتاب أن النبى قال فيه « وأنى رسول الله إلى الناس كافة » وفى هذا رد على من زعم من المستشرقين وغيرهم أن محمدًا أرسل إلى العرب فقط ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة سبأ .

ثم كتب كسرى إلى أمير له باليمن يقال له « باذان » أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به . فبعث « باذان » قهرمانه وهو « بابويه » . وكان كاتبًا حاسبًا بكتاب فارس وبعث معه رجلا

(١) أى بأرض العرب ، والقرظ : شجر يدبغ بورقه وثمره عند العرب .

(٢) قوله واله عنه : أى تشاغل عنه ، وإيلياء بيت المقدس ومعناه بالعبرانية بيت الله Aelsi Capitolina

من الفرس يقال له « خرخسرة » وكتب معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى وقال لبابويه : ائت بلد هذا الرجل وكلمه وأتنى بخبره فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجالا من قريش بنخب من أرض الطائف فسألاهم عنه فقالوا هو بالمدينة . واستبشروا بهما وفرحوا وقال بعضهم لبعض أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك . وكفيتم الرجل فخرجا حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه بابويه . فقال إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثنى إليك لتنطلق معى فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك وإن أبيت فهو من قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك . ودخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فكره النظر إليهما ثم أقبل عليهما فقال : ويلكما من أمركما بهذا ؟ قالا ربنا . يعنيان كسرى فقال رسول الله : لكن ربى أمرنى بإعفاء لحيتى وقص شاربى . ثم قال لهما ارجعا حتى تأتيانى غداً وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه (شيرويه) فقتله فى شهر كذا وكذا ليلة كذا وكذا بعد مامضى من الليل كذا وكذا .

قال الوقدى : « قتل شيرويه أباه كسرى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى من سنة سبع لست ساعات مضت منها » .

فدعاهما فأخبرهما فقالا هل تدرى ماتقول إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك ؟ قال نعم أخبراه ذلك عنى وقولا له إن دينى وسلطانى سيبلغ مابلغ ملك كسرى وينتهى إلى منتهى الخف والحافر وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء . ثم أعطى « خرخسرة » منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فقال والله ماهذا بكلام ملك وإنى لأرى الرجل نبياً كما يقول ولتنظرن ماقد قال فائن كان هذا حقاً مافيه كلام ، إنه لنبى مرسل . وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا .

إسلام باذان

لم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه وهو :

« أما بعد فإنى قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم وتجميرهم فى ثغورهم فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه » فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال إن هذا الرجل لرسول فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس من كان منهم باليمن فكانت حمير تقول لخرخسرة ذو المعجزة للمنطقة التى أعطاه إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنطقة بلسان حمير المعجزة فبنوه اليوم ينسبون إليها خرخسرة ذو المعجزة . وقد قال بابويه لباذان ما كلمت رجلا قط أهيب عندى منه . فقال له باذان هل معه شرط ؟ قال لا .

ولما أسلم باذان ولاه النبي صلى الله عليه وسلم على مخاليف اليمن وكان منزله بصنعاء دار مملكة التبابعة وبقي حتى مات بعد حجة الوداع فولى النبي صلى الله عليه وسلم ابنه (شهر) بن باذان على صنعاء وولى على كل جهة واحداً من الصحابة رضوان الله عليهم .

ثم ملك الله المسلمين ملك كسرى وخزائنهم وأموالهم في خلافة عمر رضي الله عنه ومزقهم الله كل ممزق تحقيقاً لدعوته صلى الله عليه وسلم .

وقد أنكر الأستاذ نورث (C. R. North) في كتابه الذي أسماه موجزاً عن الإسلام (An outline of Islam) طبعة سنة ١٩٣٤ ص ٣٤ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل كتاباً إلى إمبراطور الروم وآخر إلى إمبراطور الفرس وزعم أن ذلك ليس له أساس تاريخي . وهكذا ينكر مؤرخو الفرنجة حتى الحقائق الثابتة . .

٤ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى المقوقس عظيم القبط(١)

سنة ٧ هـ — ٦٢٨ م

بعث رسول الله حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى المقوقس . وذلك أنه ﷺ عند منصرفه من الحديبية قال أيها الناس أيكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله؟ فوثب إليه حاطب بن أبي بلتعة وقال أنا يارسول الله فقال : بارك الله فيك ياحاطب وهذا نص الكتاب :

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ مِنْ عَبْدِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلْمُقَوْقِسِ عَظِيمِ ٱلْقِبْطِ سَلَامٌ عَلَى مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ ٱلْإِسْلَامِ(٢) أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ ٱللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ كُلِّ ٱلْقِبْطِ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ وختم الكتاب .

وهذا الكتاب محفوظ بدار الآثار في الآستانة . قيل عثر عليه عالم فرنسي في دير بمصر قرب أخميم في زمن سعيد باشا .

(١) اسم المقوقس باللغة القبطية Pka.chlos ومعنى المقوقس مطول البناء . وهذا لقب كل من ملك مصر وكان اسم هذا المقوقس « جريج بن ميناء » .

(٢) أي بدعوته وهي كلمة الشهادة التي يدعى إليها أهل الملل الكافرة .

فسار حاطب بالكتاب حتى قدم على المقوقس إلى مصر فلم يجده فذهب إلى الاسكندرية وأعطاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فضمه إلى صدره وجعله فى حق عاج ودعا كاتباً له بالعربية يكتب بالعربية فكتب :

(إلى النبي صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ماذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيًا قد بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام) وذكر له ما كان من إكرامه لحاطب وقيل إنه دفع له مائة دينار وخمسة أثواب ودعا رجلا عاقلافلم يجد بمصر أحسن ولا أجمل من مارية (مريم) وأختها سيرين وهما من أهل حفن بن كورة أنصنا ، قرية بصعيد مصر [1] فبعث بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهدى له بغلة وعسلا من بنها . وقيل بعث له غير ذلك عشرين ثوباً من قباطى مصر وطيباً وعوداً ومسكا . ولكنه لم يسلم وقد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الهدايا ، فأخذ مارية لنفسه ، وأهدى سيرين لحسان بن ثابت وهى أم عبد الرحمن بن حسان . والبغلة تسمى « الدلدل » وكانت شهباء ولم يكن فى العرب يومئذ بغلة غيرها ودعا فى عسل بنها بالبركة .

وقد ذكر المرحوم حفنى ناصف بك أصناف الهدايا التى أرسلها المقوقس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى : [2]

١ ـ مارية بنت شمعون وكانت أمها رومية .

٢ ـ جارية أخرى يقال لها سيرين ولكنها أقل جمالا من مارية .

٣ ـ جارية أخرى يقال لها قيسر .

٤ ـ جارية سوداء يقال لها بريرة .

٥ ـ غلام أسود يقال له هابو

٦ ـ بغلة شهباء وهى التى سميت بدلدل

٧ ـ فرس مسرج ملجم وهو الذى سمى بميمون

٨ ـ حمار أشهب وهو الذى سمى بيعفور

٩ مربعة فيها مكحلة ومرآة ومشط وقارورة دهن ومقص وسواك

١٠ ـ جانب من عسل بنها

---

(١) جاء فى الحديث الشريف : « أهدى المقوقس إلى النبي صلى الله عليـه وسلم مارية من حفن من رستاق أنصنا » وفى كتاب الانتصار لابن دقاق :

« وأنصنا بلدة قديمة بها آثار عظيمة وكان مقياس صغير يقاس به ماء النيل وبعضه باق إلى الآن وهى على ضفة النيل الشرقية قبالة الأشمونين ـ قال : إن الأشمونين ذات كيان عظيمة وإن بانيها أشموم بن مصر ونقل عن القبط أن أشموم بنى سرداباً تحت الأرض من الأشمونين إلى أنصنا » وقرية الأشمونين بمحافظة أسيوط . (٢) راجع مجلة الهلال السنة ٤١ الجزء الأول ص ٧٨ .

١١ ـ مثقال من الذهب

١٢ ـ عشرون ثوباً من قباطى مصر

١٣ ـ جانب من العود والند [١] والمسك

١٤ ـ قدح من قوارير

ويقال إنه كان من ضمن الهدية طبيب فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « ارجع إلى أهلك نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع »

وقد أسلمت مارية قبل أن تصل إلى المدينة هى وسيرين بدعوة حاطب بن أبى بلتعة

مارية القبطية

وصلت مارية إلى المدينة سنة ٨ هـ

كان رسول الله يعجب بمارية القبطية وكانت بيضاء جعدة جميلة فأنزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأختها على أم سليم بنت ملحان فأسلمتا.فوطىء مارية بالملك وحولهـا إلى مال له بالعالية كان من أموال بنى النضير فكانت فيه فى الصيف وفى خرافة النخل فكان يأتيها هناك وكانت حسنة الدين ووهب أختها سيرين لحسان ابن ثابت الشاعر فولدت له عبد الرحمن وولدت مارية لرسول الله غلاماً فسماه إبراهيم . وتوفيت فى خلافة عمر سنة ١٦ هـ ودفنت بالبقيع وكان عمر يجمع الناس بنفسه لشهود جنازتها وصلى عليها

إبراهيم بن رسول الله ﷺ

لما ولد إبراهيم عق عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة يوم سابعه وحلق رأسه فتصدق بزنة شعره فضة على المساكين وأمر بشعره فدفن فى الأرض وكانت قابلة مارية سلمى مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت إلى زوجها أبى رافع مولى رسول الله فأخبرته بأنها قد ولدت غلاماً فجاء أبو رافع [٢] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبشره فوهب له عبداً وغار نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد عليهن حين رزق منها الولد. كانت ولادة إبراهيم فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة (إبريل سنة ٦٣٠ م) ولد بالعالية وتنافست فيه نساء الأنصار أيتهن ترضعه فدفعه رسول الله إلى بُرْدة أم بنت المنذر بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار وزوجها البراء بن أوس بن خالد فكانت ترضعه .

---

(١) الند : الطيب ، غير عربى . (٢) اسمه إبراهيم ، مولى رسول الله وكان للعباس رضى الله عنه فوهبه للنبى صلى الله عليه وسلم وكان إسلامه بمكة مع إسلام أم الفضل ولما بشر النبى بإسلام العباس ، أعتقه وزوجه مولاته سلمى وشهد فتح مصر. توفى خلافة على)

٥ – كتاب رسول الله ﷺ

إلى النجاشي أصحمة

التجأ المهاجرون الأولون إلى الحبشة فأكرمهم النجاشي وبقوا هنالك آمنين من اضطهاد قريش ولما هاجر رسول الله إلى المدينة عاد أربعون من المهاجرين والتحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وبقي منهم في الحبشة نحو خمسين أو ستين تحت حماية النجاشي وقد حمل عمرو بن أمية الضمري رسالتين إليه يدعوه في إحداهما إلى الإسلام وفي الأخرى يأمره أن يزوجه أم حبيبة [١] وهذه صورة كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي الذي يدعوه فيه إلى الإسلام :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . مِن محمدٍ رَسولِ اللهِ إلى النَّجاشيِّ الأَصْحمِ ملكِ الحبشةِ . سَلْمٌ أنتَ [٢] فإنى أحمدُ إليكَ اللهَ ، الملكُ القدُّوسُ السلامُ المؤمنُ المُهيْمِنُ ، وَأشهدُ أنَّ عيسى بنَ مريَمَ رُوحُ اللهِ وَكلِمَتُهُ ألقاهَا إلى مريمَ البَتولِ الطَّيِّبَةِ الحَصينةِ [٣] فحملَتْ بعيسى من رُوحهِ وَنَفْخِه كما خَلقَ آدمَ بيَدِه وَنَفْخِهِ وَإنى أدْعوكَ إلى اللهِ وَحْدَه لا شريكَ لهُ وَالموالاةِ عَلَى طاعتهِ وَأن تَتَّبِعَنى وَتُؤْمِنَ بالذى جَاءنى فإنى رسولُ اللهِ وَقَدْ بعثتُ إليكَ ابنَ عمِّى جعفراً وَنفراً معهُ من المسلمينَ فإذا جاءوكَ فَأَقْرِهِمْ ودعِ التَّجبُّرَ فإنى أدعوكَ وجُنودَكَ إلى اللهِ فقدْ بَلَّغْتُ ونَصَحْتُ فاقبَلُوا نُصْحِى وَالسلامُ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى ﴾ .

فلما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه ونزل عن سريره فجلس على الأرض ثم أسلم وكتب الجواب للنبي صلى الله عليه وسلم وهذا هو :

« بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله . من النجاشي الأصحم بن أبجر : سلام عليك يانبيّ الله ورحمة الله وبركات الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام . أما بعد فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى مايزيد على ماذكرت . وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقد قربنا ابن عمك [٤] وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين وأرسلت إليك بابنى أرها بن الأصحم بن أبجر فإنى لا أملك إلا نفسى وإن شئت أن آتيك فعلت يارسول الله [٥] » .

---

(١) أم حبيبة بنت أبي سفيان . كانت هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش . مات بالحبشة نصرانيا ثم تزوجها رسول الله كما سيأتى.
(٢) أى أنت سالم لأن السلم بمعنى السلامة (٣) أى العفيفة (٤) يعنى جعفر بن أبى طالب (٥) راجع ابن إسحاق .

قال ابن إسحاق « وذكر لى أن النجاشى بعث ابنه فى ستين من الحبشة فى سفينة فإذا كانوا فى وسط البحر غرقت بهم سفينتهم فهلكوا » .

وهذا الكتاب الذى أرسله النجاشى يؤيد إسلامه صراحة وأنه يرى فى عيسى عليه السلام مايراه الإسلام

إسلام النجاشى

إن رواية ابن إسحاق صريحة بأن النجاشى أصحمة أسلم . وقد قرأ جعفر بن أبى طالب عليه سورة مريم وقول عيسى : ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ ﴾ الآية . وفى هذه الآية نص عيسى عليه السلام على إثبات عبوديته وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ وفى قوله عيسى بن مريم إشارة إلى أنه ولد هذه المرأة وابنها لا أنه ابن الله . وقال عز شأنه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

وقد شك بعضهم فى إسلام النجاشى لكن المصادر التاريخية المهمة تصرح بإسلامه[1] وفى قول عمرو بن العاص أنه بايع النجاشى على الإسلام وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه ولكنه كان يخفى إسلامه لأن أمته كانت مسيحية نخشى أن يثوروا عليه .

ومما يقوى إسلام النجاشى أنه كان مسيحيًّا نسطوريًّا[2] ومذهب نسطور قائم على التوحيد وينكر ألوهية المسيح فمن ذلك قوله (لا تقولوا مريم أم الله لأنها من البشر ويستحيل أن يولد الإله من البشر)

وقد ذكرت أن بحيرا الراهب الذى أكرم النبى عليه الصلاة والسلام عندما رحل إلى الشام وعرفه بعلامات فيه ، كان متبعاً هذا المذهب ـ ونسطور هذا كان رجلا جليل القدر متبحراً فى الديانة المسيحية والذى يدل على مكانته الرفيعة فى الدين المسيحى أنه كان بطريرك القسطنطينية من عام ٤٢٨ إلى ٤٣١ م[3] وكان له أتباع كثيرون من القساوسة لكنه اضطهد لعقيدته ونفى . فإذا كانت عقيدة النجاشى كما علمت هى عقيدة نسطور فالراجح أنه أسلم عندما عرض عليه الإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليه سورة مريم التى تنطبق على مذهبه ولأن الإسلام يحارب عبادة الأصنام ويدعو إلى التوحيد وينكر ألوهية عيسى عليه السلام ويقر نبوته .

وجاء فى مسند الشافعى (من كتاب الجنائز والحدود) عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم نعى للناس

---

(١) راجع سيرة ابن هشام والطبرى وأسد الغابة ترجمة عمرو بن أمية الضمرى (٢) راجع كتاب حياة محمد تأليف ايرفنج Irving وكتاب مستر موير الجزء الرابع . (٣) راجع دائرة المعارف الإنجليزية .

النجاشى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر أربع تكبيرات وهذا دليل على إسلام النجاشى لأن رسول الله ﷺ لا يصلى إلا على مسلم .

وفى صحيح البخارى عن جابر رضى الله عنه : قال النبى ﷺ حين مات النجاشى : مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم[1] أصحمة .

زواج أم حبيبة

بنت أبى سفيان برسول الله ﷺ

عن محمد بن عمر قال : أرسل رسول الله ﷺ إلى النجاشى ليزوجه « أم حبيبة » بنت أبى سفيان[2] ويبعث بها إليه مع من عنده من المسلمين . فأرسل النجاشى — جارية له يقال لها أبرهة إلى أم حبيبة يخبرها بخطبة رسول الله ﷺ إياها فأعطتها أوضاحاً لها وفتخاً[3] سروراً بذلك ، وأمرها أن توكل من يزوجها فوكلت خالد بن سعيد بن العاص فزوجها فخطب النجاشى على رسول الله ﷺ وخطب خالد فأنكح أم حبيبة ثم دعا النجاشى بأربعمائة دينار صداقها فدفعها إلى خالد بن سعيد فلما جاءت أم حبيبة تلك الدنانير جاءت بها أبرهة فأعطتها خمسين مثقالا . وقالت كنت أعطيتك ذلك وليس بيدى شىء وقد جاء الله عز وجل بهذا . فقالت أبرهة : قد أمرنى الملك أن لا آخذ منك شيئاً وأن أرد إليك الذى أخذت منك فردته ، وأنا صاحبة دهن الملك وثيابه وقد صدقت محمداً رسول الله وآمنت به وحاجتى إليك أن تقرئيه منى السلام . قالت نعم . وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من عود وعنبر فكان رسول الله ﷺ يراه عليها وعندها فلا ينكره . قالت أم حبيبة فخرجنا فى سفينتين وبعث معنا النواتى حتى قدمنا الجار ثم ركبنا الظهر إلى المدينة فوجدنا رسول الله ﷺ بخيبر فخرج من خرج إليه وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول الله فدخلت إليه فكان يسائلنى عن النجاشى وقرأت عليه من أبرهة السلام فرد رسول الله ﷺ عليها . ولما جاء أبا سفيان تزويج النبى ﷺ أم حبيبة قال « ذلك الفحل لا يقرع أنفه » .

وقد أراد رسول الله ﷺ بزواج أم حبيبة بنت أبى سفيان أن يستميل أباها إلى قضيته . وقد كان وصول مهاجرى الحبشة إلى المدينة فى فصل الخريف فى جمادى الأولى السنة السابعة من الهجرة (أغسطس سنة ٦٢٨ م)

وفى سيرة ابن هشام أسماء من عادوا من الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ

وكنيت بابنتها حبيبة بنت عبيد الله بن جحش واسمها رملة وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله فولدت

---

(١) فى الإسلام كما جاء فى شرح البخارى للقسطلانى

(٢) أمها صفية بنت أبى العاص عمة عثمان بن عفان بن أبى العاص . قيل اسمها رملة وقيل هند وهى أخت معاوية بن أبى سفيان

(٣) الوضح : الخلخال ، والفتخة : حلقة من فضة كالخاتم لا فص فيها والجمع فتخ بالفتح وفتوخ وفتخات وكانت نساء الجاهلية يلبسنها فى أصابع القدمين .

هناك حبيبة فتنصر عبيـد الله ومات بالحبشة نصرانيًا وبقيت أم حبيبـة مسلمة بأرض الحبشة ثم خرجت وقدمت إلى المدينة بعـد أن تزوجها رسول الله . وقيل إن الذى وكلته أم حبيبـة لعقد النـكاح عثمان بن عفان . وتوفيت أم حبيبة سنة ٤٤ هـ .

٦ – كتاب رسول الله ﷺ

إلى هوذة بن على الحنفى صاحب اليمامة (١)

أرسل رسول الله ﷺ كتاباً إلى هوذة بن على الحنفى صاحب اليمامة مع سليط بن عمرو العامرى وهذه صورة الـكتاب :

﴿ بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ ٱللهِ إِلَى هَوْذَةَ بْنِ عَلِيٍّ . سَلَامٌ عَلَى مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَى وَٱعْلَمْ أَنَّ دِينِي سَيَظْهَرُ إِلَى مُنْتَهَى ٱلْخُفِّ وَٱلْحَافِرِ فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ وَأَجْعَلْ لَكَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ ﴾ .

فلما قرئ على هوذة الـكتاب رد ردًا لطيفاً على سليط . قال الواقدى إن أركون دمشق الروحى من عظماء النصارى كان عنـد هوذة فقال له هوذة جاءنى كتاب من النبى يدعونى إلى الإسلام فلم أجبـه فقال الأركون لم لا تجيبه ؟ قال ضننت بدينى وأنا ملك قومى ولئن تبعته لن أملك . قال بلى والله لئن اتبعته ليملكنك وإن الخير لك فى اتباعه وإنه للنبى العربى الذى بشر به عيسى بن مريم عليـه السلام وإنه لمكتوب عنـدنا فى الإنجيل محمد رسول الله ... وأركون هذا أسلم على يد خالد بن الوليد فى خلافة أبى بكر الصديق . ثم إن هوذة كتب للنبى ﷺ جواب كتابه وقال فيه :

« ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكانى فاجعل لى بعض الأمر أتبعك »

وكأنه أراد الشركة فى النبوة أو الخلافة بعـده ﷺ وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هَجَر فقدم بكتابه على النبى ﷺ وأخبره بخبره فلما قرأ الـكتاب على النبى ﷺ قال : « باد وباد ما فى يديه » .

ولـما انصرف رسول الله من الفتح بلغه موت هوذة وقيل إن رسول الله قال : أما إن اليمامة سيظهر بها كذاب يتنبأ يقتل بعدى ، وكان سن هوذة ١٥٠ سنة .

---

(١) اليمامة : بلاد بالمشرق كثيرة النخيل على نحو ست عشرة مرحلة من مكة ، وهوذة رئيس قبيلة مسيحية وهى بنو حنيفة باليمامة ، وسليط بن عمرو الذى أرسله النبى صلى الله عليه وسلم كان ممن أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة .

٧ - كتاب رسول الله ﷺ
إلى المنذر بن ساوى التميمى

كان المنذر بالبحرين . بعث النبي صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه ومعه كتاب يدعوه إلى الإسلام وهو :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أما بعد . فإنى أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى . وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً وإنى قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين وأسلموا إليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم . وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته ، فعليه الجزية) .

وهذا جواب كتاب أرسله المنذر جواباً لكتاب أرسله صلى الله عليه وسلم إليه قبل ذلك يدعوه إلى الإسلام فأسلم وحسن إسلامه . ولم يعرف نص الكتاب الأول ولا حامله والظاهر أنه العلاء . وكتاب رسول الله الثانى يمنح الحرية لمن لا يريد الدخول فى الإسلام على شرط دفع الجزية ، وكان أهل البحرين إما مجوساً أو يهودا فلما عرض عليهم المنذر الإسلام دخل فيه من أحب ومنهم من كرهه وبقى على دينه .

وذكر الطبرى ، أن المنذر بن ساوى مات بالقرب من وفاته صلى الله عليه وسلم وقدم عليه عمرو بن العاص وحضر وفاته . وجاء فى أسد الغابة فى ترجمة نافع أبى سليمان مولى المنذر أن المنذر سار من البحرين حتى وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا فى الطبرانى وابن قانع .

٨ - كتاب رسول الله ﷺ
إلى ملكى عُمَان

عُمَان - بضم العين وتخفيف الميم - ، بلدة باليمن على ساحل بحر اليمن والهند فى شرقى هجر . أما عَمّان بفتح العين وتشديد الميم فبلدة بالشام . والمراد هنا البلدة الأولى .

بعث رسول الله بكتابه مع عمرو بن العاص إلى جَيْفر وعبد ابنى الجلندى وهذا نصه :

(أما بعد . فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام . أسلما تسلما . فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين . وإنكما إن أقررتما بالإسلام ، وليتكما . وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام ، فإن ملككما

زائل عنكما وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما) .

وكتب الكتاب ، أبى بن كعب وختمه صلى الله عليه وسلم وكان جيفر أكبر سنا من عبد ومقدما عليه فى الملك إلا أن عبداً كان أسهل خلقاً وألين عريكة . فقابل عمرو جيفر وسلمه كتاب رسول الله فقرأه وقرأه أخوه وسأله من الإسلام وأسلما وأسلم معهما خلق كثير ووضعت الجزية على من لم يسلم .

نتيجة إرسال الرسل
إلى الملوك والأمراء

ذكرنا الكتب التى أرسلها رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة ولا شك أن فى ذلك قوة عجيبة وشجاعة عظيمة لأن رسول الله وإن كان قد عقد الصلح مع مكة لكنه لم يكن قد تم له فتحها ولم يسلم أهلها وهذه الكتب ليس من السهل إرسالها إلى هؤلاء ولا سيما إلى هرقل وكسرى والمقوقس يدعوهم فيها إلى الإسلام ولو كان غير رسول الله لخشى عاقبة ذلك فإن هؤلاء ملوك أقوياء على تخوم بلاده ولكان إرساله الرسل سابقاً لأوانه . إلا أن رسول الله لما كان واثقاً من قوة رسالته ونصر الله سبحانه وتعالى أقدم على إرسال رسله بقلب ثابت وعزم صادق فكانت النتيجة ما يأتى :

١ ـ أنه ﷺ تمكن من معرفة سياسة هؤلاء الملوك والأمراء نحوه وميلهم إليه فكانت هذه الكتب بمثابة جس نبضهم .

٢ ـ إسلام « باذان » أمير اليمن ومن معه .

٣ ـ أن المقوقس وإن كان لم يسلم إلا أنه أظهر الود بتلطفه مع رسول الله ﷺ وإرساله الهدايا .

٤ ـ إسلام النجاشى على ما هو مشهور فى كتب التاريخ وإن كان لم يستطع حمل شعبه على الإسلام .

٥ ـ إسلام المنذر بن ساوى التميمى صاحب البحرين .

٦ ـ إسلام ملكى عُمان وإسلام خلق كثير معهما .

نقول لا شك أن الإسلام قد ربح بإرسال الرسل إلى هؤلاء الملوك والأمراء وعلا شأنه وصارت له مكانة دينية وسياسية بين الدول وذلك قبل فتح مكة .

غزوة خيبر[1]

محرم سنة ٧ هـ - أغسطس سنة ٦٢٨ م

خيبر واحة كبيرة على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام (والبريد اثنا عشر ميلا عربيًّا فتكون المسافة كلها ٩٦ ميلا عربيا) .

وسكان خيبر يهود . وهى ذات حصون ومزارع ونخل كثير ، وكان سكانها غير مجتمعين فى صعيد واحد بل كانوا متفرقين فى الوديان المجاورة ويقطنون بيوتاً حصينة وسط النخيل وحقول القمح . وكانت خيبر مركزاً لدسائس اليهود الذين هاجروا إليها .

حصون خيبر

حصون خيبر الأساسية ثلاثة . وكل منها مؤلف من عدة حصون وهى كالآتى :

(١) حصون النطاة وهى أربعة : (الناعم - الصعب - الكتيبة - بقلة) .

(٢) حصون الشق ، اثنان : (حصن أبىّ - وحصن البرى) .

(٣) حصون الكتيبة وهى ثلاثة : (حصن القموص - الوطيح - سلالم) .

قال القزوينى . وخيبر موصوفة بكثرة الحمى لا تفارق الحمى أهلها وكان أهلها يهود موصوفين بالمكر والخبث ومنها كان السموأل بن عادياء المشهور بالوفاء .

كان يهود خيبر رجالًا محاربين ولهم عدة حصون منيعة وهى سبعة ذكرناها آنفا . وقد كانوا عدا ذلك أهل مكر وخداع ، فأراد رسول الله التخلص من جوارهم كما تخلص من يهود المدينة الذين لجأ بعضهم إلى خيبر .

وكانت غزوة خيبر سنة سبع من الهجرة (أغسطس سنة ٦٢٨م) وذلك أن رسول الله ﷺ لما عاد من الحديبية أقام بالمدينة ذا الحجة وبعض المحرم من السنة السابعة وولى تلك الحجة المشركون ثم خرج فى بقية المحرم إلى خيبر وكان معه ١٦٠٠ مسلحين تسليحاً حسنا منهم ٢٠٠ فارس ، ويلاحظ أن عدد الفرسان فى هذه الغزوة قد ازداد لأنهم لم يكونوا فى الغزوات السابقة يجاوزون الثلاثين وذلك بفضل عناية رسول الله بتربية الخيل . وخرج معه من نسائه أم سلمة رضى الله عنها وهى التى كانت خرجت معه إلى الحديبية واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى واستنفر ﷺ من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه وجاء المخلفون عنه فى غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة ،

---

(١) معنى خيبر باللغة العبرية الحصن أو القلعة .

فقال لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد فأما الغنيمة فلا (لأن الغرض الأساسى هو الجهاد لا الغنيمة)، وكان الله قد وعد رسوله صلى الله عليه وسلم عند انصرافه من الحديبية فى سورة الفتح بمغانم كثيرة بقوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ .

وفى البخارى عن أنس رضى الله عنه : « أن النبى ﷺ أتى خيبر ليلا فنام هو وأصحابه دونها ، ثم ركبوا إليها بكرة فصبحوها بالقتال » وفى رواية لابن إسحاق أنه ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه قفوا ثم قال :

« اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها . ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها أقدموا بسم الله » وسار الجيش أربعة أيام إلى أن وصلوا خيبر .

فلما أصبح خرجت اليهود إلى زروعهم بمساحيهم ومكاتلهم . ودفع رايته العقاب إلى الحباب بن المنذر ، ودفع راية لسعد بن عبادة ، ونزل بواد يقال له الرجيع بينهم وبين غطفان لئلا يمدوهم ، وكانوا حلفاءهم ومُظاهرين لهم على رسول الله ﷺ وإن غطفان تجهزوا وقصدوا خيبر ، فسمعوا حساً خلفهم فظنوا أن المسلمين خلفوهم فى ذراريهم فرجعوا وأقاموا وخذلوا أهل خيبر . وكان أهل خيبر ١٠٫٠٠٠ مقاتل .

وكان يهود خيبر أدخلوا أموالهم وعيالهم فى حصن الكتيبة ، وجمعوا المقاتلة فى حصن النطاة . وكان النبى ﷺ نزل قريبا من حصن النطاة فأشار عليه ﷺ الحباب بن المنذر بالتحول قائلا إن أهل النطاة لى بهم معرفة ليس قوم أبعد مدى منهم ولا أعدل رمية منهم وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم ولا نأمن من بياتهم يدخلون فى حمر النخل[1] فتحول رسول ﷺ وتحول الناس إلى موضع حائل بين أهل خيبر وغطفان[2] وابتنى هناك مسجدا صلى به طول مقامه بخيبر وأمر بقطع نخيل أهل حصون النطاة فوقع المسلمون فى قطعها حتى قطعوا ٤٠٠ نخلة ثم نهاهم عن القطع ، فما قطع من نخيل خيبر غيرها ، وقاتل ﷺ يومه ذلك أشد القتال وعليه درعان وبيضة ومغفر وهو على فرس يقال له الظرب فى يده قناة وترس وفى ذلك اليوم قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة برحى ألقيت عليه من حصن ناعم ، ألقاها عليه مرحب اليهودى وكان الحر فى ذلك اليوم شديداً ومكث ﷺ سبعة أيام يقاتل أهل حصن النطاة يذهب كل يوم بمحمد بن مسلمة للقتال ويخلف على محل العسكر عثمان بن عفان رضى الله عنه فإذا أمسى رجع إلى ذلك المحل ومن جرح من المسلمين يحمل إليه ليداوى جرحه . وكان اليهود كعادتهم يحاربون أمام الحصون لأنهم يخشون الحرب فى الميدان فإذا انهزموا عادوا إلى حصونهم وأغلقوها دونهم .

ولما كانت الليلة السادسة أتى رجل من يهود خيبر فى جوف الليل إلى النبى ﷺ وأخبره أنه خرج من حصن

---

(١) أى النخل المجتمع بعضه على بعض . (٢) وكانوا ٤٠٠٠ وسيدهم عيينة بن حصن إلا أن غطفان رجعوا وتركوا أهل خيبر .

النطاة من عند قوم يتسللون من الحصن فى هذه الليلة ويذهبون إلى حصن الشق يجعلون فيه ذراريهم ويتهيأون للقتال وأخبره أن فى حصن الصعب من حصون النطاة ، فى بيت فيه تحت الأرض منجنيقاً ودبابات ودروعاً وسيوفاً فإذا دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقفه على أسراره .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تأخذه الشقيقة[1] فى بعض تلك الأيام فيبعث أناسا من أصحابه فلم يكن فتح ومنهم أبو بكر وعمر بن الخطاب .

ثم قال ﷺ لمحمد بن مسلمة لأعطين الراية غداً لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . لا يولى الدبر يفتح الله عز وجل على يديه فيمكنه من قاتل أخيك .

وفى الغد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علىّ رضى الله عنه ، وكان أرمد شديد الرمد ، فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عصب عينيه فعقد له لواءه الأبيض وتفل فى عينيه ودلكهما فبرأ حتى كأن لم يكن بهما وجع . وقال علىّ رضى الله عنه فما رمدت بعد يومئذ . ثم دعا النبى صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه بقوله : « اللهم اكفه الحر والبرد » قال على رضى الله عنه فما وجدت بعد ذلك لا حرًّا ولا برداً . فكان يلبس فى الحر الشديد القباء المحشو الثخين ويلبس فى البرد الشديد الثوب الخفيف فلا يبالى بالبرد .

فلما أخذ علىّ الراية قال : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام . فإن لم يطيعوا لك بذلك فقاتلهم فو الله لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم .

فخرج على رضى الله عنه حتى ركز الراية تحت الحصن ثم خرج إليه أهل الحصن ، وكان أول من خرج إليه منهم الحارث أخو مرحب وكان مشهوراً بالشجاعة فقتله علىّ وانهزم اليهود إلى الحصن (وهو حصن ناعم) ثم خرج إليه مرحب لابساً درعين ومتقلداً سيفين ومعتماً بعمامتين ، ولبس فوقهما مغفراً وحجراً قد ثقبه قدر البيضة ، ومعه رمح فبرز له على رضى الله عنه ، ثم حمل مرحب على علىّ وضربه فطرح ترسه من يده فتناول علىّ رضى الله عنه باباً كان عند الحصن فتترس به عن نفسه فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه الحصن ثم إن علياً ضرب مرحباً فتترس فوقع السيف على الترس فقده وشق المغفر والحجر الذى تحته والعمامتين وفلق هامته حتى أخذ السيف بالأضراس .

وقيل إن محمد بن مسلمة هو الذى قتل مرحباً اليهودى انتقاماً لأخيه محمود ، والصحيح الذى عليه أكثر أهل السير والحديث أن علىّ بن أبى طالب هو الذى قتل مرحباً .

ثم خرج ياسر أخو مرحب يطلب البراز وكان أيضاً من مشاهير فرسان اليهود وشجعانهم فخرج إليه الزبير

---

(١) وجع يأخذ نصف الوجه والرأس .

رضى الله عنه وقتله ، وعند ذلك قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « فداك عم وخال ، لكل نبىّ حوارىّ وحوارىّ الزبير[1] » .

وكان أول حصن فتحه المسلمون هو حصن الناعم من حصون النطاة على يد علىّ رضى الله عنه ، ثم القموص . ولم يزل القتال ناشباً بين المسلمين واليهود ، والمسلمون يفتحون حصونهم حصناً بعد حصن حتى أتموا فتحها جميعاً .

وقتل من اليهود ٩٣ واستشهد من المسلمين ١٥ رجلا[2] وأخذ رسول الله ﷺ كنز آل أبى الحقيق وكان من بنى النضير الذى حمله حيى بن أحطب لما أجلى عن المدينة ، وأمر رسول الله بقتل كنانة وأخيه الربيع لأنهما أخفيا مال حيى وقد علم رسول الله بمكان المال وأتى إليه به وقوّم بعشرة آلاف دينار ، ووجد فى الكنز أساور ودمالج وخلاخيل وأقرطة وخواتيم وعقود الجوهر والزمرد وعقود أظفار مجزع بالذهب ، وأصاب المسلمين مجاعة قبل فتح الحصون ، فلما فتح حصن الصعب ، وكان أكثر الحصون طعاما ، فيه شعير وتمر وودَك أى سمن وزيت وشحم ومتاع وماشية وكان به ٥٠٠ مقاتل أمر النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يأكلوا ويعلفوا ولا يخرجوا به إلى بلادهم ، وكان صاحب الغنائم أبا اليسر كعب بن زائد الأنصارى .

فتحت الحصون كلها عنوة إلا حصن الوطيح وحصن سُلالم فقد مكث المسلمون على حصارهما أربعة عشر يوماً فلم يخرج أحد منهم فهمّ رسول الله أن يحمل عليهم وأن ينصب عليهم المنجنيق فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله الصلح على حقن دماء المقاتلة وترك الذرية والخروج من خيبر وأرضها بذراريهم وألا يصحب أحد منهم إلا ثوباً واحداً فصالحهم على ذلك وعلى أن ذمة الله تعالى ورسوله بريئة منهم إن كتموه شيئاً . فتركوا مالهم من أرض ومال وصفراء وبيضاء والكراع والحلقة والبز إلا ثوباً واحداً . ووجد المسلمون فى الحصنين المذكورين ١٠٠ درع و ٤٠٠ سيف و ١٠٠٠ رمح و ٥٠٠ قوس عربية بجعابها ووجدوا فى أثناء الغنيمة صحائف متعددة من التوراة فجاءت يهود تطلبها فأمر رسول الله ﷺ بدفعها إليهم وبهذه المناسبة نذكر ما كتبه الأستاذ ولفنسون فى كتابه تاريخ اليهود ببلاد العرب صفحة ١٧٠ :

« ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف فى نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إلى النبىّ بالبنان ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة ويذكرون بإزاء ذلك مافعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ب م إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم وما فعله المتعصبون من النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة . هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام » اهـ .

---

(١) الحوارى : الناصر . (٢) عدد قتلى المسلمين فى طبقات ابن سعد ١٥ وفى سيرة ابن هشام ٢٠ .

ونضيف إلى ذلك أن هذه ليست أول مرة تسامح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك فيها صحائف اليهود المقدسة ولم يتعرض لها بسوء ولم يحقرها مع شدة عداوتهم له فقد سمح لهم قبل ذلك بأخذ صحفهم المقدسة المشتملة على وصية موسى لبنى إسرائيل عند إجلائهم من المدينة فى غزوة بنى النضير كما تقدم .

ثم جمع رسول الله ﷺ السبى فكان من نصيب دحية بن خليفة الكلبى صفية بنت حيى وكانت امرأة حسناء فتنافس الناس فيها فجاء رجل إلى النبى ﷺ وقال يانبى الله أعطيت دحية صفية سيدة بنى قريظة والنضير لا تصلح إلا لك . فقال ادعوه بها فلما نظر إليها النبى ﷺ قال لدحية خذ جارية من السبى غيرها فأخذ أخت كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق زوج صفية وكانت صفية بنت حيى من سبط هارون أخى موسى عليهما السلام فاصطفاها لنفسه وجعلها عند أم سليم التى هى أم أنس خادمه ﷺ حتى اهتدت وأسلمت وكانت غاية فى الجمال ثم أعتقها وتزوج بها وجعل عتقها صداقها وكان اسمها زينب فسماها رسول الله (صفية) وكان عمرها ١٧ عاماً . وفى المواهب أنه ﷺ أخذ صفية لأنها بنت ملك من ملوكهم .

وفى هذه الغزوة سمت اليهودية الشاة للنبى ﷺ وأهدتها إليه ، واسمها زينب بنت الحارث امرأة سلام ابن مشكم وأخت مرحب انتقاماً لقتل أبيها وزوجها وأخيها .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما فتحت خيبر واطمأن ﷺ بعد فتحها أهديت للنبى صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم فلاك منها مضغة ثم لفظها حين أخبره العظم أنها مسمومة وازدرد بشر بن البراء لقمة فقال ﷺ ارفعوا أيديكم ، وأرسل إلى اليهودية فقال هل سممت هذه الشاة ؟ فقالت من أخبرك ؟ قال أخبرتنى هذه التى فى يدى مشيراً للذراع . قالت نعم . قال لها ما حملك على ذلك ؟ قالت إن كنت نبيًّا يطلعك الله وإن كنت كاذباً فأريح الناس منك . وقد استبان لى أنك صادق وأنا أشهدك ومن حضرك أنى عَلَى دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فعفا عنها ﷺ ولم يعاقبها[1] وتوفى من أصحابه الذين أكلوا معه بشر بن البراء رضى الله عنه واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله من أجل الذى أكل من الشاة .

وبعد فتح خيبر قدم من الحبشة جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ومن معه من المسلمين وهم ستة عشر رجلا فتلقى النبى ﷺ جعفراً وقبَّل جبهته وعانقه وقام له ثم قال . « ما أدرى بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » وقال ﷺ لجعفر رضى الله عنه «أشبهت خَلْقِى وخُلُقِى » فرقص جعفر رضى الله عنه لسروره بهذا الخطاب ولفرط ما أصابه من الفرح لم ينكر عليه ﷺ رقصه ، وجعل ذلك أصلا لرقص الصوفية عندما يجدون من لذة المواجيد

---

(١) اختلف العلماء هل قتلها النبى صلى الله عليه وسلم أولا ؟ قال القاضى عياض : إنه لم يقتلها أولا حين اطلع على فعلها ، وقيل له اقتلها ، فقال لا . فلما مات بشر بن البراء من ذلك سلمها لأوليائه فقتلوها قصاصاً . فالعفو عنها كان قبل أن يموت بشر .

فى مجالس الذكر والسماع وقدم من الحبشة أبو موسى الأشعرى وأخواه أبو رهم وأبو بردة وجماعة من قومه فأسهم لهم ولم يسهم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا لمن شهدها معه .

وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر فأعطى الراجل سهماً والفارس ثلاثة أسهم بعد أن خمسها خمسة أجزاء ثم دفع ﷺ لأهل خيبر الأرض ليعملوا فيها بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع وقال لهم إنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم . ثم استمروا عَلَى ذلك إلى خلافة عمر رضى الله عنه إلى أن وقعت منهم خيانة وغدر لبعض المسلمين فأجلاهم إلى الشام بعد أن استشار فى ذلك الصحابة رضى الله عنهم .

ولما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر فكان ببعض الطريق فلما كان آخر الليل قال : هل من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام ؟ قال بلال أنا يارسول الله أحفظه عليك فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل الناس فناموا وقام بلال يصلى ماشاء الله أن يصلى ثم استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمقه فغلبته عينه فنام فلم يوقظهم إلا مس الشمس وكان رسول الله ﷺ أول أصحابه هبا . فقال ماذا صنعت بنا يابلال ؟ قال يارسول الله أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك . قال صدقت ، ثم اقتاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيره غير كثير ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس ثم أمر بلالا فأقام الصلاة فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس فلما سلم أقبل على الناس فقال : إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها فإن الله تبارك وتعالى يقول : « وأقم الصلاة لذكرى » . وكان فتح خيبر فى صفر .

تحريم لحوم الحمر الأهلية(١)

نهى رسول الله ﷺ فى خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية فإنهم أصابهم جوع فوجدوا ثلاثين حماراً خرجت من بعض الحصون فأخذها رهط من المسلمين وذبحوها وجعلوا لحومها فى القدور والبرام وجعلوا يطبخونها للأكل فمر بهم النبى ﷺ فسألهم عما فى القدور والبرام . قالوا لحوم الحمر الإنسية أى المخالطة للإنس فنهاهم ﷺ عن أكلها حتى إن القدور أكفئت وهى تفور وروى البخارى مثل ذلك وأمرهم بغسل القدور .

إصابة الصحابة بالحمى فى خيبر

لما قدم رسول الله خيبر ، كان التمر أخضر فأكثر الصحابة من أكله . فأصابتهم الحمى . فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ . فقال بردوا لها الماء فى الشنان (أى القرب) ثم صبوا عليكم منه بين أذانى الفجر واذكروا اسم الله عليه ، ففعلوا فذهبت عنهم الحمى .

---

(١) الحمر بضمتين : جمع حمار .

هذا ماصاب الصحابة من أكل التمر الأخضر . وفى مصر يباع التمر الأخضر قبل نضج البلح فيمرض آكلوه بالحمى ولا سيما الأطفال فيجب على الحكومة تحريم بيعه بتاتاً قبل نضجه فإنه عسر الهضم

صلح أهل فدك

فَدَك بلدة يهودية بالقرب من خيبر ـ لما علم أهلها بانهزام خيبر خافوا فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك فقدمت عليه رسلهم فقبل ذلك منهم فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب يصرف مايأتيه منها على أبناء السبيل فكان ينفق منها ويعود منها على صغير بنى هاشم ويزوج منها أيمهم . ولما مات رسول الله وولى أبو بكر الخلافة ، سألته فاطمة رضى الله عنها أن يجعلها أو نصفها لها فأبى وروى لها أنه ﷺ قال : « إنا معاشر الأنبياء لانورث ، ماتركناه صدقة » أى على المسلمين .

غزوة وادى القرى

وادى القُرى ، وادٍ بين الشام والمدينة وهو بين تيماء وخيبر ، فيه قرى كثيرة وبها سمى « وادى القرى » نزلها اليهود وزُرعوها .

لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر نزل وادى القرى أصيلا مع الغروب وأهله يهود فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا فحاصرهم ﷺ أربعة أيام وهيأ أصحابه للقتال فقتل منهم أحد عشر رجلا وفتحها رسول الله عنوة وغنمه الله أموالهم وأصاب المسلمون أثاثاً ومتاعا كثيراً وقسم رسول الله ماأصابه على أصحابه وترك الأرض والنخل بأيدى اليهود وعاملهم عليها وولاها عمرو بن سعيد بن العاص وصالحه أهل تيماء على الجزية لما بلغهم فتح وادى القرى وولاها ﷺ يزيد بن أبى سفيان . وكان إسلامه يوم فتحها . وتيماء بلدة معروفة بين المدينة والشام على سبع مراحل من المدينة ثم رجع إلى المدينة بعد أن بسط نفوذه على القبائل اليهودية شمالىّ المدينة .

قال مستر موير : إن غزوة وادى القرى كانت فى جمادى الثانية سنة سبع (سبتمبر سنة ٦٢٨ م) لأنه أرّخ الزحف على خيبر بشهر جمادى الأولى (أغسطس سنة ٦٢٨ م) .

ويجعل بعضهم غزوة خيبر وغزوة وادى القرى غزوة واحدة لأنه لم يرجع من خيبر .

خمس سرايا

فى خريف وشتاء السنة السابعة الهجرية

(سنة ٦٢٨ م)

بعد عودة رسول الله ﷺ من خيبر قضى بقية الخريف والشتاء فى المدينة وفى هذه الأثناء بعث خمس سرايا منها ثلاث فى شهر شعبان :

١ ـ سرية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومعه ثلاثون رجلا إلى قبيلة بنى هوازن بجهة تُرَبة ، دار بقرب مكة فلما علموا بمجيئه هربوا فانصرف راجعاً إلى المدينة .

٢ ـ سرية أبى بكر الصديق رضى الله عنه إلى بنى كلاب ، قبيلة بنجد فسبى منهم جماعة وقتل آخرين .

٣ ـ سرية بشير بن سعد الأنصارى إلى بنى مرة بفدك ومعه ثلاثون رجلا . فلما وصلوا إلى محل القوم لقوا رعاء الشاء فاستاق بشير النعم والشاء وانحدر إلى المدينة ثم أدركه العدد الكثير من بنى مرة عند الليل فباتوا يرمونه بالنبل حتى فنيت نبل أصحابه فأصيبوا وولى من ولى وجرح بشير وعاد إلى المدينة بصعوبة .

٤ ـ وفى رمضان كانت سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى أهل المنيعة بناحية نجد على ثمانية برد من المدينة فى مائة وثلاثين راجلا فهجموا عليهم فى وسط محالهم وقتلوا كثيراً منهم واستاقوا نعما وشاء إلى المدينة وفى هذه السرية قتل أسامة بن زيد رجلا يقال له نهيك بن مرداس الأسلمى وفى رواية أن اسمه مرداس بن نهيك بعد أن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله . فقال رسول الله ﷺ يا أسامة من لك بلا إله إلا الله فقال يا رسول الله إنما قالها تعوذا من القتل . قال : (هل شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟) فقال أسامة لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إله إلا الله .

٥ ـ وفى شوال أرسل بشير بن سعد أيضا إلى يُمن وجِناب وهى أرض لغطفان ومعه ثلاثمائة رجل لجمع تجمعوا بأرض غطفان وأعدهم عيينة بن حصن للإغارة على المدينة فلما بلغهم مسير بشير هربوا وأصاب لهم نعما كثيرة فغنمها .

قال الواقدى وفى هذه السنة (السابعة) رد رسول الله ﷺ زينب ابنته على أبى العاص بن الربيع وذلك فى المحرم (أسر أبو العاص يوم بدر فمن عليه رسول الله ﷺ بلا فداء بسبب زوجته زينب بنت رسول الله ﷺ ورد عليه رسول الله زينب بنكاح جديد وقيل بالنكاح الأول وأسلم قبيل فتح مكة) .

قال وفيها قدم حاطب بن أبى بلتعة من المقوقس بمارية وأختها سيرين وبغلته دلدل وحماره يعفور وكساء وبعث معهما بخصى فكان معهما . وفى هذه السنة اتخذ النبى ﷺ منبره الذى كان يخطب الناس عليه واتخذ له درجتين ومقعداً . وفى الطبرى أنه عمل سنة ثمان .

عمرة القضاء[1]

(أو عُمرة القضية)

ذو القعدة سنة ٧ هـ - فبراير سنة ٦٢٩ م

قد اختلف فى سبب تسمية هذه العمرة عمرة القضاء . فقال مالك والشافعى والجمهور لأنه قاضى قريشاً سنة الحديبية فالمراد بالقضاء الفصل الذى وقع عليه الحكم لا لأنها قضاء عن العمرة التى صد عنها لأنها لم تكن فسدت حتى يجب قضاؤها بل كانت عمرة تامة . وقال أبو حنيفة وأحمد إن من صد عن البيت فعليه القضاء فتسميتها قضاء على هذا ظاهرة (وهذه العمرة ليست من الغزوات) .

لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خيبر أقام بها شهرى ربيع وجمادين . ورجب . وشعبان . وشوالا . ثم خرج فى ذى القعدة فى السنة السابعة (فبراير سنة ٦٢٩ م) فى الشهر الذى صده فيه المشركون بالحديبية معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته التى صدوه عنها واستعمل على المدينة عويف بن الأضبط الديلى ويقال لها عمرة القصاص لأنهم صدوا رسول الله ﷺ فى ذى القعدة فى الشهر الحرام من سنة ست فاقتص رسول الله ﷺ منهم وأمر ألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية وخرج معهم غيرهم أيضاً فكانوا ألفين سوى النساء والصبيان وساق معه ﷺ ستين بدنة وحمل السلاح والدروع والرماح وقاد مائة فارس خوفاً من غدر أهل مكة فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه وتحدثت قريش بينها أن محمداً وأصحابه فى عسر وجهد وشدة فصفوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه . فلما دخل رسول الله ﷺ اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى[2] ثم قال رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واره البيت منهم واستلم الركن اليمانى مشى حتى يستلم الركن الأسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف والمسلمون يطوفون معه . وكان بين يديه لما دخل مكة عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقته . وكان المشركون على جبل قيقعان ثم سعى رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته وبعد فراغه نحر هديه عند المروة وحلق رأسه هناك ثم أمر مائتين من أصحابه أن يذهبوا إلى أصحابه ببطن يأجج (موضع على ثمانية أميال من مكة) يقيمون على السلاح ويأتى الآخرون ليقضوا نسكهم ففعلوا وأقام ﷺ بمكة

---

(١) معنى العمرة فى العمل : الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة فقط ، والفرق بين الحج والعمرة ، أن العمرة تكون للانسان فى السنة كلها والحج وقت واحد فى السنة . ولا يجوز أن يحرم به إلا فى أشهر الحج ، شوال وذى القعدة ، وعشر فى ذى الحجة . وتمام العمرة أن يطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة ، والحج لا يكون إلا مع الوقوف بعرفة فى يوم عرفة . والعمرة مأخوذة من الاعتمار وهو الزيارة .

(٢) الاضطباع الذى يؤمر به طائف البيت أن يدخل الرداء تحت إبطه الأيمن ويرد طرفه على يساره ويبدى منكبه الأيمن ويغطى الأيسر . سمى بذلك لإبداء أحد الضبعين .

ثلاثاً كما شرطته قريش فى المدنة فلما كان الظهر من اليوم الرابع جاءه سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى فقالا : ننشدك العهد إلا ما خرجت من أرضنا فرد عليهما سعد بن عبادة رضى الله عنه فأسكته صلى الله عليه وسلم وأذن بالرحيل .

جاء فى البخارى من حديث البراء فلما دخلها[1] ومضى الأجل[2] أتوا علياً رضى الله عنه فقالوا قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل فخرج رسول الله ﷺ .

زواج رسول الله ﷺ

بميمونة رضى الله عنها

تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث الهلالية سنة سبع فى عمرة القضاء وكان اسمها برة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة وهى أخت أم الفضل زوج العباس رضى الله عنهما وأخت أسماء بنت عميس لأمها زوج حمزة رضى الله عنه . وكان الذى زوجه إياها العباس بن عبد المطلب وأصدقها عنه صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار وأراد صلى الله عليه وسلم أن يبنى بها فى مكة فلم يمهلوه يبنى بها وقال لهم ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم فصنعت لكم طعاماً ؟ فقالوا لا حاجة لنا فى طعامك اخرج عنا من أرضنا . هذه الثلاثة قد مضت فخرج فبنى بها بسرف قرب مكة . ولقيت ميمونة رضى الله عنها من سفهاء مكة عناء ، فعن أبى رافع رضى الله عنه لقينا عناء من أهل مكة من سفهاء المشركين من أذى ألسنتهم للنبى ﷺ ولميمونة . فقلت لهم : ما شئتم ، هذه والله الخيل والسلاح ببطن يأجج وأنتم تريدون نقض العهد والمدة فولوا راجعين منكسين ، وميمونة هى آخر امرأة تزوجها رسول الله وآخر من توفى من أزواجه ، قال إيرفنج فى كتابه حياة محمد « إن النبى لم يتزوج بميمونة بنت الحارث إلا سياسة يريد بها استمالة رجلين قويين لأن ميمونة كانت أرملة مسنة تبلغ من العمر إحدى وخمسين سنة وهذان الرجلان هما خالد بن الوليد ابن أخت ميمونة وهو البطل المشهور الذى حارب محمداً صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد ولما أسلم سمى سيف الله وصديقه عمرو بن العاص » .

وهذا ما قلناه فى سبب تعدد زوجات النبى صلى الله عليه وسلم فإن خالد بن الوليد أسلم بعد زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بخالته ميمونة بقليل وأسلم معه فى يوم واحد عمرو بن العاص . وميمونة رضى الله عنها آخر زوجاته صلى الله عليه وسلم .

---

(١) يعنى مكة . (٢) الأيام الثلاثة .

ما قبل سرية مؤتة

من الحوادث

فى خلال الصيف أعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة سرايا قبل غزوة مؤتة وهى :

١ - سرية الأخرم : فى ذى الحجة سنة سبع (إبريل سنة ٦٢٩ م) فى خمسين رجلا إلى بنى سليم . خرج الأخرم يدعوهم إلى الإسلام فعلموا بخروجه فأمطروا المسلمين وابلا من النبل وأحاطوا بهم من كل ناحية حتى قتل عامتهم وجرح أميرهم ثم تحامل حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى أول صفر .

٢ - سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى الملوح بالكديد[1] فى صفر سنة ثمان (يونية سنة ٦٢٩ م) خرج المسلمون حتى إذا كانوا بقديد لقوا الحارث بن مالك الليثى المعروف بابن البرصاء وهى أمه فأخذوه . فقال إنه جاء يريد الإسلام ولكنهم أوثقوه وخلفوا عليه رجلا وشنوا عليهم الغارة واستاقوا النعم وحملوا ابن البرصاء وعادوا إلى المدينة وأسلم ابن البرصاء وتوفى آخر خلافة معاوية رضى الله عنه وله حديث واحد وهو قوله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الفتح « لا تغزى مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة » .

٣ - سرية أخرى لغالب بن عبد الله الليثى : لما رجع غالب بن عبد الله الليثى من سريته الأولى بعثه رسول الله ﷺ إلى موضع مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك (وقد تقدم ذكر سرية بشير التى جرح فيها) ومعه ٢٠٠ رجل وذلك فى شهر صفر سنة ثمان . وقد نجحت هذه السرية نجاحاً تاما فقد قاتل المسلمون ساعة ووضعوا السيف وقتلوا منهم قتلى وأصابوا منهم نعما وشاء وذرية فساقوها وعادوا إلى المدينة .

٤ - سرية شجاع بن وهب الأسدى إلى جمع من هوازن يقال لهم بنو عامر بالسيء[2] فى شهر ربيع الأول سنة ثمان (يوليه سنة ٦٢٩ م) ومعه أربعة وعشرون رجلا فأصابوا نعما كثيرة وشاء واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة وكانت غيبتهم خمس عشرة ليلة .

٥ - سرية كعب بن عمير الغفارى إلى ذات أطلاح من أرض الشام وراء ذات القرى فى ربيع الأول سنة ثمان فى خمسة عشر رجلا فوجدوا جمعاً كثيراً فجاءوا على الخيل فدعاهم المسلمون إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل فقاتلهم الصحابة أشد القتال حتى قتلوا ولم ينج منهم غير رجل جريح فى القتلى . قال ابن سعد : هو الأمير . فلما برد عليه الليل تحامل حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر فشق عليه ذلك وهم بالبعث عليهم لكن بلغه أنهم ساروا إلى موضع آخر فتركهم .

---

(١) ماء بين عسفان وقديد . (٢) ماء من خلف عرق على ثلاثة مراحل من مكة .

إسلام عمرو بن العاص

سنة ٨ هـ (سنة ٦٢٩ - ٦٣٠ م)

عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى السهمى يكنى أبا عبد الله وقيل أبا محمد ؛ وأمه النابغة بنت حرملة ، سبية من بنى جلان بن عتيك بن أسلم ابن يذكر بن عترة وأخوه لأمه عمرو بن أثاثة العدوى وعقبة بن نافع بن عبد قيس الفهرى .

سأل رجل عمرو بن العاص عن أمه فقال سلمى بنت حرملة تلقب النابغة من بنى عترة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكه بن المغيرة ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت له فأنجبت فإن كان جعل لك شىء فخذه . وهو الذى أرسلته قريش إلى النجاشى ليسلم إليهم من عنده من المسلمين ، جعفر بن أبى طالب ومن معه فلم يفعل وقال له يا عمرو كيف يعزب عنك أمر ابن عمك فو الله إنه لرسول الله حقاً . قال أنت تقول ذلك ؟ إى والله فأطعنى : فخرج من عنده مهاجراً إلى النبى ﷺ فأسلم عام خيبر وقيل أسلم عند النجاشى وهاجر إلى النبى ﷺ وقيل كان إسلامه فى صفر سنة ثمان قبل الفتح بستة أشهر وكان قد هم بالانصراف إلى النبى ﷺ من عند النجاشى ثم توقف إلى هذا الوقت وقدم على النبى ﷺ هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة العبدرى فتقدم خالد وأسلم وبايع ثم تقدم عمرو فأسلم وبايع على أن يغفر له ما كان قبله فقال له رسول الله ﷺ : الإسلام والهجرة يجبّان ما قبلهما[1] .

وحدث عمرو بن العاص رضى الله عنه عن سبب إسلامه كما رواه ابن إسحاق وغيره . قال عمرو لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيى ويسمعون منى فقلت لهم تعلمون والله أنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً وإنى لقد رأيت أمراً فما ترون فيه ؟ قالوا وماذا رأيت ؟ قال رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير . قالوا: إن هذا الرأى . قلت فاجمعوا لنا ما نهديه له وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم فجمعنا له أدماً كثيرا ثم خرجنا حتى قدمنا عليه فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمرى وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه فى شأن جعفر وأصحابه فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابى هذا عمرو بن أمية الضمرى لو قد دخلت على النجاشى لسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع فقال مرحباً بصديقى . أهديت إلى من بلادك شيئاً ؟ قلت له نعم أيها الملك قد أهديت إليك أدماً كثيرا ،

(١) يجبان : أى يقطعان ويمحوان ما قبلهما من الكفر والمعاصى والذنوب .

ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه ثم قلت له إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا ، فغضب ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره فلو انشقت لى الأرض لدخلت فيها فرقا منه ثم قلت له أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ماسألتكه . قال أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى عليه السلام لتقتله؟ قلت أيها الملك أكذاك هو؟ قال ويحك ياعمرو أطعنى واتبعه فإنه والله لعلى الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. قلت أفتبايعنى له على الإسلام؟ قال نعم فبسط يده فبايعته على الإسلام ثم خرجت إلى أصحابى وقد حال رأيى عما كان عليه وكتمت أصحابى إسلامى ثم خرجت عامدا إلى رسول الله ﷺ فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل فتح مكة وهو مقبل من مكة فقلت له أين ياأبا سليمان ؟ قال والله لقد استقام الميسم وإن الرجل لنبى أذهب والله فأسلم. فحتى متى ؟ فقلت والله ماجئت إلا لأسلم . فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت يارسول الله إنى أبايعك على أن يغفر لى ماتقدم من ذنبى ولا أذكر ماتأخر ، فقال رسول الله ﷺ ياعمرو بايع فإن الإسلام يجب ما كان قبله وإن الهجرة تجب ما كان قبلها فبايعته ثم انصرفت [1] .

روى الزبير بن بكار أن رجلا قال لعمرو بن العاص رضى الله عنه ماأبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت فى عقلك ؟ قال كنا مع قوم لهم علينا تقدم وكانوا ممن توازى أحلامهم الجبال فلذنا بهم فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا فإذا حق بين فوقع الإسلام فى قلبى .

وفى إسلام عمرو على يد النجاشى لطيفة هى أن صحابياً أسلم على يد تابعى ولا يعرف مثله .

وقد كان عمرو بن العاص رجلا سياسياً حربياً وقد نقلنا قوله من فيه عن ذهابه إلى الحبشة وسبب إسلامه ومنه يتبين أنه فكر طويلا فى انتشار الإسلام وفى مركزه فرأى أخيراً أن خير مايتخلص به من حرج مركزه هو أن يهاجر إلى الحبشة موفدا من قبل قريش يقصد قتل عمرو بن أمية الضمرى ظنا منه أن النجاشى سيسلمه إياه فقدم له الهدايا تزلفا إليه واعتمد على صداقة الملك له . وبذلك يكون قد خدم قريشا من جهة وأقام بالحبشة بعيدا عن النضال بين رسول الله وقريش حتى إذا انتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتح مكة كان هو آمنا بالحبشة لكن النجاشى لم يسلمه عمرو بن أمية الضمرى ولا غيره من المسلمين وغضب عليه وفوق ذلك عرض عليه الإسلام فلم ير بداً من مبايعة النجاشى على الإسلام لأنه رأى أن النجاشى نفسه قد أسلم اعتقاداً منه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه سيظهر على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده وفى قول عمرو دليل واضح على إسلام النجاشى .

وكان إسلام عمرو قبل الفتح فى السنة الثامنة من الهجرة (سنة ٦٢٩ ـ ٦٣٠ م) وكان يبلغ من العمر إذ ذاك

---

(١) راجع سيرة ابن هشام .

نحو اثنتين وأربعين سنة وقد اكتسب الإسلام بإسلامهمو وخالد بن الوليد قائدين عظيمين وبطلين كبيرين قاما بدور مهم فى تاريخ الفتح الإسلامى ونشر الدعوة وإعزاز الدين .

وقد روت أم سلمة زوج رسول الله ﷺ وكانت من المهاجرات إلى الحبشة تفاصيل ذات شأن عن إقامة المسلمين بها وإيفاد قريش لعبد الله بن ربيعة بن المغيرة المخزومى وعمرو بن العاص والتدابير التى دبرها عمرو والمناقشة التى حصلت بحضرة النجاشى وحضور البطارقة والقتال الذى نشب بينه وبين من نازعه بسبب اعترافه بصحة المبادئ الإسلامية مما يذكره عمرو بن العاص وهذه روايتها رضى الله عنها :

قالت : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشى أمنا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذَى ولا نسمع شيئا نكرهه . فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين جلدين وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم فجمعوا أدما كثيراً ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن ربيعة بن المغيرة المخزومى وعمرو بن العاص بن وائل السهمى وأمروهما أمرهم وقالوا لهما ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم ثم قدّما إلى النجاشى هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم . قالت فخرجا فقدما على النجاشى ونحن عنده بخير دار وعند خير جار . فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى ثم قالا لكل بطريق منهم إنه قد صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثَنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم . فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما نعم . ثم إنهما قربا هداياهما إلى النجاشى فقبلها منهما . ثم كلماه فقالا له : أيها الملك إنه صبأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثَنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ولم يكن شىء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشى كلامهم . فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلِمْهم إليهما فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم . فغضب النجاشى ثم قال لاها الله ايم الله إذاً لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوماً جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان فى أمرهم فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ماجاورونى . ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض ماتقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا نقول والله ماعلمنا وماأمرنا به نبينا ﷺ كائن فى ذلك ماهو كائن . فلما جاءوه وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال :ماهذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دين أحد من هذه الأمم ؟

فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب فقال له :

« أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، يأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل من الخبائث ما كنا نستحل ، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك ، فقال له النجاشى : هل معك مما جاء به الله من شىء ؟ فقال له جعفر . . نعم فقال له النجاشى : فاقرأه على ، فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) فبكى والله النجاشى حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ماتلا عليهم ثم قال النجاشى : إن هـذا والله والذى جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة . انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً ولا أكاد ، قالت أم سلمة : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص والله لأنبئنهم غداً بعيبهم عندهم ثم أستأصل به خضراءهم . قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانو قد خالفونا . قال والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد الله . ثم غدا عليه الغد فقال له أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه . فأرسل إليهم يسألهم عنه . قالت ولم ينزل بنا مثله فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ماقال الله وماجاء به نبينا كائنا فى ذلك ماهو كائن . فلما دخلوا عليه ، قال لهم ماتقولون فى عيسى ابن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا : « هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول » فضرب النجاشى يده إلى الأرض فأخذ منها عودا . ثم قال ماعدا عيسى بن مريم ماقلت هذا العود . فتناخرت بطارقته حوله حين قال ماقال فقال وإن نخرتم والله اذهبوا فأنتم سيوم [١] بأرضى من سبكم غرم ثم من سبكم غرم . فما أحب أن لى دبراً [٢] ذهبا وأنى آذيت رجلا منكم . ردوا عليهما هداياهم فلا حاجة لنا بها فوالله ماأخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه .

قالت فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ماجاءا به وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار . قالت فوالله إنا

(١) السيوم : الآمنون . (٢) الدبر بلسان الحبشة: الجبل .

على ذلك إذ نزل به يعنى من ينازعه فى ملكه . قالت فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك تخوفاً أن يظهر ذلك على النجاشى فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه. وسار النجاشى وبينهما عرض النيل. فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ فقال الزبير بن العوام أنا وكان أحدث القوم سناً فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ثم انطلق حتى حضرهم ، قالت ودعونا الله للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين له فى بلاده واستوثق عليه أمر الحبشة فكنا عنده فى خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة (١) .

هاتان روايتان عن ذهاب عمرو بن العاص إلى الحبشة وما جرى بينه وبين النجاشى خاصًا بالمهاجرين المسلمين الرواية الأولى عن عمرو نفسه والثانية عن أم سلمة والرواية الأولى مذكورة فى سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق والثانية فى مسند الإمام أحمد بن حنبل . ويستفاد من رواية عمرو بن العاص أنه ذهب إلى الحبشة موفداً من قريش ومعه أدم كثير ليقدمه إلى النجاشى هدية له بقصد تسليم المهاجرين كلهم أو بعضهم إليه وأنه تمكن من مقابلة النجاشى وطلب منه ذلك فغضب غضباً شديداً وأبى إجابة طلبه ورد هديته إليه لكن عمراً لم يذكر المناقشة التى حدثت أمام النجاشى بينه وبين جعفر بن أبى طالب بحضور البطارقة فى أمر عيسى بن مريم عليه السلام واقتناع النجاشى بما أجاب به جعفر رضى الله عنه . غير أن عمرو بن العاص قال إن النجاشى صافحه وأسلم . وقالت أم سلمة إنه ظهر من ينازعه فى ملكه (على أثر إقراره بما قاله جعفر طبعاً) ومما لا شك فيه أن عمرو بن العاص لم ينجح فى مهمته سواء أ كان موفداً من قبل قريش أم ذاهباً من تلقاء نفسه ليرى له مخرجاً من موقفه إزاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه بقى إلى ذلك الوقت ولم يسلم بعد أن انتشر الإسلام فى المدينة وماجاورها وقوى المسلمون وصاروا يهددون مكة فخاف إن هو بقى على حاله ولم يسلم أن يظهر الإسلام فى مكة أيضا فيذعن عند ذلك مضطرا . فلما رأى أن النجاشى لم يسلم له بشىء وأنه متمسك بمراعاة حسن جوار من عنده من المهاجرين ومصدق برسالة النبى صلى الله عليه وسلم عاد وهو موطن النفس على أن يذهب توًا إلى رسول الله ويسلم عنده وقد تم له ذلك بالفعل فأسلم هو وخالد بن الوليد .

(١) راجع الجزء الأول من مسند الإمام أحمد بن حنبل حديث جعفر بن أبى طالب .

خالد بن الوليد و إسلامه

خالد بن الوليد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو سليمان وقيل أبو الوليد القرشي المخزومي أمه لبابة الصغرى وهي بنت الحارث بن حزن الهلالية وهي أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن خالة أولاد العباس بن عبد المطلب الذين من لبابة .

وكان أحد أشراف قريش في الجاهلية وكان إليه القبة وأعنة الخيل في الجاهلية . أما القبة فكانوا يضربونها يجمعون فيها ما يجهزون الجيش . وأما الأعنة فإنه كان يكون المقدم على خيول قريش في الحرب فكان رجلا حربيًّا فارسًا .

ولما أراد الإسلام قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعمرو بن العاص وطلحة بن أبي طلحة العبدري فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لأصحابه رمتكم مكة بأفلاذ كبدها .

وقد تقدم أن ذكرنا في أمر الحديبية أن النبي ﷺ سار حتى انتهى إلى عسفان فلقيه بشر بن أبي سفيان الكعبي وقال يارسول الله هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذي طوى يحلفون بالله لاتدخلها عليهم أبداً وهذا خالد بن الوليد في خيل قريش قد قدموه إلى كراع الغميم .

قال خالد بن الوليد : لما أراد الله عزوجل بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الإسلام وحضر لي رشدي وقلت قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني في غير شيء وأن محمداً يظهر . فلما جاء لعمرة القضية تغيبت ولم أشهد دخوله فكان أخي الوليد بن الوليد دخل معه فطلبني فلم يجدني فكتب إلى كتاباً فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك ومثل الإسلام يجهله أحد ؟ قد سألني رسول الله ﷺ عنك فقال أين خالد ؟ فقلت يأتي الله به . فقال مامثله يجهل الإسلام ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيراً له ولقدمناه على غيره فاستدرك ياأخي ماقد فاتك من مواطن صالحة »

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام وسرتني مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيت في المنام كأني في بلاد ضيقة جدبة فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة . فلما أجمعت على الخروج إلى المدينة لقيت صفوان بن أمية فقلت ياأبا وهب أما ترى أن محمداً ظهر على العرب والعجم فلو قدمنا عليه واتبعناه فإن شرفه

شرف لنا ؟ فقال لو لم يكن يبق غيرى ما اتبعته أبداً . فقلت هذا رجل قتل أبوه وأخوه ببدر . فلقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان فقال مثل الذى قال صفوان . قلت فاكتم ذكر ما قلت لك ، قال لا أذكره . ثم لقيت عثمان بن طلحة الحجبى قلت هذا لى صديق فأردت أن أذكر له ثم ذكرت قتل أبيه طلحة وعمه عثمان وإخوته الأربعة مسافع والجلاس والحارث وكلاب فإنهم قتلوا كلهم يوم أحد فكرهت أن أذكر له ثم قلت له إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب فيه ذنوب من ماء لخرج . ثم قلت له ما قلت لصفوان وعكرمة فأسرع الإجابة وواعدنى إن سبقنى أقام بمحل كذا وإن سبقته إليه انتظرته . فلم يطلع الفجر حتى التقينا فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة[1] فوجدنا عمرو بن العاص بها . فقال مرحباً بالقوم . فقلنا وبك . قال أين مسيركم ؟ قلنا الدخول فى الإسلام . قال وذلك الذى أقدمنى . وفى لفظ قال عمرو لخالد يا أبا سليمان أين تريد ؟ قال والله لقد استقام الميسم[2] وإن هذا الرجل لنبى فأذهب فأسلم فحتى متى ؟ قال عمرو وأنا والله ما جئت إلا لأسلم فاصطحبنا جميعاً .

فوصلوا المدينة وقال خالد : فلبست من صالح ثيابى ثم عمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيت أخى فقال أسرع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سُرَّ بقدومكم وهو ينتظركم فأسرعنا المشى فاطلعت عليه فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة فردّ علىّ السلام بوجه طلق فقلت إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال الحمد لله الذى هداك قد كنت أرى لك عقلا رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير . قلت يارسول الله ادع الله لى يغفر تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك . فقال ﷺ : « الإسلام يجبّ ما كان قبله » وتقدم عثمان وعمرو فأسلما .

وكان عمرو بن العاص أسن منهما .

قال خالد بن الوليد : اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] فحلق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها فى هذه القلنسوة فلم أشهد قتالا وهى معى إلا تبين لى النصر . والأكثر على أنه مات بحمص سنة ٢١ وعمره بضع وأربعون سنة فى خلافة عمر بن الخطاب .

---

(١) هو اسم محل (٢) أى تبين الطريق وظهر الأمر .

(٣) لعلها عمرة الجعرانة .

سرية مؤتة

لمحاربة الروم

جمادى الأولى سنة ٨ هـ - سبتمبر سنة ٦٢٩ م

مؤتة من عمل البلقاء وهى مدينة معروفة بالشام على مرحلتين من بيت المقدس جنوب شرق البحر الميت وكانت فى جمادى الأولى سنة ثمان (سبتمبر سنة ٦٢٩ م) .

وقد سمى البخارى هذه السرية غزوة، وإن لم يخرج فيها النبى صلى الله عليه وسلم لكثرة جيش المسلمين فيها . وسببها أن النبى ﷺ كان أرسل الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى أمير بصرى من جهة هرقل وهو الحارث ابن أبى شمر الغسانى فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى ، وهو من أمراء قيصر على الشام فقال ، أين تريد لعلك من رسل محمد ؟ قال نعم . فأوثقه وضرب عنقه ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره .

فلما بلغ رسول الله ، اشتد الأمر عليه وجهز جيشاً لمقاتلة ملك الروم .

هذا هو السبب الذى ذكره أغلب المؤرخين إلا أن ابن إسحاق لم يذكر سبباً لهذه السرية وهذه أول سرية حارب فيها المسلمون جيشاً مسيحياً من أعظم جيوش العالم فى ذلك الوقت .

فأمّر رسول الله ﷺ مولاه زيد بن حارثة رضى الله عنه على ثلاثة آلاف وندب رسول الله ﷺ الناس وقال إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس فإن أصيب فليرتض المسلمون رجلا من بينهم يجعلونه عليهم أميراً . أى قائداً للجيش .

وكان ممن حضر يهودى اسمه النعمان فقال يا محمد إن كنت سميت من سميت أصيبوا جميعاً لأن أنبياء بنى إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان فلو سموا مئة أصيبوا جميعاً . ثم جعل يقول لزيد أعهد أى أوص فإنك لا ترجع إلى محمد إن كان نبياً . قال زيد أشهد أنه رسول صادق بار وعقد ﷺ لواء أبيض ودفعه إلى زيد ، ولم يسبق لزيد تولى القيادة من قبل ، وأوصاه أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا فاستعينوا عليهم بالله وقاتلوهم . فأسرع الناس بالخروج وعسكروا بالجرف (١) .

---

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة لجهة الشام .

وصية رسول الله للجيش

قبل رحيله إلى مؤتة

قال رسول الله يوصى الجيش : « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً . اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله . لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا منعزلا بصومعة ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء » .

هذه وصية عظيمة إلى جيش المسلمين قبل مسيره إلى مؤتة لمحاربة الروم ، وهى جديرة بأن تتلى مراراً ويتدبرها رؤساء الجيوش فى العالم قاطبة ويعملوا بمقتضاها حرفاً حرفاً - إن كان لا مناص عن الحرب ولا مفر منها - فإن الحروب الحديثة التى دارت رحاها جاوزت الحدود فى البغى والظلم والقسوة والتعدى على السكان الآمنين الذين لا شأن لهم فى القتال فهدمت بيوتهم وخربت المدن ، فقاسى أهلوها كل شقاء يتصور . ولم يحسب المغيرون القساة حساب الأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين ، ودور المرضى والجرحى . كل ذلك فى القرن العشرين ، زمن المدنية وتقدم العلوم ! !

ألا فليتدبروا هذه الوصية الجليلة الصادرة عن قلب ملؤه الرحمة والإنسانية . فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه عن الغدر وقتل الأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين المنعزلين فى الصوامع ، ونهى عن قطع الأشجار وهدم البيوت ، حتى بيوت المحاربين فضلا عن المسالمين .

فهذا قانون الإسلام فى الحروب وهو قانون إنسانى محض وهذه أوامر رسول الله الذى يأتمر المسلمون بأوامره ويتبعون سننه .

ولما فصل الجيش من المدينة سمع العدو بمسيرهم ، وقام شرحبيل بن عمرو الغسانى لجمع أكثر من مئة ألف من الروم وضم إليهم القبائل القريبة الموالية فلما نزل المسلمون معان من أرض الشام بلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء[1] فأقاموا على معان ليلتين يفكرون فى أمرهم ، وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ؛ فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له فشجع الناس عبد الله بن رواحة على المضى فقال : « إن التى تكرهون للتى خرجتم لها ، إياها تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا كثرة ولا قوة ، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فربما فعل ، وإن تكن الأخرى فهى الشهادة وليست بشر المنزلتين» فقال الناس لقد صدق ابن رواحة .

---

(١) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى قصبتها عمان . وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة . وبجودة حنطتها يضرب المثل . ومن البلقاء قرية الجبارين .

فمضوا إلى مؤتة ووافاهم المشركون تحت إمرة اتيودور أخى هرقل فجاء منهم من لا قبل لأحد به من العدد الكثير الزائد على مئة ألف والسلاح والخيل وآلات الحرب مع من انضم إليهم من قبائل العرب المتنصرة من بنى بكر ولخم وجذام مئة ألف . فقاتل الأمراء الثلاثة يومئذ على أرجلهم فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل المسلمون معه بشجاعة على صفوفهم حتى قتل طعناً بالرماح ثم أخذ اللواء جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه فقاتل به وهو على فرسه فألجه القتال وأحاط به فنزل عن فرس له شقراء فعقرها وقاتل حتى قتل . وإنما عقرها خوفاً أن يأخذها العدو فيقاتل عليها المسلمين ولما أخذ اللواء قاتل قتالا شديداً فقطعت يمينه فأخذ اللواء بيساره فقطعت يساره فاحتضنه وقاتل حتى قتل ووجد فيه بضع وسبعون جرحا ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح . ثم أخذ اللواء عبد الله ابن رواحة وتقدم به وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم نزل عن فرسه وقاتل حتى قتل[1] .

روى سعيد بن منصور أنهم دفنوا يومئذ زيداً وجعفراً وعبد الله بن رواحة رضى الله عنهم فى قبر واحد .

ثم أخذ اللواء ثابت بن أقرم العجلانى البلوى حليف الأنصار وكان من أهل بدر فقال يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم . قالوا أنت . قال ما أنا بفاعل فاصطلحوا على خالد بن الوليد . وفى الصحيح : حتى أخذ الراية « سيف من سيوف الله » ، فقاتلهم خالد بن الوليد قتالا شديداً وكان لم يمض على إسلامه إلا ثلاثة أشهر تقريباً[2] وقد تفرق المسلمون لما قتل عبد الله بن رواحة وانهزموا حتى لم يرَ اثنان جميعاً فاستطاع خالد بن الوليد بعد أن أخذ اللواء وتولى القيادة أن يجمع شملهم وجعل مقدمته ساقة وميمنته ميسرة فظن العدو أن المدد جاءهم . قال ابن إسحاق فلما أخذ الراية (خالد) دافع القوم وخاس بهم ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف . وسمى ابن إسحاق اثنى عشر قتيلا من المسلمين فى هذه الغزوة ولا نعلم عدد قتلى العدو . وكانت مدة القتال سبعة أيام .

وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بما حدث فى ساحة القتال قبل رجوع الجيش إلى المدينة ونادى فى الناس الصلاة جامعة ثم صعد المنبر وعيناه تذرفان وقال :

---

(١) عبد الله بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس الأكبر الأنصارى الخزرجى ثم من بنى الحارث يكنى « أبا محمد » وقيل « أبا رواحة » وقيل « أبا عمر » وأمه كبشة بنت واقد بن عمرو بن الإطنابة من بنى الحارث بن الخزرج أيضاً وكان ممن شهد العقبة وكان نقيب بنى الحارث بن الخزرج وشهد بدراً وأحداً والخندق والحديبيه وعمرة القضاء والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الفتح وما بعده . وكان من الشعراء الذين يناضلون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن شعره فى النبى صلى الله عليه وسلم :

إنى تفرست فيك الخير نافلة ... الله يعلم أنى ثابت البصر
أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر

(٢) وهذه أول مرة يحارب فيها خالد مع المسلمين بعد إسلامه .

« يا أيها الناس باب خير . باب خير . أخبركم عن جيشكم هذا الغازى أنهم انطلقوا فلقوا العدو . فقتل زيد شهيداً فاستغفروا له . ثم أخذ الراية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيداً فاستغفروا له . ثم أخذ الراية عبد الله ابن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيداً فاستغفروا له . ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ولكنه سيف من سيوف الله فآب بنصره » فمن يومئذ سُمى خالد « سيف الله » .

قال بعضهم كون ما وقع يوم مؤتة فتحاً ونصراً واضح لإحاطة العدو بهم وتكاثرهم عليهم لأنهم كانوا أكثر من مائتى ألف والصحابة رضى الله عنهم ثلاثة آلاف وكان مقتضى العادة أنهم يُقتلون عن آخرهم .

وفى هذه الغزوة فرت طائفة من الصحابة إلى المدينة لما عاينوا كثرة جموع الروم فصار أهل المدينة يقولون لهم « أنتم الفرارون » ورسول الله ﷺ يقول « بل هم الكرارون » ولقى هؤلاء الذين رجعوا إلى المدينة شراً حتى إن الرجل يجىء إلى أهل بيته يدق عليهم بابه فيأبون يفتحون له ويقولون ، هلا تقدمت مع أصحابك فقتلت ؟ حتى إن نفراً منهم جلسوا فى بيوتهم استحياء كلما خرج واحد منهم صاحوا به وصار رسول الله يرسل إليهم رجلاً رجلاً .

وأول من جاء بخبر الجيش يعلى بن أمية رضى الله عنه فلما قدم قال له النبى ﷺ « إن شئت فأخبرنى وإن شئت أخبرتك » . قال فأخبرنى يا رسول الله لأزداد يقينا فأخبره رسول الله ﷺ الخبر كله ووصف له ما كان فقال « والذى بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفا واحداً وإن أمرهم لكما ذكرت » . لكن مستر « موير » اعتبر تلك الرواية التى ذكر فيها أن النبى ﷺ أخبر بما حدث فى ساحة القتال قبل أن يصله الخبر خرافة ، لأن الخبر كان قد وصل رسول الله من أول رسول أرسله خالد بن الوليد إلى المدينة ، وعلى ذلك فليست هناك معجزة كما يقول المسلمون ، لكنه لم يعلق شيئا على معجزة رسول الله التى تنبأ فيها بإصابة زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة قبل أن يذهبوا إلى الحرب وقد أصيبوا جميعا بالترتيب كما ذكر . فكان حقا عليه وهو مؤرخ أن يصرح برأيه فى هذه المسألة لا أن يذكرها بلا تعليق ويغض الطرف عنها . والحقيقة أنه لما رأى أن هذه المعجزة واضحة وضوح الشمس فى رائعة النهار لم يشأ أن يقرها ويعترف بها .

مواساة رسول الله ﷺ لآل جعفر

عن أسماء بنت عميس رضى الله عنها زوج جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه . قالت دخل علىّ رسول الله ﷺ يوم أصيب جعفر وأصحابه فقال ائتنى ببنى جعفر فأتيته بهم فشمهم وذرفت عيناه . وفى رواية وبكى حتى نقطت لحيته الشريفة فقلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء ؟ قال نعم أصيبوا هذا اليوم. قالت فقمت أصيح واجتمع علىّ النساء وجعل رسول الله ﷺ يقول لى يا أسماء لا تقولى هجرا ولا تضربى خداً وقال « اللهم قدمه إلى أحسن الثواب واخلفه فى ذريته بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك فى ذريته » .

وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال : لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم . وقيل إنه دخل على فاطمة وهي تقول : واعماه ، فقال على مثل جعفر فلتبك البواكي . ثم قال صلى الله عليه وسلم : اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم . وهذا الطعام الذي جعل لآل جعفر رضي الله عنه هو أصل طعام التعزية وتسميه العرب « الوضيمة » .

ولحسان بن ثابت قصيدة في رثاء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه .

إسلام فروة بن عامر الجذامي

كان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب بمعان فأهدى إلى النبي ﷺ بغلته البيضاء وبعث إليه رسالة بإسلامه مع رسول فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم فلما اجتمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له عفرى بفلسطين قال :

ألا هل أتى سلمى بأن حليلها　　على ماء عفرى فوق إحدى الرواحل
على ناقة لم يضرب الفحل أمها　　مشذّبة أطرافهـــــا بالمناجل

قال ابن إسحاق زعم الزهري أنهم لما قدموه ليقتلوه قال :

بلغ سراة المسلمين بأنني　　سلم لربي أعظمي وبناني

وقال مسيو برسيفال M. C de Paceval إن الصلب وقع بعد غزوة مؤتة عقاباً على ذنبه . والراجح أن ذلك كان بعد فتح مكة سنة تسع وهي سنة الوفود ودخول العرب في دين الله أفواجاً .

سرية عمرو بن العاص

أو سرية ذات السلاسل[1]

جمادى الآخرة ٨ هـ ـ اكتوبر سنة ٦٢٩ م

كانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى وقد تولى القيادة فيها خالد بن الوليد بعد أن قُتل الأمراء الثلاثة الذين تقدم ذكرهم وكان قد أسلم حديثا مع عمرو بن العاص . فأظهر كفاية حربية أمام جيش الروم العظيم وتمكن من جمع شمل الصحابة بعد أن تفرقوا وعاد فريق منهم إلى المدينة فرجع خالد سالماً ولم يتحمل المسلمون إلا خسارة قليلة .

(١) على حدود الشام وهي وراء وادي القرى بضم السين الأولى وفتحها لغتان . وبينها وبين المدينة عشرة أيام .

وفى جمادى الآخرة أى بعد شهر (أكتوبر سنة ٦٢٩ م) جاء دور عمرو بن العاص فأرسله رسول الله ﷺ إلى بلاد بلى[1] وعذرة فى (٣٠٠) مع سراة المهاجرين والأنصار ومعهم (٣٠) فرساً وسببها أنه ﷺ بلغه أن جمعاً من قضاعة تجمعوا للإغارة على المسلمين وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة منتهزين فرصة انهزام المسلمين فى مؤتة .

وسميت هذه السرية (ذات السلاسل) لأن الأعداء ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا وقيل سميت بذلك لأن بها ماء يقال له السّلسل .

عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : بعث إلىّ النبى ﷺ يأمرنى أن آخذ ثيابى وسلاحى فقال ياعمرو إنى أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك . قلت لم أسلم رغبة فى المال . قال « نعم المال الصالح للرجل الصالح » فعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء فسار هو ومن معه وكان يكمن النهار ويسير الليل فلما قرب منهم بلغه أن جموع العدو كثيرة فبعث رافع بن مكيث الجهنى إلى رسول الله ﷺ يستمده . فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح وعقد له لواء وبعث معه (٢٠٠) من سراة المهاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا فأراد أبو عبيدة أن يتولى القيادة . فقال عمرو إنما قدمت علىّ مدداً وأنا الأمير . فقال أبو عبيدة لا ولكن أنا على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه . وكان أبو عبيدة رجلا سهلا هينا عليه أمر الدنيا فقال ياعمرو إن رسول الله ﷺ قال لى لا تختلفا وإنك إن عصيتنى أطعتك فأطاع له أبو عبيدة فكان عمرو يصلى بالناس وسار حتى وصل إلى العدو فحمل عليهم المسلمون فهربوا فى البلاد وتفرقوا مذعورين بعد أن اقتتلوا ساعة فهزمهم المسلمون ولم يغنموا شيئاً .

أما البلاذرى فيقول إن المسلمين غنموا .

وأرسل عمرو بن العاص رسولا إلى النبى ﷺ ينبئه بانتصاره فى أول غزوة له وأنه عزز نفوذ رسول الله ﷺ على تخوم الشام ثم عاد إلى المدينة .

وقد حدّث عمرو بن العاص نفسه بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعثه على قوم فيهم أبو بكر وعمر إلا لمنزلة عنده . قال عمرو فأتيته ﷺ حتى قعدت بين يديه فقلت يارسول الله : أى الناس أحب إليك ؟ قال عائشة قلت إنى لست أعنى النساء إنما أعنى الرجال . قال: أبوها قلت ثم من ؟ قال ثم عمر بن الخطاب فعد رجالا فسكتّ مخافة أن يجعلنى فى آخرهم وقلت فى نفسى لا أعود أسأله عن هذا .

---

(١) بلاد بلى وعذرة هى وراء ذات القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام ، وبلى قبيلة كبيرة ينسبون إلى بلى بن عمرو بن الحاف ابن قضاعة . وكذا عذرة ينسبون إلى عذرة بن قضاعة .

سرية أبي عبيدة بن الجراح

سمى البخارى هذه السرية بغزوة «سيف البحر[1]» بكسر السين واشتهرت « بسرية الخبط » بعث رسول الله ﷺ فى شهر رجب سنة ثمان (نوفمبر سنة ٦٢٩ م) أبا عبيدة بن الجراح على رأس ثلاثمائة رجل . وكان فيهم عمر بن الخطاب إلى أرض جُهينة ليلقى عيراً لقريش ولمحاربة حيّ من جهينة ، فنفد ما كان معهم من الزاد فأكلوا الخبط وهو ورق السلم وأصابهم جوع شديد . قال أهل السير : ثم أخرج الله لهم دابة من البحر تسمى العنبر وهى سمكة كبيرة فأكلوا منها .

وفى شعبان سنة ثمان (ديسمبر سنة ٦٢٩ م) أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا قتادة رضى الله عنه إلى نجد ومعه خمسة عشر رجلا وأمره أن يشن الغارة على غطفان بأرض محارب فقاتلهم وسبى سبياً كثيراً واستاق النعم . وفى أول شهر رمضان من هذه السنة أرسل رسول الله ﷺ أبا قتادة أيضاً إلى إضم على ثلاثة برد من المدينة فى ثمانية رجال ليوهم قريشاً أنه توجه إلى تلك الناحية بعد أن نقضت قريش العهد حتى يفاجئهم على غير استعداد منهم لحربه . خرج أبو قتادة ومن معه فلقوا عامر بن الأضبط الأشجعى فسلم عليهم بتحية الإسلام فقتله محلم بن جثامة (واسمه يزيد بن قيس) لشىء كان بينه وبينه وأخذ بعيره ومتاعه فلما قدموا على رسول ﷺ وأخبروه الخبر نزل فيهم القرآن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾ الآية .

والاختلاف فى المراد بهذه الآية كثير جداً . قيل نزلت فى المقداد . وقيل فى غالب الليثى . . .

ثم إن أبا قتادة ومن معه لم يلقوا جمعاً وبلغهم أنه ﷺ خرج من المدينة وتوجه إلى مكة فلحقوه بالسقيا فأخبروه الخبر . فسأله محلم أن يستغفر له فقال « لا غفر الله لك » زجراً ، كيلا يتهاون الناس بقتل النفس المؤمنة . فقام محلم وهو يتلقى دموعه ببرديه فما مضت له سابعة من الليالى حتى مات . وذكر الطبرى أن محلم بن جثامة توفى فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم فدفنوه فلفظته الأرض مرة بعد أخرى فأمر به فألقى بين جبلين وجعل عليه حجارة وقال رسول الله ﷺ « إن الأرض لتقبل من هو أشر منه ولكن الله أراد أن يريكم آية فى قتل المؤمن » .

غزوة فتح مكة

رمضان سنة ٨ هـ — (يناير سنة ٦٣٠ م)

لما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش كان فيما شرطوا لرسول الله ﷺ وشرط لهم أن

(١) ساحل البحر .

من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده فليدخل فيه . ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه . فدخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده .

والسبب فى دخول خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ أن خزاعة كانت حليفة جده عبد المطلب حين تنازع مع عمه نوفل فى ساحات وأفنية من السقاية كانت فى يد عبد المطلب فأخذها منه نوفل فاستنهض عبد المطلب قومه فلم ينهض معه منهم أحد وقالوا لا ندخل بينك وبين عمك . ثم كتب إلى أخواله بنى النجار فجاء منهم سبعون وقالوا ورب هذه البنية لتردن على ابن أختنا ما أخذت منه وإلا ملأنا منك السيف فرده . ثم حالف نوفل بنى أخيه عبد شمس فحالف عبد المطلب خزاعة وكان عليه الصلاة والسلام عارفاً بذلك ولقد جاءته خزاعة يوم الحديبية بكتاب جده عبد المطلب فقرأه عليه أبىّ بن كعب رضى الله عنه فأقرهم النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد كان بين بنى بكر وبين خزاعة حروب وقتلى فى الجاهلية وتشاغلوا عن ذلك لما ظهر الإسلام

فلما كانت هدنة الحديبية ووقف القتال بين المسلمين وقريش ، اغتنمتها طائفة من بنى بكر يقال لهم « بنو نفاثة » ، ذلك أن شخصاً منهم هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يتغنى بالهجاء . فسمعه غلام من خزاعة أى من القبيلة التى دخلت فى عقد رسول الله فثارت ثائرته فضربه وشجّه فثار الشرين القبيلتين مما كان بينهم من العداوة . فطلب بنو نفاثة من أشراف قريش أن يمينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة فأمدوهم : فجاءوا خزاعة ليلا وهم آمنون على ماء لهم يقال له الوتير وقتلوا منهم عشرين أو ثلاثة وعشرين وقاتل معهم جمع من قريش مستخفياً (منهم ، صفوان بن أمية . وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبى جهل . وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو ـ وهؤلاء أسلموا جميعاً بعد ذلك) ومازالوا بهم حتى أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعى بمكة فلما ناصرت قريش بنى بكر على خزاعة ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله من الميثاق ، ندموا . وجاء الحارث بن هشام إلى أبى سفيان وأخبره بما فعل القوم . فقال :

« هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه . وإنه لشر والله ليغزونا محمد . ولقد حدثتنى هند بنت عتبة (يعنى زوجته) أنها رأت رؤيا كرهتها . رأت دماً أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة . فكره القوم ذلك » .

وعند ذلك خرج عمرو بن سالم الخزاعى ، سيد خزاعة حتى قدم على رسول الله المدينة ودخل المسجد ووقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد بين الناس وأنشد :

يارب إنى ناشد محمــــدا ... حِلفَ أبينا وأبيـــه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هــــداك الله نصر أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مــــددا

فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفاً وجهه تربدا
فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لى كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عدداً
هم بيتونا بالوتير هجداً وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ نصرت ياعمرو بن سالم ودمعت عيناه وفى رواية فقام ﷺ وهو يجر رداءه ويقول : لا نصرت إن لم أنصركم بما أنصر به نفسى . وفى رواية قال : والذى نفسى بيده لأمنعنهم مما أمنع منه نفسى وأهل بيتى . وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : لقد رأيت رسول الله ﷺ غضب مما كان من شأن بنى كعب غضباً لم أره غضبه منذ زمان ثم قال ﷺ لعمرو بن سالم وأصحابه بعد أن علم منهم حقيقة ماحدث : ارجعوا وتفرقوا فى الأودية فرجعوا وتفرقوا وكان عددهم نحو أربعين راكبا من خزاعة وقصد رسول الله بتفرقهم إخفاء مجيئهم .

وخرج بُدَيلُ بن ورقاء فى نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله المدينة فأخبروه بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ثم انصرفوا راجعين إلى مكة ولكن لم يبلغنا ماذا قال وفد بديل وبماذا أجابهم رسول الله

قريش تبعث أبا سفيان إلى المدينة

كان رسول الله ﷺ قال للناس كأنكم بأبى سفيان قد جاء ليشدد العقد ويزيد فى المدة . ومضى بديل بن ورقاء وأصحابه فلقوا أبا سفيان بعسفان قد بعثته إلى رسول الله ليشدد العقد ويزيد فى المدة وقد خافوا مما صنعوا . فلما لقى أبو سفيان بديلا ، قال من أين أقبلت يابديل ؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ، قال سرت فى خزاعة فى هذا الساحل وفى بطن هذا الوادى .قال أو ماأتيت محمدا ؟ قال لا . فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى فعمد إلى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى (وهذا من فراسة العرب) فقال أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً ، .ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبى سفيان (زوج رسول الله) فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه . فقال يابنية والله ماأدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ! قالت بل هو فراش رسول الله وأنت مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله . قال والله لقد أصابك بعدى شر فقالت : « بل هدانى الله تعالى للإسلام وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر . واعجباً منك وأنت سيد قريش وكبيرها » فقال : « أنا أترك ما كان يعبد آبائى وأتبع دين محمد ؟ » . ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه فى تجديد العقد وزيادة مدة الهدنة فلم يرد عليه شيئاً . ثم ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله فقال « ماأنا بفاعل » » ثم أتى عمر بن الخطاب

فكلمه فقال أنا أشفع لكم إلى رسول الله ؟ فو الله لو لم آخذ إلا الذر لجاهدتكم . ثم خرج فدخل على علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه وعنده فاطمة ابنة رسول الله وعندها الحسن بن علىّ غلام يدب بين يديها فقال : يا علىّ إنك أمسّ القوم بى رحماً وأقربهم منى قرابة . وقد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً . اشفع لنا إلى رسولَ الله . قال ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال يا ابنة محمد هل لك أن تأمرى بُنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت والله ما بلغ بنىّ ذلك أن يجير بين الناس وما يجير على رسول الله أحد قال : أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدّت علىّ فانصحنى . فقال له والله ما أعلم شيئاً يغنى عنك ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك . قال أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟ قال لا والله ما أظن ولكن لا أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان فى المسجد . فقال :

« أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس » ثم ركب بعيره وانطلق .

***

نقول : أراد أبو سفيان من ذهابه إلى المدينة أن يشدد العقد ويزيد فى المدة ولكن النبى ﷺ أعرض عنه ولم يجبه بشىء ووجد من أبى بكر وعمر وعلىّ وفاطمة رضى الله عنهم كل إعراض ولم يعده أحد منهم بشىء حتى يئس ورجع بخفى حنين لكنه على كل حال كان يعلم أن رسول الله قد عزم على أمر إزاء ما كان من تعدى بنى بكر ومساعدة نفر من قريش لهم فى هذا التعدى لأن ذلك نقض للعهد .

أما ما تخيله بعض المستشرقين من أن أبا سفيان اتفق مع رسول الله على أنه إذا دخل مكة اجتنب سفك الدماء وأن أبا سفيان يقوم من جانبه بمنع أهل مكة من المقاومة فهذا لا أساس له وليس فى السير شىء يدل على هذا الاتفاق.

وقد قالوا أيضاً إن رسول الله كان ينتظر أى فرصة تسنح لفتح مكة فلما وقع الاعتداء على خزاعة تظاهر بالغضب ووعد بأخذ الثأر والانتصار لهم . والحقيقة أن اعتداء بنى بكر نقض صريح للعهد . وكيف لا يغضب وقد قُتل من خزاعة وهم حلفاؤه أكثر من عشرين نفراً وقد لجأوا إليه وناشدوه أن يدفع عنهم هذا الاعتداء !

والدليل على أن أبا سفيان عاد من غير أن يحظى بأى اتفاق أنه لما قدم على قريش قالوا ما وراءك ؟ قال جئت محمداً فكلمته فو الله ما رد علىّ شيئاً . ثم جئت ابن أبى قحافة (أبا بكر) فلم أجد عنده خيراً . ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم ، ثم جئت علىّ بن أبى طالب فوجدته ألين القوم وقد أشار علىّ بشىء صنعته . فو الله ما أدرى هل يغنينى شيئاً أم لا . قالوا وبماذا أمرك ؟ قال أمرنى أن أجير بين الناس ففعلت. قالوا فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال لا . قالوا ويلك والله إن زاد على أن لعب بك فما يغنى عنا ما قلت . قال لا والله ما وجدت غير ذلك .

غير أن قريشاً لما طالت غيبة أبى سفيان اتهمته أشد التهمة وقالوا قد صبأ واتبع محمداً سراً وكتم إسلامه .

ولكنه لم يصبأ ولم يتبع رسول الله ﷺ إنما طالت غيبته بسبب أنه أكثر من الالتجاء والتحدث إلى أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ليشفعوا له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما طال انتظاره وأيس منهم عاد إلى مكة من غير أن ينال طائلا .

استعداد رسول الله ﷺ
للزحف على مكة

أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعد سرًّا للزحف على مكة . وكان يقول « اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فلتة » وقال لعائشة رضى الله عنها ، جهزينا وأخفى أمرك . فجهزت قمحًا وسويقًا ودقيقًا وذلك قبل أن يستشير أحداً . ثم أخبر أبا بكر أنه يريد قريشاً وقال له : أخف ذلك يا أبا بكر . وأمر الناس بالجهاز وطوى عنهم الوجه الذى يريده وأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من المسلمين فى كل ناحيـة يقول لهم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة » وذلك بعد أن تشاور مع أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى السير إلى مكة . فذكر له أبو بكر ما يشير به إلى عدم السير حيث قال له : « هم قومك » وحضه عمر حيث قال : « نعم . هم رأس الكفر . زعموا أنك ساحر وأنك كذاب » وذكر له كل سوء كانوا يقولونه : « وايم الله لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة » فعندئذ ذكر رسول الله، أن أبا بكر كإبراهيم وكان فى الله ألين من اللين . وأن عمر كنوح وكان فى الله أشد من الحجر وأن الأمر أمر عمر . وأمر بالأنقاب ، وأوقف بكل طريق جماعة ليعرف من يمر بها وقال لهم لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه .

كتاب حاطب إلى مكة

ولما علم الناس بمسير رسول الله إلى قريش، كتب حاطب بن أبى بلتعة البدرى ، حليف بنى أسد كتاباً إلى مكة[1] يخبرهم بمسير النبى صلى الله عليه وسلم وأرسله مع امرأة[2] استأجرها بعشرة دنانير وكساها برداً وقال لها أخفيه ما استطعت ولا تمرى على الطريق فإن عليه حراسا . فجعلت الكتاب فى ضفائر رأسها خوفاً من أن يطلع عليها أحد ثم خرجت به وسلكت غير الطريق وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث علىّ بن أبى طالب والزبير بن العوام فقال أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبى بلتعة بكتاب

(١) كان الكتاب موجهاً إلى ثلاثة من كبراء قريش وهم : سهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل .
(٢) اسم هذه المرأة سارة وهى مولاة لبنى عبدالمطلب وسيأتى ذكرها فيمن أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه يوم فتح مكة .

إلى قريش يحذرهم ماقد أجمعنا له فى أمرهم فخذوه منها وخلوا سبيلها (وقد كان حاطب رسول رسول الله ﷺ إلى المقوقس سنة ست) .

فخرجا حتى أدركا هذه المرأة بالخليقة ، خليقة بنى أبى أحمد فاستنزلاها فالتمسا فى رحلها الكتاب فلم يجدا شيئا فقال لها على بن أبى طالب إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك . فلما رأت الجد منه قالت أعرض فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فأتى به رسول الله صلى الله علية وسلم ، فدعا رسول الله صلى الله علية وسلم حاطبا فقال ياحاطب ماحملك على هذا ؟ فقال يارسول الله أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ماغيّرت ولا بدّلت ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم فقال عمر بن الخطاب يارسول الله دعنى أضرب عنقه فإن الرجل قد نافق (أى خالف الأمر) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه شهد بدراً وما يدريك ياعمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر ، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . فأنزل الله عز وجل فى حاطب ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ إلى قوله إليك أنبنا إلى آخر القصة .

وقد جاء فى كتابه مايأتى :

«من حاطب بن أبى بلتعة إلى سهيل بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية . أما بعد يامعشر قريش فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءكم بجيش عظيم يسير كالسيل فو الله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده فانظروا لأنفسكم والسلام » .

وفى رواية أن لفظ الكتاب :

« إن رسول الله ﷺ أذن فى الناس بالغزو ولا أراه يريد غيركم وقد أحببت أن تكون لى عندكم يد » .

وعلى كل حال فإن فى إرسال هذا الكتاب لقريش إفشاء لسر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتمه ولولا أن حاطباً كان من المجاهدين فى غزوة بدر لعاقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ترى أن عمر كان يريد ضرب عنقه . وقيل إن عمر رضى الله عنه قال قاتلك الله ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش !

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفره واستخلف على المدينة أبا رُهْم كلثوم بن حصين بن خاف الغفارى [1] وقيل استخلف ابن أم مكتوم وبه جزم الحافظ الدمياطى .

وخرج لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان (أول يناير سنة ٦٣٠ م فصام رسول الله ﷺ وصام الناس

(١) أبو رهم الغفارى اسمه كلثوم بن الحصين أسلم بعد قدوم النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وشهد أحداً فرمى بسهم فى نحره فسمى « المنحور » . واستخلفه النبى صلى الله عليه وسلم على المدينة عام الفتح فلم يزل عليها حتى انصرف رسول الله من الطائف وشهد بيعة الرضوان وبايع تحت الشجرة وغزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك .

معه حتى إذا كان بالكَديد مابين (عُسفان وأمج) أفطر رسول الله ﷺ ثم مضى حتى نزل مرّ الظهران فى عشرة آلاف من المسلمين ، وكان قد بعث إلى من حوله من العرب وطلب حضورهم وهم : أسلم وغفار . وأشجع وسليم . وبعث رسلا فى كل ناحية وقيل إن العشرة آلاف خرج بهم من نفس المدينة، ثم تلاحق به ألفان فيكون المجموع ١٢٠٠٠ ، ولم يتخلف عنه أحد من المهاجرين والأنصار .

وذكرت السيرة الحلبية أن عدد الجيش كان كما يأتى .

٧٠٠ مهاجر ومعهم	٣٠٠ فرس
٤٠٠٠ من الأنصار ومعهم	٥٠٠ «
١٠٠٠ من مزينة ومعها	١٠٠ «
٤٠٠ من أسلم ومعها	٣٠ فرسا
٨٠٠ من جهينة ومعها	٥٠ «
٦٩٠٠	٩٨٠

لكن هذا العدد أقل من المشهور بكثير بل هو أقل ممن خرج من المدينة وحدها .

وكان معه ﷺ من زوجاته أم سلمة وميمونة رضى الله عنهما . وكان خروجه بعد العصر . ولم يزل رسول الله مفطراً رفقا بالمسلمين حتى انسلخ الشهر لأنه وإن قدم مكة قبل تمام الشهر لكنه كان فى أهبة القتال ، وقد عُمِّيَت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ولا يدرون ماهو فاعل . وخرج فى تلك الليلة أبو سفيان ابن حرب وحكيم بن حزام [1] وبديل بن ورقاء الخزاعى ، يتجسسون الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران . قال العباس : ــ وكان قد خرج من مكة ــ سمعت أبا سفيان وهو يقول: والله ما رأيت كاليوم قط نيراناً . فقال بديل : هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب . فقال أبو سفيان : خزاعة ألأم من ذلك وأذل قال العباس فعرفت صوته ، فقلت ياأبا حنظلة ، (يعنى أباسفيان) فقال أبو الفضل ؟ (العباس) فقلت نعم فقال لبيك فداك أبى وأمى فما وراءك ؟ فقلت هذا رسول الله وراءنى قد دلف إليكم بما لا قبل لكم به . بعشرة آلاف من المسلمين . قال فما تأمرنى ؟ فقلت تركب عجز هذه البغلة فأستأمن لك رسول الله فوالله لئن ظفر بك ليضرب عنقك فردفنى فخرجت به أركض بغلة رسول الله ﷺ نحو رسول الله فكلما مررت بنار من نيران المسلمين ونظروا إلىّ قالوا عم رسول الله على بغلة رسول الله حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال لأبى سفيان :

(١) حكيم هو ابن أخى خديجة زوجة رسول الله وابن عم الزبير بن العوام . وهو من مسلمة الفتح وكان من أشراف قريش ووجوهها فى الجاهلية والإسلام وكان من المؤلفة قلوبهم وكان مولده قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة وعاش ١٢٠ سنة ، ستين سنة فى الجاهلية وستين سنة فى الإسلام . وتوفى سنة ٥٤ هـ أيام معاوية وشهد بدراً مع الكفار ونجا منهزماً وكانت بيده دار الندوة فباعها من معاوية بمائة ألف درهم وتصدق بثمنها .

الحمد الله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ثم اشتد نحو النبى صلى الله عليه وسلم وركضت البغلة وقد أردفت أبا سفيان حتى اقتحمت على باب القبة وسبقت عمر بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البطىء فدخل عمر على رسول الله ﷺ فقال يارسول الله هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد ، فدعنى أضرب عنقه . فقلت يارسول الله إنى قد أجرته[1] ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت والله لا يناجيه اليوم أحد دونى فلما أكثر فيه عمر قلت مهلا ياعمر فوالله ماتصنع هذا إلا أنه رجل من بنى عبد مناف ، ولو كان من بنى عدى ابن كعب ماقلت هذا . فقال مهلا ياعباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم وذلك لأنى أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم . فقال رسول الله ﷺ اذهب فقد أمناه حتى تغدو به علىّ بالغداة فرجع به إلى منزله ، فلما أصبح غدا به على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال : ويحك ياأبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ فقال بأبى أنت وأمى ، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنى شيئا . فقال ويحك ياأبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ فقال بأبى أنت وأمى ما أوصلك وما أحلمك وما أكرمك ! أما هذه ففى النفس منها شىء . فقال العباس فقلت له ويلك تشهد شهادة الحق قبل والله أن تضرب عنقك . قال فتشهد[2] فقال رسول الله ﷺ للعباس حين تشهّد أبو سفيان ، انصرف ياعباس فاحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادى حتى تمر عليه جنود الله . فقلت له يارسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون فى قومه فقال نعم « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن . ومن دخل المسجد فهو آمن . ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » فخرجتُ حتى حبسته عند خطم الجبل بمضيق الوادى فمرت عليه القبائل فيقول من هؤلاء ياعباس! فأقول سُلَيم فيقول مالى ولسُليم فتمر به قبيلة فيقول من هؤلاء ؟ فأقول أسلم فيقول مالى ولأسلم وتمر جهينة فيقول مالى ولجهينة حتى مر رسول الله ﷺ فى

---

(١) قد آن لنا أن نكتب شيئاً عن ترجمة أبى سفيان فهو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى ويكنى أبا حنظلة بابنه حنظلة ، ولد قبل الفيل بعشر سنين وكان من أشراف قريش وكان تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش إلى الشام وغيرها من أرض العجم وكان يخرج أحياناً بنفسه وكانت إليه راية الرؤساء التى تسمى « العقاب » وإذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعتها بيد الرئيس وهو الذى قاد قريشاً كلها يوم أحد وكان أبو سفيان صديق العباس وأسلم ليلة الفتح وشهد حنيناً والطائف مع رسول الله وأعطاه رسول الله من غنائم حنين مائة بعير وأربعين أوقية كما أعطى سائر المؤلفة وأعطى ابنيه يزيد ومعاوية ، وفقئت عين أبى سفيان يوم الطائف . قال يونس بن عبيد كان عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو سفيان لا يسقط لهم رأى فى الجاهلية فلما جاء الإسلام لم يكن لهم رأى . وروى أنه لما أسلم ورأى المسلمين وكثرتهم قال للعباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما . قال إنها النبوة. قال نعم . وفقئت عينه الأخرى يوم اليرموك وشهد اليرموك تحت راية ابنه يزيد . ولما عمى أبو سفيان كان يقوده مولى له ، وتوفى سنة إحدى وثلاثين وكان عمره ثمانياً وثمانين سنة وقيل كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة .

(٢) قول أبى سفيان لرسول الله لما دعاه إلى أن يشهد أن محمداً رسول الله « أما هذه فى النفس منها شىء » يعنى أنه يشك فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكنه أسلم خوفاً من أن يضرب عنقه وكان الرسول فى منتهى الحلم معه .

كتيبته الخضراء[1] وفيها المهاجرون والأنصار فى الحديد لا يرى منهم إلا الحدق فقال من هؤلاء ياأبا الفضل ؟ فقلت هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار ، فقال ياأبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ! فقلت ويحك إنها النبوة . فقال نعم إذن ، فقلت الحق الآن بقومك فحذرهم . فخرج سريعا حتى أتى مكة فصرخ فى المسجد : (يامعشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به) قالوا فمه . فقال (من دخل دارى فهو آمن) قالوا ويحك ماتغنى عنا دارك . فقال : (ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن) . كذا فى رواية ابن إسحاق . فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد وذكر موسى بن عقبة وغيره أن العباس قال قلت يارسول الله أبو سفيان وحكيم وبديل قد أجرتهم وهم يدخلون عليك قال أدخلهم فدخلوا عليه ، فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم فدعاهم إلى الإسلام ، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ، فشهد بديل وحكيم ، وقال أبو سفيان ما أعلم ذلك والله إن فى النفس من هذا شيئاً فأرجئها ، وفى رواية قال له ﷺ ياأبا سفيان أسلم تسلم . قال كيف أصنع باللات والعزى فقال له عمر اخرأ عليهما . وكان عمر رضى الله عنه خارج القبة ثم قال عمر أما والله لو كنت خارج القبة ماقلتها . فقال أبو سفيان ويحك ياعمر إنك رجل فاحش . دعنى مع ابن عمى فإياه أكلم الخ .

وكان ممن لقيه ﷺ فى الطريق أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه ﷺ وأخوه من الرضاع من حليمة السعدية، وكان مع أبى سفيان ولده جعفر وعبد الله بن أبى أمية المخزومى ابن عمته صلى الله عليه وسلم عاتكة بنت عبد المطلب وهو أخو أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم لأبيها لأن أمها عاتكة بنت عامر بن قيس .

يقال إن الذين كانوا يشبهون النبى صلى الله عليه وسلم : جعفر بن أبى طالب - والحسن بن على - وقثم بن العباس - وأبو سفيان بن الحارث .

وكان أبو سفيان بن الحارث من الشعراء المطبوعين وكان سبق له هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وإياه عارض حسان بن ثابت بقوله :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى مغلغلة فقد برح الخفاء
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

وكان لقاء أبى سفيان ومن معه النبى صلى الله عليه وسلم بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة . فالتمسا الدخول على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمته أم سلمة فيهما فقالت يارسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، قال لا حاجة لى بهما أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال بمكة ماقال : (يعنى قوله : والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلما إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ثم تأتى بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله أرسلك)

(١) كتيبته الخضراء لبسهم الحديد والعرب تطلق الخضرة على السواد كما تطلق السواد على الخضرة وكان عدد الذين يلبسون الدروع ٢٠٠٠

فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبى سفيان بُنَىّ له فقال والله ليأذنن لى أو لآخذن بيد بُنَىّ هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فلما بلغ رسول الله ﷺ رق لهما ثم أذن لهما فأسلما وأنشد أبو سفيان قوله فى إسلامه واعتذاره مما كان مضى منه :

لعمرك إنى يوم أحمل راية | لتغلب خيلُ اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله | فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى
وهاد هدانى غير نفسى ودلنى(١) | على الله من طَرّدت كل مطرّد
أصد وأنأى جاهدا عن محمد | وأدعى ولو لم أنتسب من محمد .
هم ما هم من لم يقل بهواهم | وإن كان ذا رأى يُلَمْ ويفنّد
أريد لأرضيهم ولست بلائط | مع القوم ما لم أهد فى كل مقعد
فقل لثقيف لا أريد قتالها | وقل لثقيف تلك عيرى أوْ عدى
وما كنت فى الجيش الذى نال عامرا | وما كان عن جرى لسانى ولا يد
قبائل جاءت من بلاد بعيدة | نزائع جاءت من سهام وسُرْدد

قال ابن إسحاق فزعموا أنه حين أنشد رسول الله ﷺ قوله ودلنى على الله من طردت كل مطرد . ضرب رسول الله ﷺ فى صدره وقال : « أنت طردتنى كل مطرد » وقال علىٌّ رضى الله عنه لأبى سفيان بن الحارث عند إذنه ﷺ له فى الدخول عليه ائت من قبل وجهه فقل له ماقال إخوة يوسف : « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » فإنه لايرضى أن يكون أحد أحسن منه قولا ، ففعل ذلك أبو سفيان فقال له ﷺ ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

رسول الله ﷺ
يأذن لأصحابه بالإفطار فى رمضان

صام رسول الله ﷺ فى سفره إذ كان الشهر رمضان وصام الناس حتى إذا كانوا بالكديد (محل بين عسفان وقديد) أفطر ونادى منادى رسول الله: من أحب أن يصوم فليصم ومن أحب أن يفطر فليفطر . وفى بعض الأيام صب رسول الله الماء على رأسه ووجهه من شدة العطش وهو صائم وفى رواية أنه ﷺ لما بلغ الكديد بلغه أن الناس

(١) ويروى : « ودلنى على الحق » ، ويروى : ونالنى مع الله .

شق عليهم الصيام وأنهم ينظرون فيما فعل أى من صومه ، فاستوى على راحلته بعد العصر ودعا بإناء فيه ماء وقيل لبن فشرب ثم ناوله لرجل بجنبه فشرب . فقيل له بعد ذلك إن بعض الناس صام فقال : أولئك هم العصاة . لأنهم خالفوا أمره لهم بالفطر ليقووا على مقاتلة العدو ، ولأنه ﷺ قال للصحابة لما دنوا من عدوهم ، إنكم قد دنوتم من عدوكم . والفطر أقوى لكم . فلم يزل رسول الله يفطر حتى انتهى شهر رمضان .

عقد الألوية والرايات

عقد رسول الله ﷺ الألوية والرايات بقديد ودفعها للقبائل كما يأتى :

أعطى لبنى سليم لواء وراية . ولبنى غفار راية . ولأسلم لواءين . ولبنى كعب راية . ولمزينة ثلاثة ألوية . ولجهينة أربعة ألوية . ولجماعة أسلموا من بكر لواء . ولأشجع لواءين .

نيران جيش المسلمين

لما نزل ﷺ مر الظهران أمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار لتراها قريش أو تسمع بها فترغب عن كثرتها وجعل على الحرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

قال الواقدى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة فقائل يقول يريد قريشاً وقائل يقول يريد هوازن وقائل يقول يريد ثقيفا .

ثم دعا رسول الله ﷺ أن تعمى عليهم الأخبار واستجاب الله لرسوله ﷺ فأخذ العيون والأبصار من أهل مكة ولم يبلغهم مسيره وهم مغتمون محزونون خائفون .

وقد كان زحف الجيش سريعا جداً فإنه وصل إلى مر الظهران وهى على مرحلة من مكة فى اليوم السابع أو الثامن .

ولما رأى أبو سفيان بن حرب كثرة النيران قال مارأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً .

وأمر رسول الله ﷺ كل قبيلة أن تكون عند راية صاحبها وتظهر مامعها من القوة والعدة فأصبح الناس على ظهر ، وقدم بين يديه الكتائب ومرت القبائل على قادتها والكتائب على راياتها فجعلت القبائل كتيبة كتيبة (وفى أثناء مرور الجيش كان أبو سفيان واقفاً ينظر إليهم) فأول من قدم خالد بن الوليد رضى الله عنه فى بنى سليم ثم مر على أثره الزبير بن العوام ثم مرت كتيبة بنى غفار وكان يحمل رايتهم أبو ذر وهكذا إلى أن مر الجيش بأسره كما تقدم غير أنه لما حاذى سعد بن عبادة أبا سفيان قال « ياأبا سفيان اليوم يوم الملحمة . اليوم تستحل الكعبة »

فقال أبو سفيان ياعباس حبذا يوم الذمار[1] وسمع مقالة سعد بن عبادة أحد الصحابة فقال يارسول الله ماناْمن أن تكون لسعد صولة فى قريش . فقال لعلى رضى عنه أدركه فخذ الراية منه ثم أمره أن يسلمها لابنه قيس بن سعد بن عبادة لأنه ﷺ خشى تغير خاطر سعد فأمر بدفعها لابنه .

وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون قال الحلبى فى السيرة « وفى ذلك المحل بُنى مسجد يقال له مسجد الراية » ودخل ﷺ من الثنية العليا وأمر خالد بن الوليد ومن معه أن يدخلوا من الثنية السفلى .

روى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته القصواء مردفا أسامة بن زيد رضى الله عنهما خلفه[2] ودخل واضعاً رأسه الشريف على راحلته تواضعاً لله تعالى حين رأى ذلك الفتح العظيم وكثرة المسلمين وهو يقول « اللهم إن العيش عيش الآخرة » وكان دخوله يوم الاثنين وكان معتجراً بشقة برد حبرة حمراء .

وكان لواؤه ﷺ يوم دخل مكة أبيض ورايته سوداء تسمى العقاب وكانت من برد لعائشة رضى الله عنها وهى التى كانت بخيبر واغتسل لدخول مكة .

وقد أمر رسول ﷺ رؤساء الجيش أن يكفوا أيديهم وقال : « لا تقاتلوا إلا من قاتلكم » ، فاندفع خالد ابن الوليد رضى الله عنه حتى دخل من أسفل مكة وقد تجمع بها ناس من بنى بكر وبنى الحارث بن عبد مناف وناس من هذيل الذين استنصرت بهم قريش ، فقاتلوا خالداً ومنعوه الدخول وشهروا السلاح ورموه بالنبل وقالوا لا تدخلها عنوة ، فصاح خالد فى أصحابه فقاتلهم فانهزموا شر انهزام وقتل من بنى بكر نحو ٢٤ رجلا ، ومن هذيل أربعة حتى انتهى بهم القتال إلى الحزورة وكانت سوقاً بمكة[3] ثم دخلوا الدور وارتفعت طائفة منهم على الجبال هرباً وتبعهم المسلمون فصاح حكيم بن حزام وأبو سفيان « يامعشر قريش علام تقتلون أنفسكم ؟ من دخل دارى فهو آمن ومن وضع السلاح فهو آمن » فجعلوا يقتحمون الدور ويغلقون أبوابها ويطرحون السلاح فى الطرق فيأخذه المسلمون . وقتل من المسلمين رجلان أخطآ الطريق أحدهما كرز بن جابر الفهرى والآخر خالد الأشقر الخزاعى . قال موسى بن عقبة قال رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن لخالد رضى الله عنه : قاتلت وقد نهيتك عن القتال . فقال هم بدأونا بالقتال ورمونا بالنبال وقد كففت يدى مااستطعت فقال ﷺ قضاء الله خير .

وكان دخوله ﷺ لعشر بقين من رمضان (يناير سنة ٦٣٠ م) ومعه صلى الله عليه وسلم زوجتاه أم سلمة

---

(١) ما يلزمك حمايته (٢) وهذا من مزيد تواضعه صلى الله عليه وسلم لأن أسامة خادمه وابن خادمه ولو كان فيه ذرة من الكبر لما فعل ذلك فى هذا اليوم العظيم الذى تتجه فيه الأنظار إليه صلى الله عليه وسلم .

(٣) كانت الحزورة سوق مكة وقد دخلت المسجد لما زيد فيه . وفى الحديث وقف النبى صلى الله عليه وسلم بالحزورة فقال : يابطحاء مكة ما أطيبك من بلدة وأحبك إلى ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك .

وميمونة رضى الله عنهما ، وأم سلمة هى بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومى واسمها هند ، وأما ميمونة فهى بنت الحارث وهى خالة خالد بن الوليد .

المحكوم عليهم بالقتل

وقد استثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أناساً من الدخول فى الأمان وأمر بقتلهم وهم خمسة عشر ما بين رجل وامرأة وهذه أسماؤهم :

١ ـ عبد الله بن أبى سرح بن الحارث العامرى (أخو عثمان بن عفان من الرضاعة) .

٢ ـ عبد الله بن خطل .

٣ ـ عكرمة بن أبى جهل

٤ ـ الحويرث بن نُقيد

٥ ـ مِقيس بن صبابة

٦ ـ هبار بن الأسود بن المطلب

٧ ـ كعب بن زهير بن أبى سلمى المزنى

٨ ـ الحارث بن هشام المخزومى وهو أخو أبى جهل لأبويه

٩ ـ زهير بن أمية المخزومى أخو أم سلمة

١٠ ـ صفوان بن أمية بن خلف الجمحى

١١ ـ وحشى بن حرب قاتل حمزة

هؤلاء هم الرجال ، وأما النساء فهن :

١٢ ، ١٣ ـ قينتان كانتا عند عبد الله بن خطل تغنيان بهجاء النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين

١٤ ـ سارة مولاة لبنى المطلب بن عبد مناف

١٥ ـ هند بنت عتبة زوج أبى سفيان أم معاوية

وأكثر هؤلاء أسلموا . وفيما يلى نذكر سبب إهدار دمهم

(١) أما عبد الله بن أبى سرح فإنه كان أسلم ثم ارتد ولحق بمكة وصار يتكلم بكلام قبيح فى حق النبى صلى الله عليه وسلم فأهدر دمه ﷺ يوم الفتح . فلما علم بإهدار دمه لجأ إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه وكان أخاً له فى الرضاع فقال يا أخى استأمن لى رسول الله ﷺ قبل أن يضرب عنقى . فغيبه عثمان رضى الله عنه حتى هدأ الناس واطمأنوا

ثم أتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يقول عثمان يارسول الله أمّنته فبايعه والنبي ﷺ يعرض عنه مرارا. ثم قال نعم فبسط يده فبايعه وأسلم وحسن إسلامه .

وفي السيرة الحلبية : وإنما أمر ﷺ بقتل ابن أبي سرح لأنه كان أسلم قبل الفتح وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أملى عليه سميعاً بصيراً ، كتب عليماً حكيماً . وإذا أملى عليه ، عليماً حكيماً كتب غفوراً رحيماً . وكان يفعل هذه الخيانات حتى صدر عنه أنه قال إن محمداً لا يعلم مايقول . فلما ظهرت خيانته لم يستطع أن يقيم بالمدينة فارتد وهرب إلى مكة . وقيل إنه لما كتب «ولقد خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِين» إلى قوله : « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ » تعجب من تفصيل خلق الإنسان فنطق بقوله ـ فتبارك الله أحسن الخالقين ـ قبل إملائه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اكتب ذلك . هكذا أنزلت . فقال عبد الله ، إن كان محمد نبياً يوحى إليه ، فأنا نبي يوحى إليّ . فارتد ولحق بمكة . فقال لقريش ، إني كنت أصرّف محمداً كيف شئت . كان يملي عليّ « عزيز حكيم » فأقول أو عليم حكيم . فيقول ، نعم كل صواب . وكل ما أقوله يقول ، اكتب هكذا نزلت إلخ .

وأخطأ الأستاذ در منجم في كتاب (حياة محمد) فقال إن اسمه عبد الله بن سعد والصواب ماذكرنا

(٢) عبد الله بن خطل : فإنه كان ممن قدم المدينة قبل الفتح وأسلم وكان اسمه « عبد العزى » فسماه النبي صلى الله عليه وسلم (عبد الله) وبعثه لأخذ الصدقة وأرسل معه رجلا من الأنصار يخدمه وكان مسلماً فنزل منزلا وأمره أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً ونام ثم استيقظ فلم يجده صنع له شيئاً وهو نائم فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركا وكان شاعراً فجعل يهجو النبي صلى الله عليه وسلم في شعره . وكان له قينتان تغنيانه بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان يوم فتح مكة ركب فرسه ولبس درعه وأخذ بيده قناة وصار يقسم لا يدخلها محمد عنوة ، فلما رأى خيل المسلمين خاف وذهب إلى الكعبة وألقى سلاحه وتعلق بأستارها فوجده رسول الله عند طوافه وهو بهذه الحال فقال اقتلوه فإن الكعبة لا تعيذ عاصياً ولا تمنع من إقامة حد واجب . فقتل واختلف فيمن قتله . فأما القينتان واسمهما فرتنا وقريبة فقتلت قريبة واستؤمن رسول الله لفرتنا فأمنها فأسلمت وعاشت إلى خلافة عثمان .

(٣) عكرمة بن أبي جهل : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه كان من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أشد الناس على المسلمين ولما بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدر دمه هرب ليلقى نفسه في بئر أو يموت تائها في البلاد أو كما نقول الآن :هرب لينتحر غرقا أو جوعا . وكانت امرأته أم حكيم رضى الله عنها بنت عمه الحارث بن هشام رضى الله عنه أسلمت قبله فاستأمنت له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمنه فقال هو آمن فخرجت في طلبه فأدركته فرجع معها وأسلم أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بعد ذلك من

فضلاء الصحابة وخالد بن الوليد ابن عمه وقتل عكرمة فى اليرموك .

(٤) الحويرث بن نُقَيد : أهدر دمه رسول الله ﷺ لأنه كان يعظم القول فيه ﷺ وينشد الهجاء فيه ويكثر أذاه وهو بمكة وكان قد شارك هبار بن الأسود فى نخس جمل زينب بنت رسول الله ﷺ لما هاجرت من مكة . فقتله علىّ رضى الله عنه . .

(٥) مِقْيس بن صبابة : كان قد أسلم ثم أتى على أنصارى فقتله وكان الأنصارى قتل أخاه هشام بن صبابة خطأ فى غزوة « ذى قرد » ظنه من العدو فجاء مقيس فأخذ الدية ثم قتل الأنصارى ثم ارتد ورجع إلى قريش فأهدر رسول الله دمه فقتله نميلة بن عبد الله الليثى ، رجل من قومه .

(٦) هبار بن الأسود . كان شديد الأذى للمسلمين ، وكان عرض لزينب رضى الله عنها بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت فنخس بها الجمل حيث سقطت على صخرة وأسقطت جنينها ولم تزل مريضة حتى ماتت واشترك معه فى النخس الحويرث بن نقيد الذى مر ذكره ، وأهدر دم هبار بن الأسود يوم الفتح فهرب واختفى ثم جاء النبى ﷺ واعترف بذنبه وأسلم فعفا عنه ومنع المسلمين من سبه مع أنه كان سبباً فى وفاة ابنته .

(٧) كعب بن زهير : كان شاعراً وكان يهجو النبى ﷺ بشعره ، وكان يعير أخاه بجيرا لإسلامه فأهدر دمه فلما بلغه أنه ﷺ أمر بقتله خاف وخرج حتى قدم المدينة بعد رجوع النبى ﷺ من فتح مكة وأسلم أمامه وأنشد قصيدته المعروفة التى أولها :

* بانت سعاد فقلبى اليوم متبول *

وقال فيها :

إن الرسول لنور يُستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فلما وصل إلى هذا البيت رمى عليه الصلاة والسلام إليه بردة كانت عليه وإن معاوية رضى الله عنه فى زمن خلافته بذل له فيها عشرة آلاف درهم فقال ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أعطانيه أحداً . فلما مات بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً فأخذها منهم وهى البردة التى كانت عند السلاطين ؛ وكان الخلفاء يلبسونها فى الأعياد ، وقيل إنها فقدت فى وقعة التتار .

وقد كان كعب بن زهير من فحول الشعراء ، وكذا أبوه زهير وأخوه بجير وابنه عقبة بن كعب وابن ابنه العوام بن عقبة .

(٨) الحارث بن هشام : كان شديداً على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين وابنه عبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

(٩) زهير بن أمية : كان أيضاً شديداً فى كفره ، كالحارث بن هشام فأهدر رسول الله دمهما يوم الفتح فهربا

واختبآ فى بيت أم هانئ بنت أبى طالب أخت علىّ رضى الله عنه فأجارتهما فأجاز صلى الله عليه وسلم جوارها ثم جاءت بهما فأسلما وحسن إسلامهما .

(١٠) صفوان بن أمية : كان من أشد الناس عداوة وأذية لرسول الله والمسلمين فأهدر رسول الله دمه فاختفى وأراد أن يلقى نفسه فى البحر ، فجاء ابن عمه عمير بن وهب الجمحى رضى الله عنه وقال : يانبى الله إن صفوان سيد قومه وقد هرب ليقذف نفسه فى البحر فأمنه. فإنك أمّنت الأحمر والأسود . فقال رسول الله أدرك ابن عمك فهو آمن . فقال أعطنى آية يعرف بها أمانك فإنى قد طلبت منه العود فقال لا أعود معك إلا أن تأتينى بعلامة أعرفها فأعطاه صلى الله عليه وسلم عمامته التى دخل بها مكة فلحقه بها وهو يريد أن يركب البحر فقال له صفوان اغرب عنى لا تكلمنى . فقال : أى صفوان فداك أبى وأمى جئتك من عند أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس وهو ابن عمك عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك . قال إنى أخافه على نفسى . قال هو أحلم من ذلك وأكرم وأراه العمامة التى جاء بها فرجع معه حتى وقف على رسول الله . فقال إن هذا يزعم أنك أمنتنى قال صدق. فقال أمهلنى بالخيار شهرين . فقال ﷺ : أنت بالخيار أربعة أشهر . ولما أراد ﷺ الخروج إلى حرب هوازن استقرض منه أربعين ألف درهم ؛ وطلب منه دروعاً كانت عنده . فقال : أغصباً يامحمد ؟ قال : لا ولكن عارية مرجوعة أو مضمونة ثم خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم حين خرج لحرب هوازن وهو على شركه فلما قسم رسول الله غنائم هوازن بحنين أعطاه مائة من الإبل ثم مائة ثم مائة ثم رآه صلى الله عليه وسلم يرمق شعبا مملوءاً نعما وشاء . فقال له ﷺ : يعجبك هذا ؟ قال نعم . قال هو لك وما فيه . فقبض صفوان مافى الشعب وقال إن الملوك لا تطيب نفوسها بمثل هذا ؛ ماطابت نفس أحد قط بمثل هذا إلا نبى . أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فأسلم وحسن إسلامه ؛ وترك المدة التى كان طلبها .

(١١) وحشى بن حرب : أهدر رسول الله دمه لأنه قتل حمزة رضى الله عنه يوم أحد ، وكانت الصحابة أحرص شئ على قتله ، فلما فتحت مكة هرب إلى الطائف ولما خرج وفد الطائف ليسلموا ضاقت عليه المذاهب فخرج حتى قدم على رسول الله وشهد شهادة الحق ثم خرج وحشى مع من خرج لقتال أهل الردة فى خلافة أبى بكر فقتل مسيلمة الكذاب بحربته التى قتل بها حمزة رضى الله عنه فكان يقول أرجو أن تكون هذه بتلك أى أن هذه تكفر تلك .

(١٢ ، ١٣) أما القينتان فقد تقدم ذكرهما .

(١٤) وأما سارة مولاة بنى المطلب فقد أهدر رسول الله دمها لأنها كانت مغنية بمكة تغنى بهجاء النبى ﷺ وقيل هى التى كان معها كتاب حاطب بن أبى بلتعة[1] وكانت قدمت المدينة تشكو الحاجة وتطلب الصلة فقال لها

(١) راجع السيرة النبوية لدحلان وتاريخ أبى الفدا .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان فى غنائك ما يغنيك ؟ فقالت إن قريشا منذ قُتل من قتل منهم ببدر تركوا الغناء فوصلها وأوقر لها بعيراً طعاماً فرجعت إلى مكة وكان ابن خطل يلقى إليها هجاء رسول الله فتغنى به فاختفت عند فتح مكة ثم استؤمن لها رسول الله فجاءته وأسلمت وحسن إسلامها ، وعاشت إلى خلافة أبى بكر .

(١٥) هند بنت عتبة بن ربيعة زوج أبى سفيان وأم ابنه معاوية .

أهدر دمها رسول الله لأنها مثّلت بعمه حمزة رضى الله عنه يوم أحد [1] ولاكت كبده ، فلما كان يوم الفتح اختفت فى بيت أبى سفيان زوجها ثم أسلمت . قيل إن بين إسلامها وإسلام زوجها ليلة واحدة وكانت هند أمرأة ذات أنفة وعقل . حضرت قتال الروم يوم اليرموك مع أبى سفيان ، وكانت تشجّع المسلمين وتحرضهم على القتال مع بقية النسوة اللاتى كن معها .

من هذا يتبين أن عدد الذين أهدر دمهم رسول الله خمسة عشر ، لم يقتل منهم إلا أربعة وأسلم الباقون . قال مستر موير إن الذين قتلوا فعلا هم أربعة فقط . وقد اختفى عتبة ومعتب ابنا أبى لهب ثم أسلما واختفى أيضاً سهيل بن عمرو وكان ابنه مسلما ثم أسلم بالجِعرانة [2] .

وجاء فى كتاب تاريخ الأمم الإسلامية للمرحوم الشيخ محمد الخضرى بك ص ١٨٧ ما يأتى :

« وأمر حين دخوله مكة بقتل أفراد ذوى جرائم خاصة بهم فقتل أكثرهم » وهذا ليس بصحيح فالذين قتلوا هم الأقلون لا الأكثرون . وضربت لرسول الله قبة من أدم بالحجون ، فمضى الزبير بن العوام برايته حتى ركزها عندها وجاء رسول الله فدخلها فقيل له ألا تنزل منزلك ؟ فقال : وهل ترك عقيل لنا منزلا [3] ؟ .

الطواف : ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة ومعه المسلمون استلم الركن بمحجنه (المحجن عصا فى طرفها عُقافة كالصولجان) وكبرَّ فكبَّر المسلمون لتكبيره ورجّعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيراً حتى جعل يشير إليهم رسول الله أن اسكتوا والمشركون فوق الجبال ينظرون ، فطاف بالبيت ومحمد بن مسلمة آخذ بزمام الناقة سبعا يستلم الحجر الأسود كل طوفة بمحجنه ، وكان ذلك يوم الاثنين لعشر بقين من رمضان كما تقدم وهو حلال غير محرم . ولما فرغ رسول الله من طوافه نزل عن راحلته ثم انتهى إلى المقام فصلى ركعتين ، ثم انصرف إلى زمزم وقال : لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها دلواً فنزع له العباس دلواً فشرب منه وتوضأ والمسلمون يبتدرون وضوءه يصبونه على وجوههم والمشركون يعجبون ويقولون : ما رأينا ملكا قط أبلغ من هذا ولا سمعنا به .

---

(١) راجع غزوة أحد (٢) الجعرانة هي ماء بين الطائف ومكة وهى إلى مكة أقرب .

(٣) عقيل هو ابن أبى طالب ، ابن عم رسول الله وأخو على وجعفر لأبويهما وهو أكبرهما ، خرج مع المشركين الى بدر مكرها فأسر يومئذ . أسلم قبل الحديبية . وتوفى عقيل فى خلافة معاوية .

دخوله الكعبة

جلس رسول الله فى ناحية المسجد وأبو بكر رضى الله عنه قائم على رأسه بالسيف ثم دعا عثمان بن طلحة حاجب الكعبة فأخذ منه مفتاح الكعبة ودخلها وصلى ركعتين بين العمودين اليمانيين ، ثم وقف على باب الكعبة وقال :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له . صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمىّ هاتين إلا سدانة البيت[1] وسقاية الحاج . ألا وقتل الخطأ مثل العمد . السوط والعصا فيهما الدية مغلظة فيها أربعون خلفة[2] فى بطونها أولادها . يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم خلق من تراب . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الآية . يا معشر قريش ويا أهل مكة ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم . ثم قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ـ فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيئا فبذلك يسمى أهل مكة « الطلقاء[3] » أما مفتاح الكعبة فقد رده رسول الله إلى عثمان بن طلحة وقال خذوها يا بنى أبى طلحة خالدة لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم[4] ودفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب[5] . وفى هذا اليوم صار رسول الله سيد مكة بعد أن هاجر منها مضطهداً واستولى جيشه عليها وقضى على الشرك وهدم الأصنام كما سيأتى .

بيعة أهل مكة

اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله فجلس لهم على الصفا وعمر بن الخطاب تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسفل من مجلسه يأخذ على الناس فبايع رسول الله على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله من الناس على الإسلام ، وبينما رسول الله يبايع الناس ، جاءه رجل فأخذته الرعدة ، فقال رسول الله هون عليك ، فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد . ومن جملة

---

(١) سدانة البيت : خدمته . (٢) الخلفة : الناقة الحامل .

(٣) ومن ذلك كان على عليه السلام يقول لمعاوية « أنى يستوى المولى والمعتق » يعنى أعتقناكم حين مكننا الله من رقابكم .

(٤) هاجر عثمان بن طلحة إلى رسول الله فى هدنة الحديبية مع خالد بن الوليد ولقيهم فى الطريق عمرو بن العاص كما تقدم فأسلموا وأقام عثمان بالمدينة ، فلما توفى رسول الله ، انتقل إلى مكة فأقام بها حتى مات سنة ٤٢ هـ .

(٥) العباس بن عبد المطلب هو جد الخلفاء العباسيين .

من بايعه فى ذلك اليوم على الإسلام « معاوية بن أبى سفيان » فرحّب به رسول الله ثم كان من كتّاب الوحى .
فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء واجتمع إليه نساء من نساء قريش فيهن هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان منتقبة متنكرة لحدثها وما كان من صنيعها بحمزة فهى تخاف أن يأخذها رسول الله بحدثها، فلما دنون منه ليبايعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تبايعننى على أن لا تشركن بالله شيئاً . فقالت هند : وإنك لتأخذه علينا أمراً ما تأخذه على الرجال وسنؤتيكه . قال ولا تسرقن . قالت والله إنى كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنة وما أدرى أكان ذلك حلالا أم لا ؟ فقال أبو سفيان — وكان شاهداً لما تقول — أما ما أصبتِ فيما مضى فأنتِ منه فى حل . فقال رسول الله وإنك لهند بنت عتبة ؟ فقالت أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف ،قال: عفا الله عنك. قال ولا تزنين . قالت يا رسول الله هل تزنى الحرة ؟ قال ولا تقتلن أولادكن . قالت قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم (فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب) ، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن . قالت والله إن إتيان البهتان لقبيح ولبعض التجاوز أمثل قال ولا تعصيننى فى معروف . قالت ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فى معروف . فقال رسول الله لعمر : بايعهن ، واستغفر لهن رسول الله . وكان رسول الله لا يصافح النساء ، ولا يمس امرأة وتمسه إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه . إنما كان رسول الله يبايع النساء بالكلام ولما أسلمت هند ، عمدت إلى صنم كان فى بيتها وجعلت تضربه بالقدوم وتقول : « كنا منك فى غرور » .

هذا وقد ذهب الشافعى وأحمد رضى الله عنهما إلى أن رسول الله دخل مكة وملكها صلحاً ويرى أبو حنيفة والأكثرون أنه فتحها عنوة . وعلى كل حال لم يحارب رسول الله قريشاً ولم يأمر أحداً من قواده بحربهم بل دخل مكة بلا حرب ، فلم ينتقم ممن اضطهدوه وأخرجوه من بلده وتآمروا على قتله بل صفح عنهم عند القدرة بل لم يحمل عند دخوله مكة سيفاً .

هدم الأصنام

دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى الكعبة (٣٦٠) صنما لكل حى من أحياء العرب صنم قد شدوا أقدامها بالرصاص . فجاء ﷺ ومعه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم فيخر لوجهه وهو يقول : ﴿ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ . وأمر بكسر هبل[1] وقد أخرجت جميع الأصنام من المسجد وأحرقت ومحيت كل صورة بالكعبة وأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى أيديهما الأزلام التى كانوا يستقسمون بها ، ونادى منادى رسول الله ﷺ بمكة من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنماً إلا كسره ، فكسروا الأصنام التى كانت فى بيوتهم بلا تردد ثم بعث رسول الله السرايا لكسر الأصنام التى حول

(١) راجع باب عبادة الأصنام .

مكة لأنهم كانوا اتخذوا لهم أصناماً جعلوا لها بيوتاً يعظمونها ويهدون لها ويطوفون بها كما يطوفون بالكعبة ، فكان في كل حي صنم فمنها « العزى ومناة وسواع وبوانة وذو الكفين » .

أذان بلال على ظهر الكعبة

أمر رسول الله ﷺ بلالاً رضي الله عنه أن يؤذن ظهر يوم الفتح على ظهر الكعبة ، فلم يرق أذان بلال لبعض من سمعه من أهل مكة فمن قائل : « أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً ؟» وقال الحكم بن العاص « والله إن هذا لحدث عظيم . عبد بني جمح يصيح على بنية أبي طلحة ! » ولم يقل أبو سفيان شيئاً خشية أن يعلم بقوله رسول الله ﷺ حتى من الحصباء وصار بعض من قريش يستهزئون ويحكون صوت بلال غيظاً وكان من جملتهم أبو محذورة[1] وكان من أحسنهم صوتاً فلما سمعه رسول الله أمره أن يؤذن لأهل مكة وكان سنه ١٦ سنة .

إسلام أبي قحافة (عثمان بن عامر التيمي) والد أبي بكر الصديق

ذهب أبو بكر رضي الله عنه وجاء بأبيه عثمان ويكنى بأبي قحافة يقوده وقد كف بصره فلما رآه ﷺ قال : هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه ؟ فقال أبو بكر : هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه . فأجلسه بين يدي رسول الله فمسح رسول الله صدره وقال : « أسلم تسلم » فأسلم وهنأ رسول الله ﷺ أبا بكر بإسلام أبيه . ويلاحظ أن إسلام أبي قحافة تأخر إلى فتح مكة فلم يسلم إلا بعد عشرين سنة أي بعد أن أسلمت قريش . قال المسعودي : « توفي أبو قحافة في خلافة عمر بن الخطاب وهو ابن تسع وتسعين سنة وذلك في سنة ١٣ هجرية وهي السنة التي استخلف فيها عمر بن الخطاب » وهو أول من ورث خليفة في الإسلام .

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد فتحها ثمانية عشر يوماً (كما اعتمده البخاري) يقصر الصلاة في مدة إقامته بها لأنه كان يترقب المسير إلى حرب هوازن لسماعه بتجهزهم لمحاربته .

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة أشار إلى الأصنام فسقطت لوجهها ، فقال راشد بن حفص :

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا يأبى عليك الله والإسلام
لو ما شهدت محمداً وقبيله بالفتح حين تكسر الأصنام

(١) اسمه أوس بن معير بن لوذان بن ربيعة بن عريج بن سعد بن جمح . غلبت عليه كنيته . توفي بمكة سنة ٥٩ هـ .

لرأيت نور الله أضحى ساطعاً والشرك يغشى وجهه الإظلام

وكان راشد هذا سادن صنم بنى سليم الذى يدعى سواعاً . قال له رسول الله ﷺ : ما اسمك؟ قال غاوى بن ظالم . فقال : أنت راشد بن عبد الله .

وبعد فتح مكة ترك العرب عبادة الأصنام واعتنقوا الإسلام وحاربوا مع رسول الله لنشر دينه فكان ذلك انتصاراً عظيماً وفتحاً مبيناً . وقد حرّم الإسلام الصور والرهبنة وساوى بين الناس ورفع شأن المرأة ومنحها حقوقاً كانت محرومة منها وقضى على الفسق والفجور وحرّم وأد الأولاد وحروب الجاهلية والأخذ بالثأر وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والميسر والربا والرشوة مما كان شائعاً فى الجاهلية ونشر العدل بين الناس وأمّنهم على أرواحهم وأموالهم واحترم حرمة المنازل وأوجب احترام الوالدين وحماية الأرامل والأيتام وفرض الزكاة وحضّ على الرفق بالحيوان إلى غير ذلك مما هو مفصّل فى كتب الشريعة .

سرية خالد بن الوليد

إلى العُزّى [1]

بعد أن قضى رسول الله ﷺ على الأصنام التى كانت على الكعبة ومحا كل صورة بها وكسرت الأصنام التى كانت فى البيوت بأمره، وجه نظره إلى هدم الأصنام الأخرى المجاورة لمكة حتى تطهر البلاد من الوثنية ويعبد الله الواحد القهار وتثبت دعائم الدين الصحيح فبعث حين فتح مكة لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها فخرج فى ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهى إليها فهدمها ثم رجع إلى رسول الله فأخبره . فقال هل رأيت شيئاً ؟ قال لا . قال لم تهدمها . فارجع إليها فاهدمها . فرجع خالد وهو متغيظ فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس فجعل السادن [2] يصيح بها فضربها خالد فجزلها [3] اثنتين ورجع إلى رسول الله فأخبره فقال : نعم تلك العزى وقد يئست أن تعبد ببلادكم أبداً ، وكانت بنخلة (على بعد ليلة من مكة) وكانت لقريش وجميع بنى كنانة ، وكانت أعظم أصنامهم وكان سدنتها بنو شيبان من بنى سليم .

قال ابن حبيب : العُزّى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبده غطفان فلما بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد قطع الشجرة وهدم البيت وكسر الوثن، والبيت كان مبنيا على العزى وكانوا يهدون لها كما يهدون للكعبة ويطوفون وينحرون عندها .

---

(١) العزى تأنيث الأعز مثل الكبرى تأنيث الأكبر . والأعز بمعنى العزيز والعزى بمعنى العزيزة وهى أحدث من اللات ومناة وكانت العرب وقريش تسمى بها عبد العزى .

(٢) السادن : الخادم . (٣) جزلها : قطعها .

سرية سعد بن زيد الأشهلى

إلى مَنَاة

مناة صنم للأوس والخزرج وغسان وكانت بالمشلَّل [١] ومَنَاة من أقدم الأصنام وكانت العرب تسمى عبد مناة وكانوا يحجون إليها ولم يكن أشد إعظاماً لها من الأوس والخزرج .

بعث رسول الله سعد بن زيد الأنصارى الأشهلى [٢] إلى مناة ليهدمها [٣] وذلك لست بقين من شهر رمضان فخرج فى عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعليها سادن . (خادم) فقال السادن ماتريد ؟ قال هدم مناة . قال أنت وذاك . فأقبل سعد يمشى إليها فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها . فقال السادن مناة دونك بعض غضباتك فضربها سعد فقتلها وأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه فهدموه ولم يجدوا فى خزانتها شيئاً . وما ذكر من أن الذى ذهب لهدمها سعد بن زيد الأشهلى هو مامشى عليه فى المواهب تبعاً لطبقات ابن سعد وفى سيرة ابن هشام أنه على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وسعد بن زيد الأشهلى هو الذى كان بعثه النبى ﷺ بسبايا من سبايا قريظة إلى نجد ليبتاع بهم خيلاً وسلاحاً ومن المضحك حقًّا ، اختفاء تلك المرأة السوداء فى الصنم لتخيف من يتعدى عليه وإيهام عبّاده بمـاله من قوة ورهبة .

سرية عمرو بن العاص

إلى سُواع

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة بعد فتح مكة عمرو بن العاص إلى سواع ـ اسم صنم لهذيل ـ على ثلاثة أميال من مكة وكان بأرض يقال لها رُهاط من بطن نخلة وكانت سدنته من بنى لحيان ، قال عمرو فانتهيت إليه وعنده سادن فقال ماتريد ؟ قلت أمرنى رسول الله أن أهدمه . قال لاتقدر على ذلك . قلت لم ؟ قال تُمنع . قلت حتى الآن أنت فى الباطل ويحك وهل يسمع أو يبصر ؟ قال فدنوت منه فـكسرته وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئاً . ثم قلت للسادن كيف رأيت ؟ قال أسلمت لله . ولم نجد فى كتب التاريخ عدد الذين كانوا مع عمرو بن العاص رضى الله عنه عند ما ذهب إلى هدم سواع .

---

(١) جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد . (٢) شهد سعد بن زيد بدراً .

(٣) مناة : اسم صنم فى جهـة البحر مما يلى قديداً بالمشلل على سبعة أميال من المدينة . وكانت الأزد وغسان يهلون له ويحجون إليه (ياقوت) .

سرية خالد بن الوليد

إلى جذيمة

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى شوال سنة ثمان من الهجرة إلى بنى جذيمة من كنانة وكانوا بأسفل مكة على ليلة ناحية يَلَمْلَمَ وهو يوم الغُميصاء داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه مقاتلا فخرج فى ٣٥٠ رجلا من المهاجرين والأنصار وبنى سليم فانتهى إليهم خالد فقال من أنتم؟ قالوا : مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد فى ساحاتنا وأذّنا فيها . قال : فما بال السلاح عليكم؟ فقالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح . قال فضعوا السلاح فوضعوه . فقال لهم استأسروا . فاستأسر القوم . فأمر بعضهم فكتف بعضاً وفرقهم فى أصحابه . فلما كان فى السحر نادى خالد : من كان معه أسيرٌ فليدافه[1] . فأما بنو سليم فقتلوا من كان فى أيديهم ، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسارام فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم ما صنع خالد فرفع يديه فقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد » وبعث على بن أبى طالب ومعه مال فودى لهم قتلاهم وماذهب منهم ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره .

كانت بنو جذيمة قد أصابوا فى الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة (عم خالد) وكانا أقبلا تاجرين من اليمن حتى إذا نزلا بهم قتلوهما وأخذوا أموالهما . فلما أرسل خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة وقتل منهم من قتل مع أنه لم يؤمر بقتالهم تبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم مما صنع خالد لأنهم أعلنوا إسلامهم . وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام فى ذلك إذ قال له عبد الرحمن : عملت بأمر الجاهلية فى الإسلام . فقال خالد إنما ثأرت بأبيك . فقال عبد الرحمن بن عوف كذبت . قد قتلت قاتل أبى ولكنك إنما ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة حتى كان بينهما شىء . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال مهلا ياخالد . دع عنك أصحابى فوالله لو كان لك أحدٌ ذهباً ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غَدْوَةَ رجل من أصحابى ولا رَوحته ؛ فالنبى كان يقول الحق ولا يخشى أحداً مهما أوتى من قوة . لذلك لم يُخْفِ عن خالد استياءه مما فعل .

(١) المدافة : الإجهاز بالسيف .

غزوة حنين

١٠ شوال سنة ٨ هـ ـ فبراير سنة ٦٣٠ م

حُنين واد فى طريق الطائف إلى جنب ذى المجاز بينه وبين مكة ثلاث ليال وتسمى غزوة أوطاس[1] اسم لموضع كانت به الموقعة وهو واد فى ديار هوازن . وتسمى الغزوة أيضاً غزوة هوازن . وهوازن اسم قبيلة كبيرة من العرب فيها عدة بطون وكانت هذه الغزوة فى ١٠ شوال سنة ثمان من الهجرة (فبراير سنة ٦٣٠ م) .

وسببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة خافت أشراف هوازن وثقيف أن يسير إليهم ويغزوهم فعزموا على قتاله قبل أن يقاتلهم ويقال إنهم كانوا يستعدون للقتال قبل فتح مكة وذلك حين سمعوا بخروج رسول الله من المدينة وهم يظنون أنه إنما يريدهم فأسندوا الرياسة والقيادة إلى مالك بن عوف أحد بنى نصر وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فاجتمع إليه من القبائل جموع كثيرة منهم بنو سعد بن بكر وهم الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسترضعاً فيهم ومعهم دُرَيد بن الصِّمَّة رئيس بنى جُشَم وسيدهم وكان شجاعاً مجرباً لكنه كان شيخاً بلغ مئة وعشرين سنة وقيل أكثر من ذلك وقد عمى وصار لا ينتفع إلا برأيه وخبرته ومعرفته بالحروب .

وكان قائد ثقيف كنانة بن عبد يا ليل وقد أسلم بعد ذلك .

قوة العدو واستعداده

كان قائد هذا الجيش كما قلنا مالك بن عوف فأمرهم أن يسوقوا معهم إلى الحرب كل شىء : المواشى والأموال والنساء والأبناء كى يثبتوا ولا ينهزموا إلا أنهم اشترطوا عليه أن يأخذ برأى دريد بن الصمة لأنه شجاع وخبير بالحروب ، فلما نزلوا بأوطاس قال دريد : مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء وخوار البقر ؟ فقيل له إن مالك بن عوف ساقهم إلى القتال ، فاستدعاه فلما جاء سأله فقال أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنهم ، فلم ير رأيه وأشار عليه برد الذرية والأموال فلم يقبل ورماه بضعف الرأى لكبر سنه . ثم أمر مالك بالخيل فجعلت صفوفاً ثم جعل النساء فوق الإبل وراء المقاتلة صفوفاً ثم جعل الإبل والبقر والغنم وراء ذلك كيلا يفروا ويقاتلوا عن مالهم ونسائهم وذراريهم . ثم قال للناس إذا رأيتمونى شددت عليهم فشدوا عليهم شدة رجل واحد .

---

(١) يجوز أن يكون منقولا من جمع وطيس وهو التنور وقيل الوطيس : نقرة فى حجر توقد تحتها النار فيطبخ فيه اللحم . ويومئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الآن حمى الوطيس » وذلك حين استعرت الحرب . وهو أول من قاله .

وكان جملة من اجتمع من بنى سعد وثقيف ٤٠٠٠ وانضم إليهم من سائر العرب جوع كثيرة وكان مجموعهم كلهم نحو ٢٠,٠٠٠ وكانت هوازن رماة .

قوة جيش المسلمين واستعدادهم

كان مع النبى صلى الله عليه وسلم ١٢,٠٠٠ (منهم ١٠,٠٠٠ الذين جاءوا معه من المدينة لفتح مكة و٢٠٠٠ من الذين أسلموا فى فتح مكة) فقال أبو بكر « لا نغلب اليوم من قلة » وقيل قالها غيره .

وذكروا لرسول الله عند عزمه على الخروج أن عند صفوان بن أمية دروعاً وسلاحاً فأرسل إليه فأعطاه مئة درع بما يكفيها من السلاح وفى رواية ٤٠٠ درع وسأله رسول الله أن يكفيهم حملها إلى موضع القتال ففعل . واستعار أيضا من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عمه ﷺ ٣٠٠٠ رمح وقال كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين .

خرج رسول الله من مكة يوم السبت لست خلون من شوال سنة ثمان من الهجرة (٢٨ يناير سنة ٦٣٠ م) وأهل مكة معه ركبانا ومشاة حتى النساء ومن لم يكمل إسلامه . واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عتّاب ابن أسيد بن أبى العيص على مكة أميراً وكان شابا وترك مُعاذ بن جبل الأنصارى الخزرجى يعلِّم الناس الأحكام والشرائع لأنه كان عالما بالقرآن ومتبحراً فى الدين .

ترتيب صفوف المسلمين وتوزيع الرايات

ولما اقترب رسول الله ﷺ من مكان العدو رتب أصحابه وصفّهم ووضع الألوية والرايات من المهاجرين والأنصار بالكيفية الآتية :

١ — علىّ بن أبى طالب ـ لواء المهاجرين .

٢ — راية لسعد بن أبى وقّاص .

٣ — راية لعمر بن الخطاب .

٤ — الحباب بن المنذر ـ لواء الخزرج .

٥ — أسيد بن حضير ـ لواء الأوس .

ورتّب قبائل العرب ووزع عليهم الألوية والرايات ولبس رسول الله درعين والبيضة والمغفر وركب بغلته دلدل وقدم سليما من يوم خرج من مكة واستعمل عليهم خالد بن الوليد فلم يزل فى مقدمته حتى ورد الجعرانة .

جواسيس العدو

أرسل مالك بن عوف رئيس هوازن ثلاثة نفر من الجواسيس ينظرون إلى جيش المسلمين فرجعوا خائفين ونصحوا بالعودة فرماهم بالجبن وحبسهم عنده خوفاً أن يشيعوا ذلك فى جيشه فتثبط هممهم وتخور عزائمهم

جاسوس المسلمين

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من أصحابه وهو عبد الله بن أبى حَدْرد الأسلمى وأمره أن يدخل فى جيش العدو ويسمع منهم ما أجمعوا عليه فمكث يوماً أو يومين ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره أنه انتهى إلى خباء مالك بن عوف وعنده رؤساء هوازن فسمعه يقول لأصحابه إن محمدا لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة وإنما كان يلقى قوما أغماراً لاعلم لهم بالحرب فيظهر عليهم فإذا كان السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم . ثم صفوا . ثم تكون الحملة منكم واكسروا أغماد سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف واحملوا حملة رجل واحد واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولا .

القتـــال

لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بحنين وانحدر فى الوادى وذلك عند غبش الصبح خرج عليهم القوم وكانوا قد كمنوا لهم فى شعاب الوادى ومضايقه عملا بإشارة دريد بن الصمة فحمل عليهم المسلمون فانكشفوا ثم انشغلوا بالغنائم ، وذلك يذكرنا بما حدث فى غزوة أحد فإنهم لما رأوا العدو ولى هارباً انشغلوا عن الحرب بجمع الغنائم وفارق الرماة المكان الذى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالبقاء فيه فانكشف المسلمون وكرّ عليهم خالد بن الوليد الخ . وفى هذه الغزوة لما انشغل المسلمون بالغنائم استقبلهم العدو بالسهام فعادوا منهزمين لايلوى أحد على أحد وانكشفت خيل بنى سليم مولّية وكانت مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فتبعهم أهل مكة والناس فانهزموا . وكانت هوازن رماة .

ثبات رسول الله ﷺ

وقد ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت فى غزوة أحد وكان ثباته سببا فى كسب الموقعة فإنه انحاز

ذات اليمين ومعه نفر قليل منهم أبو بكر . وعمر . وعثمان . وعلى . والعباس وابنه الفضل . وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه صلى الله عليه وسلم . وأسامة بن زيد . وربيعة والحارث بن عبد المطلب . وعتبة . ومعتب (ابنا أبى لهب) . وأيمن بن أم أيمن ، واختلف فى عدد من ثبت مع رسول الله . وقيل إنهم لم يبلغوا مئة وكان رسول الله يركض وهو على بغلته نحو هوازن وهو يقول :

« أنا النبىّ لا كذب . أنا ابن عبد المطلب » . ولم يقل أنا ابن عبد الله لأن العرب كانت تنسبه إلى جده عبد المطلب لشهرته ولموت عبد الله فى حياته .

وأخذ كفا من تراب فرماه فى وجوه العدو قائلا شاهت الوجوه . فانهزموا . وهذا الرمى وقع مثله فى غزوة بدر وهو من معجزاته ﷺ .

الانتصار بعد الهزيمة

لما ثبت رسول الله ﷺ ولم يبق معه إلا بعض أصحابه ، قال لعمه العباس اصرخ : يا معشر الأنصار يا أصحاب السَّمُرَة[1] . وكان العباس عظيم الصوت ، وفى رواية قال له ناد : يا أصحاب البيعة يوم الحديبية يا أصحاب سورة البقرة . فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها فأمرهم أن يصدقوا الحملة على العدو فاقتتلوا قتالا شديداً فنظر إلى قتالهم فقال « الآن حمى الوطيس[2] » فولى المشركون الأدبار والمسلمون يقتلون ويأسرون فيهم ويتبعون آثارهم وقتل بعض المسلمين ذرية العدو فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الذرية وقال « من قتل قتيلا فله سلبه » . وقُتل دريد بن الصمة[3] قتله ربيعة بن رفيع السلمى وجرح خالد بن الوليد جراحات أثقلت به . فتفل النبى صلى الله عليه وسلم فى جرحه فبرئ . ولما وقعت الهزيمة أسلم ناس من كفار مكة وغيرهم .

غنائم المسلمين

كانت غنائم المسلمين كما يأتى :

أسر من العدو خلق كثير ومن النساء نحو ٦٠٠٠ وغنم المسلمون من الإبل ٢٤٫٠٠٠ بعير . ومن الغنم أكثر من ٤٠٫٠٠٠ شاة . ومن الفضة ٤٠٠٠ أوقية .

---

(١) الشجرة التى كانت تحتها بيعة الرضوان (٢) الوطيس : التنور . وحمى الوطيس من الكلمات التى لم تسمع إلا منه صلى الله عليه وسلم وهى مثل يضرب لشدة الحرب (٣) من حكم دريد : إياكم والفاحشة فى النساء فإنها عار أبد وعقوبة غد ، وعليكم بصلة الرحم فإنها تعظم الفضل وتزين النسل . من أسدى إليكم خيراً فأضعفوه له وإلا فلا تعجزوا أن تكونوا مثله .

تقسيم الغنائم

بدأ رسول الله ﷺ بالأموال فقسمها وأعطى المؤلفة قلوبهم[١] أول الناس فأعطى أبا سفيان بن حرب ٤٠ أوقية من الفضة و ١٠٠ من الإبل وكذا ابنيه يزيد ومعاوية وأعطى حكيم بن حزام ١٠٠ من الإبل ثم سأله مئة أخرى فأعطاه إياها . وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة ١٠٠ من الإبل وكذا أسيد بن جارية الثقفى والحارث ابن هشام . وصفوان بن أمية . وقيس بن عدى . وسهيل بن عمرو . وحويطب بن عبد العزى . والأقرع ابن حابس التميمى . وعيينة بن حصن . ومالك بن عوف .

وأعطى العباس بن مرداس ٤٠ من الإبل فقال فى ذلك شعراً فأعطاه ١٠٠ من الإبل ، وأعطى مخرمة بن نوفل ٥٠ بعيراً وكذا العلاء بن حارثة وسعيد بن يربوع وعثمان بن وهب وهشام بن عمرو العامرى . فبلغ ما أعطى ممن ذكروا ١٤٨٥٠ من الإبل وأعطى ذلك كله من الخمس (قال ابن سعد وهو أثبت الأقاويل عندنا) ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم ثم فضها على الناس فكانت سهام كل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة فإن كان فارساً أخذ اثنى عشر من الإبل و ١٢٠ شاة . وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم له .

رد السبى

قدم وفد هوازن على النبى ﷺ وهم أربعة عشر رجلا ورأسهم زهير بن صرد وفيهم أبو برقان عم رسول الله من الرضاعة وهو من بنى سعد . وقد جاءوا مسلمين فسألوه أن يمن عليهم بالسبى فرضى رسول الله ورضى المسلمون بما رضى به رسول الله وردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ولم يختلف منهم أحد غير عيينة بن حصن وكان من الأعراب الجفاة فإنه أبى أن يرد عجوزاً صارت فى يده منهم ثم ردها بعد ذلك ووفد عليه ﷺ مالك بن عوف رئيس هوازن فرد عليه أهله وماله وأعطاه مئة من الإبل كما تقدم وأسلم وحسن إسلامه واستعمله رسول الله على من أسلم من قومه .

الغنائم والأنصار

لما رأت الأنصار ما أعطى رسول الله فى قريش والعرب تكلموا فى ذلك وقالوا حن الرجل إلى أهله فقال رسول الله : يا معشر الأنصار أما ترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ قالوا رضينا يا رسول الله بك حظاً وقسما . فقال رسول الله : « اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » .

---

(١) المؤلفة قلوبهم : المستمالة قلوبهم بالإحسان والمودة وكانوا من أشراف العرب ، فمنهم من كان يعطيه دفعاً لأذاه ، ومنهم من كان يعطيه طمعاً فى إسلامه وإسلام أتباعه ، ومنهم من كان يعطيه ليثبت على إسلامه لقرب عهده بالجاهلية . قال بعضهم فلما تولى أبو بكر الصديق وفشا الإسلام منعهم وقال « انقطعت الرشا » .

رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة

انصرف رسول الله ﷺ وكان قد انتهى إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذى القعدة فأقام بها ثلاث عشرة ليلة . فلما أراد الانصراف إلى المدينة خرج ليلة الأربعاء لاثنتى عشرة بقين من ذى القعدة ليلا فأحرم بعمرة ودخل مكة فطاف وسعى وحلق رأسه ورجع إلى الجعرانة من ليلته كبائت ثم غدا يومُ الخميس حتى خرج على سَرِف [1] ثم أخذ الطريق على مر الظهران ثم إلى المدينة .

ولقد أنزل الله تعالى فى هذه الوقعة في سورة التوبة :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُم شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ .

وفى هذه الغزوة سمى طلحة بن عبيد الله « الجواد » لكثرة إنفاقه على العسكر وقيل سمى « الفيّاض » .

سرية أبى عامر الأشعرى

أو سرية غزوة أوطاس (هوازن)

أبو عامر الأشعرى هو عم أبى موسى الأشعرى وكان أبو عامر من كبار الصحابة . لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين بعثه على جيش إلى أوطاس خلف الفاربن من هوازن وكان المنهزمون انقسموا ثلاث فرق : فرقة منهم لحقت بالطائف . وفرقة بنخلة . وفرقة بأوطاس . فانتهى إليهم أبو عامر فإذا هم مجتمعون فناوشوه القتال وقتل منهم أبو عامر تسعة مبارزة بعد أن يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام وأفلت منه العاشر ثم استشهد أبو عامر ، قتله أخوان هما العلاء وأوفى ابنا الحارث بن جشم . ثم خلف أبا عامر أبو موسى رضى الله عنه باستخلاف عمر له فأقره الناس فقاتل القوم حتى هزمهم وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا .

سرية الطفيل بن عمرو الدَّوسى

إلى ذى الكَفَّين

لما أراد رسول الله السير إلى الطائف بعث الطفيل بن عمرو [2] الدَّوسى إلى ذى الكفين [3] وذلك فى شوال

(١) بفتح أوله وكسر ثانيه وهو موضع على ستة أميال من مكة (٢) كان الطفيل شريفاً شاعراً لبيباً وقد تقدم ذكر إسلامه فليراجع
(٣) ذو الكفين صنم من خشب لعمرو بن حممة الدوسى .

سنة ثمان من الهجرة ليهدمه وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف فخرج سريعاً إلى قومه فهدم ذا الكفين وجعل يحش النار فى جوفه ويحرقه ويقول :

ياذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا
إنى حششت النار فى فؤادكا

وانحدر معه من قومه ٤٠٠ سراعاً فوافوا النبى صلى الله عليه وسلم بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام وقدم بدبابة ومنجنيق .

هذا وقد ذكرت الدبابات والمنجنيق لأول مرة فى غزوة خيبر .

غزوة الطائف

شوال سنة ٨ هـ فبراير سنة ٦٣٠م

كانت غزوة الطائف فى شوال سنة ثمان من الهجرة (فبراير سنة ٦٣٠ م) وقد تقدم ذكر الطائف عندما سافر إليها رسول الله بعد وفاة أبى طالب وخديجة يلتمس من ثقيف النصرة فخذلوه وعاد إلى مكة وكان ذلك سنة عشر من البعثة . أما فى هذه المرة فإنه خرج من حنين يريد الطائف ليغزوها لما علم أن مالك بن عوف وجمعاً من أشراف قومه لحقوا بالطائف عند انهزامهم وقد كانت ثقيف رمّوا حصنهم وأدخلوا فيه مايصلحهم لسنة فلما انهزموا من أوطاس دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم وتهيأوا للقتال وكان معهم مالك بن عوف النضرى وسار رسول الله فنزل قريباً من حصن الطائف وعسكر هناك فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة وقتل منهم اثنا عشر رجلا فيهم عبد الله بن أبى بكر الصديق يومئذ فاندمل الجرح ثم انتقض به بعد ذلك فمات منه وأصيبت عين أبى سفيان فأتى النبى ﷺ وعينه فى يده فقال يارسول الله هذه عينى أصيبت فى سبيل الله فقال له إن شئت دعوتُ فردت عليك وإن شئت فعين فى الجنة قال : فى الجنة ورمى بها من يده[1] .

فارتفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع مسجد الطائف الذى أنشىء بعد ذلك وكان معه ﷺ من نسائه أم سلمة وزينب فضرب لهما قبتين وكان يصلى بين القبتين الصلاة مقصورة ودام حصار الطائف ثمانية عشر يوماً . ونصب عليهم المنجنيق ونثر الحسك سقبين من عيدان حول الحصن ونادى منادى رسول الله : أيما عبد نزل من الحصن وخرج لنا فهو حر فخرج منهم بضعة عشر رجلا فأعتقهم رسول الله .

---

(١) وقلعت عينه الثانية فى اليرموك عند مقاتلة الروم وكان يحرض المسلمين على قتال الروم والثبات لهم .

وأمر رسول الله بقطع أعنابهم وتحريقها فقطع المسلمون قطعاً ذريعاً ثم سألوه أن يدعها فتركها. ولم يؤذن لرسول الله فى فتح الطائف فأمر عمر بن الخطاب فأذن فى الناس بالرحيل فضج الناس من ذلك ثم أذعنوا.

واستعمل المسلمون فى هذه الغزوة الدّبابة وهى آلة من آلات الحرب تجعل من الجلود يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها.

ويجدر بنا أن نذكر حادثة لطيفة. وذلك أنه كانت فى سبى حنين أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة وهى الشيماء، قيل وأمها حليمة رضى الله عنها ولما قالت له الشيماء أنا أختك يارسول الله قال وما علامة ذلك؟ فأخبرته بعضة عضها إياها حين كان مسترضعاً عندهم وأرته إياها فعرفها وتذكر ذلك. فقام ﷺ وبسط لها رداءه وصنع مثل ذلك بأمه حليمة رضى الله عنها حين جاءته ودمعت عيناه. وقال للشيماء لما أن عرفها «سلى تعطى واشفعى تشفعى» وقيل إن قومها قالوا لها إن هذا الرجل أخوك فلو أتيته فسألته فى قومك لرجونا أن يحابينا فاستوهبته السبى وهم ستة آلاف رأس فوهبهم لها، فما عرفت مكرمة مثلها ولا امرأة أيمن على قومها منها وخيّرها ﷺ فقال إن أحببت فعندى محببة مكرمة وإن أحببت أن أمتعك وترجعى إلى قومك، قالت بل تمتعنى وأرجع إلى قومى فأعطاها نعماً وشاء وغلاماً يقال له مكحول وجارية.

بعث قيس بن سعد
إلى صُداء

بعث رسول الله قيس سعد بن عبادة الخزرجى إلى ناحية اليمن بعد انصرافه من الجعرانة فى ٤٠٠ فارس وأمره أن يقاتل قبيلة صُداء، حى من اليمن. وفى معجم البلدان صداء مخلاف باليمن بينه وبين صنعاء اثنان وأربعون فرسخاً سمى باسم القبيلة. فقدم زياد بن الحارث الصدائى فسأل عن ذلك البعث فأخبر به فقال يارسول الله أنا وافدهم إليك فاردد الجيش وأنا أتكفل بإسلام قومى وطاعتهم فقال اذهب إليهم فردّهم فقال إن راحلتى قد كلت فبعث صلى الله عليه وسلم إليهم فردهم ورجع الصدائى إلى قومه فقدموا بعد خمسة عشر يوماً فأسلموا وقيل كتب إليهم فجاء وفدهم بإسلامهم فقال رسول الله إنك مطاع فى قومك يا أخا صداء فقال بل الله هداهم قال ألا تؤمرنى عليهم؟ قال بلى ولا خير فى الإمارة لرجل مؤمن فتركها وأمره رسول الله أن يؤذن فى صلاة الفجر فأذن فأراد بلال أن يقيم فقال رسول الله إن أخا صداء أذن ومن أذن فهو يقيم.

سرية عيينة بن حصن الفزارى

إلى تميم

بعث رسول الله فى المحرم سنة تسع من الهجرة (إبريل سنة ٦٣٠ م) عيينة بن حصن الفزارى إلى بنى تميم فى خمسين فارساً من العرب ليس فيهم مُهاجرى ولا أنصارى فكان يسير الليل ويكمن النهار فهجم عليهم فى صحراء فدخلوا وسرحوا مواشيهم فلما رأوا الجمع ولّوا وأخذ منهم أحد عشر رجلا ووجدوا فى المحلة إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيًّا فجلبهم إلى المدينة فأمر بهم رسول الله فحبسوا فى دار رملة بنت الحارث فقدم فيهم عدة من رؤسائهم[1] فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذرارى فعجلوا فجاءوا إلى باب النبى صلى الله عليه وسلم وكلموه فى شأن السبى فرد عليهم رسول الله أسراهم واختلف فى عدد الوفد فقيل كانوا سبعين وقيل كانوا ثمانين وقد أسلموا و بقوا فى المدينة مدة يتعلمون القرآن والدين .

وسبب هذه السرية أن رسول الله بعث بشر بن سفيان العدوى الكعبى إلى بنى كعب من خزاعة لأخذ صدقاتهم وكانوا مع بنى تميم على ماء فأخذ بشر صدقات بنى كعب . فقال لهم بنو تميم وقد استكثروا ذلك : لم تعطونهم أموالكم ؟ فاجتمعوا واتهزوا السلاح ومنعوا بشراً من أخذ الصدقة فقال لهم بنو كعب : نحن أسلمنا ولا بد فى ديننا من دفع الزكاة فقال بنو تميم : والله لا ندع بعيراً واحداً يخرج فلما رأى بشر ذلك قدم المدينة وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فبعث رسول الله عيينة بن حصن الفزارى إلى تميم كما تقدم .

سرية الوليد بن عقبة

إلى بنى المصطلق

بعث رسول الله الوليد بن عقبة بن أبى معيط لأخذ الصدقات من بنى المصطلق[2] وكانوا قد أسلموا وبنوا المساجد وكان بينهم وبين الوليد عداوة فى الجاهلية . إلا أنهم لما سمعوا بمجىء الوليد لأخذ الصدقات ، خرج منهم عشرون رجلا بالإبل والغنم يؤدونها عن زكاتهم فرحابه وتعظيماً لله ولرسوله فظن أنهم يريدون قتله لرؤية السلاح معهم مع أنهم إنما خرجوا بالسلاح تجملاً فرجع من الطريق قبل أن يصلوا إليه فذهب إلى المدينة وأخبر النبى ﷺ

---

(١) منهم عطارد بن حاجب والزبرقان بن بدر والأقرع بن حابس وقيس بن الحارث ونعيم بن سعد وعمرو بن الأهتم ورياح بن الحارث

(٢) بطن من خزاعة .

أنهم ارتدوا ولقوه بالسلاح يحولون بينه وبين الصدقة فهم رسول الله أن يبعث إليهم من يغزوهم وبلغ ذلك القوم فقدم عليه الركب الذين لقوا الوليد فأخبروا النبي الخبر على حقيقته فنزلت هذه الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ [1] ﴾ .

فقرأ عليهم القرآن وبعث معهم عباد بن بشر يأخذ صدقات أموالهم ويعلمهم شرائع الإسلام ويقرئهم القرآن .

والوليد بن عقبة كان أخاً لعثمان رضى الله عنه من أمه . أسلم يوم فتح مكة هو وأخوه خالد بن عقبة وهو الذى صلى صلاة الصبح بأهل الكوفة أربع ركعات فقال: أزيدكم وكان سكران ولما شهدوا عليه بالشرب أمر به عثمان فجلد وعزل من الكوفة[2] والفاسق الذى ذكر فى الآية المتقدمة هو الوليد بن عقبة فهو الذى جاء إلى رسول الله وأخبره بارتداد بنى المصطلق وأنهم لقوه بالسلاح . وكان الوليد شراب خمر وكان شاعراً كريماً .

سرية قطبة بن عامر

إلى خثعم

فى صفر سنة تسع من الهجرة أرسل رسول الله قطبة بن عامر بن حديدة فى عشرين رجلا إلى حى من خثعم بناحية تبالة[3] وأمره أن يشن الغارة عليهم فخرجوا على عشرة أبعرة يعتقبونها فأخذوا رجلا فسألوه فاستعجم عليهم فجعل يصيح بالحاضر ويحذرهم فضربوا عنقه ثم أمهلوا حتى نام الحاضر فشنوا عليهم الغارة فاقتتلوا قتالا شديداً حتى كثرت الجرحى فى الفريقين جميعاً وقتل قطبة بن عامر مع من قتل وساقوا النعم والشاء والنساء إلى المدينة وجاء سيل أتىّ فحال بينهم وبينه فما يجدون إليه سبيلا وكانت سهمانهم أربعة أبعرة أربعة أربعاً أبعرة والبعير يعدل بعشرة من الغنم بعد أن أخرج الخمس .

سرية الضحاك بن سفيان

إلى بنى كلاب

فى شهر ربيع الأول سنة تسع من الهجرة أرسل رسول الله جيشاً إلى القُرْطاء عليهم الضحاك بن أبى بكر الكلابى — وكان من الشجعان الأبطال — ومعه الأصيد بن سلمة بن قرط فلقوهم بالزُّج زُج لَاوَة[4] فدعوهم إلى

(١) سورة الحجرات (٢) راجع كتاب عثمان بن عفان للمؤلف .
(٣) تبالة : بلدة من أرض تهامة فى طريق اليمن . (٤) موضع بنجد .

الإسلام فأبوا فقاتلوهم فهزموهم وغنم أموالهم ، فلحق الأصيد أباه سلمة وسلمة على فرس له فى غدير بالزج فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان فسبه وسب دينه فضرب الأصيد عرقوبى فرس أبيه فلما وقع الفرس على عرقوبيه ارتكز سلمة على رمحه فى الماء ثم استمسك به حتى جاءه أحدهم فقتله ولم يقتله ابنه .

سرية علقمة بن مجزز المدلجى

إلى الحبشة

كانت سرية علقمة بن مجزّز المدلجى إلى الحبشة فى شهر ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة (يولية سنة ٦٣٠ م) وسببها أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أناساً من الحبشة تراياهم أهل جدة فبعث إليهم علقمة بن مجزز فى ثلاثمائة فانتهى إلى جزيرة فى البحر وقد خاض إليهم البحر فهربوا منه . فلما رجع تعجل بعض القوم إلى أهلهم قبل بقية الجيش فأذن لهم فتعجل عبد الله بن حذافة السهمى فيهم فأمره على من تعجل وكانت فيه دعابة (مزاح) فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا ناراً يصطلون عليها ويصطنعون . فقال لهم : أليس طاعتى واجبة ؟ قالوا . بلى . قال فاقتحموا هذه النار . فقام بعض القوم فاحتجزوا حتى ظن أنهم واثبون فيها . فقال اجلسوا إنما كنت أضحك فبلغ ذلك رسول الله ، فقال : من أمركم بمعصية فلا تطيعوه وعلقمة هذا هو الذى بعثه عمر بن الخطاب إلى الحبشة فهلك هو وجيشه . أما عبد الله بن حذافة فهو من قدماء المهاجرين ممن شهد بدراً ومات بمصر فى خلافة عثمان رضى الله عنه .

سرية علىّ بن أبى طالب إلى الفُلُس

بعث رسول الله علىّ بن أبى طالب إلى الفلس ، صنم كان بنجد تعبده طيِّئ ليهدمه وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة فى ١٥٠ رجلا من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرساً ومعه راية سوداء ولواء أبيض فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر فهدموا الفلس وخربوه وملأوا أيديهم من السبى والنعم والشاء والفضة وفى السبى سَفانة بنت حاتم الطائى وأخت عدى بن حاتم ، وهرب عدى إلى الشام . ووجدوا فى خزانة الفلس ثلاثة أسياف: رَسُوب والمخذم وسيف يقال له اليمانى وثلاث أدراع واستعمل رسول الله ﷺ على السبى أبا قتادة واستعمل على الماشية والرثّة عبد الله بن عتيك فلما نزلوا ركك [1] اقتسموا الغنائم وعزل للنبى ﷺ صفيًّا رسوبا والمخذم ، ثم

(١) الركك محلة من محال سلمى أحد جبلى طيء وعبد الله بن عتيك هو أحد قتلة أبى رافع بن أبى الحقيق اليهودى . والرثة : ردىء المتاع .

صار له بعدُ السيف الآخر ، وعزل الخمس وعزل آل حاتم فلم يقسمهم حتى قدم بهم المدينة وقد منّ رسول الله على سفانة فأسلمت وحسن إسلامها وكان المن عليها سبباً لإسلام أخيها عدى بن حاتم، فإنها خرجت حتى قدمت الشام على أخيها . فقال ماترين فى هذا الرجل ؟ قالت أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن يك نبيًّا فللسابق إليه فضيلة ، وإن يكن ملكا فلن تزال فى عز اليمن وأنت أنت . فقال والله هذا هو الرأى ، فقدم على رسول الله وأسلم .

غزوة تبوك

أو العُسرة

رجب سنة ٩ هـ - سبتمبر - أكتوبر سنة ٦٣٠ م

تَبوُك موضع بين وادى القرى والشام بينه وبين المدينة من جهة الشام أربع عشرة مرحلة وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة وهى غزوة العسرة . مأخوذة من قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾[1] وكانت فى رجب سنة تسع من الهجرة (سبتمبر - أكتوبر سنة ٦٣٠ م) وهى آخر غزواته صلى الله عليه وسلم وكان الوقت حين خروجه حرًّا شديداً وقحطا شديداً ولذلك لم يور عنها كعادته فى سائر الغزوات بل بيَّنها للناس وأخبرهم أنه يريد الروم وكانوا من شدة الحر ينحرون البعير فيشربون مافى كرشه من الماء فسميت غزوة العسرة أى الشدة والضيق وهى آخر غزواته ﷺ .

وسببها أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجابت معه لخم وجذام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء[2] وقيل إن الإمبراطور هرقل كان فى حمص .

إخلاص الصحابة وصدقاتهم

ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى الخروج وأعلمهم المكان الذى يريد ليتأهبوا لذلك وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم وأمر الناس بالصدقة وحثهم على النفقة والُحملان[3] فجاءوا بصدقات كثيرة فكان أول من جاء أبو بكر الصديق رضى الله عنه فجاء بماله كله ٤٠٠٠ درهم فقال له صلى الله عليه وسلم : هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله . وجاء عمر رضى الله عنه بنصف ماله فسأله : هل أبقيت لهم شيئاً ؟ قال نعم نصف مالى : وجاء عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه بمائتى أوقية . وتصدق عاصم بن عدى

(١) سورة التوبة . (٢) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى .
(٣) الحملان بضم الحاء ، ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة .

بسبعين وَسْقاً من تمر[1] وجهّز عثمان رضى الله عنه ثلث الجيش .

البكّاءون

جاء البكاءون وهم سبعة يطلبون من رسول الله ما يركبون عليه فقال ما أجد ما أحملكم عليه وقيل كانوا أكثر من سبعة . فلما قال لهم ذلك انصرفوا باكين وهم الذين قال الله فيهم ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ .

المتخلفون

وجاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول الله فى التخلف من غير علة فأذن لهم وهم بضعة وثمانون رجلا وقال قائل من المنافقين لا تنفروا فى الحر زهادة فى الجهاد وشكاً فى الحق وإرجافاً بالرسول وكان من المتخلفين عبد الله بن أبى ابن سلول .

المعذّرون

وجاء المعذّرون من الأعراب وهم الذين يعتذرون بالباطل ليؤذن لهم فى التخلف فاعتذروا إليه فلم يعذرهم وقيل هم أسد وغطفان .

واستخلف رسول الله على عسكره أبا بكر الصديق يصلى بالناس واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة (قال ابن سعد وهو أثبت عندنا ممن قال استخلف غيره) واستخلف علىّ بن أبى طالب على أهله ﷺ مدة غيبته بتبوك فأرجف المنافقون بعلى بن أبى طالب[2] وقالوا ما خلفه إلا استثقالا له وتخففاً منه . فلما قال ذلك المنافقون أخذ علىّ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله وهو بالجُرف[3] فقال يا نبى الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى أنك استثقلتنى وتخففت منى . فقال كذبوا ولكنى إنما خلفتك لما ورائى فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك أفلا ترضى يا علىّ أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبىّ بعدى فرجع علىّ إلى المدينة .

---

(١) الوسق : حمل بعير . يقال عنده وسق من تمر . قال الأزهرى : الوسق ستون صاعاً بصاع النبى صلى الله عليه وسلم والصاع خمسة أرطال وثلث . (٢) أرجف المنافقون : أى أكثروا من الأخبار السيئة واختلاق الأقوال الكاذبة .

(٣) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .

ولما ارتحل رسول الله عن ثنية الوداع متوجها إلى تبوك عقد الألوية والرايات فدفع لواءه الأعظم لأبى بكر ورايته العظمى للزبير ودفع راية الأوس لأسيد بن حضير وراية الخزرج للحباب بن المنذر ودفع لكل بطن من الأنصار وقبائل العرب لواء أو راية .

عدد جيش المسلمين

سار رسول الله بالناس وهم ٣٠٫٠٠٠ والخيل ١٠٫٠٠٠ وقد كان هذا الجيش بعد تخلف المنافقين وغيرهم ، أعظم جيش تألف فى العرب .

قدم رسول الله تبوك ومعه هذا العدد من الجيش فأقام بها عشرين ليلة يصلى بها ركعتين .

بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر

أرسل رسول الله خالد بن الوليد فى ٤٢٠ فارساً فى رجب سنة تسع سرية ، إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة وكان أكيدر من كندة قد ملكهم وكان نصرانيًا وكان ملكاً من قبل هرقل فانتهى إليه خالد وقد خرج من حصنه فى ليلة مقمرة هو وأخوه حسّان فشدت عليه خيل خالد بن الوليد فاستأسر أكيدر وامتنع أخوه حسّان وقاتل حتى قتل وهرب من كان معهما فدخل الحصن وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتى به رسول الله على أن يفتح له دومة الجندل ففعل وصالحه على ٢٠٠٠ بعير و ٨٠٠ فرس و ٤٠٠ درع و ٤٠٠ رمح فعزل للنبى صلى الله عليه وسلم صفيًّا خالصاً ثم قسم ما بقى بين أصحابه فصار لكل رجل منهم خمس فرائض ثم خرج خالد بن الوليد بأكيدر وبأخيه مصاد وكان فى الحصن وبما صالحه عليه قافلاً إلى المدينة فقدم بأكيدر على رسول الله فأهدى له هدية وصالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلى سبيلهما وكتب له رسول الله كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم عليه وختمه يومئذ بظفره وكان رسول الله استعمل على حرسه بتبوك عباد بن بشر فكان يطوف فى أصحابه على العسكر .

ثم انصرف رسول الله من تبوك إلى المدينة بعد أن أقام بها نحو عشرين ليلة ولم يلق كيدا ولما دنا من المدينة تلقاه عامة الذين تخلفوا فقال رسول الله لأصحابه لا تكلموا رجلًا منهم فأعرض عنهم رسول الله والمسلمون حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه وجعل المنافقون يحلفون ويعتذرون فقبل ظاهرهم وعلانيتهم واستغفر لهم وقد كانوا يخبرون عنه أخبار السوء وكان قدوم رسول الله من تبوك فى رمضان .

المعجزات وخوارق العادات

فى هذه الغزوة وقع لرسول الله بعض المعجزات وخوارق العادات والإخبار بالمغيبات نذكر منها :

كان رسول الله حين مر بالحجر نزلها واستقى الناس من بئرها فلما راحوا منها قال رسول الله لا تشربوا من مائها شيئاً ولا تتوضأوا منها للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله إلا رجلين من بنى ساعدة خرج أحدهما لحاجته وخرج الآخر فى طلب بعير له ، فأما الذى ذهب لحاجته فإنه خنق على مذهبه وأما الذى ذهب لطالب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته فى جبل طيئ فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألم أنهكم أن يخرج أحد إلا ومعه صاحب ؟ ثم دعا للذى أصيب على مذهبه فشفى وأما الآخر الذى وقع بجبل طيئ فإن طيئاً أهدته لرسول الله حين قدم المدينة .

ولما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله فدعا الله فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء .

وضلت ناقة رسول الله ببعض الطريق فخرج أصحابه فى طلبها وعند رسول الله رجل من بعض أصحابه يقال له عمارة بن حزم الأنصارى وكان فى رحله زيد بن لصيت القينقاعى وكان منافقا فقال زيد بن لصيت وهو فى رحل عمارة وعمارة عند رسول الله : أليس يزعم محمد أنه يخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ؟ فقال رسول الله وعمارة عنده إن رجلا قال إن هذا محمدا يخبركم أنه نبى وهو يزعم أنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ؟ وإنى والله لا أعلم إلا ما علمنى الله وقد دلنى الله عليها وهى فى الوادى من شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوا بها ، فذهبوا فجاءوا بها إلى آخر القصة . ثم مضى رسول الله سائراً فجعل يتخلف عنه الرجل فيقولون : يارسول الله تخلف فلان فيقول : دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه حتى قيل يارسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره فقال دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ، وتلوم أبو ذر على بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشياً ونزل رسول الله فى بعض منازله فنظر ناظر من المسلمين فقال يارسول الله إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده فقال رسول الله : كن أبا ذر . فلما تأمله القوم قالوا يارسول الله : هو أبو ذر فقال رسول الله : « يرحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده » وقد تحقق قوله عليه الصلاة والسلام ، فإن عثمان رضى الله عنه لما نفى أبا ذر نزل أبو ذر الربذة[1] فأصابه بها قدره ولم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه فأوصاهما

---

(١) قرية من قرى المدينة .

أن غسلانى وكفنانى ثم ضعانى على قارعة الطريق فأول ركب يمر بكم فقولوا هـذا أبو ذر صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه . فلما مات فعلا ذلك به ثم وضعاه على قارعة الطريق فأقبل عبد الله بن مسعود ورهط من أهل العراق عماراً فلم يرعهم إلا جنازة على الطريق قد كادت الإبل تطؤها وقام الغلام فقال هذا أبو ذر صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه فاستهل عبد الله بن مسعود يبكى ويقول صدق رسول الله « تمشى وحدك . وتموت وحدك وتبعث وحدك » ثم نزل هو وأصحابه فواروه ثم حدثهم ابن مسعود حديثه وما قال له رسول الله فى مسيره إلى تبوك واسم أبى ذر (جندب بن جنادة) ومات فى سنة ٣٢ هـ

هدم مسجد الضّرار بقباء

لما رجع رسول الله من تبوك قبل أن يدخل المدينة جاءه جماعة من المنافقين وسألوه أن يأتى مسجدهم بقباء ليصلى فيه وهو (مسجد الضرار) الذى بنوه مضاهاة لمسجد قباء لإضرار المسلمين وتفريق كلمتهم وجماعتهم وكان المنافقون يجتمعون فيه ويعيبون النبى صلى الله عليه وسلم ويستهزئون ، فدعا رسول الله بقميصه ليلبسه ويأتيهم فأنزل الله عليه :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ﴾ .

(سورة التوبة)

فدعا رسول الله مالك بن الدخشم ومعن بن عدى بن عامر بن السكن ووحشيًّا وقال انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه فخرجوا مسرعين حتى أتوا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدُّخشم[1] فقال مالك أنظرونى حتى آتيكم بنار فدخل عند أهله فأخذ من سعف النخل فأشعله ثم خرجوا يشتدونَ حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فحرّقوه وهدموه وتفرق عنه أهله وأمر رسول الله أن يتخذوا ذلك الموضع كناسة تلقى فيه الجيف والقمامات .

كان أصحاب مسجد الضرار أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا يارسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فقال إنى على جناح سفر وحال شغل ولو قدمنا إن شاء الله أتينا كم فصلينا لكم فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد من السماء .

وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلاً : خذام بن خالد ومن داره أخرج مسجد الشقاق . وثعلبة بن حاطب .

(١) ذكر اسم مالك بن الدخشم فى السيرة النبوية لدحلان بالنون هكذا « الدخشن ورهط الدخشن » وصحته بالميم كما جاء فى تاريخ الطبرى وفى أسد الغابة وزاد المعاد .

ومُعتِّب بن قُشير . وأبو حبيبة بن الأزعر . وعباد بن حُنيف . وجارية بن عامر وابناه مجمع بن جارية ، وزيد بن جارية . ونَبْتَل بن الحارث . وبحزج . وبجاد بن عثمان . ووديعة بن ثابت .

أما مالك بن الدخشم الذى مرّ ذكره وهو أحد الذين هدموا مسجد الضرار فقد كان يتّهم بالنفاق وهو الذى قال فيه عتبان بن مالك لرسول الله إنه منافق فقال رسول الله : أليس يشهد أن لا إله إلا الله ؟ فقال بلى ولا شهادة له . فقال رسول الله أليس يصلى قال بلى ولا صلاة له . فقال رسول الله : أولئك الذين نهانى الله عنهم . ولا يصح عنه النفاق وقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه .

لماذا بنى مسجد الضرار ؟

وصف الله مسجد الضرار بصفات أربع :

(١) بقوله ضراراً ، والضرار محاولة الضر .

(٢) وبقوله وكفراً قال ابن عباس يريد به ضراراً للمؤمنين وكفراً بالنبى عليه السلام وبما جاء به .

(٣) وبقوله : وتفريقاً بين المؤمنين لأن المنافقين قالوا نبنى مسجداً فنصلى فيه ولا نصلى خلف محمد فإن أتانا فيه صلينا معه وفرقنا بينه وبين الذين يصلون فى مسجده فيؤدى ذلك إلى اختلاف الكلمة وبطلان الألفة .

(٤) وبقوله : وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله .

هذه هى الأسباب التى بنى المنافقون من أجلها مسجد الضرار كما ذكرت فى القرآن الكريم . ثم إنه تعالى لما وصف هذا المسجد بهذه الصفات الأربع قال : وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى أى ليحلفن ما أردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى وهو الرفق بالمسلمين فى التوسعة على أهل الضعف والعلة والعجز عن المصير إلى مسجد رسول الله وذلك أنهم قالوا لرسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ثم قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ والمعنى أن الله تعالى أطلع الرسول على أنهم حلفوا كاذبين [(١)] .

وقد تقدم أن هذا المسجد كان مآله الهدم والحرق وصار موضعاً لإلقاء الجيف والقمامات .

موت عبد الله بن أبى ابن سلول
« رأس المنافقين »

وفى هذه السنة ـ التاسعة ـ فى شهر ذى القعدة مات عبد الله بن أبى ابن سلول « رأس المنافقين » بعد أن مرض عشرين ليلة .

(١) راجع تفسير الفخر الرازى « سورة التوبة » .

وحدث أنه لما كان عبد الله مريضاً عاده رسول الله فطلب منه أن يصلي عليه إذا مات ويقوم على قبره . ثم إنه أرسل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يطلب منه قميصه ليكفن فيه فأرسل إليه القميص الفوقاني فرده وطلب منه الذي يلي جسده ليكفن فيه فقال عمر رضي الله عنه : لا تعط قميصك ، الرجسَ النجس . فقال عليه الصلاة والسلام إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً فلعل الله يدخل به ألفاً في الإسلام وكان المنافقون لا يفارقون عبد الله . فلما رأوه يطلب هذا القميص ويرجو أن ينفعه أسلم منهم يومئذ ألف ، فلما مات جاءه ابنه يعرفه فقال عليه الصلاة والسلام لابنه صل عليه وادفنه . فقال إن لم تصل عليه يارسول الله لم يصل عليه مسلم . فقام عليه الصلاة والسلام ليصلي عليه فقام عمر فحال بين رسول الله وبين القبلة لئلا يصلي عليه فنزل قوله تعالى :

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾

(سورة التوبة)

قال الزجاج كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له فمنع هاهنا منه .

وفي الصحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنه : فصلى عليه ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت (أي الآية السابقة) ولم يأخذ رسول الله بقول عمر رضي الله عنه جرياً على ظاهر حكم الإسلام واستصحاباً لظاهر الحكم ولإكرام ولده الذي تحقق صلاحه واستئلافاً لقومه .

وعن عبد الله بن عباس قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لما توفي عبد الله بن أبي ابن سلول ودعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام إليه فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولتُ حتى قمتُ في صدره فقلت يارسولَ الله أتصلي على عدو الله عبد الله بن أبي القائل يوم كذا ، كذا وكذا ، وأعدِّدُ أيامه ورسول الله عليه السلام يبتسم حتى إذا أكثرت عليه قال أخِّر عني ياعمر إني خيرت فاخترت وقد قيل لي استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر سبعين مرة فلن يغفر الله لهم فلو أني أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت قال ثم صلى عليه ومشى معه فقام على قبره حتى فرغ منه : قال أتعجب لي وجرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله ورسوله أعلم فوالله ما كان إلا يسيرٌ حتى نزلت هاتان الآيتان ولاتصل على أحد منهم مات أبداً فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله .

حجة أبي بكر الصديق

بعث رسول الله في السنة التاسعة في شهر ذي الحجة (مارس سنة ٦٣١ م) أبا بكر الصديق يحج بالناس فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة وبعث معه بعشرين بدنة قلدها وأشعرها بيده الشريفة وساق أبو بكر

رضى الله عنه خمس بدنات ثم تبعه علىّ رضى الله عنه على ناقة رسول الله « القصواء » فقال له أبو بكر : استعملك رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج ؟ قال لا ولكن بعثنى أقرأ براءة على الناس وأنبذ إلى كل ذى عهد عهده ، وكان العهد بين رسول الله وبين المشركين عاما وخاصاً . فالعام ألا يصد أحد عن البيت إذا جاءه ولا يخاف أحد فى الأشهر الحرم . والخاص بين رسول الله وبين قبائل العرب إلى آجال مسماة وكانت عادة العرب ألا ينبذ العهد إلا من كان قريباً ممن أراد النبذ فلذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه ولم يكتف بأبى بكر رضى الله عنه فحج بالناس . قرأ علىّ بن أبى طالب براءة[1] على الناس يوم النحر عند الجمرة ونبذ إلى كل ذى عهد عهده . وقال لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عُريان ثم رجعا قافلين إلى المدينة . وقد كان على رضى الله عنه يصلى خلف أبى بكر إلى أن رجع إلى المدينة .

وفى ذلك رد على الرافضة فإنهم زعموا أن النبى صلى الله عليه وسلم عزل أبا بكر رضى الله عنه عن إمارة الحج بعلىّ .

سرية خالد بن الوليد

إلى بنى الحارث بن كعب بنجران

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى شهر ربيع الأول سنة عشر (يونية سنة ٦٣١ م) سرية فى أربعمائة إلى بنى الحارث بن كعب بنجران[2] وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً فإن استجابوا لك فاقبل منهم وأقم فيهم وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ومعالم الإسلام ، فإن لم يفعلوا فقاتلهم . وكان أهل نجران على شريعة عيسى عليه السلام فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ويدعون الناس إلى الإسلام ويقولون : يا أيها الناس أسلموا تسلموا فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه . فأقام خالد فيهم يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه . ثم كتب خالد إلى رسول الله ﷺ .

« بسم الله الرحمن الرحيم . لمحمد النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد . السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك فإنك بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب وأمرتنى إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام وأن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه وإن لم يسلموا قاتلتهم. وإنى قدمت عليهم فدعوتهم

---

(١) سورة براءة هى التوبة . قال صاحب الكشاف التوبة لها عدة أسماء : براءة والتوبة والمقشقشة والمبعثرة والمشردة والمخزية والفاضحة والمثيرة والحافرة والمنكلة والمدمدمة وسورة العذاب .

(٢) موضع بين اليمن ونجد .

إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركباناً : يابنى الحارث أسلموا تسلموا فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم وآمرهم بما أمرهم الله به وأنهاهم عما نهاهم الله عنه وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبى صلى الله عليه وسلم حتى يكتب إلىّ رسول الله والسلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته» وهذا الكتاب شرح فيه خالد مهمته وأنه قام بها كما أمر . فكتب إليه رسول الله ﷺ .

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبى رسول الله إلى خالد بن الوليد . سلام عليك . فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو : أما بعد فإن كتابك جاءنى مع رسلك بنجران أن بنى الحارث قد أسلموا قبل أن يقاتلوا وأجابوا مادعوتهم إليه من الإسلام وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن قد هداهم الله بهداه فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليقبل معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

فأقبل خالد بن الوليد إلى رسول الله وأقبل وفد بنى الحارث بن كعب فيهم قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذو الغصة . ويزيد بن عبد المدان . ويزيد بن المحجّل . وعبد الله بن قريظ الزيادى . وشداد بن عبد الله القنانى . وعمرو بن عبد الله الضبابى فلما قدموا على رسول الله فرآهم قال من هؤلاء القوم كأنهم رجال الهند ؟ قيل يارسول الله هؤلاء بنو الحارث بن كعب . فلما أوقفوا عند رسول الله سلموا عليه . فقالوا نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال رسول الله : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ثم قال رسول الله أنتم الذين إذا زجروا استقدموا . فلم يراجعه منهم أحد . ثم أعادها رسول الله الثانية والثالثة والرابعة ، فقال يزيد بن عبد المدان نعم يارسول الله ، نحن الذين إذا زجرنا استقدمنا . فقالها أربع مرات . فقال رسول الله : لو أن خالد ابن الوليد لم يكتب إلىّ فيكم أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم . فقال يزيد بن عبد المدان : أما والله يارسول الله ماحمدناك ولا حمدنا خالداً . فقال فمن حمدتم ؟ قالوا حمدنا الله الذى هدانا بك ، قال صدقتم . ثم قال رسول الله بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا لم نكن نغلب أحداً . فقال رسول الله بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم . قالوا يارسول الله ، كنا نغلب من قاتلنا أنا كنا بنى عبيد وكنا نجتمع ولا نتفرق . ولا نبدأ أحداً بظلم قال صدقتم . ثم أمّر رسول الله على بلحارث بن كعب قيس بن الحصين فرجع وفد بلحارث ابن كعب إلى قومهم ولم يمكثوا بعد أن قدموا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفى رسول الله .

وفاة إبراهيم

توفى إبراهيم بن رسول الله من زوجته مارية

فى شهر ربيع الأول سنة عشر (يونيه ٦٣١ م) وكان عمره ستة عشر شهراً

دخل رسول الله ﷺ وهو معتمد على عبد الرحمن بن عوف وإبراهيم يجود بنفسه، فلما مات دمعت عينا رسول الله فقال له عبد الرحمن : أى رسول الله هذا الذى تنهى الناس عنه ، متى يرك المسلمون تبكى يبكوا . فلما سريت عنه عبرته قال إنما هذا رحمة وإن من لا يرحم لا يُرحم إنما ننهى الناس عن النياحة وأن يندب الرجل بما ليس فيه . ثم قال لولا أنه وعد جامع وسبيل مئتاء وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجداً غير هذا وإنا عليه لمحزونون تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول مايسخط الرب وفضل رضاعه فى الجنة ، وأمر النبى ﷺ بدفن إبراهيم فى البقيع[1]. وصلى عليه ﷺ وكبر أربعاً وقد أجمع جماهير العلماء على الصلاة على الأطفال إذا استهلوا ولما دفن أمر برش قربة ماء على قبره وهو أول قبر رُش عليه الماء . ولما سوى جدثه كان رسول الله ﷺ رأى كالحجر فى جانب الجدث فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسوى بإصبعه ويقول : « إذا عمل أحدكم عملاً فليتقنه فإنه مما يسلى نفس المصاب » .

وانكسفت الشمس يوم مات إبراهيم فأذاع الناس : إن الشمس كسفت حزناً على موت إبراهيم فقال رسول الله ﷺ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد » . ولو كان النبى مخادعاً أو كاذباً لاستغل هذه الفرصة السانحة وأذاع فى طول البلاد وعرضها أن الشمس إنما انكسفت لوفاة ابنه أو لوافق الناس على ماأذاعوا وأن هذه إحدى معجزات النبوة ، لكنه أبى إلا الصدق وأذاع الحقيقة .

قال مسيودر منجم فى كتابه حياة محمد (فصل ٢١) بمناسبة هذا الحادث : «إن محمداً كان واسع العقل فردعلى هذه الخرافة الجميلة بقوله (إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد وهذه كلمات لا يقولها مخادع » .

وهذا ماقلناه لأن الخادع يتعلق بالأوهام ويسارع إلى انتهاز مثل هذه الفرص ولكن النبى كان صادقاً فى أقواله . صادقاً فى أفعاله . لا يستند إلى الأكاذيب فى رفع شأنه وتعزيز مركزه .

قال النووى فى تهذيب الأسماء : وأما ماروى عن بعض المتقدمين « لو عاش إبراهيم لكان نبيًا » فباطل وجسارة على الكلام فى المغيبات ومجازفة وهجوم على عظيم من الزلات .

---

(١) مقبرة أهل المدينة .

أبو موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل

بعثهما إلى اليمن

أبو موسى الأشعرى واسمه عبد الله بن قيس . أسلم قديماً ثم أرسله رسول الله إلى زبيد وعدن فكان عاملا عليهما . واستدل العلماء بإرساله على أنه كان عالماً فطناً حاذقاً ولولا ذلك لم يوله النبى صلى الله عليه وسلم الإمارة ولذلك اعتمد عليه عمر ثم عثمان ثم علىّ رضى الله عنهم . ونسبته الخوارج والروافض إلى الغفلة وعدم الفطنة لما صدر منه فى التحكيم بصفين . وسيأتى ذكر ذلك فى كتابنا (علىّ) رضى الله عنه إن شاء الله .

وأما معاذ بن جبل فهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أنصارى خزرجى وكان عمره لما أسلم ثمانى عشرة سنة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود . وأبى بن كعب . ومعاذ بن جبل . وسالم مولى أبى حذيفة » .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر » وذكر الحديث وقال : « وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » .

وكان معاذ رضى الله عنه ممن يفتون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً وأسمحهم كفاً فكثرت ديونه فأرسله رسول الله إلى اليمن وقال : « لعل الله يجبرك ويؤدى عنك دينك » .

وفى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : « إنك ستأتى قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم . فإن هم أطاعوا لك بذلك . فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وعن معاذ أنه قال : لما بعثنى ﷺ إلى اليمن قال : قد بعثتك إلى قوم رقيقة قلوبهم ، فقاتل بمن أطاعك من عصاك .

ولما بعث رسول الله معاذاً خرج يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشى تحت ظل راحلته فلما فرغ قال : يا معاذ إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا ولعلك أن تمر بمسجدى وقبرى فبكى معاذ رضى الله عنه لفراقه . ولم يزل معاذ على اليمن إلى أن قدم فى خلافة أبى بكر ثم توجه إلى الشام فمات بها .

بعث على بن أبى طالب

إلى اليمن

بعث رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب إلى اليمن فى شهر رمضان سنة عشر (ديسمبر سنة ٦٣١ م) فخرج علىّ فى ٣٠٠ فارس فلما انتهى إلى تلك الناحية فرق أصحابه فأتوا بنهب . غنائم ونساء وأطفال وكانت الغنائم نعماً وشاء ثم لقى جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا المسلمين بالنبل والحجارة وخرج منهم رجل من مَذْحِج يدعو إلى المبارزة فبرز إليه الأسود بن خزاعى فقتله الأسود وأخذ سلبه ثم صفَّ على رضى الله عنه أصحابه ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان فقتل منهم نحو عشرين رجلا فتفرقوا وانهزموا فكف عن طلبهم قليلاً ثم دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام وجمع علىّ الغنائم فجزأها خمسة أجزاء فكتب على سهم منها لله وأقرع عليها فخرج أول السهام الخمس وقسم على أصحابه بقية الغنم ثم قفل على رضى الله عنه فوافى النبى بمكة قد قدمها للحج سنة عشر وكان ذلك فى الربيع .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عليًا رضى الله عنه إلى اليمن سنة ثمان وهو أول بعث إلى اليمن بعد فتح مكة وبعثه إلى همدان فأسلمت جميعاً فكتب علىٌّ إلى رسول الله بإسلامهم فلما قرئ الكتاب خرّ ساجداً ثم رفع رأسه وقال السلام على همدان . أما البعث الثانى فكان فى رمضان سنة عشر إلى مذحج .

حجة الوداع

فى شهر ذى الحجة سنة عشر من الهجرة (مارس سنة ٦٣٢م) حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وسميت بذلك لأنه ودع الناس فيها . وعن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت خرج رسول الله ﷺ إلى الحج لخمس ليال بقين من ذى القعدة فلما كان بسرف أمر الناس أن يحلوا بعمرة إلا من ساق الهدى وكان رسول الله قد ساق الهدى وناس معه . قال ابن إسحاق ثم مضى رسول الله ﷺ على حجه فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم وخطب الناس خطبته التى بيّن فيها مابيّن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون . قضى الله أنه لا ربا وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع وأن أول دمائكم أضع دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وكان

مسترضعاً فى بنى ليث فقتلته هُذَيْلٌ فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية . أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . أيها الناس إن النسىء زيادة فى الكفر يُضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله ويحرموا ماأحل الله وإن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض(١) وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُم . ثلاثة متوالية ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً وإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً : كتاب الله وسنة نبيه أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه تعلمنّ أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمنّ أنفسكم . اللهم هل بلغت فذكر لى أن الناس قالوا اللهم نعم فقال رسول الله ﷺ : اللهم اشهد » اهـ وكان الذى يبلغ عنه بعرفة ربيعة بن أمية بن خلف لكثرة الناس وقد تنبأ رسول الله فى هذه الخطابة بأن أجله قد قرب وأنه لا يحج بعد هذه المرة لقوله فى أولها : « فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً » ، وأوصى الناس بالنساء خيرا ومنع الرجال من معاملتهن بالظلم وحضهم على معاشرتهن بالمعروف ، وكما أن للرجال حقا عليهن فكذلك للنساء حقا عليهم ، وهذا من غير شك رفع لشأنهن فلم تعد المرأة كمية مهملة أو مهضومة الحقوق بعد أن عنى الرسول بها فى خطبته ، فليفهم ذلك المسلمون فى جميع أنحاء الأرض ، وليعملوا بنصح الرسول .

وتسمى هذه الحجة أيضاً حجة التمام والكمال لنزول قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً ﴾(٢) . ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة ولم يحج رسول الله بعد أن هاجر غير هذه الحجة . ولم يترك الحج وهو بمكة قط لأن قريشاً فى الجاهلية لم يكونوا يتركون الحج وإنما يتأخر منهم من لم يكن بمكة أو عاقه ضعف . قال ابن الأثير فى النهاية : كان يحج كل سنة قبل أن يهاجر .

---

(١) يعنى أن الحج قد عاد فى ذى الحجة .

(٢) قيل لم ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شىء من الفرائض ولا تحليل شىء ولا تحريمه ولم يعش رسول الله بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة ، أو اثنتين وثمانين ليلة ، ولم يحصل فى الشريعة بعدها زيادة ولا نسخ ولا تبديل البتة .

واستعمل على المدينة أبا دجانة الساعدى وقيل سباع بن عرفطة الغفارى . وكانت نساؤه كلهن معه . وكان دخوله مكة صبح الرابع من ذى الحجة يوم الأحد .

يقول مستر موير « الراجح أن النبى خرج من المدينة يوم السبت ٢٥ ذى القعدة (٢٣ فبراير سنة ٦٣٢ م) وبلغ سَرِف [1] مساء الأحد فى اليوم العاشر ودخل مكة يوم الثلاثاء »

وخرج معه ﷺ ٩٠,٠٠٠ ويقال أكثر من ذلك وأما الذين حجوا معه فأكثر من ذلك طبعاً لانضمام أهل مكة إليهم والذين أتوا من اليمن مسلمين .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن نجيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقف بعرفة قال : هذا الموقف — للجبل الذى هو عليه — وكل عرفة موقف ، وقال حين وقف على قُزَح صبيحة المزدلفة [2] : هذا الموقف وكل المزدلفة موقف ثم لما نحر بالمنحر بمنى قال هذا المنحر وكل منى منحر ، فقضى رسول الله ﷺ الحج وقد أراهم مناسكهم وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم من الموقف ورمى الجمار وطواف البيت وما أحل لهم فى حجهم وما حرم عليهم . ثم عاد رسول الله إلى المدينة .

بعث أسامة بن زيد

قفل رسول الله فأقام فى المدينة بقية ذى الحجة والمحرم وصفر وضرب على الناس بعثاً إلى الشام أمّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والدّوارم من أرض فلسطين فتجهز الناس وأوْعَبَ مع أسامة بن زيد المهاجرين الأولين . فبينما الناس على ذلك ابتدأ ﷺ شكواه التى قبضه الله عز وجل فيها واعترض المنافقون على بعث أسامة . فرد عليهم أنه حقيق بالإمارة وإن قلتم فيه لقد قلتم فى أبيه من قبل وإن كان لخليقاً لها وكان سن أسامة عندئذ عشرين عاماً . فاعترضوا على توليته قيادة الجيش لصغر سنه .

عدد الغزوات والبعوث

وكان جميع ماغزا رسول الله بنفسه بناء على ماذكره ابن إسحاق ٢٧ غزوة وبعوثه وسرايا ٣٨ . قال الطبرى : وكانت غزواته بنفسه ستاً وعشرين غزوة ويقول بعضهم إنها كانت سبعاً وعشرين غزوة ، فمن قال هى ست وعشرون جعل غزوة النبى صلى الله عليه وسلم من خيبر إلى وادى القرى غزوة واحدة لأنه لم يرجع من خيبر حين فرغ من أهلها إلى منزله ولكنه مضى منها إلى وادى القرى فجعل ذلك غزوة واحدة . ومن قال هى سبع وعشرون

---

(١) موضع على ستة أميال من مكة (٢) قزح : القرن الذى يقف الإمام عنده بالمزدلفة عن يمين الإمام . وازدلف : تقرب ، ومنه سمى المشعر الحرام مزدلفة لأنه يتقرب فيها ، وهى ما بين وادى محسر ومأزمى عرفة .

غزوة جعل غزوة خيبر غزوة ، وغزوة وادي القرى غزوة أخرى فيجعل العدد سبعاً وعشرين .

الوفود

وفدت على رسول الله وفود كثيرة نذكرها هنا مع الاختصار ، فقد وفد عليه وفد هوازن بالجعرانة ، وكذا وفد عليه مالك بن عوف النضرى وذلك فى أواخر سنة ثمان وكذا وفد عليه بنو تميم فى سرية عيينة بن حصن وكان ذلك فى المحرم سنة تسع ووفد عليه نصارى نجران بالمدينة بعد الهجرة وكانوا ستين راكباً جاءوه يجادلونه فى شأن عيسى عليه السلام ، وصالحوا النبى صلى الله عليه وسلم على الجزية وكتب لهم كتاباً وأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه وقال لهم هذا أمين هذه الأمة ، وفى أهل نجران والرد عليهم أنزل الله أكثر آيات سورة آل عمران . ووفد عليه ﷺ الداريون: أبو تميم الدارى وأخوه نعيم وأربعة آخرون على دين النصرانية وكان وفدهم عليه مرتين مرة بمكة قبل الهجرة ومرة بعدها . ولما قدم رسول الله إلى المدينةمن تبوك فى رمضان وفد عليه وفد ثقيف . ووفد عليه وفد بنى عامر بن صعصعة وفيهم عامر بن الطفيل العامرى وأربد بن قيس وجبار بن سلمى ، رؤساء القوم وكان عامر بن الطفيل سيدهم ، وكان من أجمل الناس وكان مضمراً الغدر بالنبى ﷺ وطلب من رسول الله أن يجعل له الأمر بعد أن أسلم . ولما خرج عامر بن الطفيل ومن معه إلى بلادهم أصيب فى الطريق بالطاعون ومات ولم يسلم وقد وهم بعضهم فادعى بقاء عامر بن الطفيل على الإسلام إلى أن مات ، وذلك إنما هو عامر بن الطفيل الأسلمى فإنه صحابى .

ووفد على النبى صلى الله عليه وسلم وفد ضمام بن ثعلبة سنة تسع وسأله ضمام هل الله سبحانه وتعالى أمره بعبادة الله وحده لا شريك له وخلع الأصنام وبالزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ؟ فقال رسول الله اللهم نعم . فأسلم ورجع إلى قومه وسب اللات والعزى وما زال يدعوهم إلى الإسلام حتى أسلموا جميعا رجالا ونساء . ووفد عليه ﷺ وفد عبد القيس وكانت منازلهم بالبحرين ، وكان فيمن وفد منهم الجارود ، وكان نصرانياً قد قرأ الكتب وقيل كان مجيئهم سنة عشر فعرض عليه رسول الله الإسلام ، فأسلم وأسلم أصحابه ، وسألوه عن النبيذ فقالوا يا رسول الله إن أرضنا أرض وخمة لا يصلحنا إلا النبيذ فنهاهم عن شربها .

فوفد بنى حنيفة بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل وفدوا عليه ﷺ وكانوا سبعة عشر رجلا ومعهم مسيلمة الكذاب ، وكان أمره عند قومه كبيراً فكلم النبى صلى الله عليه وسلم وسأله أن يشركه معه فى النبوة وهو الذى ادعى النبوة فى حياة رسول الله كما ادعى النبوة الأسود العنسى صاحب صنعاء ، وصار مسيلمة يتكلم بالهذيان ليضاهى به القرآن ، فمن ذلك أنشأ سجعاً على منوال سورة الكوثر فقال : « إنا أعطيناك الجواهر فصل لربك وهاجر . إن مبغضك رجل فاجر » وقد وضع عن قومه الصلاة وأحل لهم الخمر والزنا ترغيباً لهم فى اتباعه !

ووفد عليه ﷺ وفد طيئ وفيهم قبيصة بن الأسود وسيدهم زيد الخيل كان جواداً فارساً حسن الخلق فعرض رسول الله عليه الإسلام فأسلم وأسلم من معه وحسن إسلامهم[1].

ووفد عدى بن حاتم الطائى . كان عدى نصرانيًا عظيما فى قومه فأسلم ومن الوفود وفد عروة المرادى ووفد بنى زبيد ووفد كندة ، قبيلة باليمن ينسبون إلى كندة لقب جدهم ثور بن عفير ، وله صلى الله عليه وسلم جدة منهم وهى أم. جده كلاب وفيهم الأشعث بن قيس . وكان وجيهاً فى قومه فأسلم وارتد بعد النبى صلى الله عليه وسلم وعاد إلى الإسلام فى خلافة أبى بكر ، ووفد أزد شنوءة وهم من الأزد وفيهم صرد بن عبد الله الأزدى ، وكان أفضلهم فأمّره على من أسلم من قومه ، ووفد الحارث بن كعب ، ووفد رفاعة بن زيد الجذامى ، ووفد همدان فيهم مالك بن نمط ، وكان شاعراً مجيداً فلقوا رسول الله مرجعه من تبوك ، ووفد تجيب وهى قبيلة من كندة وجعلوا يسألون رسول الله عن القرآن والسنن ، ووفد بنى ثعلبة ، ووفد بنى سعد هذيم من قضاعة أسلموا وبايعوا رسول الله على الإسلام ورجعوا إلى قومهم فرزقهم الله الإسلام ، ووفد بنى فزارة وفيهم خارجة بن حصن أخو عيينة بن حصن ، مقرين بالإسلام، ووفد بنى أسد فيهم حضرمى بن عامر فأسلموا وقالوا يارسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلتك العرب فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وأقاموا أياماً يتعلمون الفرائض ، ووفد بنى عذرة ، قبيلة باليمن ونهاهم عن سؤال الكهنة والذبائح التى كانوا يذبحونها لأصنامهم . ووفد بَلِيّ وهم من قضاعة فأسلموا وكان شيخ الوفد أبو الضبيب[2] فقال يارسول الله إن لى رغبة فى الضيافة فهل لى فى ذلك أجر؟ قال نعم وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة . قال يارسول الله فما وقت الضيافة ؟ قال ثلاثة أيام ،قال فما بعد ذلك ؟ قال صدقة ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك ، أى يضيق عليك . ووفد بنى مرة ورأسهم الحارث بن عوف ، ووفد خولان وهى قبيلة من اليمن وكان لهم صنم يعبدونه اسمه « عم أنس » ولما رجعوا هدموه ، ووفد بنى محارب وفيهم خزيمة بن سوار وكانوا أغلظ العرب وأشدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام عرضه نفسه على القبائل فى المواسم يدعوهم إلى الله تعالى ، ووفد صداء وهم حى من عرب اليمن بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام ثم رجعوا إلى قومهم وفشا الإسلام فيهم وكان زياد بن حارث الصدائى مطاعاً فى قومه . ووفد سلامان فيهم خبيب بن عمرو السلامانى فأسلموا، وسأل خبيب رسول الله عن أفضل الأعمال قال الصلاة فى وقتها وصلوا معه يومئذ الظهر والعصر . ووفد بنى عبس، ووفد مزينة وهى قبيلة تنسب إلى مزينة امرأة عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ، ووفد الأشعريين قوم أبى موسى الأشعرى وهم منسوبون إلى أشعر بن أدد فأسلموا وبايعوا وقال فى حقهم رسول الله «أتاكم أهل اليمن كأنهم السحاب وهم خيار من فى الأرض» وقال: الأشعريون كصرة فيها مسك. ووفد دوس وهم قوم أبى هريرة ينتهى نسبهم إلى الأزد

---

(١) سأل رسول الله زيداً ما اسمك ؟ قال : أنا زيد الخيل . قال : بل أنت زيد الخير . وكان شاعراً ، محسناً خطيباً لسناً شجاعاً كريماً . (٢) تصغير الضب : الدابة المعروفة .

وكان قدومهم بخيبر سنة سبع . ووفد بهراء قبيلة من قضاعة قدموا من اليمن أسلموا وتعلموا الفرائض ثم انصرفوا إلى أهليهم باليمن . ووفد غامد قبيلة من الأزد باليمن سنة عشر . أقروا بالإسلام وكتب لهم رسول الله كتاباً فيه شرائع الإسلام وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أبي بن كعب الأنصارى[١] أن يعلمهم القرآن . ووفد الأزد ينسبون إلى جدهم الأعلى وهو الأزد بن الغوث وهم الذين قال فى حقهم رسول الله (حكماء علماء كادوا من فقهم أن يكونوا أنبياء) . ووفد بنى المنتفق وهى قبيلة من عامر بن صعصعة وفيهم لقيط بن عامر بن صبرة بن عبد الله بن المنتفق قال عنهم رسول الله : إنهم من أتقى الناس لله فى الدنيا والآخرة . ووفد النخع قبيلة من اليمن وهم آخر الوفود وكان وفدهم سنة إحدى عشرة فى النصف من المحرم وعددهم مائتا رجل . قدموا مقرين بالإسلام وقد كانوا بايعوا مُعاذ بن جبل .

وفاة رسول الله ﷺ

يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ — ٧ يونيو سنة ٦٣٢ م

مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أواخر صفر سنة ١١ هجرية (٦٣٢ م) وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً (وقيل سبعة أيام) وكان فى ابتداء مرضه فى بيت زوجته ميمونة ولما اشتد مرضه استأذن زوجاته أن يمرّض فى بيت عائشة فخرج يهادى بين العباس بن عبد المطلب وعلىّ بن أبى طالب حتى دخل بيت عائشة وأمر أن يُهريق عليه الماء فصبوه عليه لما كان يشعر به من الحمى ، وقال ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر وهذا أوان انقطاع أبهرِى من ذلك السم[٢] . ولما تعذر عليه الخروج للصلاة ، قال مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت له عائشة يارسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء . قال مروا أبا بكر فليصل بالناس فعاودته مثل مقالتها ، فقال إنكن صواحبات يوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فصلى بهم سبع عشرة صلاة أولاها عشاء ليلة الجمعة وآخرها صبح يوم الاثنين .

وفى تقديم أبى بكر للصلاة إشارة إلى أنه الخليفة بعده . فقالوا إن النبى ﷺ رضيه لديننا أفلا نرضاه لدنيانا ؟ غير أن النبى خرج معصوب الرأس لأنه كان يشكو ، وجلس فى أسفل مرقاة من المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : يأيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبى قبلى فيمن بعث إليه فأخلد فيكم ، ألا إنى لاحق بربى وإنكم لاحقون بى فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول :

(١) كان أبى بن كعب نحيفاً ، قصيراً ، أبيض الرأس واللحية . شهد العقبة الثانية وبدراً وما بعدها من المشاهد وكان كاتب الوحى وأحد الستة الذين حفظوا القرآن على عهد رسول الله وأحد الفقهاء الذين كانوا يفتون على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأقرأ الصحابة لكتاب الله ، مات بالمدينة ، ودفن بها سنة ثلاثين

(٢) الأبهر : عرق مستبطن فى الصلب والقلب متصل به ، فإذا انقطع لم تبق معه حياة

﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾
وإن الأمور تجرى بإذن الله ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم . ألم يشاطروكم فى الثمار . ألم يوسعوا لكم فى الديار . ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة . ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم . ألا ولا تستأثروا عليهم ، ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بى . ألا فإن موعدكم الحوض . ألا فمن أحب أن يرده علىّ غداً فليكفف يده ولسانه » .

وهذه آخر خطبة للنبى صلى الله عليه وسلم فلم يصعد المنبر بعد ذلك اليوم . وقد أوصى المسلمين بالمحبة والاتحاد وصلة الرحم ، المهاجرين منهم والأنصار ، وهو فى أشد حالات المرض ونهاهم عن التقاطع .

ثم أغمى على رسول الله ورأسه فى حجر عائشة رضى الله عنها وكانت تدعو له بالشفاء وكان يقول : إن للموت لسكرات . وقالت فاطمة لما تغشاه الكرب . واكرب أبتاه ، فقال : لا كرب على أبيك بعد اليوم .

وفى البخارى من حديث أنس رضى الله عنه . أن المسلمين بينماهم فى صلاة الفجر من يوم الاثنين وأبو بكر يصلى لهم ، لم يفاجئهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف سجف [1] حجرة عائشة رضى الله عنها فنظر إليهم وهم فى صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك [2] فنكص أبو بكر رضى الله عنه ليصل الصف وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج للصلاة . قال أنس وهم المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده ﷺ أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر . زاد فى رواية فتوفى من يومه . واجتمع حوله أصحابه يبكون قالت عائشة رضى الله عنها : توفى رسول الله ﷺ فى بيتى وبين سحرى ونحرى [3] والمراد أنه توفى وهو فى حجرها وكان أبو بكر رضى الله عنه غائباً فسل عمر بن الخطاب رضى الله عنه سيفه وتوعد من يقول مات رسول الله ﷺ مع أنه سمع خطبة رسول الله ﷺ التى قال فيها « يا أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم . هل خلد نبى قبلى فيمن بعث إليه فأخلد فيكم . إلا إنى لاحق بربى » .

فأقبل أبو بكر رضى الله عنه حين بلغه الخبر إلى بيت عائشة رضى الله عنها فكشف عن وجه رسول الله فجثا يقبله ويبكى ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك [4] . فلما تكلم أبو بكر رضى الله عنه جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه ثم قال :

(١) السجف : الستران المقرونان بينهما فرجة .
(٢) تبسم يضحك : فرحاً باجتماعهم على الصلاة واتفاق كلمتهم وإقامة شريعته .
(٣) السحر : الصدر ، والنحر : موضع القلادة من العنق . (٤) أى اتئد ولا تعجل .

(ألا مَن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومَن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت) وقد قال تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ الآية . فنشج[1] الناس يبكون رواه البخارى . فكان أجزع الناس كلهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلما سمع قول أبى بكر قال : فو الله لكأنى لم أتل هذه الآية قط .

ووقوف أبى بكر هذا الموقف يدل على رباطة جأشه عند الكروب وضبط النفس وعلى حكمته وشجاعته . فإن رسول الله لما توفى طاشت العقول فمنهم من خَبِل ومنهم من أقعد ولم يطق القيام ومنهم من أخرس فلم يطق الكلام ومنهم من أضنى[2] وكان عمر رضى الله عنه ممن خبل ، وكان عثمان رضى الله عنه ممن أخرس فكان لا يستطيع أن يتكلم ، وكان على رضى الله عنه ممن أقعد فلم يستطع أن يتحرك ، وأضنى عبد الله بن أنيس فمات كمداً وكان أثبتهم أبو بكر . قال القرطبي وهذا أول دليل على كمال شجاعة الصديق رضى الله عنه لأن الشجاعة هى ثبوت القلب عند حلول المصائب ولا مصيبة أعظم من موت رسول الله فظهرت عنده شجاعة الصديق وعلمه رضى الله عنه .

وروى أن بلالاً رضى الله عنه كان يؤذن بعد وفاته ﷺ وقبل دفنه فإذا قال : أشهد أن محمداً رسول الله ارتج المسجد بالبكاء والنحيب .

وكانت وفاته ﷺ يوم الاثنين فى شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ قمرية بلا خلاف ، واختلف فى أى الأثنين كانت وفاته فقال فقهاء الحجاز إن رسول الله قبض يوم الاثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول ، وقال الواقدى توفى يوم الاثنين لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، ودفن من الغد نصف النهار حين زاغت الشمس وذلك يوم الثلاثاء ، وكان عمره ثلاثا وستين سنة قمرية ، ورثته عمته صفية . وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب . وأبو بكر . وحسان بن ثابت وغيرهم .

وغسلوه ﷺ وعليه قميصه يضعون الماء فوق القميص ويدلكونه بالقميص[3] غسله على بن أبى طالب رضى الله عنه والماء من بئر غرس التى بقباء ، وكان العباس وابنه الفضل يعينانه فى تقليب جسمه الشريف وكفنوه فى ثلاثة أثواب بيض من القطن ليس فيها قميص ولا عمامة ، ولما فرغوا من جهازه ﷺ وضع على سريره فى بيته ثم دخل الناس عليه ﷺ أرسالاً أى جماعات متتابعين يصلون عليه وحفر له ﷺ فى المكان الذى توفى فيه بعد أن رفعوا فراشه الذى توفى عليه وفرش عليه قطيفة كان يلبسها ويفترشها قال أبو بكر رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول (ما مات نبىٌّ قط إلا يدفن حيث تقبض روحه) قال علىٌّ وأنا أيضاً سمعته . وكان المباشر للحفر

---

(١) يقال نشج الباكى : إذا غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب . (٢) أى أثقله المرض .

(٣) راجع البيهقى فى دلائل النبوة .

أبو طلحة زيد بن سهل الأنصارى رضى الله عنه ، حفر لحداً فى موضع فراشه حيث قبض ، ونزل فى قبره عمه العباس وعلى والفضل وقثم بن العباس رضى الله عنهم . ورش قبره ﷺ بلال بقربة بدأ من قبل رأسه وجعل عليه من حصباء العرصة حمراً وبيضاً ورفع قبره عن الأرض قدر شبر .

ولا يفوتنا أن نذكر أن المنافقين أكثروا من التحدث بتأمير أسامة حتى بلغ رسول الله فخرج وهو مريض عاصباً رأسه من الصداع فرد عليهم . ومما قاله فى الشأن « قد بلغنى أن أقواماً يقولون فى إمارة أسامة ولعمرى لئن قالوا فى إمارته لقد قالوا فى إمارة أبيه من قبله وإن كان أبوه لخليقاً للإمارة وإنه لخليق لها فأنفذوا بعث أسامة » وهذا يدل على أن رسول الله كان مهتماً لآخر لحظة فى حياته ببعث أسامة وبشئون المسلمين وتوحيد كلمتهم .

وقد توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله وما ترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً . عن عائشة رضى الله عنها « ولقد مات وما فى بيتى شىء يأكله ذو كبد[1] إلا شطر شعير فى رف لى فأكلت منه حتى طال علىّ فأكلته ففنى فياليتنى لم آكله » وروى الترمذى عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشبع هو ولا أهل بيته من خبز الشعير وما ترك رسول الله إلا سلاحه وبغلته وأرضاً جعلها صدقة .

رثاء أبى بكر

وقال محمد بن عمر الواقدى عن رجاله ، قال أبو بكر الصديق يرثى رسول الله ﷺ :

ياعين بكى ولا تسأمى ... وحُقَّ البكاء على السيِّد

على خير خِنْدف عند البلا ... ء أمسى يُغيَّب فى المَلْحَد

فصلَّى المليكُ وَلِيُّ العبا ... د وربُّ البلاد على أحمد

فكيف الحياة لفقد الحبيـ ... ـب وزين المعاشر فى المشهد

فليت المماتَ لنا كلنا ... وكنا جميعاً مع المهتدى

وقال رضى الله عنه أيضا :

لما رأيت نبينا متجدلا ... ضاقت علىّ بعرضهن الدور

(١) إنسان أو حيوان .

وارتمتُ روعةَ مستهامٍ والهٍ ‏ والعظم منى واهنٌ مكسور
أعتيقُ ويحك إن حبك قد ثوى ‏ وبقيت منفرداً وأنت حسير
ياليتنى من قبل مَهْلِك صاحبى ‏ غُيِّبتُ فى جدث، علىَّ صُخور
فلتحدُثَنَّ بدائعٌ مِن بَعده ‏ تَعْيَى بهنّ جوانحٌ وصدور

رثاء حسان بن ثابت

والله ماحملت أنثى ولا وضعتْ ‏ مثلَ النبى رسول الأمة الهادى
أمسى نساؤك عطّلن البيوت فما ‏ يضربن خلف قفا ستر بأوتاد
مثل الرّواهب يلبسن المسوح وقد ‏ أيقنّ بالبؤس بعد النعمة البادى

وقال أيضاً :

مابال عينك لا تنام كأنما ‏ كُحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعاً على المهدىّ أصبح ثاوياً ‏ ياخيرَ من وطئ الحصى لا تبعد
ياويح أنصار النبى ورهطه ‏ بعد المُغيَّب فى الضريح المُلْحَد
جنبى يقيك التُّرْب لهفى ليتنى ‏ كنتُ المُغيَّبَ فى الضريح الملحد
يا بِكر آمنة المبارك ذكره ‏ ولدته مُحْصَنَةٌ بسعد الأسعد
نوراً أضاء على البرية كلها ‏ من يُهْدَ للنور المبارك يهتدى
أأقيم بعدك بالمدينة بينهم ‏ يالهف نفسى ليتنى لم أولد
بأبى وأمى من شهدتُ وفاته ‏ فى يوم الاثنين النبى المهتدى
فظللت بعد وفاته متلدداً ‏ ياليتنى صُبِّحت سُمَّ الأسود
أو حلَّ أمر الله فينا عاجلاً ‏ فى روحة من يومنا أو من غد
فتقوم ساعتنا فنلقى سيداً ‏ محضاً مضاربه كريمَ المحتد
يارب فاجمعنا معاً ونبينا ‏ فى جنة تفقا عيون الحُسَّد
فى جنة الفردوس واكتبها لنا ‏ ياذا الجلال وذا العلا والسُّودد
والله أسمع ماحييت بهالك ‏ إلا بكيت على النبى محمد

ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا سوداً وجوههم كلون الإثمد
ولقــد ولدناه وفينا قبره وفضول نعمته بنا لا تُجحد
والله أهداه لنا وهدى به أنصاره فى كل ساعة مَشْهد
صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك أحمد

وقال أيضاً :

يا عين جودى بدمع منك سيّال ولا تَمَلّنّ من سحّ وإعوال
لا ينفدن لى بعد اليوم دمعكما إنى مصاب وإنى لست بالسالى
فإن منعكما من بعــد بذلكما إياى مثلُ الذى قد غرّ بالآل
لكن أفيضى على صدرى بأربعة إن الجوانح فيهــا هاجس صالى
سَحٌّ الشّعيب وماء الغرب يمنحه ساقٍ يُحمّلهُ ساقٍ بإزلال
حامى الحقيقة نَسّالُ الوديقة فكّــاكُ العناة كريمٌ ماجدٌ عال
كشّافُ مكرمة مطعامُ مسغبة وهّاب عانية وَجْناء شِملال
عَفٌّ مكاسبه جزل مواهبه خيرُ البرية سمح غير نــكال
وارى الزناد وقوّاد الجيــاد إلى يوم الطراد إذا شبّت بأجذال
ولا أزكّى على الرحمن ذا بشر لكن علمك عند الواحد العالى
إنى أرى الدهر والأيام تفجعنى بالصالحين وأبقى ناعم البال
يا عين فابكى رسول الله إذ ذكرت ذات الإله فنعم القائد الوالى

ومن رثاه ﷺ شعراً ، كعب بن مالك وأروى بنت عبد المطلب وعاتكة بنت عبد المطلب وصفية وهند بنت الحارث وهند بنت أثاثة وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وأم أيمن .

ما نزل من القرآن بالمدينة

نزل على رسول الله بالمدينة من القرآن اثنتان وثلاثون سورة . أول ما نزل ، ويل للمطففين ثم سورة البقرة ثم سورة الأنفال ثم سورة آل عمران ثم الحشر ثم سورة الأحزاب ثم سورة النور ثم الممتحنة ثم إنا فتحنا لك ثم سورة النساء ثم سورة الحج ثم سورة الحديد ثم سورة محمد ثم هل أتى على الإنسان ثم سورة الطلاق ثم سورة لم يكن ثم سورة الجمعة ثم تنزيل السجدة ثم المؤمن ثم إذا جاءك المنافقون ثم المجادلة ثم الحجرات ثم التحريم ، ثم التغابن ، ثم الصف ، ثم المائدة ، ثم براءة ، ثم إذا جاء نصر الله والفتح ، ثم إذا وقعت الواقعة ، ثم والعاديات ، ثم المعوذتان وكان آخر ما نزل : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ إلى آخر السورة ، وقد قيل إن آخر ما نزل عليه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ وهى الرواية الصحيحة .

مراتب الوحى

والرد على المستشرقين

نذكر فى هذا الفصل مراتب الوحى ثم نرد على المستشرقين الذين زعموا أن رسول الله كانت تعتريه نوبات صرعية إنكاراً لنزول الوحى .

ولنبدأ بمراتب الوحى وهى سبعة :

١ — الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

٢ — ما كان يلقيه الملك فى قلبه من غير أن يراه ، ويخلق الله فيه علماً ضرورياً يعلم به أنه وحى لا إلهام .

٣ — خطاب الملك حين كان يتمثل له رجلا فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول .

٤ — كان يأتيه مخاطباً له بصوت مثل صلصلة الجرس وكان هذا النوع أشده عليه ، وفى حديث لابن عباس : كان ﷺ يعالج من التنزيل شدة .

٥ — رؤية جبريل فى صورته التى خلقه الله عليها فيوحى إليه .

٦ — ما أوحاه الله إليه وهو فوق السموات من فرض الصلوات وغيرها بسماع الكلام الأزلى الذى ليس بحرف ولا صوت من غير واسطة مع الرؤية للذات المقدسة .

٧ — ما أوحاه إليه بلا واسطة أيضاً ، بل بسماع الكلام الأزلى لكن بلا رؤية كما وقع لموسى عليه السلام .

هذه هي مراتب الوحي وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعانى من الوحي شدة فظن المستشرقون أن هذه الشدة التي كانت ترى عليه إنما هي نوبة صرعية ، لكن أعراض الصرع المدروسة طبيًّا تخالف ما كان يشاهد عليه ﷺ عند نزول الوحي .

فالمصروع تعتريه النوبة فجأة فيقطع كلامه ويسقط من يده ما قد تكون قابضاً عليه وتثبت حدقة عينه ويصفر وجهه وقد يصيح صيحة عالية ويقع مغشيًّا عليه كمن أطلق عليه عيار نارى ولا يبذل أى مجهود للخلاص من حالته ، ولهذا كثيراً ما يصاب بجروح وقد يصاب بحروق خطرة إذا سقط بالقرب من نار وتتقلص عضلات الوجه في النوبة الصرعية ومنها عضلات الفك . فيعض المصروع لسانه ويمتزج لعابه بالدم ويسيل من فمه وإذا ترك وشأنه نام ساعات فإذا أفاق شكا صداعاً وارتباكاً في العقل . ثم إن الجروح التي تصيب رأس المصروع من السقوط فجأة تسبب له تهيجاً في الدماغ .

هذه هي أعراض الصرع الطبية . فكيف يقال إن رسول الله كانت تعتريه نوبات صرعية ولم يرولنا أنه سقط مغشيًّا عليه أو أصيب بجروح في رأسه أو عض لسانه أو شفتيه أو سال الدم منه أو أصيب بحروق أو فقد ذاكرته أو حاد عن مبدئه ؛ بل لم يقل أحد من الرواة إنه صاح صياحاً عالياً . أليس في مخالفة حالاته للأعراض الصرعية التي يعرفها كل طبيب رد كاف على هؤلاء المستشرقين ؟

كان رسول الله بعد شدة الوحي يملى القرآن بوضوح وحضور ذهن ، ويقرر الأطباء أن المصروع لا يمكن أن يكون حاضر الذهن بعد النوبة ، ومحال أن يعيش صحيح الجسم قويًّا طول حياته . كذلك لا يمكن أن يكون المصروع نبيًّا أو مشرعاً حافظاً لقواه العقلية والجسمية وهذا ما صرح به أحد مؤلفي السيرة وهو مستر بودلى في كتابه عن حياة الرسول طبعة سنة ١٩٤٦ صفحة ٥٥ ـ ٥٦[1] وقال أيضاً : « إن المعجزات ترجع إلى ألفي عام قبل المسيح وعلى ذلك فالذين يسخرون من محمد على جبل حراء فليسخروا من موسى على جبل سينا ومن المسيح على جبل الجليل » ، فالحالة التي كانت تعتريه ليست نوبة صرعية قطعاً . ومن شاء فليراجع الكتب الطبية في هذا الموضوع ليتأكد من أعراض الصرع التي ذكرناها ، إنما كانت تنتابه شدة من الوحي ، لا تلبث أن تزول ومن أهم أعراض الصرع ، اضمحلال القوى العقلية فضلا عن الجسمية . وهذا يخالف حالة رسول الله فإنه لبث محافظا على قواه طول حياته ولم يحد عن مبدئه وعن تبليغ الرسالة حتى آخر يوم من حياته فدعا إلى الله وحارب عبادة الأصنام والشرك وبقى متصفا بجليل صفاته وكرم أخلاقه حتى قبضه الله تعالى .

---

(1) The Messenger by R. V. C Bodley

زوجات رسول الله ﷺ

تزوج رسول الله خمس عشرة امرأة،ودخل بثلاث عشرة وجمع بين إحدى عشرة ؛ وتوفى عن تسع . أولاهن (خديجة) بنت خويلد ولم يتزوج عليها حتى ماتت .

ثم تزوج (سَوْدة) بنت زَمْعَة وكانت تحت ابن عمها السكران بن عمرو وهو من مهاجرة الحبشة ثم قدما مكة فمات بها ولم يعقب فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعده فى رمضان سنة عشر من النبوة بعد وفاة خديجة . توفيت (سودة) فى شوال سنة ٥٤ ﻫ فى خلافة معاوية بالمدينة .

ثم تزوج (عائشة) بنت أبى بكر سنة اثنتين ولم يتزوج بكراً غيرها . عقد عليها بمكة وهى ابنة ست سنين وبنى عليها بالمدينة وهى ابنة تسع وتزوج (حفصة) بنت عمر بن الخطاب وكانت تحت خنيس بن حذافة السهمى وكان رسول الله أرسله إلى كسرى ولما مات خنيس بن حذافة وتأيمت حفصة ذكرها عمر لأبى بكر وعرضها عليه فلم يرد عليه أبو بكر كلمة فغضب عمر من ذلك فعرضها على عثمان حين ماتت رقية بنت رسول الله فقال عثمان ما أريد أن أتزوج اليوم فانطلق عمر إلى رسول الله فشكا إليه عثمان فقال رسول الله : يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة ثم خطبها إلى عمر فتزوجها رسول الله بعد غزوة أحد سنة ثلاث وكانت سنها عشرين سنة وتوفيت سنة ٤٥ فى خلافة مروان بن الحكم وكان عمرها ستين سنة ثم تزوج (زينب) بنت خزيمة بن الحارث سنة ثلاث . يقال لها أم المساكين لكثرة إطعامها المساكين وصدقتها عليهم وكانت تحت عبد الله بن جحش فقتل عنها يوم أحد ولم تلبث عند رسول الله إلا يسيراً : شهرين أو ثلاثة حتى توفيت فى حياته.

ثم تزوج (زينب) بنت جحش وهى بنت عمته ﷺ سنة خمس وهى أول من مات من أزواجه فى خلافة عمر وتكنى أم الحكم وكانت قديمة الإسلام وكانت قد تزوجها زيد بن حارثة مولى رسول الله ليعلمها كتاب الله وسنة رسوله وكان اسمها برة فسماها زينب وبسببها نزل الحجاب .

ثم تزوج (أم حبيبة) واسمها « رملة » بنت أبى سفيان صخر بن حرب وأمها صفية بنت أبى العاص عمة عثمان ابن عفان . أسلمت قديماً وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش فتنصر بالحبشة ومات بها وأبت هى أن تتنصر وثبتت على إسلامها فتزوجها رسول الله وهى بالحبشة سنة ست . وروى مسلم بن الحجاج فى صحيحه أن أبا سفيان طلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها فأجابه إلى ذلك وهذا مما يعد من أوهام مسلم لأن رسول الله قد تزوجها وهى بالحبشة قبل إسلام أبى سفيان ولم يختلف أهل السير فى ذلك[1] وأصدقها النجاشى أربعمائة دينار وكان وليها عثمان بن عفان .

(١) راجع الجزء الخامس من أسد الغابة « رملة » وتهذيب الأسماء للنووى « أم حبيبة » .

ثم تزوج (أم سلمة) بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومى واسمها هند ، سنة أربع وكانت قبل النبى ﷺ عند أبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى فولدت له سلمة وعمر ودرة وزينب وتوفى فخلفه عليها رسول الله بعده . وكانت من المهاجرات إلى الحبشة وإلى المدينة وكانت سنها حين تزوجها رسول الله ثلاثين سنة . وتزوج (ميمونة) بنت الحارث وهى خالة خالد بن الوليد وكانت قبل رسول الله عند أبى رهم العامرى . تزوجها رسول الله سنة سبع فى عمرة القضاء فى ذى القعدة .

وتزوج (صفية) بنت حُيَى بن أخطب سنة سبع ولم تبلغ ١٧ سنة وكانت زوج سلام بن مشكم اليهودى ثم خلفه عليها كنانة بن أبى الحقيق وهما شاعران فقتل عنها كنانة يوم خيبر ثم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفيت سنة ٥٢ ﻫ وتزوج (جويرية) بنت الحارث بن أبى ضرار سنة خمس سباها رسول الله يوم المريسيع وهى غزوة بنى المصطلق وكانت تحت مسافع بن صفوان المصطلقى ذى الشفرين . وعن عائشة قالت لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بنى المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها إلخ ...

ولما بلغ الناس أنه تزوجها قالوا أصهار رسول الله فأطلقوا جميع الأسرى الذين بأيديهم .

وتزوج (خولة) بنت حكيم وهى التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم .

وتزوج امرأة يقال لها (عمرة) فطلقها ولم يبْن بها وذلك أن أباها قال له وأزيدك أنها لم تمرض قط ، فقال ما لهذه عند الله من خير فطلقها . وتزوج امرأة يقال لها (أميمة) بنت النعمان فطلقها قبل أن يدخل بها . وخطب امرأة من بنى مرة بن عوف فرده أبوها وقال إن بها برصاً فلما رجع إليها وجدها برصاء .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج هؤلاء قبل تحريم ما زاد على الأربع وهن عائشة وميمونة وصفية وحفصة وهند وزينب وجويرية ورملة وسودة .

تعدد زوجات رسول الله

اعترض بعض الذين كتبوا سيرة الرسول من المسيحيين على كثرة أزواجه ﷺ وزعموا أنه كان شهوانياً . والحقيقة أن كثرة أزواجه لم تكن بدافع شهوانى فإنه أراد بذلك أن يوجد بينه وبين أصحابه وكبار قومه صلة قوية ورابطة متينة بواسطة المصاهرة لأن ذلك مما يساعده ويشد أزره للدفاع عن مبدئه السامى ونشر الدعوة إلى الإسلام .

أما أنه لم يكن شهوانياً فأمر لا ينكر ، وظاهر من حياته وأطواره لأنه صلى الله عليه وسلم تزوج خديجة وكانت فى الأربعين من عمرها وهو فى عنفوان شبابه فى سن الخامسة والعشرين ولم يتزوج بغيرها إلى أن توفيت

وكان عمره إذ ذاك خمسين سنة فإذا لم يكن إلى هذا العمر رجل شهوة بل كان رجلا قانعا بزوجة واحدة فهل من العدل أن نقول إنه كان شهوانيا بعد ذلك ؟

لم يكن رسول الله يعرف الفراغ بل كان فى جهاد مستمر فلم يذق للراحة طعما من مبدأ الرسالة إلى أن مات فكان يقضى أوقاته فى نشر الدعوة ومحاربة الوثنية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدفاع عن المسلمين وجمع شملهم وتعليمهم أمور دينهم وتثبيت دعائم المدنية الصحيحة الخالية من الشوائب ، ومكافحة الأعداء باللسان والسيف . وكان مع ذلك يتعبد آناء الليل وأطراف النهار ، وعلى العموم فقد تحمل من الأعباء ما تنوء به الجبال ولم تشغله كثرة نسائه عن عبادة ربه وعن القيام بواجبات الرسالة .

وأما أنه كان يقصد من تعدد زوجاته إيجاد روابط المصاهرة وتأليف القلوب لنشر الدعوة فهذا واضح أيضاً فإن زوجته (عائشة) هى بنت أبى بكر الصديق (وحفصة) بنت عمر بن الخطاب وقد كان عرضها عمر بعد موت زوجها على أبى بكر وعثمان فأبيا زواجها فتزوجها رسول الله (وأم حبيبة) هى بنت أبى سفيان وقد كان من أكبر أعداء رسول الله ومن أشراف قريش ، وعدا ذلك قد كانت أم حبيبة كما تقدم أسلمت قديماً وهاجرت إلى الحبشة وتنصر زوجها هنالك وأبت أن تتنصر معه فأكرمها النبى ﷺ بزواجها . وزوجته (ميمونة) هى خالة خالد بن الوليد الذى صار من أعظم أبطال المسلمين وقوادهم الذين اكتسبوا شهرة خالدة . وأما زوجته « صفية بنت حيى » فإنما تزوجها لأنها بنت ملك من ملوك اليهود فلا تصلح إلا له ﷺ وقد تنافس المسلمون فيها لما وقعت فى نصيب دحية بن خليفة الكلبى .

وقد كان رسول الله قوياً صحيح الجسم كما أنه كان ذا إرادة تفل الحديد ، وكان بشراً يأكل ويشرب ويشتهى ، وقد عصمه الله تعالى عن الذنوب . وتزوج (زينب بنت جحش) وكانت عند مولاه زيد بن حارثة وطلقها زيد بعد أن كرهها ، وتزوجها رسول الله لإبطال عادة التبنى ونسخ تحريم الزواج بامرأة المتبنى . هذا ملخص العلة فى تعدد زوجاته بعد أن بلغ من العمر الخمسين وبعد أن انقضى زمن شبابه : زمن حدة الشهوة . هذا ولا يخفى أن تعدد الزووجات كان عادة مألوفة عند العرب .

على أن عقلاء الإفرنج أدركوا حقيقة هذه المسألة فردوا على ما افتراه بعضهم من قصار النظر . فقال الفيلسوف الإنجليزى توماس كارليل :

« وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً ، وشد ما نجور ونخطىء إذا حسبناه رجلا شهوياً لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ . كلا فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت . لقد كان زاهداً متقشفا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار . وإنهم ليذكرون - ونعم ما يذكرون - أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده . فهل بعد ذلك مكرمة ومعجزة ؟

فهذا محمد من رجل خشن اللباس ، خشن الطعام ، مجتهد فى الله قائم النهار ساهر الليل ، دائباً فى نشر دين الله الخ » .

هذا وقد كان لسليمان ثلاثمائة امرأة وثلاثمائة سرية وقد كان لداود عليه السلام على زهده وأكله من عمل يده تسع وتسعون امرأة وتمت بزواج امرأة أوريا مائة .

المرأة فى الاسلام

لم يكن للمرأة فى الجاهلية أى شأن ، فلم يكن لها حق الميراث كالأطفال ويقولون : لا يرث إلا من طاعن بالرماح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة .

وأمر الله تعالى بعاشرة النساء بالمعروف حيث قال (وعاشروهن بالمعروف) .

وأمر النساء بالخضوع للرجال قال تعالى (الرّجال قوّامون على النساء) وحث رسول الله على معاملتهن باللين والرفق فأوصى بهن الأزواج حيث قال « استوصوا بالنساء خيراً » وشرط الإسلام رضا المرأة قبل الزواج ومنع أخذ الزوجة بغير رضاها وجاء فى الحديث « الجنة تحت أقدام الأمهات » وللنساء فى الميراث نصف ما للرجال ، وحرم القرآن وأد البنات ، ومنع الإسلام الزواج المؤقت (زواج المتعة) وحرم الزنا ولم يبح تعدد الزوجات إلا عند توافر العدل « فإنْ خفتمْ ألّا تعدلوا فواحدة » وأباح الطلاق وصرح النبى أن أبغض الحلال عند الله الطلاق ، وتعدد الزوجات بلا شك خير من الزنا المستور وهو يمنع العهارة وعزوبة النساء المنتشرة فى هذه الأيام بكثرة .

حكمة تعدد الزوجات

إن الدين الإسلامى لما كان ديناً عامًا فقد أباح تعدد الزوجات قال تعالى : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ وذلك لضرورات اجتماعية وشخصية :

فأما الضرورات الاجتماعية ، فهو نقص عدد الرجال عن النساء بسبب قتل الرجال فى ميادين الحرب . هذا ولم يستطع رؤساء الحكومات ولا علماء الاجتماع ولا المصلحون ولا المؤتمرات الدولية منع الحروب . فقد نشبت الحرب العالمية وذهب ضحيتها الملايين من النفوس البشرية وهاهى الأمم تستعد الآن للحرب أخذاً بالثأر وطمعاً فى التوسع والاستعمار ، وتنشئ الطيارات والأساطيل والمدافع وقد فشل مؤتمر نزع السلاح فى مهمته .

ولا تزال القبائل فى إفريقية وأمريكا وآسيا تشن الغارات ويقتل عدد كبير من رجالها ونتيجة هذه الحروب والغارات نقص عدد الرجال عن النساء نقصاً يقدر بحسب فظاعتها .

ونقص الرجال عن النساء - خصوصاً إذا كان النقص عظيما - ضار بالأمة من جملة وجوه منها نقص الثروة لقلة الأيدى العاملة ، وضعف قوتها من الوجهة الحربية ، وتعرضها لغارات المغيرين ومطامع الطامعين من الأمم القوية فلا يعيد مثل هذه الأمة التى أصيبت بنقص رجالها إلى قوتها وكثرة مواليدها إلا تعدد الزوجات .

وقد كتب العالم الإنجليزى هربرت سبنسر فى كتاب أصول علم الاجتماع :

« إذا طرأ على الأمة حال اجتاحت رجالها بالحروب ولم يكن لكل رجل من الباقين سوى زوجة واحدة وبقيت نساء عديدات بلا أزواج ينتج من ذلك نقص فى عدد المواليد لا محالة ولا يكون عددهم مساوياً لعدد الوفيات فإذا تقابلت أمتان مع فرض أنهما متساويتان فى جميع الوسائل المعيشية وكانت إحداهما لا تستفيد من جميع نسائها بالاستيلاد فلا تستطيع أن تقاوم خصيمتها التى يستولد رجالها جميع نسائها وتكون النتيجة أن الأمة الموحدة الزوجات تفنى أمام الأمم المعددة للزوجات » .

ثم إن زيادة عدد النساء بلا أزواج مدعاة لانتشار الفسق والفجور والفاقة ، ولاشك أن إباحة تعدد الزوجات للقادرين عليه علاج لكل ماتقدم .

فأما الضرورات الشخصية ، فمعلوم أن الزنا محرم شرعاً فلو أن الإسلام حرم التعدد لضاقت السبل أمام المتدين الذى يعبد الله ويتبع أوامره ويجتنب نواهيه لأن هناك ظروفاً شتى قاهرة تضطر الإنسان إلى الزواج بأكثر من امرأة واحدة نذكر منها :

١ - مرض الزوجة مرضاً مزمناً يجعل الزوج ينفر منها بحيث يجعلها غير صالحة للملامسة والتمتع وليس لها من يعولها إذا طلقها ولا تستطيع الكسب ولا يمكن أن تتزوج بغيره فليس من المروءة والإنسانية طلاقها وليس من الحكمة منعه من التزوج لئلا يتعطل نسله أو تميل به الشهوات الطبيعية إلى الزنا [1] ، وقد حدث مثل ذلك بالضبط لأحد الصالحين وكان قاضياً بالمحاكم الأهلية رحمه الله تعالى فإنه بعد أن تزوج بمدة يسيرة أصيبت زوجته بالشلل فكانت حالتها منفرة ولا تستطيع الحركة ولا تناول الطعام بيدها وليس لها من يعولها إذا طلقها بل يستحيل عليه ذلك لما جبل عليه من المروءة والشفقة . ولما كان متمسكا بدينه تزوج غيرها بعد أن قرر الأطباء عدم شفائها وخصص لها خادمة وكان يخدمها بنفسه وقد طال مرضها وبقيت على هذه الحال إلى أن توفيت .

٢ - امتناع الرجل عن الاتصال بزوجته مدة الوضع والنفاس وما ينالها بسبب ذلك من الآلام والضعف .

٣ - جاذبية المرأة وجمالها وتأثيرها فى الرجل مع قدرته على التعدد من الوجهة الجسمانية والمالية .

٤ - بلوغ الزوجة سن الشيخوخة .

---

(١) كتاب المختارات الفتحية فى التشريع وأصول الفقه للأستاذ أحمد أبى الفتح بك الطبعة الرابعة صفحة ٢٠

٥ ـ عقم المرأة مع رغبة الرجل فى الذرية .

٦ ـ الرغبة فى كثرة النسل رغبة فى النفوذ والجاه .

٧ ـ الأسباب الاقتصادية فإن النساء والأولاد يساعدون الرجل فى عمله وهذا مشاهد فى البلاد الزراعية كالقطر المصرى ، وقد يضطر الرجل أن يتزوج امرأة غنية بسبب سوء حالته المالية .

وقد كان تعدد الزوجات شائعاً عند العرب ولم يكن فى الجاهلية قانون يحدد عدد الزوجات ، وقد أسلم غيلان ابن سلمة وتحته عشر نسوة فقال له رسول الله ﷺ : « أمسك أربعاً وفارق باقيهن » .

قال الأستاذ غوستاف لوبون :

« إن تعدد الزوجات على مثال ما شرعه الإسلام من أفضل الأنظمة وأنهضها بأدب الأمة التى تذهب إليه وتعتصم به وأوثقها للأسرة عقداً وأشدها لأصرتها أزراً وسبيله أن تكون المرأة المسلمة أسعد حالا وأوجه شأنا وأحق باحترام الرجل من أختها الغربية » .

وقال : « ولست أدرى على أى قاعدة يبنى الأوربيون حكمهم بانحطاط ذلك النظام ـ نظام تعدد الزوجات ـ عن نظام التفرد عند الأوربيين المشوب بالكذب والنفاق ؟ ! على حين أرى هنالك أسباباً تحملنى على إيثار نظام التعدد على ما سواه . وليس عجيباً بعد ذلك أن نرى الشرقيين الذين ينتجعون إلينا ويتنقلون بين مدائننا يحارون من قسوتنا فى الحكم على نظام تعدد الزوجات » وقال :

وقد حبذ شوبنهور الفيلسوف الألمانى تعدد الزوجات فيهم[1] :

« أما آن لنا أن نعد بعد ذلك تعدد الزوجات حسنة حقيقية لنوع النساء بأسره ؟ » قال ذلك بعد أن شرح مضار الاقتصار على زوجة واحدة فما قال : « فى مدينة لندرة وحدها ثمانون ألف بنت عمومية سفك دم شرفهن على مذبحة الزواج ضحية الاقتصار على زوجة واحدة ونتيجة تعنت السيدة الأوربية وما تدعيه لنفسها من الأباطيل » .

وقال : « إذا رجعنا إلى أصول الأشياء وحقيقتها لا نجد سبباً يمنع الرجل من التزوج بثانية إذا أصيبت امرأته بمرض مزمن تألم منه أو كانت عقيما أو أصبحت على توالى السنين عجوزاً » .

إن الرجل المتزوج فى الأمم المسيحية التى لا تبيح تعدد الزوجات ، لا يقتصر فى الحقيقة على امرأة واحدة بل نراه يتخذ كثيراً من الخليلات ويبيح لنفسه التمتع بمن أحب منهن . لكنه إذا أبدى رأيه أو كتب فى موضوع الزواج طعن على تعدد الزوجات ورمى المسلمين بالهمجية والتعدى على حقوق الزوجة وزعم أنهم شهوانيون .

(١) راجع الجزء الثانى من كتاب المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها تأليف الأستاذ عبد الله عفيفى ص ٦٩ و ٧٢ .

ولذلك قال الأستاذ لوبون عن نظام تفرد « الزوجة » بين الأوربيين إنه : مشوب بالكذب والنفاق . . . وصرح بذلك أيضاً شوبنهور فقال :

« أين لنا من يقتصر حقيقة على زوجة واحدة ، بل لا ننكر أننا فى بعض أيامنا أو فى معظمها كلنا أو جلنا نتخذ كثيراً من النساء » .

على أن الشريعة الإسلامية كما هو واضح من نص القرآن الكريم لم تبح تعدد الزوجات . بلا قيد ولا شرط ، بل اشترطت العدل ، قال تعالى :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ ، والمعنى فإن خفتم ألا تعدلوا بين هذه الأعداد كما خفتم ترك العدل فيما فوقها فاكتفوا بزوجة واحدة ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ والمعنى ذلك أقرب من ألا تعولوا أى لا تجوروا ولا تميلوا .

والذى يؤخذ من مجموع نصوص القرآن والسنة أن الزوج يعتبر آثماً إذا تزوج على امرأته لمجرد الإضرار بها[1] قال تعالى : ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ .

فالإسلام لم يبح التعدد جزافاً بل اشترط العدل ، فكأنه فى الحقيقة ضيّق حدود التعدد ، فالذين يعددون الزوجات ويضربون صفحاً عن هذا الشرط ، هم فى الحقيقة يخالفون الدين ، فلا شأن لنا بهم ، وفعلهم لا يؤخذ حجة على الدين .

بنوه وبناته ﷺ

ولدت خديجة لرسول الله ﷺ ولده كلهم إلا إبراهيم الذى ولد بالمدينة ، فإنه من مارية القبطية من قرية حفن من كورة أنصناء ، وقد أهداها المقوقس عظيم القبط إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وأهدى معها أختها سيرين وهى التى وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت .

وأكبر بنيه القاسم ، وبه يكنى ؛ ولد قبل النبوة بمكة ؛ وهو أول من مات من ولده .

ثم ولد له زينب ؛ ثم رقية ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم ؛ ثم ولد له فى الإسلام عبد الله (وهو الطيب والطاهر) وهؤلاء كلهم من خديجة ؛ ومات بعد القاسم عبد الله ؛ فقال العاص بن وائل السهمى « قد انقطع ولده فهو أبتر » فأنزل الله تعالى : « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » وعبد الله هو آخر الأولاد من خديجة .

---

(١) المختارات الفتحية ص ٢٠

(٢) الشانئ : المبغض . والأبتر : هو مقطوع الذنب ، ويقال لمن لا عقب له أبتر ، وكانت قريش يقولون لمن مات الذكور من أولاده أبتر .

أما إبراهيم فولد له سنة ثمان ومات وهو ابن ستة عشر شهراً وقيل ثمانية عشر ، فى سنة عشر من الهجرة .

أما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه ﷺ .

وتزوج زينب أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد أخت خديجة لأمها وأبيها . توفيت زينب سنة ثمان من الهجرة . ولدت لأبى العاص علياً وأمامة . وفاطمة تزوجها على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ورقية وأم كلثوم تزوجهما عثمان بن عفان . وتوفيتا عنده ولهذا سمى ذا النورين توفيت رقية يوم بدر فى رمضان سنة اثنتين من الهجرة وتوفيت أم كلثوم سنة تسع من الهجرة . فالبنات أربع والبنون ثلاثة .

صفته ﷺ

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيض مشرباً بحمرة واسع الجبين . عظيم الرأس من غير إفراط حسن الجسم . عظيم الجبهة دقيق الحاجبين مقرونهما كانت الفرجة التى بين حاجبيه يسيرة لا تبين إلا لمن دقق النظر ، أهدب الأشفار ، أدعج العينين[1] أقنى الأنف[2] واضح الخدين ليس فيهما نتوء ولا ارتفاع كث اللحية (كثير شعرها) أسودها عرقه فى وجهه ، واسع الفم من غير إفراط ، والعرب تتمدح به لدلالة السعة على الفصاحة ، مفلج الثنايا «متفرقها» قوى الأسنان ضخم الكراديس «رءوس العظام» غليظ الكتفين واسعهما ناعمهما شثن الكفين والقدمين[3] بين كتفيه خاتم النبوة وخاتمه غدة حمراء ، مثل بيضة الحمامة ! غليظ الأصابع من غير قصر ولا خشونة واسع الصدر سهل البطن ، غليظ القدمين ، سبابة قدمه أطول من الوسطى ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر ، طويل الزندين ، لم يكن بالطويل ولا القصير وهو إلى الطول أقرب . شديد سواد الشعر ، شعره وسط بين الجعودة والسبوطة ، إذا التفت التفت جميعا ، نقى الثوب لين الكلام ، حسن الصوت قويه ، لا يقول هجرا ، ولا ينطق هذرا ، يخاطب كل إنسان على قدر عقله ، يكلم كل قبيلة بما تعرفه ، واسع الاطلاع بلغات العرب إذا فرح غض طرفه ، ما رئى ضاحكا إنما كان يبتسم وكان الضحك منه نادرا ولم يقهقه ، ما تثاءب قط ، وما احتلم قط ، ليس بمسترخى البدن ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح ، وكان يمزح ولا يقول إلا حقاً ، يقابل السيئة بالحسنة ، يصل من قطعه ويعطى من حرمه ويعفو عمن ظلمه ، لا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ويصبر للغريب على الجفوة فى المنطق والمسألة ، لا يقطع على أحد حديثه ، ولا يتكلم

---

(١) وقد جاء أشكل العينين أى فى بياض عينيه حمرة وكانت فى الكتب القديمة من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم ، وعن أبى هريرة أكحل العينين ، والكحل سواد هدب العينين خلقة .

(٢) القنا فى الأنف : طوله ودقة أرنبته مع حدب فى وسطه .

(٣) أى غليظهما .

فى غير حاجة ، وكان كلامه يحفظه عنه كل من سمع ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها وإنما يغضب إذا تعرض للحق بشىء ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويتفقد أصحابه ويسأل عنهم فمن كان غائباً دعا له ، ومن كان شاهداً زاره ومن كان مريضاً عاده ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس (تواضعاً) من جالسه أو نادمه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، من سأله حاجة لم يرده إلا بها ، عنده الناس فى الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياء لا ترفع فيه الأصوات ولا يتنازعون عنده الحديث ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، وقد قال ﷺ بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . وكان أشد الناس خشية وخوفاً من الله ، ما ضرب بيده الشريفة امرأة ولا خادماً من أهله ، حلمه يسبق غضبه ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما أسخى الناس كفا وأشدهم حياء ، يحب الفأل الحسن ويغير الاسم القبيح بالحسن ، يشاور أصحابه فى الأمر ، وكان إذا كره شيئاً عرف فى وجهه ولم يشافه أحداً بمكروه ، يمازح صبيان أصحابه ويجلسهم فى حجره ويقعدون فى صدره الشريف فيقبلهم ويلتزمهم ، يشهد الجنائز ويقبل عذر المعتذر . ما وضع أحد فمه فى أذنه إلا استمر مصغياً له حتى يفرغ من حديثه ويذهب ، يمشى مع الأرملة والمسكين والضعيف فى حوائجهم ، وما صافح أحداً بيده فيرسل يده ﷺ منه حتى يكون الآخر هو الذى يرسلها ، يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، لم يُر قط مادًّا رجليه بين أصحابه كان يجلس على الأرض والحصير والبساط ، يكرم من يدخل عليه وربما بسط له رداءه وآثره بالوسادة التى تحته ويعزم عليه إن أبى ، ويدعو أصحابه بأحب أسمائهم ويكنيهم ، ولا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وسأله عن حالته فإذا فرغ عاد إلى صلاته ، كان يركب الحمار وربما ركبه عريانَ ويردف خلفه وكان يجلس على الأرض ويحب السواك ويكتحل بالإثمد عند النوم ثلاثا فى كل عين ، وحج على رحل رث عليه قطيفة ما تساوى أربعة دراهم وقال اللهم اجعله حجًّا مبروراً لا رياء فيه ولا سمعة ، وكان غالب ما يلبس هو وأصحابه ما نسج من القطن وربما لبسوا ما نسج من الصوف والكتان ، يحلب شاته ويخصف نعله ويرقع ثوبه ويخدم نفسه ويقمّ البيت ، ما يُرى فارغا قط فى بيته ، ويأكل مع الخادم ويطحن معه ويحمل بضاعته من السوق ، ويحب الطيب ويأمر به ، ويأمر أصحابه بالمشى أمامه . توفى ودرعه مرهونة عند يهودى على نفقة عياله . ما شبع ثلاثة أيام تباعاً من خبز البر حتى فارق الدنيا . وما أكل خبزاً منخولا وكان يبيت الليالى المتتابعة طاوياً . وما أكل على خوان قط إنما كان يأكل على السفرة وربما وضع طعامه على الأرض . لا يجمع فى بطنه بين طعامين . إن أكل لحما لم يزد عليه وان أكل تمراً لم يزد عليه وان أكل خبزاً لم يزد عليه ، وكان يصلى على الحصير وعلى الفروة المدبوغة وربما نام على الحصير فأثرت فى جسده الشريف ، وكان ينام على شىء من أدم محشو ليفاً .

وكان ﷺ أفصح الناس وأعذبهم كلاماً وأسرعهم أداء وأحلاهم منطقاً حتى إن كلامه يأخذ بالقلوب ويسبى الأرواح . وكان إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين يعده العاد ، ليس بهذر مسرع لا يحفظ ولا متقطع تخلله

السكتات بين أفراد الكلام . لم يكن بكاؤه بشهيق ورفع صوت كما لم يكن ضحكه بقهقهة ، وكان يبكى أحيانا فى صلاة الليل .

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرض وعلى المنبر وعلى البعير وعلى الناقة . وكان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش ، وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله ، وكان إذا صعد المنبر أقبل بوجهه على الناس ثم قال السلام عليكم ويختم خطبته بالاستغفار ، وكان كثيراً ما يخطب بالقرآن وإذا قام يخطب أخذ عصا فتوكأ عليها وكان أحيانا يتوكأ على قوس ولم يحفظ عنه أنه توكأ على سيف .

ولم يكن ﷺ يفجأ أهله عند دخوله إلى المنزل بغتة يتخونهم ، ولكن كان يدخل على أهله على علم منهم بدخوله ، وكان يسلم عليهم وكان إذا دخل بدأ بالسؤال أى سأل عنهم ، وربما قال هل عندكم من غداء ، وربما سكت حتى يحضر بين يديه ما تيسر ، وكان إذا دخل على أهله بالليل يسلم تسليما لا يوقظ النائم ويسمع اليقظان . وإذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول السلام عليكم السلام عليكم لم يكن يرد السلام بيده ولا رأسه ولا إصبعه .

وكان ﷺ إذا رفع يديه فى الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه . وكان أكثر دعائه « يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » وكان إذا أصابه غم أو كرب يقول « حسبى الرب من العباد . حسبى الخالق من المخلوقين . حسبى الرزاق من المرزوقين . حسبى الذى هو حسبى . حسبى الله ونعم الوكيل . حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » وإذا اجتهد فى الدعاء قال « ياحىُّ ياقيوم » وإذا أراد أمراً قال « اللهم خِرْ لى واختر لى » وإذا جاءه أمر يُسَرّ به خرّ ساجداً شكراً لله عز وجل . وكان يعجبه أن يدعى الرجل بأحب أسمائه .

وإذا عزّى قال « يرحمه الله ويؤجركم » وإذا هنأ قال « بارك الله لكم وبارك الله عليكم » وإذا أراد سفر قال « اللهم بك أحول وبك أسير » وإذا سمع المؤذن قال مثل مايقول حتى إذا بلغ حى على الصلاة حىَّ على الفلاح قال « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

الشمائل المحمدية

عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وستين عاماً وبدأ دعوته بعد سن الأربعين أى أنه ظل يكافح ويجاهد ثلاثاً وعشرين سنة فى القضاء على الوثنية ونشر تعاليم الإسلام والحضارة المؤسسة على التوحيد والفضيلة . فكانت ساعات عمره شهوراً وشهوره أعواماً وأعوامه أجيالا . كان يجاهد بلسانه وسيفه ويعلم أصحابه وأتباعه أمور الدين ويؤدبهم ويهذبهم بالفعال والأقوال والاقتداء بسيرته النقية الطاهرة ويرشدهم إلى صلاح الدنيا والآخرة ويحذرهم ارتكاب المعاصى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وينطق فى أحاديثه بالحكم وجوامع الكلم التى

لم يسبق إليها أحد من البشر، ويقود أصحابه إلى ساحات الوغى وينظم الجيوش ويصدر الأوامر للقواد ويحثهم على الجهاد والصبر، ويدبر لهم الخطط الحربية ويحكم بين الناس بالعدل. فكان معلماً ومربياً ومؤدباً وواعظاً ومرشداً وبشيرا ونذيراً وخطيباً وإماماً وأباً بارا وأخا صادقاً وقائداً ومشرعاً وقاضياً. وإذا دخل منزله على نسائه وأحسن عشرتهن ووفق بينهن، وإذا خلا إلى نفسه انقطع إلى عبادة ربه والتضرع إليه حتى لا يطيق أحد أن يجاريه في صلواته ودعواته مهما اجتهد وإنا نرى أعظم الناس قوة واقتداراً إذا انصرف إلى أمور الدنيا أو النظر في الشئون العامة، فرط في العبادة أو لم يستطع أداءها على الوجه الأكمل. ومن انصرف إلى العبادة، أهمل النظر في شئون أهله وعشيرته ولفظ الدنيا. أما رسول الله ﷺ فقد جمع بين الدين والدنيا وفاز بالسعادتين بدرجة فاقت القوة البشرية، فلذلك تم على يديه في تلك السنوات القليلة ما عجزت عنه الأمم بأسرها في قرون.

إن من يطالع سيرة رسول الله بإمعان ويفكر في أخلاقه وفي تلك الشخصية العظيمة ويتصور كيف أنه كان متصفاً بجميع تلك الأخلاق السامية ليعترف بأنه عليه السلام سيد الخلق حقيقة.

كانت أخلاقه عليه السلام غير متكلفة لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلا بل يرجع إلى الطبع وهذا ما أكسبها عظمة وجلالا.

قالوا إن الخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة. والإتيان بالأفعال الجميلة شيء وسهولة الإتيان بها شيء آخر فالحالة التي باعتبارها تحصل تلك السهولة هي الخلق.

فلم يك رسول الله ﷺ يتكلف شيئاً من الفضائل أصلا. ثم إن اجتماع الفضائل في شخص واحد مع عدم التكلف أمر خارق للعادة لأن الإنسان خلقت فيه شهوات لا يمكن أن يردها إلى حد الاعتدال من غير إفراط أو تفريط إلا إذا عود نفسه سنين عديدة واجتهد وقد لا يستطيع.

والعاقل إذا شعر بنقيصة فيه وأراد محاربتها ومحوها بالتعود وقوة الإرادة كان لا بد من مرور زمن طويل حتى تزول وتنمحي، وهو في أثناء محاربتها عرضة لأن تظهر عليه تلك النقيصة أو آثارها من حين لآخر وبالرغم منه، وعند ذلك يلاحظها الناس فيه فإن كان رجلا عظيماً أثبتوها عليه في تاريخ حياته فيقولون مثلا كان بخيلا ثم اعتاد السخاء أو جباناً فتشجع بمعاشرة الشجعان والاقتداء بهم الخ.

ولم نر إنساناً له نقيصة واحدة فقط مع كثرة تجاربنا ومعاشرتنا الناس. نعم قد يتوهم كل إنسان أنه كامل لا عيب فيه ولا نقص، لأن العين لا ترى نفسها إلا بطريق المرآة ومرآة الإنسان أصدقاؤه وخلانه ومعاشروه. ثم إن اعتقاد المرء بكماله وتنزهه عن القبائح والرذائل يمنعه من الاطلاع على عيوبه وهفواته وسقطاته وإن كانت كثيرة، ولو أنه سمع رأي الناس فيه وإن كانوا أقل منه منزلة لتبين له كثير من المساوئ التي كانت خافية عليه بسبب اعتقاده الكمال في نفسه.

نقول ذلك إذ قد يعترض علينا أحد فيقول إنك تزعم أنك لم تر إنسانا له نقيصة واحدة فقط مع أني لا أذكر

لنفسى عيوباً تؤخذ علىّ وكل الناس يمدحوننى ويوقروننى ، فهذا القول إنما هو ادعاء رجل محجوب أعمى . فالأولى أن يسأل عن عيوبه حتى يهتدى إليها فيصلحها . قال أبو بكر الصديق وهو ممن لا يخفى على أحد علمه وفضله وصدقه وإخلاصه وتقواه : « رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى » يعنى أن له عيوبا يريد الاهتداء إليها . والناس الآن قد بلغ بهم الغرور والكبر والزهو ماجرأهم على القول بتنزههم عن المعايب . لذلك حرموا من إصلاح أنفسهم .

الخلو من المعايب واجتماع الفضائل فى شخص فرد من المستحيلات إلا إذا خُلق الإنسان معتدل المزاج، معتدل الشهوات ، صحيح الجسم صحيح العقل ، قوى الأعصاب من نسل سليم . ليس له وراثة مرضية ، خالياً من مطامع المادة . ومثل هذا الشخص لم يوجد .

أما اعتقاد الإنسان الكمال فى نفسه فهذا من حبه لذاته ، ومن أحب ذاته أحب كمال ذاته وأحب أن يوصف بصفات الكمال ؛ وهذه غريزة تظهر فى الأطفال ؛ فإنك إذا مدحت طفلا صغيراً بما يفهم ظهرت على ملامحه سيماء السرور ، فإن كان قبيح المنظر ووصفته بالجمال أمّن على كلامك وابتسم .

وقد سأل شاعر عن رجل خال من كل عيب لأنه لم يجد إنساناً كاملا فقال :

من ذا الذى ماساء قط ومن له الحسنى فقطْ

فسمع هاتفاً يقول :

محمدُ الهادى الذى عليه جبريلُ هبطْ

وقال حسان بن ثابت يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

خُلقت مُبرّأً من كل عيب كأنك قد خُلقت كما تشاء

فالذى خُلق مبرأ من كل عيب إنما هو رسول الله كما قال حسان بن ثابت رضى الله عنه . أما أولو الفضل من الناس فكفى أن تعد معايبهم على حد قول الشاعر :

ومن ذا الذى تُرضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تُعد معايبُه

اجتمعت الفضائل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنزه عن المعايب لأن الله سبحانه وتعالى اصطفاه من بين خلقه لتبليغ رسالته وطهره من الأرجاس وحفظه من كل سوء وعلمه وهذبه وأدبه ليكون قدوة يقتدى الناس به فى دينهم ودنياهم ، قال عليه الصلاة والسلام : « أدّبنى ربى فأحسن تأديبى » فأين نحن ممن أدبه ربه فأحسن تأديبه !! ثم أثنى عليه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال رسول الله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وبديهىّ أن الذى بعث ليتمم مكارم الأخلاق لا بد أن يكون أتم الناس خلقاً ، فإنه من كان به نقص أو عيب لم يصلح للقيام بمهمة إتمام مكارم الأخلاق .

عن قتادة : سألت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت « كان خلقة القرآن » : يعنى التأدب بآدابه والتخلق بمحاسنه والالتزام بأوامره وزواجزه .

لقد جمعت عائشة رضى الله عنها أخلاق رسول الله فى هذه الجملة الوجيزة ، لأنها لو أرادت أن تذكر أخلاقه وصفاته بالتفصيل لما استطاعت ، فأحالت السائل إلى القرآن وما فيه من آداب وخلق وفضل ومعاملات إلخ .

وقال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ .

وقد ذكرت فى القرآن الكريم أسماؤه ﷺ وكلها نعوت ليست أعلاماً محضة لمجرد التعريف بل أسماء مشتقة من صفات قائمة به توجب له المدح والكمال . فمنها « محمد » وهو أشهرها وهو اسم مفعول من حُمِّد فهو محمد إذا كان كثير الخصال التى يحمد عليها ، وأحمد مشتق من الحمد أيضاً ، ومعناه أحمد الحامدين لربه ، وقال بعضهم أحق الناس وأولاهم بأن يحمد فيكون كمحمد فى المعنى ، وهذان الاسمان اشتقا من أخلاقه وخصاله المحمودة التى لأجلها استحق أن يسمى محمداً ﷺ ، وأحمد هو الذى يحمده أهل السماء وأهل الأرض وأهل الدنيا والآخرة لكثرة خصاله المحمودة التى تفوق عد العادّين وإحصاء المحصين .

ومن أسمائه البشير فهو المبشر لمن أطاعه بالثواب ، والنذير : المنذر لمن عصاه بالعقاب،وقد ثبت عنه فى الصحيح : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » أى ولا فخر أعظم من ذلك وسماه الله سراجاً منيراً ، وسمى الشمس سراجاً وهّاجاً ، والمنير هو الذى ينير من غير إحراق بخلاف الوهّاج فإن فيه نوع إحراق .

قال أنس رضى الله عنه : كان ﷺ أحسن الناس خلقاً وكان عليه الصلاة والسلام أرجح الناس حلماً ، وقال أيضاً خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أفّ قط ، وما قال لشىء صنعته لم صنعته ولا لشىء تركته لم تركته .

هذا ما قاله أنس رضى الله عنه خادم رسول الله . فهل يستطيع إنسان عنده خادم أن يعامله بمثل هذه المعاملة ؟ من ذا الذى لا يقول لخادمه أف وهى أقل ما يعبر عن الاستياء وعدم الرضا والسخط ؟ ومن ذا الذى لا يعارض ولا ينهر ولا يشتم الخادم ؟ وهؤلاء الأدباء والعلماء والفلاسفة والأمراء والوجهاء . نراهم يسيئون معاملة خدمهم بل معاملة أصدقائهم وأقاربهم إذن هذه صفة كمال لا يمكننا بلوغها .

(عفوه وحلمه)

وروى أنه لما كسرت رباعيته ﷺ وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه وقالوا لو دعوت عليهم .

فقال : « إنى لم أبعث لعّانًا ولكنى بعثت داعياً ورحمة . اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » فبدلًا من أن يدعو عليهم لاعتدائهم عليه ، دعا لهم بالهداية . وهذا منتهى الحكمة وحسن الخلق .

والذى نعلمه من خلق الناس حتى أكابر القوم أن الواحد منهم لا يتحمل أن يوجه إليه أحد كلمة تخدش إحساسه ولو عفواً ، بل يغضب ويحقد وينتقم ويدبر الحيل للكيد وينتهز الفرص للإيقاع به . فأين هذا الخلق ممن كسرت رباعيته فقابل الإساءة بالإحسان !

وقد عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن شهر السيف عليه يريد قتله ، وعن اليهودية التى سمته فى الشاة بعد اعترافها ولم يؤاخذ اليهودى الذى سحره . كل ذلك وهو قادر على توقيع أقسى العقوبة عليهم . فهل بعد ذلك حلم وعفو ؟ إنه ﷺ ما كان يغضب لنفسه ولا ينتصر لها وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله .

(كرمه)

وكان ﷺ أسخى الناس كفًّا ماسئل شيئا فقال لا وعن صفوان بن أمية قال أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلىّ . فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلىّ . ولما رأى صفوان كثرة ماأعطاه رسول الله ، قال : والله ماطابت بهذا إلا نفس نبىّ ، فأسلم . وكان الذى أعطاه رسول الله لصفوان غنما ملأت وادياً بين جبلين وأعطى العباس من الذهب مالم يطق حمله . وحملت إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلًا حتى فرغ منها وقسم الأموال فى غزوة حنين فأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس فأعطى أبا سفيان بن حرب ٤٠ أوقية من الفضة و١٠٠ من الإبل وكذا ابنيه يزيد ومعاوية ، وأعطى حكيم ابن حزام ١٠٠ من الإبل ثم سأله أخرى فأعطاه إياها . وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة ١٠٠ من الإبل وكذا أسيد بن جارية الثقفى والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وقيس بن عدى وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبدالعزى والأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن ومالك بن عوف . وأعطى العباس بن مرداس ٤٠ من الإبل . فقال فى ذلك شعراً فأعطاه ١٠٠ من الإبل . وأعطى مخرمة بن نوفل ٥٠ بعيراً وكذا العلاء بن حارثة وسعيد بن يربوع وعثمان بن وهب وهشام بن عمرو العامرى . فبلغ ماأعطاه (١٤٨٥٠) من الإبل .

تدبروا فى هذه العطايا الطائلة التى يبذلها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طيب نفس وهو لا يملك شيئا ولا يحمل منها إلى بيته درهما ولا يقتنى شيئا وقد يبيت طاويا هو وأهله ، لا يجد ما يأكل ويعطى العباس من الذهب مالا يطيق حمله ويهب للمؤلفة قلوبهم من الإبل مايذهل ألبابهم ويسلب عقولهم ولما رأى صفوان كثرة ما أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم انبهر وأسلم .

سائلوا أنفسكم واسألوا أكرم إنسان تعرفونه أو تسمعون عنه ، هل تسمح له نفسه بمثل هذه العطايا العظيمة الجزيلة مع حرمان شخصه منها كل الحرمان ؟ ليس أحد من البشر يبذل مثل هذا البذل ويحرم نفسه ، نعم إن فى الناس أصحاب الملايين كما فى أمريكا ، ولكنهم إن بذلوا شيئا من الأموال فى سبيل الخير أبقوا لأنفسهم أضعاف أضعافه ، وتمتعوا بجميع أنواع اللذات التى قد لا تخطر لنا ببال ؛ هذا شأن من اتصفوا بالكرم وعرفوا بالبذل من سائر الخلق ، أما الأغنياء الذين يكنزون المال ويعضون عليه بالنواجذ ؛ ولا يجودون بشىء منه إلا مضطرين مرغمين فلا نعنى بالتكلم عنهم لأنهم خارجون عن دائرة بحثنا فلا نفكر فيهم . بل هم أقل شأناً من أن نذكرهم فهل أدركتم بعد ذلك أن كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعادله كرم ولا يصل إليه أحد ؟

(شجاعته)

قال علىّ بن أبى طالب وهو من عُرف بالشجاعة : « كنا إذا حمى الوطيس أو اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ يومئذ وهو أقربنا إلى العدو . وكان من أشد الناس يومئذ بأساً » وقيل كان الشجاع هو الذى يقرب منه ﷺ لقربه من العدو . وفى غزوة أحد لما انهزم ثبت رسول الله ﷺ إلى النهاية .

أى شجاعة أعظم من شجاعة رسول الله ﷺ . لندع الغزوات والانتصار فيها . فقد فتح جزيرة العرب وقاد الجيوش ؛ واحتمل الجوع والبرد والحر وقطع الطرق الوعرة والمسافات الشاسعة ولم ترهبه كثرة عدد العدو وسلاحه . لندع كل ذلك فإن هناك مواطن ومواقف تستلزم من الشجاعة ورباطة الجأش ماهو أعظم من مواطن القتال والنزال ؛ ذلك أنه ﷺ قام يدعو إلى الإسلام وحده ، وينشر الدين وحده وبقى متمسكاً بمبدئه لا يحيد عنه قيد أنملة متبعاً الأوامر الإلهية مجتنباً النواهى بكل دقة ؛ مجاهداً فى سبيل الله ونصرة المبدأ ؛ متحملاً الإهانات والأذى والاضطهاد والهجرة وقتل الأصدقاء والأقارب والتمثيل بهم وكل مايتصوره العقل البشرى من ضروب الآلام والمشقات والمتاعب والمصاعب إلى أن فاز بالنصر المبين . فهل هناك شجاعة تعدل شجاعة رسول صلى الله عليه وسلم ؛ يقولون إن الشجاعة صبر ساعة . وحياته صلى الله عليه وسلم من مبدأ رسالته إلى أن توفاه الله تعالى صبر متوال يستنفد شجاعة الشجعان وصبر الصابرين ولا يطيقه أحد من خلق الله . ومن ذا الذى يطيق أن يشغل عقله وجسمه وجميع مواهبه ليل نهار طول هذه السنين وأن يكون دائم الحركة دائم الفكر فى تعليم الناس وتهذيبهم والقضاء بينهم وسياسة أمورهم وقيادة جيوشهم ووضع الخطط الحربية ؛ وتوزيع الغنائم والنظر فى شئونهم الدينية من عبادات ومعاملات ومقابلة الوفود والتحدث إليهم إلى غير ذلك مما يطول بنا ذكره ؟

إن هذا السفر مهما كثرت صفحاته لا يتسع لذكر شمائل رسول الله ﷺ بالتفصيل ويكفينا هذا القدر فإن مالا يدرك كله لا يترك كله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اتباع التعاليم الإسلامية

علينا معاشر المسلمين أن نتمسك بالشريعة الإسلامية الغراء ونقتدى بأخلاق رسول الله حتى نصل إلى أوج السعادة فى الدارين . وإن من تمعن فى كتاب الله يجد أنه حوى مكارم الأخلاق ، فقد حث على الفضائل والآداب السامية ونهى عن الرذائل والدنايا . والمدنية الحديثة مع مابلغته من الرقى فى العلوم والآداب فإنها لا تعد شيئا فى جانب تعاليم الإسلام النقيـة الطـاهرة . فنحن أحق بالاتصـاف بكل فضيلة والابتعـاد عن كل رذيلة من أية أمة أخرى .

لقد قضى المسلمون على مخازى الوثنية وآفات الجاهلية . وفتح الله عليهم وسادوا الأمم ونشروا العلوم بفضل عقيدتهم وبما اتصفوا به من صفات الرجولة والأخلاق القوية التى استفادوها من القرآن الكريم وتعاليم رسول الله ﷺ .

إن من المحزن حقًّا أن نرى الآن تدهور الأخلاق وانتشار الفساد والتهاون بأنواعه : تهاونًا فى إقامة الشعائر الدينية . تهاونًا فى اكتساب العلوم ومنافسة الأمم . تهاونًا فى الحقوق الوطنيـة . تهاونًا فى الذود عن كرامة الأمة والأسرة .

من المحزن حقًّا أن نرى فتوراً فى الهمم وتقصيراً فى الواجبات واستهتاراً بالفضائل وإقداماً على اقتراف الرذائل ومباهاة بالجرائم والمخازى والفضائح !

هل كان سلفنا الصالح يتركون بلادهم طعمة ونهباً لكل طامع ولا يحركون ساكناً ؟ هل كانوا يتخاذلون ويتباغضون ولا يتعاونون ؟ هل كانوا لا يشفقون على الضعفاء والمساكين ولا يبرون الأقارب ولا يعودون المرضى ولا يغيثون الملهوفين ؟ هل كانوا جامدى الإحساس لا يشعرون بمصائب الناس ؟ هل كانوا يكتمون الحق ولا يحاربون الباطل ولا ينصفون المظلوم ، ولا يضمدون جراح المكلوم ؟ هل كانوا يغفلون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويدعون أنهم عاجزون مقهورون لا حول لهم ولا قوة ؟ ثم يتركون حبل الأمور على غاربها طمعاً فى ربح قليل أو كثير وحبًّا فى المناصب والجاه وتعلقاً بزخارف الدنيا الزائلة إنهم لو فعلوا ذلك لما قامت لهم قائمة وما كان لهم ذلك الأثر المجيد فى تاريخ الدنيا .

إن الأجانب قد درسوا حالتنا الاجتماعية وما وصلنا إليه من انحطاط وجهالة وخور فى العزائم ، وأخيراً حكموا بأن هذا راجع إلى جوهر ديننا وتعاليمه لينفرونا منه ويصدونا عنه لئلا ترجع إلى الإسلام شوكته الأولى وعزه القديم . وقد اغتر بكلامهم بعض قصار النظر من المسلمين فعززوا آراءهم وطعنوا على الدين طعنات شتى زاعمين أنهم مصلحون . وهم فى الحقيقة مفسدون يخربون بيوتهم بأيديهم . وياليتهم وقفوا عند هذا الحد ، بل حللوا المحرمات

ونشروا الفساد وروّجوا الضلال وتعلقوا بمظاهر المدنية الغربية من خمور وفجور ولهو وخلاعة وإباحية ومادروا أن علماء الغرب وعقلاءهم ساخطون ناقمون على انتشار الفساد ، وقد صرحوا مرارا وتكرارا أن هذه المساوىء منذرة بسقوط الأمم . مؤذنة بخرابها مع أنها الآن فى غاية القوة والمنعة .

ألا إن معاول الهدم أقوى أثراً وأسرع فعلًا من مجهودات المصلحين فاتقوا الله فيما تكتبون وتخطبون وتصرحون . أقيموا بناء المجد التالد وتزودوا من العلم النافع فإن من العلم ماهو أشد ضرراً من الجهل ، ومن لم يفده العلم فقد باء بخسران مبين . ولا تجاروا الناس فى أهوائهم طمعاً فى الاشتهار بينهم والتقرب إليهم . هذا ما أردت أن أكتبه بشأن مالاتّباع التعاليم الإسلامية من الأهمية ، وهذه نصيحتى الخالصة للمسلمين عامة .

الاقتداء بأخلاق رسول الله

يجب على المسلمين الاقتداء بأخلاق رسول الله ﷺ لأنه خير قدوة لنا قال ذو النون المصرى : من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله ﷺ فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه . وأنا أورد هنا بعض صفاته التى اكتسبناها من سيرته وننبه على التحلى بها وذلك بغاية الاختصار .

١ ـ كان رسول الله ﷺ نقى الثوب .

إن النظافة من الإيمان فالمسلم يجب عليه أن يكون نظيف الثياب والأعضاء . إذ الوضوء فرض والغسل فرض . وقد قال تعالى لرسول الله « وثيابك فطهر » . هذا مايأمرنا به ديننا وكان النبى ﷺ يعتنى بنظافة الظاهر كما يعتنى بنظافة الباطن ويحث على استعمال السواك وطهارة الفم والأسنان ويتطيب ويمشط شعر رأسه ولحيته ويَقُمُّ بيته بنفسه أى يكنسه . والناس الآن يستنكفون من مباشرة نظافة البيت فتأمل !

٢ ـ لا يقول هُجراً ولا ينطق هذراً[1] .

وما أكثر قول الهجر والهذر عندنا . وما أكثر الماجنين والسبابين . فهلا اقتدينا برسول الله وتأدبنا بأدبه فى الكتابة والقول وجانبنا الهجر والسب واللعن .

٣ ـ لا يقطع على أحد حديثه .

فانظر أيها المسلم إلى هذا الأدب والحلم وسعة العقل . فكثرة الكلام وقطع الحديث على المتكلم والهذر والمزاح البارد والغيبة والنميمة والمراء ليس من خلق الإسلام ولا من المروءة .

٤ ـ يتفقد أصحابه ويسأل عنهم .

لا فرق فى ذلك بين كبير وصغير غنى وفقير . لكن الناس يخصون الأغنياء بالسؤال عنهم، ويتكبر الأغنياء

(١) الهجر بالضم : الفحش .

على الفقراء ويتعاظمون عليهم ويرون أنهم من طينة غير طينتهم ، ومن هذا نشأت العداوة والبغضاء وتفككت روابط الأسر والأمة، وقد كان رسول الله مؤلفا للقلوب فيصل من قطعه ويعطى من حرمه ويعفو عن ظلمه ويصبر للغريب على الجفوة فى المنطق والمسألة ويعود المريض ويشهد الجنائز .

٥ - إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس .

أين هـذا الخلق الكريم المتواضع من الذين دأبهم التصدر فى المجالس بحق وبغير حق وسواء كان المجلس خاليًا أم مكتظًا . إن الناس يظنون أن التواضع ضعة وضعف لكن فى التواضع رفعة . ولن يسود إنسان بالفظاظة والغلظة .

٦ - كان أسخى الناس كفًا .

وإنا نذكر الناس أن البخيل ممقوت وقد قال بعضهم إن البخل من سوء ظن المرء بالله ، ولا نعلم أن بخيلا أحبه الناس واحترموه .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسان إحسان

٧ - لم يُر قط مادًا رجليه بين أصحابه .

لكننا الآن نفعل كل ما يخالف الآداب بلا اكتراث ظنًا منا أن ذلك من الحرية ، لكن الحرية فى المجتمع لا تكون من طرف واحد . بل يجب مراعاة إحساس الأصدقاء والناس . فالأولاد يجب عليهم التأدب فى حضرة آبائهم ومعاميهم وأقرانهم كما أنه على الآخرين مراعاة الأدب معهم للاقتداء بهم ومحبتهم .

٨ - كان يخدم نفسه .

ومن ذلك أنه كان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحمل حاجته ويكنس بيته ويحلب الشاة. وهذا اعتماد على النفس فليؤد كلٌ عمله غير معتمد على غيره ولا مستنكف من العمل مهما كان ، وإذا كان رسول الله - وهو سيد الخلق والمسلمون أطوع إليه من بنانه - يكنس بيته بنفسه فهل يستنكف أحد منا مزاولة أى شأن من شئون الحياة وهل تستنكف سيدة البيت أن تخدم نفسها وزوجها وأولادها ظنًا منها أن ذلك مما لا يليق بها لغناها وترفها وحسن هندامها ! إن الاعتماد على النفس هو القوة والبطولة والرقى والاستقلال .

٩ - قال ﷺ « إذا عمل أحدكم عملا فليتقنه » . .

لما سُوى جدث ابنه إبراهيم رأى حجراً فى جانب الجدث فجعل يسويه بأصبعه ويقول « إذا عمل أحدكم عملا فليتقنه فإنه مما يسلى نفس المصاب » .

الإتقان أيها المسلمون الإتقان . فلا تستهينوا بالأعمال ولا يستصغرن أحدكم أمراً منها قلّ شأنه . فالعلم يحتاج إلى الإتقان والصناعة تحتاج إلى الإتقان والتجارة تحتاج إلى الإتقان . والنظام الذى هو أساس

الحضارة والعمران ما هو إلا الإتقان؟ وما سوى ذلك فهو إهمال وتقصير يؤديان إلى الانحطاط والارتباك والخراب .

١٠ ـ كان رسول الله يستشير أصحابه .

قال تعالى « وشاورهم فى الأمر » إن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله وهو سيد الخلق وأرجح الناس عقلًا وأغزرهم علماً وأسدهم رأياً أن يستشير أصحابه ولا ينفرد برأيه . قال الضحاك « أمره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل » وقال الحسن البصرى « أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وإن كان عن مشورتهم غنياً » .

فالاستبداد بالرأى مناف للإسلام كما رأيت وهو من علامات الكبر والغطرسة وليس فى الاستشارة أى ضعف بل إنها دليل على العقل وبعد النظر والرغبة فى الإصلاح . والإسلام من مبدئه يقدر فوائد الاستشارة ويعمل بها .

١١ ـ الثبات على المبدأ .

إن من تصفح سيرة الرسول يتضح له أنه صلى الله عليه وسلم لم يتحول عن مبدئه قيد أنملة واحتمل إيذاء المشركين بكل صبر ولم يذق للراحة طعماً فى سبيل نشر الدين ولم يقبل ما عرضته عليه قريش من ملك ومال وجاه ، فماذا كانت نتيجة ثباته على المبدأ ؟ كانت النتيجة أنه هزم المشركين وفتح بلادهم وهدم الأصنام ونشر الإسلام وتوفى بعد أن بلغ رسالات ربه بكل أمانة وبعد أن قام بالواجب عليه خير قيام فليعتبر المسلمون بنبيهم وليقتدوا به فى جميع أمورهم ليفوزوا بنعيم الدارين .

معجزات رسول الله ﷺ

المعجزة هى الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدى ، وسميت معجزة لعجز البشر عن الإتيان بمثلها . وهى تدل على صدق من ظهرت على يديه ، وشرط تسميتها معجزة أن تظهر على يد مدعى الرسالة على طبق دعواه .

إن أكثر معجزات رسول الله متواترة رواها جمع عن جمع وكانت تظهر فى مواطن اجتماعهم وفى محافل المسلمين ومجتمع العساكر والجند ولم ينقل عن أحد من الصحابة مخالفة ولا إنكار على من روى ذلك .

معجزة القرآن

من أعظم دلائل نبوته القرآن الكريم ، فقد تحدى العرب بما فيه من الإعجاز ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة من مثله فعجزوا عن الإتيان بشيء مثله مع أنه كان أميًّا وكانت قريش أهل البلاغة والفصاحة والشعر وكانوا يرتجلون الكلام البليغ فى المحافل ارتجالا قال تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ولم يقتصر إعجاز القرآن على نظمه وبلاغته بل تعداه إلى ما حواه من حكم وأخلاق ودين وتشريع وعلوم عقلية وأخبار عن الأمم الماضية وإخبار بالغيوب مع ما كان معروفاً من حال النبى ﷺ من أنه كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ . وقد اعترف أهل الفصاحة والبلاغة بأن القرآن ليس من كلام البشر ولم يقدر أحد على معارضته ومنهم عتبة بن ربيعة فإنه لما سمع القرآن من رسول الله رجع إلى قريش وقال « والله لقد سمعت قولا ما سمعت بمثله قط . والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة . فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ » . ومنهم الوليد بن المغيرة وكان المقدم فى قريش بلاغة وفصاحة فإنه لما قرأ عليه رسول الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ قال له أعده فأعاد ذلك فقال « والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر وإنه ليعلو ولا يُعلى » فقالت قريش : قد صبأ الوليد والله لتصبأن قريش كلها . أما أنيس أخو أبى ذر الذى ناقض اثنى عشر شاعراً فى الجاهلية فإنه رجع بعد ما سمع القرآن من رسول الله وقال رأيت رجلا بمكة يزعم أن الله أرسله فقال له أبو ذر فما يقول الناس فيه ؟ قال : يقولون شاعر . كاهن . ساحر لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أنواع الشعر فلم يلتئم ولا يلتئم على لسان أحد ، وإنه لصادق وإنهم لكاذبون . وقد أسلم ضماد بن ثعلبة الأسدى عندما سمع رسول الله يقول :

(الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له) وأسلم عمر بن الخطاب الذى كان من أشد الناس على رسول الله بعد أن قرأ القرآن فى بيت أخته فاطمة بنت الخطاب ، وقد تقدمت قصته . وأسلم كذلك الطفيل بن عمرو الدوسى وهو شاعر مشهور بعد أن تلا عليه رسول الله آيات من القرآن وقال « والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه » وقد أوردنا قصة إسلامه فلتراجع فى موضعها .

ولما كان العرب أهل الفصاحة والبلاغة فقد كان المنصفون منهم يسلمون عند سماعهم القرآن من غير معارضة ولا مكابرة لأن الحق أحق أن يتبع . أما الذين فى قلوبهم مرض فقد كانوا يبذلون كل جهد لمنع الناس من سماع رسول الله يتلو القرآن خشية أن يؤثر فيهم ويسلموا . وحكى أبو عبيدة أن أعرابيًّا سمع رجلا يقرأ ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فسجد وقال « سجدت لفصاحة هذا الكلام » وسمع أعرابى آخر رجلا يقرأ ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ .

فقال أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام. هذا ومعجزة القرآن باقية مابقيت الدنيا وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين ولم يشاهدها إلا الحاضرون .

وحكى الأصمعى أنه رأى جارية صغيرة السن بلغت خمس سنين أو ستا وهى تقول : أستغفر الله من ذنوبى كلها. قال الأصمعى ، فقلت لها : مم تستغفرين وأنت صغيرة لم يجر عليك قلم ؟ فقالت :

أستغفر الله لذنبى كله قتلت إنسانا لغير حله

مثل غزال ناعم فى دله انتصف الليل ولم أصله

فقلت لها قاتلك الله ! ما أفصحك ! فقالت : أتعد هذا فصاحة بعد قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين : فالأمران : أن أرضعيه وألقيه ، والنهيان : ولا تخافى ولا تحزنى ، والخبران : وأوحينا فإذا خفت وقيل الخبران والبشارتان ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين فهو خبر من جهة وبشارة من جهة .

وقد حاول بعضهم معارضة القرآن فجاء كلامه سخيفاً مضحكا ، فمن ذلك قول مسيلمة الكذاب وهو عربى صميم « ياضفدع كم تنقين . أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين . لا الماء تكدرين ولا الشرب تمنعين » ولما سمع قوله تعالى ﴿ وَٱلنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ قال « والزارعات زرعاً والحاصدات حصداً والذاريات قمحا والطاحنات طحنا والخافرات خفراً والثاردات ثرداً واللاقمات لقما لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر . إلخ » ومن كلامه « ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى . أخرج من بطنها نسمة تسعى من بين شراسيف وأحشا » وقال بعضهم « الفيل وما أدراك ما الفيل . له ذنب وثيل ومشفر طويل وإنّ ذلك من خلق ربنا لقليل » وهذا كلام لا طعم له ولا حلاوة فيه . خال من المعنى ، يمجه كل ذوق ولا يتمالك سامعه من الضحك . وقد أراد بعضهم معارضة سورة الإخلاص فأخفق واعترته رقة فى قلبه فتاب ، وحاول ابن المقفع المعارضة فلم يستطع واعترف بإعجاز القرآن . والقرآن كله قليله وكثيره معجز .

وقد ورد فى القرآن الإخبار بالمغيبات مما سبق ومما كان فى وقت نزوله ومما سيقع بعد ذلك كقوله تعالى ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ ﴾ وذلك قبل عام الحديبية وقوله تعالى ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وقوله ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية وقوله ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إلى آخرها وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فلما نزلت هذه الآية منع رسول الله أصحابه من حراسته . هذه الآية تدل على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم إذ كانت من أخبار الغيوب لأنه لم يصل إليه أحد بقتل ولا قهر ولا أسر على كثرة أعدائه .

وقوله تعالى : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) .

نزلت هذه الآية بمكة والمسلمون مستضعفون فلم يدروا ما هذا الجمع الذى سيهزم ولا المراد من الآية فلما كان يوم بدر وكان بعد سبع سنين من نزولها ، لبس رسول الله درعه وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر ، قال عمر رضى الله عنه فعلمت المراد منها حينئذ .

وإنى أنتهز هذه الفرصة فأنشر إلى العالم الإسلامى رأى عالم انجليزى فى رسول الله وهو مستر بوسورث سميث مؤلف كتاب « محمد والإسلام »[1] آملا أن يتدبره القارئ بإمعان مع العلم أنه رجل مسيحى ولكنه منصف أبت عليه نفسه إلا تقرير الحقيقة بغض النظر عن أى اعتبار آخر . قال ما ترجمته :

« إن المعجزة الخالدة التى ادعاها هى القرآن . والحقيقة أنها لكذلك . وإذا قدرنا ظروف العصر الذى عاش فيه واحترام أتباعه له احتراماً لا حد له ، ووازناه بآباء الكنيسة أو بقديسى القرون الوسطى لتبين لنا أن أعظم ما هو معجز فى محمد «رسول الله» أنه لم يدّع القدرة على الإتيان بالمعجزات، وما قال شيئاً إلا فعله وشاهده منه فى الحال أتباعه . ولم ينسب إليه الصحابة معجزات لم يأتها أو أنكر صدورها منه . فأى برهان على إخلاصه أقطع من ذلك ؟

وقد كان محمد يدعى إلى آخر حياته كما ادعى من مبدأ أمره أنه رسول الله حقاً . وإنى أعتقد أن الفلسفة العالية والمسيحية الصادقة ستعترف له بذلك يوماً من الأيام » .

انشقاق القمر

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر ، وقد نطق به القرآن قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ .

وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك منه فى زمنه عليه الصلاة والسلام وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع[2] .

قال الفخر الرازى فى تفسيره :

والمفسرون بأسرهم على أن المراد أن القمر انشق وحصل فيه الانشقاق ودلت الأخبار على حديث الانشقاق .

(١) Mr. Bosworth Smith : Mohammed and Mohammedanism

(٢) روى انشقاق القمر عن : أنس بن مالك وجبير بن مطعم وحذيفة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود

وفى الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة ، قالوا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم آيةَ الانشقاق بعينها معجزة فسأل ربه فشقه ، وقال بعض المفسرين المراد سينشق وهو بعيد ولا معنى له ، لأن من منع ذلك وهو الفلسفى يمنعه فى الماضى والمستقبل ومن يجوّزه لا حاجة به إلى التأويل ، وإنما ذهب إليه ذلك الذاهب لأن الانشقاق أمر هائل ، فلو وقع لعم وجه الأرض فكان ينبغى أن يبلغ حد التواتر . نقول : النبى صلى الله عليه وسلم لما كان يتحدى بالقرآن وكانوا يقولون إنا نأتى بأفصح ما يكون من الكلام وعجزوا عنه ، فكان القرآن معجزة باقية إلى قيام القيامة لا يتمسك بمعجزة أخرى ، فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر . وأما المؤرخون فقد تركوه لأن التواريخ فى أكثر الأمر يستعملها المنجم وهو لما وقع الأمر قالوا بأنه مثل خسوف القمر وظهور شىء فى الجو على شكل نصف القمر فى موضع آخر فتركوا حكايته فى تواريخهم ، والقرآن أدل دليل وأقوى مثبت له وإمكانه لا يشك فيه . وقد أخبر عنه الصادق الأمين فيجب اعتقاد وقوعه ، وحديث امتناع الخرق والالتئام حديث اللئام وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السموات وذكرناه مراراً فلا نعيده .

وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت ، وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم .

وقال الزمخشرى فى تفسيره :

انشقاق القمر من آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزاته النيِّرة ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر مرتين . وكذا عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما . قال ابن عباس : انفلق فلقتين فلقة ذهبت وفلقة بقيت . وقال ابن مسعود رأيت حراء بين فلقتى القمر . وعن بعض الناس أن معناه ينشق يوم القيامة وقوله : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ يرده وكفى به راداً . وفى قراءة حذيفة وقد انشق القمر ، أى اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق ، كما تقول أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه .

وفى تفسير الطبرى : وقوله وانشق القمر يقول جل ثناؤه وانفلق القمر ، وكان ذلك فيما ذكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية فأراهم ﷺ انشقاق القمر حجة على صدق قوله وحقيقة نبوته فلما أراهم أعرضوا وكذبوا وقالوا هذا سحر مستمر ، سحرنا محمد فقال الله جل ثناؤه : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ وبنحو الذى قلنا فى ذلك جاءت الآثار وقال به أهل التأويل .

وحدث أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين . وعن عبد الله قال : انشق القمر ونحن مع رسول الله صلى الله عليه بمنى حتى ذهبت منه

فرقة خاف الجبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا ، وعن عبد الله أيضاً قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر اشهد ياأبا بكر ، فقال المشركون سحر القمر حتى انشق . قال القسطلانى شارح البخارى : وهذه معجزة من أمهات المعجزات الفائقة على معجزات سائر الأنبياء لأن معجزاتهم عليهم السلام لم تتجاوز الأرضيات .

وكان انشقاق القمر قبل الهجرة بخمس سنين .

فانشقاق القمر ثابت بنص القرآن ، أما من قال بأن المراد أنه سينشق ، فهو إما منكر للمعجزات حتى المذكورة فى القرآن ، وإما أنه لا يفهم اللغة العربية فقد قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ ، لأن الكفار لما رأوا انشقاق القمر بعد أن سألوا رسول الله كابروا وقالوا إنه سحر مستمر ، ولو كانت الآية تدل على أن القمر سينشق لما كان هناك معنى لقوله : وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، والآية هى معجزة الانشقاق والذين أنكروها بعد رؤيتهم هم كفار قريش،وكان ذلك دأبهم ، وقد روى أحاديث الانشقاق أهلُ السنن كالبخارى ومسلم والإمام أحمد والبيهقى وبقية أهل السنن وقد ذكرنا تفسير كبار المفسرين .

قال الشيخ حمزة فتح الله رحمه الله فى كتابه « باكورة الكلام فى حقوق النساء فى الإسلام » : «ومن ذلك يعلم أنه لا محذور فى انشقاق القمر لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تأويل آيته بوضع المستقبل موضع الماضى لتحققه لا داعى إليه فضلا عن كونه خلاف الصحيح . وقد ذكرت الجرائد الأجنبية مقالة عربتها جريدة الإنسان العربية التى كانت تطبع بالآستانة العلية حاصلها : أنه عثر فى ممالك الصين على بناء قديم مكتوب عليه أنه بنى عام كذا الذى وقع فيه حادث سماوى عظيم وهو انشقاق القمر نصفين فحرر الحساب فوافق سنة انشقاقه لسيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم » اهـ .

ومن المعجزات نبع الماء من بين الأصابع روى حديث نبع الماء من بين أصابعه جماعة من الصحابة منهم أنس وجابر وابن مسعود ، وحدث ذلك يوم الحديبية وفى غزوة بواط أمام الجموع الكثيرة ولم ينكر هذا الحديث أحد من الصحابة .

وفى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « أتى النبى ﷺ بإناء وهو بالزوراء فوضع يده فى الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم » . قال قتادة قلت لأنس كم كنتم قال : ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتمس الوضوء فلم يجدوه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فى ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا عن آخرهم .

(تكثير الطعام) ومن معجزاته تكثير الطعام ببركته ودعائه وقد حدث ذلك مراراً .

(حنين الجذع) كان مسجد النبي صلى الله عليه وسلم مسقوفاً على جذوع نخل فكان رسول الله إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع له المنبر سمع لذلك الجذع صوت كصوت العشار . سمعه أهل المسجد حتى ارتج المسجد وكثر بكاء الناس لذلك ، وما زال يحن حتى تصدع وانشق فنزل صلى الله عليه وسلم فالتزمه وحضنه فسكن . وحديث الجذع مشهور رواه من الصحابة بضعة عشر ، منهم أبي بن كعب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وعبد الله ابن عمر وعبد الله بن عباس وسهل بن سعيد وأبو سعيد الخدرى وبريرة وأم سلمة والمطلب بن أبي وداعة ، كلهم حدث بمعنى هذا الحديث .

وروى حديث الجذع البخارى عن جابر بن عبد الله .

(إبراء المرضى وذوى العاهات) وقد ذكرنا أنه رد عين قتادة وتفل فى عين على يوم خيبر ، وكان رمداً فبرأ . الإسراء والمعراج ، نسج العنكبوت فى الغار . وما وقع لسراقة . ودعاؤه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة فصار أغنى العرب ، وكذا دعاؤه لثعلبة بالغنى ، ودعاؤه لمعاوية بالتمكن فى البلاد فنال الخلافة ، ولسعد بن أبى وقاص أن يجيب الله دعوته فما دعا على أحد إلا استجيب له ، وقال للنابغة لا يفضض الله فاك فما سقطت له سن وعاش ١٢٠ سنة . وتسبيح الحصى فى يده . وكان رجل يقال له بسر بن راعى العير يأكل بشماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « كل بيمينك » قال لا أستطيع . قال : « لا استطعت » فما وصلت يمينه بعد إلى فيه . هذا قليل من كثير من معجزاته ﷺ .

وفى ترجمة رافع بن عميرة أنه كان لصا فى الجاهلية فدعاه الذئب إلى اللحوق برسول الله ﷺ وهو فى ضأن له ، وقال رافع فى ذلك :

رعيت الضأن أحميها بكلبى . من اللصت الخفى وكل ذيب
ولما أن سمعت الذئب نادى يبشرنى بأحمد من قريب
سعيت إليه قد شمرت ثوبى على الساقين قاصده الركيب
فألفيت النبى يقول قولا صدوقاً ليس بالقول الكذوب
فبشرنى بقول الحق حتى تبينت الشريعة للمنيب
وأبصرت الضياء يضىء حولى أمامى إن سعيت ومن جنوبى

اللصت هو اللص . وشهد رافع غزوة ذات السلاسل وصحب أبا بكر الصديق فيها وخبره مشهور .

ومن معجزاته دعاؤه لعلى رضى الله عنه بذهاب الحر والبرد فلم يحس بهما بعد . ولابن عباس بالفقه فى الدين

وعلم التأويل فصار بحرا ، ولأنس بكثرة المال والولد وطول العمر فرزق مائة ولد ، وعاش مائة عام ، وصارت نخله تحمل فى العام مرتين ، وقال فى عثمان : تصيبه بلوى عظيمة ، فكان ما كان .

خصائصه ﷺ

من خصائصه ﷺ تحريم أكل الصدقة ، وآل محمد ﷺ لا يأكلون الصدقة ، وأن يتعلم الكتابة أو الشعر وإنشاءه وروايته لا التمثل به . ويحرم عليه أنه إذا لبس لأمته (سلاحه) للقتال أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه . وهذا الأخير مما شاركه فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وخائنة الأعين وهى الإيماء إلى مباح من قتل أو ضرب على خلاف ما يظهر . وإمساك من كرهته ، ونكاح الكتابية ونكاح الأمة لأنه لا يخشى العنت أى الزنا . ومن خصائصه القبلة فى الصوم مع وجود الشهوة فقد كان يقبل عائشة وهو صائم . وله أن يتزوج فى حال إحرامه وأن يصطفى من الغنيمة ما يشاء قبل القسمة ، وأن يتزوج من غير مهر كما وقع لصفية رضى الله عنها . وأن يدخل مكة بغير إحرام اتفاقاً . وأن يقضى بعلمه ولو فى حدود الله تعالى . وجمع له ﷺ بين الحكم بالظاهر والباطن معاً وجمعت له الشريعة والحقيقة ولم يكن للأنبياء إلا إحداهما . وأن يقضى لنفسه ولولده ، وأن يقبل الهدية ممن يريد وأن يقضى فى حال غضبه . وإباحة ترك إخراج زكاة المال لأنه كبقية الأنبياء لا ملك لهم مع الله ، وما فى أيديهم من المال وديعة لله عندهم يبذلونه فى محله ويمنعونه فى غير محله ، ولأن الزكاة طهرة وهم مبرؤون من الدنس . ومما اختص به صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء أنه يحرم نكاح أزواجه بعد موته . ومن خصائصه ﷺ العصمة من الذنب وعدم التثاؤب والاحتلام .

وأبيح له التزوج فوق تسع وتزوجه محرماً وبلا ولى وشهود ، وبلفظ الهبة إيجاباً لا قبولاً وتزويجه من شاء لمن شاء . ومكثه بالمسجد جنباً ، وشهادته لنفسه ولفرعه وحكمه لهما ، وشهادته كاثنين .

وأنه خاتم الأنبياء ، وأول من تنشق الأرض عنه ، وأول شافع ومشفع ، وأول من يدخل الجنة وأقسم الله بحياته . ويرى من خلفه ، ويبصر فى الظلام كما يبصر فى الضوء . ولا فىء له فى شمس ولا قمر ، ولا يقع الذباب على جسده ، ويحرم رفع الصوت عنده ، ونداؤه باسمه ومن وراء الحجرات ، والتكنى بكنيته ، ولا يورث .

موالى رسول الله

(١) زيد بن حارثة ، وأمه سعدى بنت ثعلبة . ويكنى زيد « أبا أسامة » .

وهو أشهر موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحِبه . أصابه سباء فى الجاهلية ، فأخذوا زيداً فقدموا به سوق عكاظ فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد . فوهبته خديجة لرسول الله بمكة قبل النبوة

وهو ابن ثمانى سنين فأعتقه وتبناه . قال ابن عمر « ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ، حتى أنزل الله تعالى ـ ادعوهم لآبائهم . وخرج أبوه حارثة وعمه كعب لما علما أنه بمكة لفدائه،فاختار رسول الله وقال لرسول الله ﷺ « أنت منى مكان الأب والعم » وذلك لما رآه من حسن المعاملة والحرية ، حتى قال : رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً . فأخرجه رسول الله إلى الحجر وقال « يا من حضر . اشهدوا أن زيداً ابنى يرثنى وأرثه » فانصرف بعدئذ أبوه وعمه مطمئنين مسرورين وهو أول من أسلم من الموالى ، زوجه رسول الله (أم أيمن) فولدت له أسامة . ثم تزوّج (زينب بنت جحش) وهى ابنة عمة رسول الله . وهى التى تزوجها رسول الله ﷺ بعد زيد . قالت عائشة لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحى، لكتم هذه الآية : ﴿ وَإِذْ تقولُ للذِى أنعَمَ اللهُ عليه وَأنْعَمْتَ عليهِ . أمْسِكْ عليكَ زَوْجَكَ وَاتّقِ اللهَ . وتُخفِى فى نفسكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ ، وتخشى الناسَ واللهُ أحَقُّ أنْ تخشاهُ ـ إلى قوله تعالى ـ وكانَ أمرُ اللهِ مفعُولًا ﴾ . فإن رسول الله ﷺ ، لما تزوَّجها ـ يعنى زينب ـ قالوا إنه تزوج حليلة ابنه . فأنزل الله تعالى : (ما كان محمدٌ أبا أحدٍ منْ رجالكمْ ولكنْ رَسولَ اللهِ وَخَاتَم النبيِّينَ) ولما سيّر رسول الله الجيش إلى الشام ، جعل أميراً عليهم زيد بن حارثة . وقد تقدم ذلك فى كتابنا هذا . ولم يسم الله تعالى أحداً من أصحاب النبى ﷺ ، إلا زيد بن حارثة .

(٢) شقران ، اشتهر بهذا اللقب . قيل اسمه « صالح » وكان عبداً حبشياً لعبد الرحمن بن عوف فوهبه للنبى صلى الله عليه وسلم منصرفه من الحديبية وأعتقه . وكان يحدو بالنساء . قال له رسول الله وقد حدا بهن : « رويداً رويداً : يا أنجشة . رفقاً بالقوارير » يعنى النساء . لأن الحداء إذا سمعته الإبل ، أسرعت فى المشى فتزعج الراكب . والنساء لضعفهن يتأثرون من شدة الحركة ، وشبههن رسول الله فى ضعفهن بالقوارير ، وهى الأوانى من الزجاج .

(٣) أبو رافع : اختلف فى اسمه ، فقيل أسلم ، وقيل إبراهم ، وقيل صالح ، قال أبو رافع : كنت مولى للعباس ابن عبد المطلب . وكان الإسلام قد دخل أهل البيت . فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت أنا . وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم ، وكان يكتم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه . وقد أعتق رسول الله أبا رافع .

(٤) سلمان الفارسى : وكنيته أبو عبد الله من أهل أصبهان وقد تقدمت ترجمة حياته عند ذكر إسلامه فى كتابنا هذا .

(٥) سفينة : قيل كان من الفرس . وكان يسكن بطن نخلة (قرية قريبة من المدينة) كان لأم سلمة ، زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، فأعتقته وشرطت عليه خدمة رسول الله . قيل اسمه مهران وقيل رومان . كنيته

« أبو عبد الرحمن » وسماه رسول الله (سفينة) لأنه حمل أمتعة للصحابة ثقلت عليهم . فقال رسول الله ، احمل . فإنما أنت سفينة . وكان يؤذن لرسول الله ، وشهد معه بدراً وأحداً وسائر المشاهد :

(٦) أبو كبشة : واسمه « سليم » . اشتراه رسول الله وأعتقه . شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ توفى فى اليوم الذى ولى فيه عمر بن الخطاب الخلافة .

(٧) رُوَيفع : أبو مويهبة ، كان من مولّدى مزينة ، اشتراه رسول الله فأعتقه .

(٨) رباح الأسود : كان يؤذن لرسول الله أحياناً .

(٩) فضالة : كان من أهل اليمن . نزل بالشام ، ولم يذكر عنه شىء غير ذلك .

(١٠) مِدْعَم : العبد الأسود ، أهداه رفاعة بن زيد الجذامى لرسول الله . فأعتقه . قتل بوادى القرى .

(١١) يسار : الراعى كان يرعى إبله فقتله العُرَنيون وسملوا عينـــه وحُمل ميتاً إلى قبـاء ودفن هناك .

روى سلمة بن الأكوع :أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له مولى اسمه « يسار » فنظر إليه وهو يحسن الصلاة فأعتقه وبعثه فى لقاح فى الحرة فـكان بها . فأظهر ناس من عُرَينة الإسلام . وجاءوا وهم مرضى قد عظمت بطونهم ، فبعث النبى بهم إلى يسار فـكانوا يشربون ألبان الإبل حتى انطوت بطونهم فقتلوا الراعى واستاقوا الإبل .

(١٢) مهران : قيل هو مولى آل أبى طالب واختلف فى اسمه . عن عطاء بن السائب ؛ قال : أتيت أم كلثوم بنت على بشىء من الصدقة فردتهـا وقالت حدثنى مولى للنبى ﷺ يقـال له « مهران » : أن رسول الله ﷺ قال ، « إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة » .

(١٣) مابور : الخصى . أهداه المقوقس إلى النبى ﷺ . قيل إنه هو الذى قُذفت مارية به .. فبعث رسول الله علياً ليقتله فرآه خصياً فتركه .

(١٤) سندر .

ومن النساء أم أيمن ، وأميمة ، وسيرين التى أهديت له ﷺ مع مارية القبطية ، وهى أختها وقيل إن المقوقس أهدى معها قنسر وأنها أخت مارية وسيرين .

حرّاسه ﷺ

كان لرسول الله حراس قبل أن ينزل عليه قوله تعالى ﴿ والله يَعْصِمُكَ من الناسِ ﴾ [1] فنهم ، سعد بن معاذ حرسه صلى الله عليه وسلم ليلة يوم بدر . وفى ذلك اليوم لم يحرسه ﷺ إلا أبو بكر الصديق رضى الله عنه شاهراً

---

(١) سورة المائدة .

سيفه حين نام بالعريش . وقال بعضهم إن سعد بن معاذ كان مع أبي بكر في العريش يحرسانه في بدر.. ومحمد بن مسلمة رضي الله عنه حرسه ﷺ يوم أحد . والزبير بن العوام رضي الله عنه ، حرسه ﷺ يوم الخندق . والمغيرة ابن شعبة رضي الله عنه ، حرسه يوم الحديبية . وأبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، حرسه ليلة بنى بصفية ببعض طرق خيبر. وبلال . وسعد بن أبي وقاص . وذكوان بن عبد قيس رضي الله عنهم حرسوه بوادي القرى وابن أبي مرثد الغنوي ، حرسه في الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة حنين حيث قال ﷺ ألا رجل يحرسنا الليلة فقال : أنا يارسول الله . فدعا له صلى الله عليه وسلم . وبعد نزول الآية وهي ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ترك الحرس . والمراد من قوله تعالى ، يعصمك من الناس أي من القتل . وفيه التنبيه على أنه يجب عليه أن يحتمل كل ماهو دون النفس من أنواع البلاء . ونزلت هذه الآية بعد يوم أحد . والمراد من الناس الكفار.عن أنس رضي الله عنه ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرسه سعد وحذيفة حتى نزلت هذه الآية . فأخرج رأسه من قبة أدم وقال ، انصرفوا.ياأيها الناس فقد عصمني الله . وقد عصمه الله تعالى إلى آخر حياته .

أمناء رسول الله

منهم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه . كان أمين رسول الله ﷺ على نسائه ، وكذا أسد بن أسيد الساعدي ، كان أمينه ﷺ على نسائه وهو من آخر من مات من أهل بدر . وبلال المؤذن كان أمينه على نفقاته . ومعيقيب ، كان أمينه على خاتمه الشريف .

شعراؤه صلى الله عليه وسلم

حسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك رضي الله عنهم ، كانوا يناضلون عنه بشعرهم ويهجون كفار قريش .

(١) أما حسان بن ثابت فيقال له شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من الأنصار . كان رسول الله ينصب له منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً ينافح عن رسول الله . ورسول الله يقول « إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح عن رسول الله » وكان حسان يمضي إلى أبي بكر رضي الله عنه ليقفه على أنساب قريش لجعل يهجوهم . فلما سمعت قريش شعر حسان قالوا هذا شعر ماغاب عنه ابن أبي قحافة .

قال ابن سيرين : انتدب لهجو رسول الله ﷺ من المشركين أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن الزبعرى . وعمرو بن العاص ، وضرار بن الخطاب . وانتدب لهجو المشركين ثلاثة من الأنصار، حسان ابن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . فكان حسان وكعب يعارضانهم مثل قولهم في الوقائع

والأيام والمآثر ويذكرون مثالبهم . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر وبعبادة مالا يسمع ولا ينفع ، فكان قوله أهون القول عليهم . وكان قول حسان وكعب أشد القول عليهم . فلما أسلموا وفقهوا ، كان قول عبدالله أشد القول عليهم . ووهب له النبي صلى الله عليه وسلم جاريته « سيرين أخت مارية القبطية » وعاش حسان ١٢٠ سنة : ستين في الجاهلية وستين في الإسلام ؛ وقيل إنه توفى قبل الأربعين في خلافة علىّ رضى الله عنه .

(٢) وأما عبد الله بن رواحة ، فهو خزرجى أنصارى أيضاً من بنى عبد الحارث يكنى أبا محمد ، وكان ممن شهد العقبة ، وكان نقيب بنى الحارث بن الخزرج ، شهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية وخيبر وعمرة القضاء والمشاهد كلها مع رسول الله ، إلا الفتح وما بعده لأنه كان قد قتل قبله ، وهو أحد الأمراء في غزوة مؤتة ، وكان من الشعراء الذين يناضلون عن رسول الله . ومن شعره في النبي ﷺ :

إنى تفرّست فيك الخير أعرفُه ... والله يعلم ما إن خاننى البصر
أنت النبىّ ومن يُحرَم شفاعتَهُ ... يوم الحساب فقد أزرى به القدر
فثبّت الله ما آتاك من حَسَن ... تثبيت موسى ونصراً كالذى نُصروا

فقال رسول الله : وأنت فثبتك الله ياابن رواحة ، فقتل شهيداً في غزوة مؤتة كما تقدم .

(٣) وكان كعب بن مالك أنصاريًّا من الخزرج ، شهد العقبة . ولبس يوم أحد لأمة وكانت صفراء ، وجرح أحد عشر جرحاً ، وكان من شعراء رسول الله وكان يخوف المشركين . قال ابن سيرين . بلغنى أن دوساً أسلمت فرقا ، أى خوفاً من قول كعب بن مالك :

قضينا من تِهامة كل وِتر ... وخيبر ثم أغمدنا السيوفا
تخبّرنا ولو نطقت لقالت ... قواطعهنّ دوساً أو ثقيفا

فقالت دوس ، انطلقوا فخذوا لأنفسكم ، لا ينزل بكم مانزل بثقيف .

هؤلاء الشعراء الثلاثة ، هم الذين كانوا يناضلون عن رسول الله بشعرهم ، ويهجون قريشاً ويعيبون عليهم عبادة الأصنام ، ويفخرون بانتصار المؤمنين وهم من الأنصار . أما المهاجرون فلم يكن فيهم شعراء كالأنصار يهجون قريشاً . وغالب الظن أن سبب ذلك هو أنهم تحاشوا هجاء مشركى قريش لما كان بينهم من الروابط العديدة ، فكانوا يحاربونهم ولا يهجونهم بالشعر .

مؤذنوه ﷺ

هم بلال وابن أم مكتوم بالمدينة ، وسعد القرظ (ذكره الحلبى في السيرة ولم يذكره ابن الأثير في أسد الغابة)

وأبو محذورة رضي الله عنه بمكة ، واتفق الزبير وعمه مصعب وابن إسحاق والمنبجي أن اسم أبي محذورة « أوس » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يحكي الأذان فأعجبه صوته فأمر أن يؤتى به ، فأسلم يومئذ وأمره بالأذان بمكة منصرفه من حنين فلم يزل يؤذن فيها ، وكان أبو محذورة من أحسن الناس صوتاً ، توفي بمكة سنة ٥٩ هـ .

أما بلال بن رباح ، فهو مولى أبي بكر الصديق ، كان مؤذناً لرسول الله وكان من السابقين إلى الإسلام والمعذبين في الله ، تقدم ذكره ، كان يؤذن لرسول الله في حياته سفراً وحضراً ، وهو أول من أذن في الإسلام وأذن لأبي بكر ولعمر بن الخطاب لما دخل الشام مرة واحدة ، فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم ، ولما كان بلال بالشام ، رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وهو يقول : « ما هذه الجفوة يا بلال . ما آن لك أن تزورنا » فانتبه حزيناً ، فركب إلى المدينة فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وجعل يبكي عنده ويتمرغ عليه ، فأقبل الحسن والحسين ، فجعل يقبلهما ويضمهما . فقالا له أتشتهي أن تؤذن في السحر ؟ فعلا سطح المسجد ، فلما قال : الله أكبر الله أكبر ، ارتجت المدينة ، فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، زادت رجتها . فلما قال : أشهد أن محمداً رسول الله ، خرج النساء من خدورهن ، فما رئي يوم أكثر باكيا وباكية من ذلك اليوم . وتوفي بلال بدمشق ودفن بباب الصغير سنة ٢٠ وهو ابن بضع وستين سنة . وقيل مات بحلب ودفن على باب الأربعين ولم يعقب ، وكان آدم ، شديد الأدمة ، نحيفاً ، طويلاً ، أحنى خفيف العارضين .. وروى أن بلالاً قال آخر الأذان : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

خدمه ﷺ

أشهر خدمه ﷺ من الرجال ، أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه ، كان من أخص خدامه ، خدمه من حين قدم المدينة إلى وفاته ﷺ عشر سنين . خدمه في السفر والحضر ، توفي بعد أن جاوز المائة ، وعبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ، كان صاحب سواكه ونعله إذا قام ألبسه إياها وإذا جلس جعلهما في ذراعيه حتى يقوم ، وكان يمشي بالعصا أمامه حتى يدخل الحجرة . ومعيقيب الرومي ، كان صاحب خاتمه ، وعقبة بن عامر الجهني ، كان صاحب بغلته ، يقودها في الأسفار وكان عالماً بكتاب الله وبالفرائض ، فصيحاً شاعراً وهو من الأنصار ، ولي مصر لمعاوية وتوفي بها . وأسقع بن شريك ، صاحب راحلته ، وبلال مؤذنه كان على نفقاته . ومن النساء أمة الله بنت رزينة ، وخولة جدة حفص بن سعيد ، ومارية أم الرباب ، ومارية جدة المثنى بن صالح بن مهران ، قالت مارية : ما مسست شيئاً قط ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

خيله وبغاله وإبله

كان له ﷺ سبعة أفراس وكان له ست بغال وكان له من الحمر اثنان، وكان له من الإبل المعدة للركوب ثلاثة .

فأما أفراسه ، ففرس يقال له (السَّكْب) شبه بسكب الماء وانصبابه ، لشدة جريه ، وهى أوّل فرس ملكه ﷺ اشتراه من أعرابى وكان اسمه عند الأعرابى الضرس ، وكان أغر ، أى له غرة ، وهى بياض فى وجهه محجلا ، طلق اليمين ، كميتاً ، أى بين السواد والحمرة .

وفرس يقال له (المرتجز) سمىَ به لحسن صهيله ، مأخوذ من الرجز الذى هو ضرب من الشعر . وكان أبيض .

وفرس يقال له (اللحيف) أهداه له ﷺ فروة بن عمرو من أرض البلقاء بالشام .

وفرس يقال له (اللزاز) أهداه له المقوقس .

وفرس يقال له (الظَّرِف) الكريم الجيد من الخيل ، (والورد) وهو بين الكميت والأشقر . أهداه له تميم الدارى وأهداه صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب (وسَبْحَة) أى سريع الجرى وقيل : كان له فرس يسمى اليعسوب سمى به لأنه كان أجود خيله .

أما بغاله صلى الله عليه وسلم ، فبغلة شهباء يقال لها (دُلْدُل) أهداها له المقوقس . والدلدل فى الأصل ، القنفذ . وهذه أول بغلة ركبت فى الإسلام وكان صلى الله عليه وسلم يركبها فى المدينة وفى الأسفار وعاشت حتى ذهبت أسنانها فكان يدق لها الشعير وعميت . وقاتل عليها على كرم الله وجهه الخوارج بعد أن ركبها عثمان رضى الله عنه ، وركبها بعد علىّ ابنه الحسن ثم الحسين ثم محمد بن الحنفية .

وبغلة يقال لها (فضة) أهداها له عمرو بن عمرو الجذامى ووهبها ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه . وبغلة أهداها له كسرى وأخرى من دومة الجندل وأخرى من عند النجاشى .

أما حمره ﷺ ، فحمار يقال له (يعفور) وكان أشهب ومات فى حجة الوداع .

أما إبله صلى الله عليه وسلم التى كان يركبها ، فناقة يقال لها (القَصْواء) وهى التى اشتراها من أبى بكر وهاجر عليها وناقة يقال لها (الجدعاء) وناقة يقال لها (العضباء) وهى التى كانت لا تسبق ويقال إنهما لم تأكل ولم تشرب بعد وفاة رسول الله حتى ماتت وقد قيل إن هذه الأسماء الثلاثة اسم لناقة واحدة .

أسماء أسلحته

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من السيوف تسعة ومن الدروع سبعة ومن القسى خمسة ومن الأتراس ثلاثة ومن الرماح اثنان ومن الحراب خمسة ومن الخوذ اثنتان .

السيوف

(١) مأثور ، ورثه عن أبيه وقدم به المدينة (٢) العضب أى القاطع ، أرسل به إليه سعد بن عبادة رضى الله عنه عند توجهه صلى الله عليه وسلم إلى بدر (٣) ذو الفقار ، كان فى وسطه مثل فقرات الظهر ، غنمه يوم بدر ، كان للعاص بن وائل . وكان لا يفارقه صلى الله عليه وسلم فى حرب من الحروب (٤) الصَّمصامة وهو سيف عمرو بن معد يكرب ، أهداه النبى صلى الله عليه وسلم لخالد بن سعيد بن العاص حيث استعمله صلى الله عليه وسلم على اليمن (٥) القَلَعى نسبة إلى برج القلعة ، موضع بالبادية (٦) الحتف وهو الموت (٧) الرَّسُوب ، أى الذى يرسب ويستقر فى الضربة ، وهو أحد السيوف القسعة التى أهدتّها بلقيس لسليمان عليه السلام (٨) المِخْذَم ، أى القاطع . وهما كانا معلقين على صنم طى الذى يقال له الفلس (٩) القضيب ، من قضب الشىء : قطعه .

الدروع

(١) ذات الفُضول ، لطولها ، أرسل بها إليه ﷺ سعد بن عبادة حين سار إلى بدر . وكانت من حديد . وهى التى رهنها صلى الله عليه وسلم عند أبى الشحم اليهودى على ثلاثين صاعاً من الشعير ، وكان الدين إلى سنة (٢) ذات الوِشَاح (٣) ذات الحواشى (٤) السغدية ، والسغد موضع يصنع به الدروع ويقال اسمها السعدية (٥) الفضة وهى من دروع بنى قينقاع (٦) البتراء ، قيل لها ذلك لقصرها (٧) الخِرْنق ، قيل لها ذلك لنعومتها .

القِسِىّ

(١) قوس يقال لها « البيضاء » من شوحط وهو من شجر الجبال ، يتخذ منه القسى ، وهو من سلاح بنى قينقاع (٢) الروحاء (٣) الصفراء ، من نبع ، وهو شجر يتخذ منه القسى ومن أغصانه السهام كسرت يوم أحد (٤) الزوراء ، ويقال لها الكتوم لانخفاض صوتها إذا رمى عنها . قيل وهى التى اندقت سيتها يوم أحد (٥) قوس يقال لها السداد .

الأتراس

(١) ترس يقال لها « الأزلوق » . لأن السلاح يزلق عنها (٢) فُتَق (٣) تمثال عقاب أو كبش . فكرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أذهبه الله عز وجل ، وقيل وضع يده الشريفة عليه فذهب .

الرماح

(١) المُثنَى (٢) المُثوِى ، من الثوى وهو الإقامة ؛ لأن المطعون به يقيم موضعه ولا ينتقل .

الحراب

(١) حربة يقال لها «النبعة» (٢) البيضاء (٣) حربة صغيرة تشبه العكاز يقال لها « العنزة » ، قيل جاء بها الزبير رضى الله عنه من أرض الحبشة أعطاها له النجاشى وقاتل بها بين يدى النجاشى عدواً للنجاشى وظهر النجاشى على ذلك العدو،شهد بها الزبير بدراً وأحداً وخيبر ثم أخذها منه النبى صلى الله عليه وسلم منصرفه من خيبر فكانت تحمل بين يديه يوم العيد ، يحملها بلال رضى الله عنه فتركز بين يديه ﷺ ويصلى إليها وكذا كان يصلى إليها فى أسفاره ويمشى بها وهى فى يده (٤) المهر (٥) النمر .

الخوذ

الخوذ جمع خوذة وهى ما يحمل على الرأس من الزرد مثل القلنسوة . نخوذة يقال لها « الموشح » وخوذة يقال لها « السبوغ » أوذات السبوغ .

تأديب الله تعالى

لرسول الله صلى الله عليه وسلم

قال صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وقد جاء فى القرآن الكريم آيات فيها تأديب للنبى ﷺ . فكان عليه الصلاة والسلام يعيها ويعمل بها ويتجنب النواهى ويتبع الأوامر . وهو وإن كان معصوماً إلا أن الله سبحانه وتعالى كان يحفظه ويعظه ويأمره وينهاه ويعاتبه ويرشده إلى الصراط المستقيم ويبصره بكل شىء. فهذه العناية من الله تعالى بتهذيبه صلى الله عليه وسلم وإرشاده ، وتمسك الرسول بطاعة الله تعالى باتباع أوامره واجتناب نواهيه بكل دقة ، جعلته سيد الخلق وأعظم قدوة للناس أجمعين . وقد أثنى عليه الله تعالى فقال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وهذا ثناء ليس بعده ثناء فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » فكان هو ممثلا لهذه المكارم ولا شك أنه وصل إلى هذه المرتبة العظيمة بتأديب الله تعالى .

إن الله سبحانه وتعالى علم رسوله عليه السلام كيفية الدعوة إلى سبيل الله وهداية الخلق وكيف يعدل بين الناس ومشاورة أصحابه وعلمه أن يصبر على أذى الناس ويصفح عن المسىء ويجازى المحسن وكيف يخاطبهم ويجادلهم الخ وهذه التعاليم مذكورة فى القرآن فى عدة مواطن عند المناسبات . ولم يكتم رسول الله شيئاً من هذه الأوامر والنواهى ، فكان أميناً على إثبات كل ما نزل به الوحى .

وقد رأيت أن أذكر الآيات التى أدب الله تعالى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتدبرها المسلمون ، إذ منها ماهو خاص بالرسول ومنها ماهو عام لجميع المؤمنين .

الشورى

أمر الله تعالى رسول الله بمشاورة أصحابه ، فقال فى سورة آل عمران ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ . فالشريعة الإسلامية أول شريعة أمرت بالشورى وقد كان الملوك قبل ذلك يستبدون برعاياهم ولا يرون الشورى واجبة عليهم . وقد أمر الرسول بمشاورة أصحابه وإن كان ليس فى حاجة إليهم ، ليقتدى به غيره فى المشاورة وتصير سنة فى أمته .

اليتيم والسائل

قال تعالى فى سورة الضحى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

أى لا تعبس وجهك إلى اليتيم وعامله بمثل ما عاملتُك به . وروى أنها نزلت حين صاح النبى صلى الله عليه وسلم على ولد خديجة ، وقوله فلا تنهر أى فلا تزجر ، والمراد مطلق السائل .

ولقد عاتب الله رسوله فى القرآن فى شأن الفقراء فى ثلاثة مواضع :

(أحدها) أنه كان جالساً فجاءه عثمان بعِذْق من تمر — أى بشماريخ من تمر — فوضعه بين يديه . فأراد أن يأكل ، فوقف سائل بالباب ، فقال : رحم الله عبداً يرحمنا . فأمر بدفعه إلى السائل . فكره عثمان ذلك إذ أراد أن يأكله النبى صلى الله عليه وسلم فخرج واشتراه من السائل ثم رجع السائل ففعل مثل ذلك ثلاث مرات ، وكان يعطيه النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى أن قال له صلى الله عليه وسلم : أسائل أنت أم بائع ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ .

(والثانى) أنه كان جالسا وحوله صناديد قريش ، إذ جاء ابن أم مكتوم ، الضرير . فتخطى رقاب القوم حتى جلس بين يديه ، وقال : علمنى مما علمك الله ، فشق ذلك عليه ﷺ ، فعبس وتولى .

(والثالث) حين قالت له قريش ، لو جعلت لنا مجلساً وللفقراء مجلساً آخر . فهمّ أن يفعل ذلك . فنزل قوله تعالى ، واصبر نفسك مع الذين يدعون . . . الآية .

الصبر والعبادة

قال تعالى فى سورة الإنسان : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُوراً . وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ .

أمر الله رسوله بالصبر فى كل ما حكم به وتحمل المشاق فى العبادات والطاعات وأداء الرسالة وألا يطيع الكفار والآثمين . والمقصود بيان أن الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد . وقال تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ .

هجر الرُّجز

قال تعالى : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ والرجز اسم للقبيح المستقذر . وهو معنى الرِّجس . فقوله : والرجز فاهجر ، كلام جامع لمكارم الأخلاق . كأنه قال له ، اهجر الجفاء والسفه وكل شيء قبيح ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز . والمراد المداومة على ذلك الهجر . وقال : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ أى ، ولا تمنن بهذه الأعمال الشاقة على ربك .

النهى عن تحريم ما أحله الله

قال الله جل شأنه فى سورة التحريم :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ينهاه الله تعالى عن تحريم ما أحله الله له مرضاة لأزواجه ﷺ . قال فى الكشاف ، روى أنه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية فى يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة . فقال لها : اكتمى علىَّ . وقد حرّمت مارية على نفسى وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدى أمر أمتى . فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين ، وقيل خلا بها فى يوم حفصة ، فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم ، فطلقها واعتزل نساءه ، ومكث تسعاً وعشرين ليلة فى بيت مارية ، وروى أن عمر قال : لو كان فى آل الخطاب خير لما طلقك ، فنزل جبريل عليه السلام ، وقال راجعها فإنها صوّامة قوّامة ، وإنها من نسائك فى الجنة . وروى أنه ما طلقها وإنما نوّه بطلاقها . وروى أنه ﷺ شرب عسلًا فى بيت زينب بنت جحش ، فتواطأت عائشة وحفصة ، فقالتا له : إنا نشم رائحة المغافير[1] وكان رسول الله يكره النفل من الطعام ، فحرّم العسل ، فمعناه لم تحرم ما أحل الله لك من ملك اليمين أو من العسل ؟ قال مسروق : حرم النبى ﷺ أم ولده ، وحلف ألا يقربها . فأنزل الله هذه الآية . فقيل له : أما الحرام فحلال ، وأما اليمين التى حلفت عليها فقد فرض الله لكم تحلة أيمانكم . قال الشعبى ، كان مع الحرام يمين ، فعوتب فى الحرام ، وإنما يكفر اليمين . فذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ الآية . وقوله ، لم تحرم ، استفهام بمعنى الإنكار . والإنكار من الله تعالى نهى . والحلال لا يحرّم إلا بتحريم الله تعالى . والمراد من هذا التحريم هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج .

العفو والإعراض عن الجاهلين

قال تعالى فى سورة الأعراف :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ العفو لغة ، التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه . وأصله المحو والطمس وكل من استحق عقوبة فتركتها فقد عفوتَ عنه . وعفا عن ذنبه عفواً : صفح . وقوله ، خذ العفو ، قيل الفضل الذى يجىء بغير كلفة . والمعنى ، اقبل الميسور من أخلاق الناس ولا تستقص عليهم . وفى حديث ابن الزبير ، أمر الله نبيَّه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس . قال هو السهل الميَسَّر ، أى أمره أن يحتمل أخلاقهم ويقبل منها ما سهل وتيسر ولا يستقصى عليهم . ويدخل فى ذلك التساهل وعدم التشديد فى كل ما يتعلق

(١) نوع من الصمغ يسيل من شجر العرفط ، شجر العضاه ، غير أن رائحته كريهة وطعمه حلو وهو يؤكل .

بالحقوق المالية ، ويدخل فيه أيضاً التخلق مع الناس بالخلق الطيب وترك الغلظة والفظاظة . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ وأما ما لا يجوز دخول المساهلة والمسامحة فيه ، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف . وقال أيضاً : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾ وأمره الله تعالى أن يصل من قطعه ويعطى من حرمه ويعفو عمن ظلمه . وهذا مطابق لهذه الآية .

التواضع للمؤمنين

قال تعالى فى سورة الحجر :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ . وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

السبع المثانى هى فاتحة الكتاب ، وهو قول عمر وعلى وابن مسعود وأبى هريرة والحسن وأبى العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة . وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قرأ الفاتحة وقال : هى السبع المثانى — رواه أبو هريرة .

قال ابن عباس : « لا تمدنَّ عينيك » أى لا تتمن ما فضلنا به أحدا من متاع الدنيا . وروى أنه نظر إلى نعم بنى المصطلق . وقيل وافت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنضير فيها أنواع من البز أى الثياب والطيب والجواهر ، وسائر الأمتعة . فقال المسلمون ، لو كانت هذه الأموال لنا ، لتقوّينا بها ولأنفقناها فى سبيل الله تعالى . فقال الله تعالى لهم : لقد أعطيتكم سبع آيات هى خير من هذه القوافل السبع . والحاصل أن قوله : ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، نهى له عن الالتفات إلى أموالهم . وقوله : ولا تحزن عليهم ، نهى له عن الالتفات إليهم . ثم قال : واخفض جناحك للمؤمنين ، الخفض معناه فى اللغة نقيض الرفع ، وجناح الإنسان : يده . وخفض الجناح ، كناية عن اللين والرفق والتواضع . والمقصود أنه تعالى لما نهاه عن الالتفات إلى أولئك الأغنياء من الكفار ، أمره بالتواضع لفقراء المسلمين . ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ . أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ﴾ .

المجادلة بالحسنى

قال تعالى فى سورة النحل :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ، أمر الله رسوله

أن يدعو الناس بإحدى هذه الطرق الثلاث : وهى الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالطريق الأحسن .

إيتاء ذى القربى والمساكين

قال تعالى فى سورة الإسراء :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ . وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ .

أمره الله تعالى أن يؤتى أقاربه الحقوق التى وجبت لهم فى الفىء والغنيمة وأوجب عليه أيضاً ، إخراج حق المساكين وأبناء السبيل من هذين المالين . والتبذير فى اللغة ، إفساد المال وإنفاقه فى السرف إلا أنه لا سرف فى الخير .

معاملة العدو

قال تعالى فى سورة فصلت :

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ . ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ، يعنى ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق الذى هو أحسن الطرق ، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد مرة ولم تقابل سفاهتهم بالغضب ولا إضرارهم بالإيذاء والإيحاش ، استحيوا من تلك الأخلاق المذمومة وتركوا تلك الأفعال القبيحة ، ثم قال فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، يعنى إذا قابلت إساءتهم بالإحسان وأفعالهم القبيحة بالأفعال الحسنة ، تركوا أفعالهم القبيحة وانقلبوا من العداوة إلى المحبة ومن البغضاء إلى المودة .

الاقتصاد فى الإنفاق

الاقتصاد وسط بين التقتير والتبذير وكل فضيلة وسط بين رذيلتين ، قال الشاعر :

خير الأمور الوسط حب التناهى غلط

وقد ذم الله تعالى المقترين والبخلاء ، وذم المبذرين . والناس إما مقترون أو مبذرون ، وقليل منهم المقتصدون وترى البخيل يعلل ويبرر تقتيره ويزعم أن الحكمة تقضى بالتقتير وادخار الأموال لإنفاقها فى وقت العسر ويبقى هكذا مقتراً طول حياته ويخشى أن ينفق حتى فى أوقات العسر والشدة . كذلك يعلل المبذر تبذيره

ويبرره فينفق أمواله فى المحرمات والكماليات حتى يأتى عليها ويصبح فقيراً لا يجد قوت يومه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِين ﴾ وقال فى حق الذين يكنزون المال : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفضةَ ولَا يُنفقونَها فِى سبيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيها فِى نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِباهُهُم وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورهم . هذا ما كَنَزْتُمْ لأنفُسِكُم فَذُوقوا ما كُنتُم تَكْنِزُون ﴾ والسرف وإن كان ممقوتا مذموماً إلا أنه لا سرف فى الخير .

وقد أمرنا الله تعالى بمراعاة الاقتصاد فى النفقة فإن ذلك سبيل السعادة ، قال تعالى فى سورة الإسراء : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسوراً . إِنَّ ربَّكَ يَبْسُطُ الرِّزقَ لمن يَشاءُ وَيَقْدِرُ . إنه كانَ بِعبادِهِ خَبيراً بصيراً ﴾ وقد شرح الله تعالى وصف عباده المؤمنين فى الإنفاق فى سورة الفرقان فقال : ﴿ والذين إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولم يَقْتُرُوا وكَانَ بينَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ ، فهاهنا أمر رسوله بمثل ذلك الوصف فقال : ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، أى لا تمسك عن الإنفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك فى وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات . والمعنى : لا تجعل يدك فى انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط ولا تبسطها كل البسط ، أى ولا تتوسع فى الإنفاق توسعة مفرطة بحيث لا يبقى فى يدك شىء . ثم قال تعالى : فتقعد ملوماً محسوراً - أى يلوم نفسه ، وأصحابه أيضا يلومونه على تضييع المال بالكلية وإبقاء الأهل والولد فى الضر والمحنة .

هذا مثل من الأمثلة العديدة لتأديب الله تعالى لرسوله ﷺ وقد ذكرنا الآيات التى وردت فى هذا الصدد مع تفسيرها تفسيراً مجملا ليتعظ بها المسلمون وليعلموا عناية الله برسوله عليه الصلاة والسلام .

منزلة رسول الله ﷺ

فى القرآن

ذكرنا فيما تقدم ما كان من تأديب الله تعالى لرسول الله ﷺ تارة بالأمر وتارة بالنهى أو العتاب وقد وردت الآيات القرآنية بذلك . ونحن هنا نثبت منزلة الرسول فى القرآن الكريم .

طاعة الله وطاعة الرسول

جعل الله سبحانه وتعالى طاعته مقرونة بطاعة رسول الله . وهذا تشريف له عليه الصلاة والسلام قال تعالى : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ وقال ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ . فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وقال : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ . وقال ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فطاعة الله هى طاعة الرسول . وقال تعالى ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أى من أطاع الرسول لكونه رسولا مبلغاً إلى الخلق أحكام الله ، فهو فى الحقيقة ما أطاع إلا الله .

الثناء على أخلاقه

قال تعالى يثنى على أخلاقه صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وليس بعد ذلك ثناء فإن حسن الخلق أعظم ما يتحلى به الإنسان . فكان رسول الله هو المثل الأعلى وقدوة الخلق فى محاسن الأخلاق التى لا يعد لها شىء . وقال رسول الله « بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق » وقال تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ فكان رسول الله لين الجانب ، حسن الأخلاق ، جميل السجايا بعيداً عن الغلظة ، يعدل بين الناس ولا يظلم أحداً وبذلك اجتذب إليه المؤمنين . ولو كان فظا لنفروا منه ونبذوه وانفضوا من حوله .

بعثة الرسول إحسان إلى كل العالمين

قال تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قوله تعالى من أنفسهم أى من أهل

بلدهم ومن أقاربهم . وقد مَنّ الله عليهم ببعثة الرسول ، أى أنعم عليهم وأحسن إليهم بذلك . وهذا الإحسان عام فى حق العالمين لأنه مبعوث إلى كل العالمين كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ إلا أنه لم ينتفع بهذا الإنعام إلا من أسلم . فلهذا خص تعالى هذه المنة بالمؤمنين .

الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾
الصلاة : الدعاء . يقال فى اللغة صلى عليه ، أى دعا له . وهذا المعنى غير معقول فى حق الله تعالى فإنه لايدعو له . لأن الدعاء للغير طلب نعمة من ثالث . لكن صلاة الله على رسوله ، رحمته وحسن ثنائه عليه . والصلاة من الملائكة : دعاء واستغفار ، ومن الله رحمة وفيه تعظيم النبى ﷺ

وقد سئل النبى عليه السلام : كيف نصلى عليك يارسول الله ؟ فقال : قولوا : « اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد . كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . إنك حميد مجيد » .

التأدب فى حضرة الرسول

قال تعالى يعلّم المؤمنين أن يتأدبوا فى حضرة رسول الله لعظم شأنه وعلو مرتبته ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ . وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .

نهى الله تعالى المؤمنين أن يرفعوا أصواتهم فى حضرة رسول الله فوق صوته ﷺ ، لأن من يرفع صوته عند غيره ، يجعل لنفسه اعتباراً زائداً وعظمة ، وقد يكون المراد المنع من كثرة الكلام عنده لأن ذلك لا يليق فى مجلس الرسول لعظم قدره ، والمنع من رفع الصوت لا يكون إلا للاحترام وإظهار الاحتشام ومراعاة الأدب ، وقوله أن تحبط أعمالكم ، أى تبطل أو تفسد ، وهذا إنذار لمن يرفع صوته .

وقال تعالى يثنى على الذين يلتزمون الأدب ويغضون أصواتهم إجلالاً واحتراماً لرسول الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ يقال غض صوته أى خفضه ولم يرفعه .

تحكيم رسول الله

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ شجر أى اختلف واختلط ، والحرج : الضيق . وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم رسول الله ، لا يكون مؤمناً .

عاقبة مشاقة رسول الله

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ .

فمشاقة الرسول موجبة لهذا الوعيد . ودلت هذه الآية على وجوب عصمة محمد صلى عليه وسلم عن جميع الذنوب . فلو صدر الذنب عن الرسول ، لوجبت مشاقته لكن مشاقته صلى الله عليه وسلم محرمة بهذه الآية . فوجب أن لا يصدر الذنب عنه ودلت أيضاً على أنه يجب الاقتداء بالرسول فى أفعاله . إذ لو كان فعل الأمة غير فعله ﷺ ، لزم كون كل واحد منهما فى شق آخر من العمل فتحصل المشاقة لكن المشاقة محرمة ، فيلزم وجوب الاقتداء به فى أفعاله .

هذا بعض ماورد فى القرآن الكريم خاصًا بمنزلة رسول الله وعظيم قدره ورفعة شأنه . فقد أمر الله أن يطيعه المؤمنون ، وقرن طاعته تعالى بطاعته ونهى عن عصيانه وأنذر من عصاه بنار جهنم لأن عصيانه من عصيان الله جل شأنه . ونهى عن مشاقته لأنه معصوم عن الذنوب . ومن كان معصوما ، حرمت مشاقته . وأمر المؤمنين بالتزام الأدب فى حضرته صلى الله عليه وسلم ونهى أن ترفع الأصوات فى مجلسه فإنه ليس كأحدهم ، فلايليق أن يرفعوا أصواتهم وأن يكثروا من الكلام أمامه . وإذا كانت مراعاة الأدب واجبة أمام الملوك والحكام فهى أوجب أمام الرسول لأنه سيد الخلق وأقربهم إلى الخالق وأعظمهم خلقًا . وقد مَنَّ الله تعالى على الناس برسالته وجعلها رحمة لهم . قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ وكان رسول الله يراعى الأدب مع أصحابه وكانوا يقتبسون من جليل صفاته ويقتدون به ، وقد أمرنا الله أن نصلى عليه ﷺ فاللهم وفقنا إلى طاعتك وطاعة رسولك ، واهدنا الصراط المستقيم . إنك على كل شىء قدير وبالإجابة جدير .

الأحاديث النبوية

وتدوينها

روى البخارى ، أن عمر بن عبد العزيز هو الذى أمر بتدوين الحديث . قال إن عمر بن عبدالعزيز كتب إلى أبى بكر بن حزم الأنصارى المدنى : « انظر إلى ما كان من حديث رسول الله فا كتبه . فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء . ولا يقبل إلا حديث رسول الله ولتفشوا العلم حتى يعلم من لا يعلم . فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًّا » .

وابن حزم هذا ، ولاه عمر بن العزيز إمرة المدينة وتوفى سنة ١٢٠ هـ فجمع شيئاً من الآثار النبوية . ثم تتابع العلماء فى التدوين والتصنيف . وتفرد بالكوفة أبو بكر بن أبى شيبة بتكثير الأبواب وجودة الترتيب وحسن التأليف . ولكن هذه الآثار لما كانت فى مبدأ الأمر تؤخذ من الأفواه ، كان المصنف إذا روى له أحد حديثاً ، طالبه بإسناده وعمن أخذه فيذكر له سنده حتى ينتهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم إن كان من كلامه ، أو إلى الصحابى أو إلى التابعى إن كان من كلامهما . وكان قد تسرب إلى تلك الآثار أشياء من الوضع فاحتاج المصنفون إلى تدوين قانون مخصوص يتجلى به السمين من الغث ، وجعلوا ذلك القانون على أعمدة (العمود الأول) فى فن التاريخ ليعلم منه تاريخ الراوى ووفاته حتى إذا قال حدثنى فلان ولم يكن مدركاً لزمنه ، علموا أنه كاذب عليه . ولهذا قال الإمام أحمد ، لما استعمل الرواة الكذب ، استعملنا لهم التاريخ .

(والعمود الثانى) فن الجرح والتعديل . كقولهم فلان « ثقة » فلان « وضاع » (العمود الثالث) النظر فى كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة وتفاوت رتبها . وما للعلماء فى ذلك من خلاف بالقبول والرد . ثم أتبعوا ذلك بكلام فى ألفاظ تقع فى متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق منها أو مختلف وما يناسب ذلك أيضا بالناسخ والمنسوخ من الحديث . وهو من أهم علومه وأصعبها . وقد دوّن علماء الحديث كتباً فى مصطلحه . فمنهم القاضى أبو محمد الرامهرمزى . فإنه ألف كتابه المحدث الفاضل . والحاكم أبو عبد الله النيسابورى ، ثم تلاه أبو نعيم الأصفهانى ، ثم جاء بعدهم الخطيب البغدادى ، صاحب تاريخ بغداد ، وألف فى قواعد الرواية كتاباً سماه « الكفاية » ، وفى آدابها كتاباً سماه « الجامع لآداب الشيخ والسامع » . وقل فن من فنون الحديث إلا وقد صنف فيه كتاباً حتى إن كل من أنصف يعلم أن المحدثين بعد الخطيب عيال على كتبه ، ثم جاء من تأخر عن الخطيب ممن أخذ نصيباً من هذا الفن فألف فيه . فجمع القاضى عياض كتاباً لطيفاً سماه « الإلماع » وجمع أبو حفص الميانجى جزءاً سماه . « مالا يسع المحدث جهله » ثم كثرت المصنفات فى ذلك إلى أن جاء الفقيه

الحافظ للسنة ، عبد الرحمن الشهرزورى المعروف بابن الصلاح نزيل دمشق ، فجمع لما ولى تدريس الحديث بالمدرسة الأشرقية ، كتابه المشهور فى مصطلح الحديث ، فهذّب فنونه وأملاه شيئاً بعد شىء ، ثم تلاه محيى الدين النووى والحافظان : العراقى وابن حجر .

ثم إنه من المعلوم ، أنهم قسموا السنن المضافة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا أو تقريراً أو صفة إلى ثلاثة أقسام (١) الصحيح (٢) الحسن (٣) الضعيف . وقسموا كلا منها أقساماً .
فالأول الصحيح وهو ما اتصل سنده بالرجال العدول ، الضابطين من غير شذوذ ولا علة . فالعدل : هو من له ملكة تحمله على ملازمة التقوى والمروءة . والضابط : من يثبت ما سمعه فى صدره بحيث يتمكن من استحضاره متى شاء . ومن يضبط كتابه أى يصونه عنده منذ سمع فيه وصححه إلى أن يؤدى منه ، وقوله من غير شذوذ معناه أن لا يشذ الراوى فيخالف فى روايته من هو أرجح منه . وأن يكون خالياً من علة فادحة فيه كإرسال المرفوع ورفع المرسل . ولهذا يتفاوت الصحيح فى القوة بحسب ضبط رجاله واشتهارهم بالحفظ والورع وتحرى مخرجيه واحتياطهم . ولهذا اتفقوا على أن أصح الحديث ما اتفق على إخراجه ، البخارى[1] ومسلم[2] . ثم ما انفرد به البخارى، ثم مسلم، ثم ما كان على شرطهما ، ثم شرط البخارى ، ثم شرط مسلم ، ثم شرط غيرهما . القسم الثانى ، الحسن ، وهو ما كان رجال سنده معروفين ، مشهورين بالعدالة والضبط ، اشتهاراً دون اشتهار رجال الصحيح . والغريب ، ما استغربه أهل الحديث لمعان . فرب حديث يكون غريباً ، لا يروى إلا من وجه واحد كأن تدور روايته على واحد وإن كان الحديث مشهوراً عند أهل العلم لكثرة من روى عن ذلك الواحد . ورب حديث إنما يستغرب لزيادة تكون فى الحديث . وإنما تصح إذا كانت الزيادة ممن يعتمد على حفظه . واعلم أن قولهم هذا حديث صحيح أو ضعيف ، إنما هو بالنظر لظاهر الإسناد وليس هذا منهم على سبيل القطع . القسم الثالث الضعيف وهو ما تقاصر إسناده عن أن يصل إلى رتبة الحسن ، فعدم وصوله إلى درجة الصحيح ، من باب أولى . وللضعيف أقسام كثيرة ، منها ما له لقب خاص كالمضطرب والمقلوب والموضوع والمنكر ، ومنها ما ليس له ذلك .

---

(١) ولد البخارى سنة ١٩٤ هـ ٨١٠ م وتوفى سنة ٢٥٦ هـ ٨٧٠ م وقد اختار ٨٠٠٠ حديث فى صحيحه من ٦٠٠٠٠٠ حديث جمعها فى ست عشرة سنة .

(٢) ولد مسلم سنة ٢٠٦ هـ وتوفى سنة ٢٦١ هـ وقد جمع ٤٠٠٠ حديث بإسقاط المكرر .

مختـــــارات

من الأحاديث النبوية

(١) آية المنافق ثلاث [١] إذا حدث كذب . وإذا وعد أخلف . وإذا ائتمن خان .

(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)

(٢) أبغض الحلال إلى الله الطلاق . (عن ابن عمر . رواه أبو داود وابن ماجه)

(٣) اتقوا الله واعدلوا في أولادكم . (عن النعمان بن بشير . أخرجه الشيخان)

(٤) اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة . واتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم [٢] .

(عن جابر . أخرجه مسلم)

(٥) اجتنبوا السبع الموبقات [٣] الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف [٤] ، وقذف المحصنات الغافلات [٥] .

(عن أبي هريرة . أخرجه الشيخان)

(٦) أحب الأعمال إلى الله ، أدومها وإن قل . (عن عائشة . رواه الشيخان)

(٧) أحب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا ، إمام عادل . وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأبعدهم منه مجلساً ، إمام جائر . (عن أبي سعيد . أخرجه الترمذي)

(٨) البر [٦] حسن الخلق . والإثم ماحاك في صدرك [٧] وكرهت أن يطلع عليه الناس .

(عن النواس بن سمعان . أخرجه مسلم)

(٩) إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها . (عن سالم عن أبيه . رواه مسلم)

(١٠) إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه ، فالقاتل والمقتول في النار . قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال ، إنه كان حريصاً على قتل صاحبه . (عن أبي بكرة . رواه الشيخان)

---

(١) المنافق ، الذى يظهر غير ما فى الباطن (٢) الشح ، البخل (٣) الموبقات ، المعاصى لأنهن مهلكات (٤) التولى يوم الزحف ، أى الفرار يوم القتال فى سبيل الله (٥) قذف المحصنة ، رماها بالفاحشة . والمحصنة : العفيفة (٦) الخير والفضل (٧) ماحاك فى صدرك : أى مارسخ .

(١١) إذا أمّ أحدكم الناس ، فليخفف . فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض وذا الحاجة . وإذا صلى لنفسه فليطوّل ماشاء .
(عن أبى هريرة . رواه الشيخان)

(١٢) إذا تقاضى إليك رجلان ، فلا تقض للأول حتى تسمع كلام الآخر . فسوف تدرى كيف تقضى .
(عن على رضى الله عنه . رواه أحمد وأبو داود والترمذى)

(١٣) إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب ، فله أجران . وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر .
(عن عمرو بن العاص . متفق عليه)

(١٤) إذا رأى أحدكم جنازة ، فإن لم يكن ماشياً معها ، فليقم حتى يخلفها أو تخلفه أو توضع من قبل أن تخلفه .
(عن عامر بن ربيعة . رواه البخارى)

(١٥) إذا مات ابن آدم ، انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .
(رواه مسلم عن أبى هريرة)

(١٦) أربع مَن كنّ فيه ، كان منافقاً خالصاً ، ومَن كانت فيه خَلّة [١] منهن ، كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها : إذا حدّث كذَب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر .
(عن عبد الله بن عمر . رواه الشيخان)

(١٧) ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقول الزور .
(عن علىّ رضى الله عنه . رواه الشيخان)

(١٨) الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك .
(عن أبى هريرة . رواه الشيخان)

(١٩) الأرواح جنود مجنّدة [٢] . فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .
(عن أبى هريرة . رواه الشيخان)

(٢٠) إنا لن نستعمل على عملنا من أراده .
(عن أبى موسى . رواه الشيخان)

(٢١) انظروا إلى من هو أسفل منكم . ولا تنظروا إلى من هو فوقكم . فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم
(عن أبى هريرة . متفق عليه)

(٢٢) إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنعاً وهات . وكره لكم قيلا وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال .
(عن المغيرة بن شعبة . رواه الشيخان)

---

(١) الخلة مثل الخصلة وزناً ومعنى .

(٢) الجنود المجندة ، أى المجموعة .

(٢٣) إن الله تعالى قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله .

(عن عتبان بن مالك . رواه الشيخان)

(٢٤) إن الدعاء هو العبادة . (عن أبى هريرة . رواه الأربعة)

(٢٥) إن الدين يُسر ولن يُشادَّ الدين[1] أحد إلا غلبه . فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغَدْوة والرَّوحة وشيء من الدُّلجة[2] . (عن أبى هريرة . أخرجه البخارى)

(٢٦) إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة ، الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر سرها .

(عن أبى سعيد الخدرى . رواه مسلم)

(٢٧) إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة ، هو مَن تركه الناس اتقاء فُحْشه[3] .

(عن عائشة . رواه الشيخان)

(٢٨) إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة . فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة .

(عن أبى هريرة . رواه البخارى)

(٢٩) إن الميت ليعذب ببكاء الحى . (عن عمر . رواه الشيخان)

(٣٠) إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هجر إليه .

(عن عمر . رواه الشيخان)

(٣١) إنما الطاعة فى المعروف . (عن على رضى الله عنه . رواه الشيخان)

(٣٢) إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت .

(عن ابن مسعود . أخرجه البخارى)

(٣٣) إن من الشعر لحكمة . (عن أبى بن كعب . أخرجه البخارى)

(٣٤) المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضه بعضاً . (عن أبى موسى . رواه البخارى)

(٣٥) إنى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطوّل فيها فأسمع بكاء الصبى فأتجوّز[4] فى صلاتى كراهية أن أشقّ على أمه . (عن قتادة . رواه البخارى)

---

(١) يشاد الدين ، أى يتشدد فيه ويكلف نفسه من العبادة فوق طاقته . (٢) الدلجة : سير السحر .

(٣) الفحش : القول السيئ .

(٤) تجوز فى الصلاة : ترخص فأتى بأقل ما يكفى .

(٣٦) إياكم والحسد . فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

(عن أبى هريرة . أخرجه أبو داود . ولابن ماجه من حديث أنس مثله)

(٣٧) الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه وبرسله . وتؤمن بالبعث فى اليوم الآخر .

(عن أبى هريرة . رواه الشيخان)

(٣٨) الإيمان بضع وستون شُعبة . والحياء شُعبة من الإيمان (عن أبى هريرة . رواه البخارى)

(٣٩) بُنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان . (عن ابن عمر . رواه البخارى)

(٤٠) بئس الطعام . طعام الوليمة ، يُدعى إليه الأغنياء ، ويُترك الفقراء ، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله .

(عن أبى هريرة . رواه الشيخان)

(٤١) تجدون من شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه .

(عن أبى هريرة . أخرجه الستة)

(٤٢) تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى . ومن رآنى فى المنام ، فقد رآنى . فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى . ومن كذب علىّ معتمداً فليتبوأ مقعده من النار . (عن أبى هريرة . أخرجه البخارى)

(٤٣) تهادوا تحابوا . (عن أبى هريرة . رواه البخارى)

(٤٤) ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم . قال أبو معاوية ، ولا ينظر إليهم . ولهم عذاب أليم : شيخ زان . وملك كذاب . وعائل مستكبر . (عن أبى هريرة . أخرجه مسلم)

(٤٥) حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه . وإذا دعاك فأجبه . وإذا استنصحك فانصحه . وإذا عطس فحمد الله فشمته . وإذا مرض فعده . وإذا مات فاتبعه . (عن أبى هريرة . رواه مسلم)

(٤٦) الحياء لا يأتى إلا بخير . (عن عمران بن الحصين . رواه الشيخان)

(٤٧) الحياء من الإيمان . (عن ابن عمر . متفق عليه)

(٤٨) الخالة بمنزلة الأم . (عن البراء . رواه الشيخان)

(٤٩) خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفى بنيك . قاله لهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان .

(عن عائشة . رواه الشيخان)

(٥٠) خياركم ، أحاسنكم أخلاقاً . (عن ابن عمر . رواه الشيخان)

(٥١) دخلت امرأة النار فى هِرَّة ربطتها . فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خَشاش الأرض حتى ماتت
(خشاش الأرض : هوامها) (عن أبى هريرة . رواه الشيخان)

(٥٢) الدين النصيحة . قالوا لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .
(عن تميم الدارى . أخرجه مسلم)

(٥٣) الساعى على الأرملة والمسكين ، كالمجاهد فى سبيل الله أو القائم الليل ؛ الصائم النهار .
(عن أبى هريرة . رواه الشيخان)

(٥٤) سباب المسلم فسوق وقتاله كفر (عن ابن مسعود . رواه الشيخان)

(٥٥) السَّخِىُّ ، قريبٌ من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة، بعيد من النار . والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار . ولجاهل سخىٌّ ، أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل .
(عن أبى هريرة . أخرجه الترمذى)

(٥٦) السمع والطاعة حق مالم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة .
(عن ابن عمر . أخرجه البخارى)

(٥٧) العائد فى هبته . كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه (عن ابن عباس . متفق عليه)

(٥٨) عليكم بالصدق . فإن الصدق يهدى إلى البر . وإن البر يهدى إلى الجنة . وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقاً . وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً .
(عن ابن مسعود . متفق عليه)

(٥٩) قد أذن الله لكنّ أن تخرجن لحوائجكن (عن عائشة . رواه الشيخان)

(٦٠) كل شراب أسكر فهو حرام (عن عائشة . أخرجه الستة)

(٦١) كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته . والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها . والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته (عن ابن عمر . أخرجه الخمسة)

(٦٢) كل مسكر خمر . وكل مسكر حرام (عن ابن عمر . أخرجه مسلم)

(٦٣) كل معروف صدقة (عن جابر . أخرجه البخارى)

(٦٤) لا ترغبوا عن آبائكم . فمن رغب عن أبيه ، فهو كفر (عن أبى هريرة . رواه مسلم)

(٦٥) لا تسبوا الأموات . فإنهم قد أفضوا إلى ماقدّموا . (عن عائشة . رواه البخارى)

(٦٦) لا تمنعوا النساء المساجد إذا استأذنّكم إليها (عن عبد الله بن عمر . رواه مسلم)

(٦٧) لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة. فهو يقضى بها ويعلمها (عن عبد الله بن مسعود . أخرجه البخارى)

(٦٨) لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان (عن أبى بكرة . متفق عليه)

(٦٩) لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلّا بإحدى ثلاث : الثيّب الزانى . والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة (عن ابن مسعود . متفق عليه)

(٧٠) لا يحل لرجل مسلم أن يعطى العطية ثم يرجع فيها إلا الوالد فيما يعطى ولده

(عن ابن عمر وابن عباس . رواه أحمد والأربعة)

(٧١) لا يَخْلُوَنّ رجل بامرأة إلا مع ذى محْرَم (عن ابن عباس . رواه البخارى)

(٧٢) لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر. (عن عبد الله بن مسعود . رواه مسلم)

(٧٣) لا يدخل الجنة قتّات - أى نمّام (عن حذيفه . متفق عليه)

(٧٤) لا يرث المسلمُ الكافرَ ، ولا يرث الكافرُ المسلمَ (عن أسامة بن زيد . متفق عليه)

(٧٥) لا يرحم الله من لا يرحم الناس (عن جرير . أخرجه الشيخان والترمذى)

(٧٦) لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن . ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن (عن أبى هريرة . رواه مسلم)

(٧٧) لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . (عن أبى هريرة : أخرجه البخارى)

(٧٨) لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه مايحبُّ لنفسه (عن أنس . رواه البخارى)

(٧٩) لم يبق من النبوة إلا المبشرات . قالوا وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة

(عن أبى هريرة . رواه البخارى)

(٨٠) ليس الشديد بالصُّرَعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب (عن أبى هريرة . متفق عليه)

(٨١) ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيراً أو يقول خيراً

(عن أم كلثوم بنت عقبة . أخرجه البخارى)

(٨٢) ليسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير .

(عن أبى هريرة . متفق عليه) وفى رواية لمسلم ـ والراكب على الماشى

(٨٣) ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان . ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يُفطَن له فيُتَصدَّق عليه ولا يقوم فيسأل الناس .

(عن أبى هريرة . رواه البخارى)

(٨٤) ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية .

(عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق ، عن عبد الله . رواه مسلم والبخارى)

(٨٥) ما من أمير يلى أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة .

(عن معقل . رواه مسلم)

(٨٦) ما من عبد يسترعيه الله رَعيَّة يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرّم الله عليه الجنة .

(عن معقل . رواه مسلم)

(٨٧) ما من مولود إلا يولد على الفطرة[1] . فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه .

(عن أبى هريرة رواه البخارى)

(٨٨) المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده . والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه

(عن عبد الله بن عمر . رواه البخارى)

(٨٩) من أحب أن يُبسط له فى رزقه وأن يُنسأ فى أثره ، فَلْيَصِل رحمه

(عن أبى هريرة . أخرجه البخارى)

(٩٠) مَن بدّل دينه فاقتلوه (عن ابن عباس . رواه البخارى)

(٩١) من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه (عن أبى هريرة . رواه الترمذى)

(٩١) مَن حمل علينا السلاح فليس منا (عن ابن عمر . متفق عليه)

(٩٣) من قتل نفسه بحديدة ، فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سما فقتل نفسه ، فهو يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً . ومن تردى من جبل فقتل نفسه ، فهو يتردى فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً (عن أبى هريرة . رواه مسلم) .

(٩٤) من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى ، جاء يوم القيامة وشقه مائل .

(عن أبى هريرة . رواه أحمد والأربعة وسنده صحيح)

---

(١) الفطرة يعنى الخلقة التى فطر عليها فى الرحم من سعادة أو شقاوة .

(٩٥) من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً أو ليصمت . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه . (عن أبى هريرة . رواه مسلم)

(٩٦) من نَفَّسَ عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، نَفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن يَسَّر على مُعسر يسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة . ومن ستر مسلماً ، ستره الله فى الدنيا والآخرة . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه (عن أبى هريرة . أخرجه مسلم)

(٩٧) من ولّاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب عن حاجتهم وفقيرهم ، احتجب الله دون حاجته .
(عن أبى مريم الأزدى . أخرجه أبو داود والترمذى)

(٩٨) من يقل علىّ ما لم أقل ، فليتبوأ مقعده من النار (عن سلمة بن الأكوع . رواه البخارى)

(٩٩) المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، خير من الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم
(عن ابن عمر . أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن)

(١٠٠) والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره ، خير له من أن يأتى رجلا فيسأله ، أعطاه أو منعه . (عن أبى هريرة . رواه البخارى)

(١٠١) يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة[1] فليتزوّج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[2] . (عن عبد الله بن مسعود . متفق عليه)

---

(١) الباءة ، النكاح (٢) الوجاء : الخصاء . أراد أن الصوم يقطع شهوة النكاح كما يقطعها الوجاء .

جـــدول

بتواريخ الحوادث المشهورة

فى السيرة النبوية

السنة الميلادية	
٥٤٥	ميلاد عبد الله والد رسول الله
٥٧٠	حادثة الفيل
« - ٢٠ أغسطس	مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، فجر الاثنين من شهر ربيع الأول
٥٧٣	ميلاد أبى بكر الصديق
٥٧٥ - ٥٧٦	وفاة آمنة ، أم النبى صلى الله عليه وسلم
٥٧٨	وفاة جده عبدالمطلب
٥٨١	ميلاد عمر بن الخطاب
٥٨٢	رحلة النبي الأولى إلى الشام مع عمه أبى طالب
٥٨٠ - ٥٩٠	حرب الفجار
٥٩٥	الرحلة الثانية إلى الشام فى تجارة لخديجة
»	زواجه بخديجة
٦٠٠ - ٦٠١	ميلاد علىّ بن أبى طالب
٦٠٥	تجديد بناء الكعبة
٦١٠	بدء الوحى
٦١٣ - ٦١٤	ميلاد عائشة
٦١٥	الهجرة الأولى إلى الحبشة « شهر رجب سنة خمس من النبوة »
٦١٧	مقاطعة قريش لبنى هاشم وبنى المطلب
٦٢٠	وفاة أبى طالب ووفاة خديجة

السنة الميلادية	
٦٢٠	سفره إلى الطائف
٦٢١	الإسراء والمعراج « قبل الهجرة بسنة ـ ليلة الاثنين ٢٧ رجب »
»	فريضة الصلاة
»	بيعة العقبة الأولى « سنة ١٢ من النبوة »
٦٢٢ ـ ٢٨ يونيه	هجرته إلى المدينة « ١٢ ربيع الأول ـ يوم الاثنين وهو يوم وصوله إلى المدينة »
٦٢٣	صرف القبلة إلى الكعبة
»	بعث حمزة « شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة »
»	سرية عبيدة بن الحارث « شهر شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة »
٦٢٣ يونيه	غزوة الأبواء « شهر صفر على رأس اثنى عشر شهراً من الهجرة »
٣٢٣ يوليه	غزوة بواط « شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة »
٦٢٣ اكتوبر	غزوة العشيرة « جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة »
٦٢٣ نوفبر	سرية عبد الله بن جحش « شهر رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة »
٦٢٤ يناير	غزوة بدر الكبرى « رمضان على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة »
٦٢٤ فبراير	غزوة بني قينقاع « شوال من السنة الثانية من الهجرة »
٦٢٤ ابريل	غزوة السويق « في ذي الحجة من السنة الثانية »
٦٢٤ يوليه	قتل كعب بن الأشرف « ربيع الأول من السنة الثالثة »
٦٢٤ سبتمبر	سرية زيد بن حارثة « جمادى الآخرة من السنة الثالثة »
٦٢٥ يناير	غزوة أحد « شوال سنة ثلاث »
٦٢٥	غزوة حمراء الأسد « شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً »
٦٢٥ مايو	بعث الرجيع « صفر من السنة الرابعة »
٦٢٥ مايو	سرية بئر معونة
٦٢٥ يونيه	غزوة بني النضير « ربيع الأول سنة أربع » وتحريم الخمر
٦٢٦ يوليه	غزوة دومة الجندل « ربيع الأول سنة خمس »
٦٢٦ ديسمبر	غزوة بني المصطلق « شعبان سنة خمس »

السنة الميلادية		
٦٢٧	فبراير	غزوة الخندق « شوال سنة خمس »
٦٢٧	إبريل	غزوة بنى قريظة « فى ذى القعدة سنة خمس »
٦٢٧	يونيه - يوليه	غزوة بنى لحيان « ربيع الأول سنة ست »
٦٢٧	يوليه	غزوة ذى قرد « ربيع الأول سنة ست »
٦٢٧	أغسطس	سرية الغمر « ربيع الثانى سنة ست »
٦٢٧	سبتمبر	سرية زيد بن حارثة إلى العيص « جمادى الأولى سنة ست »
٦٢٧	اكتوبر	سرية أخرى لزيد بن حارثة إلى حسمى « جمادى الآخرة سنة ست »
٦٢٧	ديسمبر	سرية عبد الله بن عتيك « رمضان سنة ست »
٦٢٨	يناير	سرية عبد الله بن رواحة « شوال سنة ست »
٦٢٨	فبراير	الحديبية « فى ذى القعدة سنة ست »
٦٢٨	مايو	إيفاد الرسل إلى الروم وفارس « سنة سبع »
٦٢٨	أغسطس	زواج رسول الله بأم حبيبة بنت أبى سفيان « جمادى الأولى سنة سبع »
٦٢٨	أغسطس	غزوة خيبر « شهر المحرم سنة سبع »
٦٢٩	فبراير	عمرة القضاء « فى ذى القعدة سنة سبع »
٦٢٩	سبتمبر	سرية مؤتة « جمادى الأولى سنة ثمان »
٦٢٩	اكتوبر	سرية ذات السلاسل « جمادى الثانية سنة ثمان »
٦٢٩	نوفبر	سرية الخبط « شهر رجب سنة ثمان »
٦٢٩	ديسمبر	سرية أبى قتادة إلى نجد « شعبان سنة ثمان »
٦٣٠	يناير	فتح مكة وهدم الأصنام « رمضان سنة ثمان »
٦٣٠	فبراير	غزوة حنين « ١٠ شوال سنة ثمان »
٦٣٠	فبراير	غزوة الطائف « شوال سنة ثمان »
٦٣٠	إبريل	مولد إبراهيم « فى ذى الحجة سنة ثمان »
٦٣٠	إبريل	سرية عيينة بن حصن الفزارى إلى تميم « المحرم سنة تسع »
٦٣٠	يوليه	سرية علقمة بن مجزز المدلجى إلى الحبشة « ربيع الآخر سنة تسع »
٦٣٠	يوليه	سرية على بن أبى طالب إلى الفلس · صنم طيئ « ربيع الآخر سنة تسع »

السنة الميلادية		
٦٣٠	اكتوبر	غزوة تبوك « رجب سنة تسع »
٦٣١	مارس	حجة أبى بكر الصديق « فى ذى الحجة سنة تسع »
٦٣١	يونيه	سرية خالد بن الوليد إلى بنى الحارث بن كعب بنجران « ربيع الأول سنة عشر »
٦٣١	يونيه	وفاة إبراهيم ابن رسول الله « ربيع الأول سنة عشر »
٦٣١	ديسمبر	بعث على رضى الله عنه إلى اليمن « رمضان سنة عشر »
٦٣٢	مارس	حجة الوداع « فى ذى الحجة سنة عشر »
٦٣٢	مايو	استعداد جيش أسامة للسفر إلى الشام « صفر سنة إحدى عشرة »
٦٣٢	٧ يونيه	وفاة رسول الله يوم الاثنين « شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة »

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

خاتمة الكتاب

أما بعد ، فيقول العبد الفقير إلى الله جلّ شأنه ، الراجى عفوه ومثوبته (محمد رضا) :
لقد انتهيت من تأليف هذا الكتاب الذى قضيت شطراً كبيراً من حياتى فى جمعه وتصنيفه وتحقيق موضوعاته ومسائله ؛ لأقدم للعالم الإسلامى كتاباً يعتمد عليه فى السيرة النبوية الشريفة . على أنى أعترف أن الإنسان مهما تحرى الصواب ، فهو عرضة للخطأ والزلل . وحسب المؤلف أن يبذل وسعه ويفرغ جهده :

فأرجو القارئ الكريم أن يغتفر ما قد يعثر عليه من هفوات وسقطات ، قد لا يخلو منها كتاب . فوق كل ذى علم عليم . وما أوتينا من العلم إلا قليلا . وقد قيل : « من ألّف ، فقد استهدف » والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه رضاه ويهدينا سواء السبيل ويرينا الخير خيراً فنتبعه ، والشر شرًا فنجتنبه ، ويهبنا الصدق فى القول والإخلاص فى العمل ، وينفع بهذا الكتاب طلاب العلم وأن يصلح به النفوس ويهدى الأمم الإسلامية إلى الاقتداء بسيد الخلق ، والعمل بسنته ، حتى يعيدوا مجدهم ويرفعوا قدرهم . اللهم آمين ؟

محمد رضا









